

الأعمال الكاملة للشيخ المهدي البوعبدلي

1) التّعريف بالكتب والمخطوطات

2) الرّحلات

جمع وإعداد
عبد الرحمن دويب

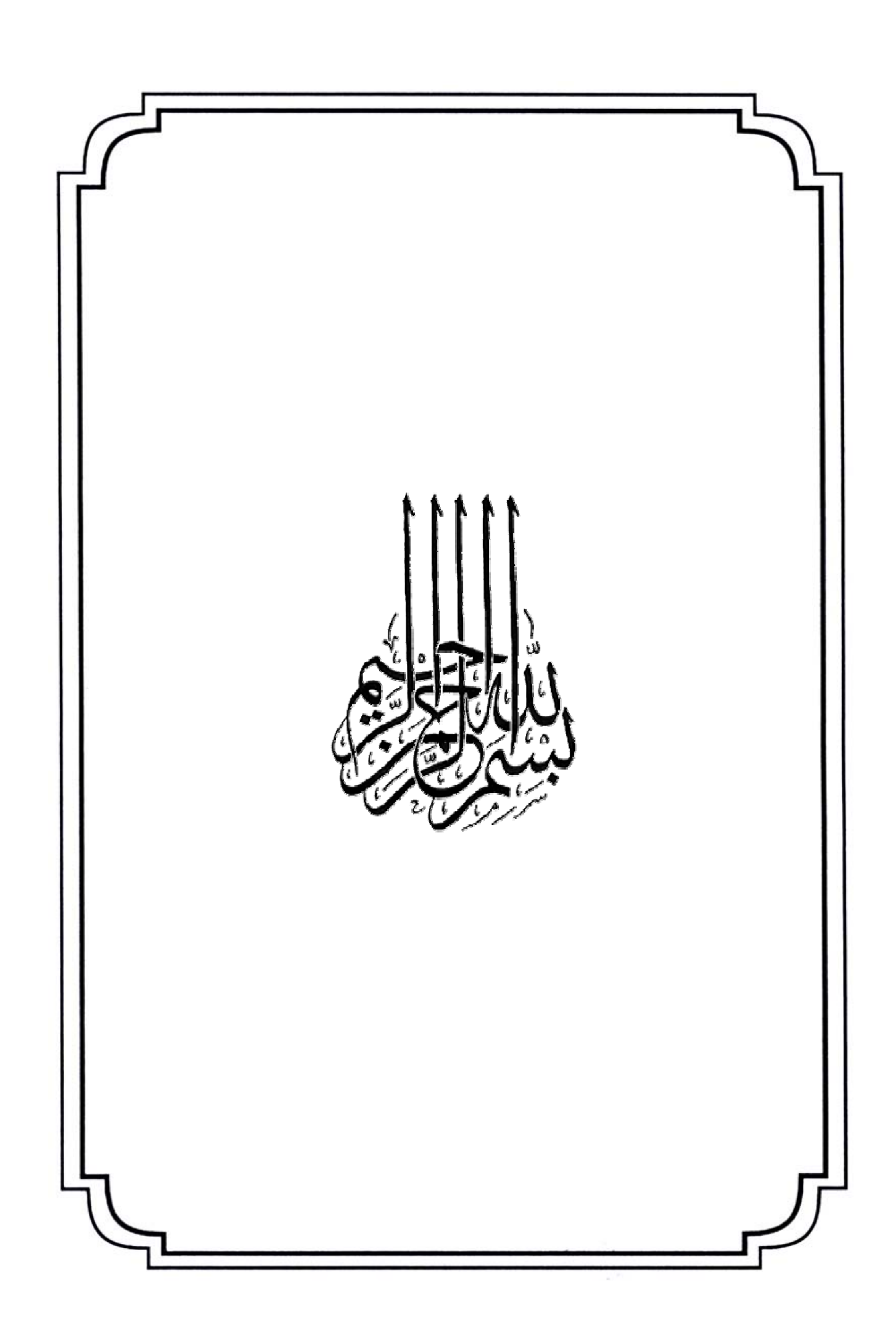
هذا الكتاب هدية من وزارة المجاهدين
بمناسبة الذكرى الخمسين لاستقلال الجزائر

1) التّعريف بالكتب والمخطوطات

2) الرّحلات

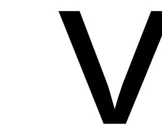
جمع وإعداد
عبد الرحمن دويب

عالم المعرفة
للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

1) التَّعريف بالكتب والمخطوطات

2) الرَّحلات



الطبعة الأولى

2013

الإيداع القانوني: 2012-4290

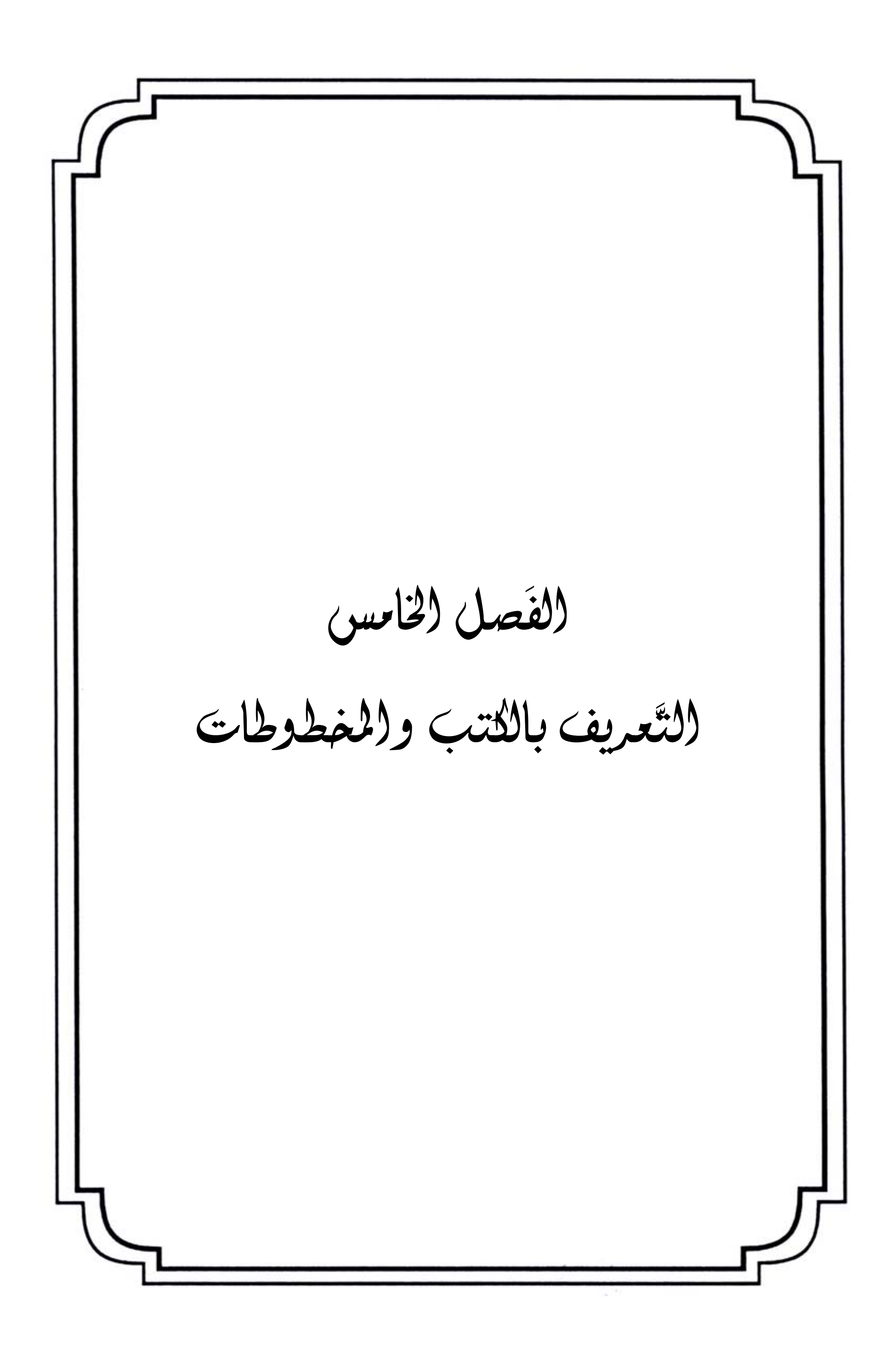
ردمك: ISBN 978-9947-912-44-7

عالم المعرفة
للنشر والتوزيع

حي باحة 02، فيلا رقم 07، تماريس المحمدية / الجزائر

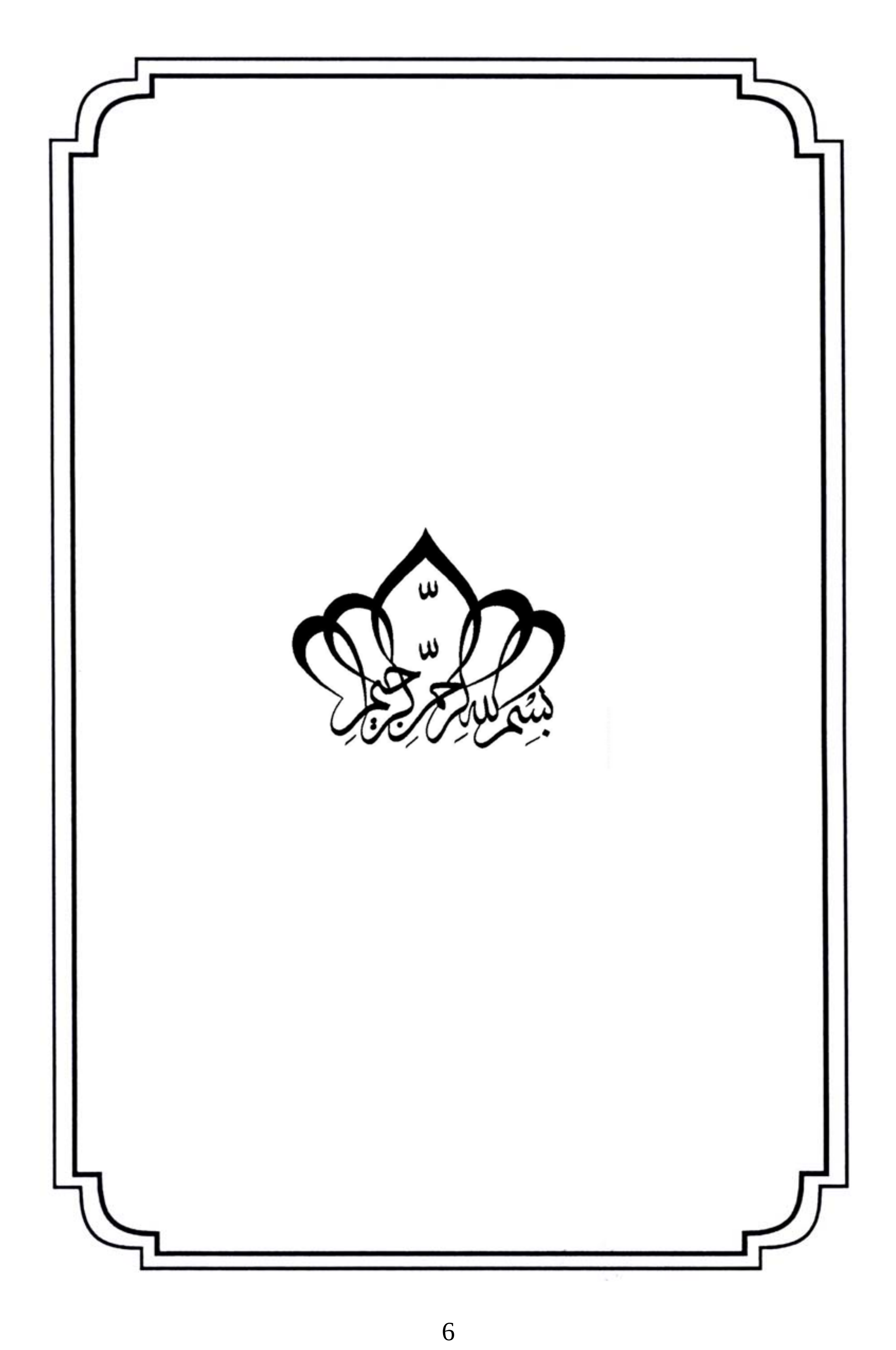
هاتف/ فاكس: 96 -92-21-021

البريد الإلكتروني: alemelmaarifa@yahoo.fr



الفَصل الخامس

التَّعريف بالكتب والمخطوطات


بسم الله الرحمن الرحيم

يحتوي هذا (**الفصل**) على (12) مقالة، ما بين دراسة، ومقدِّمة تحقيق لكتاب، ومحاضرة، وملخَّص عنها، وهذه عناوينها:

1) أضواء على (**مذكِّرات**) الأمير عبد القادر التي أشرف على تسجيلها بـ (قصر أمبواز).

2) أضواء على كتاب: (**شرح الفريد في تقييد الشَّريد وتوصيد الوبيد**).

3) مقدِّمة تحقيق كتاب: (**منشور الهداية**).

4) كتاب (**الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل**).

5) مقدِّمة تحقيق كتاب: (**سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرَّسول**)، تأليف: الشَّيخ عبد الله حشلاف.

6) دراسة كتاب: (**عيون الأخبار ونزهة الأبصار**).

7) شرح (**منفرجة**) ابن النَّحوي، المسمَّى بـ (**الأضواء المنبهِجة في إبراز دقائق المنفرِجة**)، تأليف: أبي يحي زكريا الأنصاري.

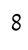
8) التَّعريف بكتاب: (**توشيح طِراز الخياطة**).

9) التعريف بكتاب: **البسيط في أخبار تمنطيط**.

10) نماذج من التُّراث الأصيل الأندلسي والجزائري.

11) مقدِّمة تحقيق كتاب: الدُّرة الأنيقة في شرح العقيقة، لأبي راس المعسكري.

12) كتاب: **جليس الزائر وأنيس السائر**.



أضواء على (مذكِّرات الأمير عبد القادر) التي أشرف على تسجيلها بـ(قَصر أمبواز)[1]

إنَّني اخترتُ سمرَنا هذه اللَّيلة كما يدلُّ عليه عنوانه: (**أضواء على مذكِّرات الأمير عبد القادر التي أشرف على تسجيلها بقصر أمبواز**).

إنَّ هذه (**المذكِّرات**) لم يُكشَف عنها إلاَّ منذ سنوات قليلة، وبالضَّبط منذ ثماني سنوات، وقبل أن أتناول الموضوع، اسمحوا لي أن أتعرَّض للحديث عن الظُّروف التي اكتشِفت فيها هذه (**المذكِّرات**)، إذ كانت قبل هذا الاكتشاف مجهولة تماما، سواء في المصادر العربيَّة ـ وأهمُّها كتاب: (**تحفة الزَّائر**) ـ أو المصادر الأجنبيَّة التي تعدُّ بالمئات.

غادر الأمير (**الجزائر**) لآخر مرَّة، بعد ما وضعت حربه مع الفرنسيِّين أوزارها، وظنَّ أنَّه يقاد إلى بلاد المشرق، وفاءً بما تعهَّد له به وليُّ عهد ملك (**فرنسا**)، الذي أبرم معه عقد الصُّلح عندما قابله بـ (مرسى الغزوات)، ولهذا فوجئ عندما ألزم بالإقامة الإجبارية في (**قصر أمبواز**)، كما سنتحدَّث عن ذلك في موضوعه من هذه الدِّراسة، وفي مدَّة اعتقاله بالقَصر المذكور، وردت عليه رسالة من أسقف فرنسي، يطلب منه الجواب عن سبعة أسئلة أو ثمانية، فأجاب الأمير عليها، وكلَّف قريبه ورفيقه في الأسر، العالم

---

(1) مجلَّة (**الأصالة**): عدد: 23، (ص: 11 ـ 22)، محرم ـ صفر 1395هـ/ جانفي ـ فيفري 1975م، وأصلها محاضرة ألقيت بـ (**المركز الثَّقافي الإسلامي**) بالعاصمة، بتاريخ: 22/ 01/ 1975م، وقفنا على أصلٍ مخطوط لها بالمركز الثقافي الإسلامي بالجزائر العاصمة، يقع في (27 ص). (ع)

الأديب الشَّيخ **مصطفى ابن التُّهامي**، أن يتولَّى تحريرَ فصولها، وهذا الجواب هو ما أطلقنا عليه اسم (**المذكِّرات**)، وقد علمنا أنَّها كانت مجهولة عند المؤرِّخين، اللَّهمَّ إلاَّ ما عُرف على سبيل الإجمال، من أنَّ الأمير عندما كان بـ (قصر أمبواز)، كان يقصده كثير من الكتَّاب والمفكِّرين والهواة، فيتبادل معهم الرَّسائل بواسطة الضُّبَّاط الذين كانوا يتداولون على حراسته، وأهمُّهم الجنرالان: (**دومان**)، و(**بواصونت**) (Boissonet)، اللَّذان حرَّرا بدورهما (**مذكِّرات**) خاصَّة، سجَّلا فيها انطباعاتهما عن إقامة الأمير بـ (**قصر أمبواز**).

اكتشف هذه (**المذكِّرات**) لأوَّل مرَّة الأستاذ هنري تيسي (Henri Teissier) أسقف مدينة (**وهران**) الحالي، واختار محتواها أطروحة قدَّمها لنيل شهادة الدُّكتوراه في الآداب العربيَّة.

اكتشف الأسقف المذكور هذه (**المذكِّرات**) عند صهره جاك شوفالي (Jacques Chevalier) شيخ مدينة (**الجزائر**) سابقا، وبعدما نال منها وطره، قدَّمها شيخ البلدية المذكور هديَّة إلى (**وزارة قدماء المجاهدين**)، وهي الآن في (**المكتبة الوطنية**).

هذا مجمَل ما يتعلَّق بهذه (**المذكِّرات**)، وبالظُّروف التي اكتشِفت فيها، وسنتعرَّض لبعض التَّفاصيل عنها في صلب الموضوع.

كان السُّؤال الموجَّه إلى **الأمير** ينحصر كما ذكرنا في سبع نقاط: الأولى السُّؤال عن نشأة الأمير وترجمة والده، ثمَّ ذهاب الأمير رفقة والده إلى الحجِّ قبل توليته بقليل، ثمَّ الظُّروف التي تولَّى فيها الحكم، وما اتَّخذه من تراتيب مدنيَّة وعسكريَّة في دولته النَّاشئة، ثمَّ الاتِّفاقات والاختلافات التي وقعت له مع قادة الجيش الفرنسي في حالتَي السِّلم والحرب، ثمَّ انطباعاته عند مقابلته لوليِّ عهد ملك فرنسا في (**مرسى الغزوات**) بعد إنهاء الحرب، ثمَّ ما هي انطباعاته عن محاسن ومساوئ الفرنسيِّين ؟ وما هي الطُّرق

التي يراها صالحة لحلِّ المشاكل لو قدِّر له، أو جعل نفسه مكان الفرنسيِّين، خصوصا فيما يتعلَّق برعاياه المسلمين الذين اختاروا الإقامة بـ (**الجزائر**)، محافظين على دينهم، ورفضوا هجرة الوطن، وأخيرا موقف ملك (**المغرب**) عبد الرَّحمن العلوي معه. اهـ.

هذه هي الأسئلة التي قال عنها كاتب (**المذكِّرات**) **مصطفى ابن التُّهامي** بعد أن نشر الرِّسالة التي اختصرناها بنصِّها قال: «فلمَّا قرأ مولانا (أيَّده الله) مكتوبَه، واستوعب معانيه كلَّها، كلَّفني (أعلى الله مقامه، وأعاد علينا وعليه عوائد برِّه بصلاح الحال والمآل) بأنْ أجمع ذلك على ما طلب كاتب المكتوب، فأجبته بالموافقة، واثقا بإعانة المالك، وسالكا صحَّة المسالك، ومرتجيا نفعا دنيويًّا، مآله الصَّلاح الدِّيني بحول الله وقوَّته » اهـ. تعليق **مصطفى ابن التُّهامي** الذي كلَّفه **الأمير عبد القادر** بتَحرير هذه الأجوبة، كما يدلُّ على ذلك ما كتب في أول ورقة مِن المخطوط بالفرنسية: « (**تاريخ الأمير عبد القادر**)، بتحرير المخطوط ونقله السَّيد الحاج **مصطفى ابن التُّهامي** كتب بعضه بخطِّ **الأمير** سنة 1849.

وهذا النَّص الأَصلي بالفرنسية:

«Histoire de L’Émir Abdelkader, Copie du manuscrit de Sidi El-Hadj Mustapha Ben Thouhami faite en partie de la main L’émir, 1849»

وقبل أن ندخل في تفاصيل موضوع (**المذكِّرات**) أي أجوبة **الأمير** على أسئلة الأسقف نرجع إلى الحديث عن مفاجأة **الأمير** بتصرفات السلطات الفرنسية، التي تعهد بها ولي عهد ملك فرنسا، كان لهذه المفاجأة أسباب في مقدمتها انقلاب الرأي العام الفرنسي إثر حادث قتل الأسرى الفرنسيِّين بـ : **واقعة سيدي إبراهيم**، التي وقعت سنة 1846 قرب مدينة مغنية ـ أي: قبل إنهاء حرب **الأمير** بسنة واحدة ـ وقد اتهم الرأي العام الفرنسي **الأمير عبد القادر** بتواطئه مع قادة جيشه، خصوصا مع قريبه

مصطفى ابن التهامي قائد المنطقة الغربية حينئذ، على قتل الأسرى، وذلك إثر الحملة المسعورة التي شنها الماريشال **بيجو**، وقد خُصِّصت هذه الواقعة بعدَّة تآليف لا يسع المقام لتتبعها، وإنما نشير إلى بعض هذه التآليف التي خصَّصها أصحابها لهذه الواقعة بعد مرور قرن عليها ـ أي: سنة 1946 ـ وحكموا فيها ببراءة الأمير من دم الأسرى، بل ذهب واحد من أصحاب هذه التّآليف ـ وهو الجنرال (**أزان**) (Azan) الفرنسي ـ فأثبت زيادة على براءة الأمير، أثبت أنَّ جلَّ المسؤولين الفرنسيِّين كانوا على علم مِن براءته، وإنَّما تعمَّدوا كتمان ذلك لتضليل الرَّأي العام الفرنسي والعالمي، حتَّى يجدوا مبرِّرا لنقض شروط الصُّلح، وإدانة الأمير لرغبة الماريشال (**بيجو**)، لخبر يطول.

ذكرنا هذه التَّوطئة، لأنَّ **الأمير** في أجوبته يظهَر عليه الحذر، حيث صاغها كلّها في قوالب لا تثير حقدَ خصومه، وركَّزها كلّها على أنَّ تصرُّفاته كانت تصرُّفات ملِكٍ بايعه قومه لينفِّذ فيهم أحكام الشَّريعة الإسلاميَّة، كما يظهر من هذه الأجوبة أنَّ الأمير كان يتحقَّق أنَّها لا تهمُّ أسقفا عاديا، بل اتَّخذت السُّلطات الأسقف واسطة لاستقصائه الخبر، حتَّى يمكنهم من تفنيد مزاعم شانئيه، من كتَّاب وصحافيِّين، الذين أيَّدوا بحملتهم وجهة نظر غلاة المعمِّرين الذين كان على رأسهم (**بيجو**) وغيره من الموتورين.

ونجد رسالة الأسقف صريحة في ذلك، حيث ختَمها بقوله: «واعلم أنَّك إذا قبِلتَ كلامي، وفعلتَ بمزيَّتي، تنفع ـ إن شاء الله ـ وتبطِل جميعَ كذب الكاذبين الذين كذبوا عليك وعلى حوادثك في القوازط ـ أي: الجرائد ـ وفي المكاتب، ويصفَى القول والقال من تكثير كذب الكذَّابين عليك، ولك الأجر التَّامُّ من الملك العلاَّم، والله يوفِّقنا للخير، بجاه أهل الخير، خامس عشر جمادى الأخيرة سنة أربع وستِّين ومائتين وألف».

بهذا الإغراء، وهذا الإلحاح، ختمَ الأسقف كتابه، وقد فقه الأمير مقصودَه، ولهذا عقَّب عليه **مصطفى ابن التُّهامي**، وختم تعقيبه بقوله: «ومرتجيا نفعا دنيويًّا مآله

الصَّلاح الدِّيني بحول الله وقوَّته».

وقد صوَّر لنا ولده في (**تحفة الزَّائر**) هذا الجوَّ المخنق، بقوله يصف حالة والده، وحالة رفاقه بـ (قصر أمبواز)، حيث قال: «وداوم الأمير في تلك المدَّة على تدريس العلم، وإفادة الطَّلبة من جماعته، ثمَّ سلك أخوه محمَّد السَّعيد، وأخوه السَّيد **مصطفى**، وخليفتُه السَّيد **مصطفى ابن التُّهامي** جادَّته، وأفادوا الطَّلبة إفادته، واجتمعوا لقراءة (البخاري) على نية تفريج كربهم ... الخ».

كما اكتشِف أثر آخر، لا يقلُّ قيمة عن (**المذكِّرات**) ـ وهو مجهول أيضا عند المؤرِّخين ـ وهذا الأثر يعزِّز (**المذكِّرات**) ويصوِّر لنا حياة المعتقَلين بـ (**قصر أمبواز**)، وأنَّهم بالفعل كانوا يتوجَّسون خيفة من سجَّانيهم، وهذا الأثر الذي اكتشِف منذ سنوات قليلة، هو (**استغاثة**) مصطفى بن التُّهامي محرِّر (**المذكِّرات**)، وهي تربو على الخمسمائة بيت، وقد مهَّد لها بقوله: «وممَّا قلتُه مع الرِّضى، والتَّسليم للقدر والقضا، متوسِّلا متضرِّعا، معترفا متبرِّعا، مفصِّلا في الوسائل تارة، ومرَّة مجمِلا، راجيا النَّفع له، ولكلِّ مَن دعا بها متبذِّلا ومؤمِّلا حصول كشف الكرب والفرج، ورفع الشدَّة عن الدَّاعي ... الخ ».

وابتدأ (**الاستغاثة**) بقوله:

لما جرى القدر بالخلاف ... ووقع الخلف بالائتلاف
ووجب الوحش بقفر اليمِّ ... والحق النقص ببدر التَّمِّ
واقتنص الصقر عدو صائد ... وللنعام في القرى وصائد
وابتعدت عن العقول حِيَلُ ... واقتعدت بالاعتراف جيلُ
لم يبق إلا الابتهال والسكن ... للقاهر المالك كل ما سكن

وبعد استغاثته بالأنبياء والصَّحابة والتَّابعين، على عادة المستغيثين، قال:

هذا الذي قدمته نجواي ... في رفع ضيمي وبلا بلواي

فـامنُن علَينـا بصـلاح الحـال   وانقــذن مــن شــدة المحــال

مولاي يـا ذا المـنِّ والأفضـال   داوي ســقام دائِنــا العُضــال

نفسي ـ مـع الرّفقـة والأفـذاذ   مــن ربقــة الأَسر إلى اللــواذ

بمنزل رحب الجنـاب والسـعة   ومســـجد جماعـــة وجمعـــة

ولم يستقل **مصطفى ابن التهامي** بهذه **(الاستغاثة)**، بل شاركه فيها رفقاؤه، وعلى رأسهم الأَمير، وإلى ذلك أشار بقوله:

يـا غـوث وقتنـا إليـك يشـكو   أميرنــــا ومعشرــــ فيبكــــوا

يا صاحب التصرف في الأمـور   وكـــافلا بشـــأنك المـــأثور

إلى جنابـــك السَّـــني أشـــفع   بأوليائـــك الله ثـــم أرفـــع

...الخ

هذا كلُّ ما يتعلَّق بمناخ الفترة التي قضاها الأمير بـ (قصر أمبواز)، وأشرف فيها على تسجيل ما سمَّيناه بـ **(المذكِّرات)**، وإنَّه لا يمكنني أن أتعرَّض في مجال هذه الدِّراسة المحدودة، للفصول السَّبعة التي انحصر فيها الجواب، فاقتصرتُ على الفصلين الأوَّلَين، وهما اللَّذان ركَّزتُ عليهما هذه الدِّراسة ـ أي: نشأة الأمير في حِجر والده، متبوعة بفصل مسهب عن الحياة الثَّقافية إذ ذاك، ثمَّ رحلته مع والده إلى الدِّيار الشَّرقيَّة ـ وهذان الفصلان، مفيدان جدًّا، إذ يشتملان على جوانب هامَّة من تاريخ حياة الأمير لا زالت مجهولة بتفاصيلها، خصوصا الحياة الثَّقافية في عهده، التي ركَّز جوابه عنها بذكر السَّند إذ ذاك، حيث كان علماء العهود الماضية، يعطونه أهمِّيَّة كبرى، لا فيما يخصُّ السَّند في علمِ الحديث فقط، بل حتَّى السَّند في بقيَّة فروع المعرفة التي تربط الحاضر بالماضي، وتوحِّد بين علماء الأقطار المختلفة جيلا بعد جيل، وتمتِّن الصِّلة بين العلماء الذين كانوا يتبادلون هذه الإِجازات والتَّآليف، تارة بتبادل الزِّيارات والاتِّصالات، وتارة أخرى بالمراسلة.

وهذا الفصل الذي خصَّصه الأمير للسَّند مجهولٌ أكثره عند العلماء المتخصِّصين لجمع هذه الأسانيد في (**فهارسهم**)، وأقصد سند علماء (الجزائر).

أمَّا رحلته إلى (**الحجاز**) صحبة والده التي أجاب عنها بتفصيل، فإنَّها أيضا مجهولة بتفاصيلها، ولو ذكرها عرضا صاحب (**تحفة الزَّائر**)، وخصَّص لها بعض السُّطور، وقال إنَّهما غابا مدَّة سنتين، زارا أثناءهما دار السَّلام (بغداد)، ولقيا المشايخ، وجدَّدا العهد القادري ... الخ.

أمَّا **الأمير** فإنَّه ذكر في جوابه النَّاحية الجغرافيَّة التي كانت تمرُّ عليها قوافل الحجَّاج برًّا، ولم يسبق لغيره ذكرها، حيث إنَّها تختلف عن الطَّريق المعهود الذي كان يمرُّ عليه المسافر، وخصوصا بين (**وهران**) و(**تونس**)، كما أفادنا أنَّ والده ذهب رفقة الوفد الرَّسمي بحرًا مِن (**وهران**) إلى (**الإسكندريَّة**) بعد اجتماعه بهم في (**تونس**)، ثمَّ تعرَّض بتفصيل للبلاد التي زارها والعلماء الذين اجتمعوا بهم في مختلف العواصم، ويؤيِّد ما قاله عن الرِّحلة إلى الحجِّ ما اكتشِف أخيرا ـ أي: بعد الاستقلال ـ وبالضَّبط عند نقل رُفات الأمير إلى (**الجزائر**)، وهي رسالة كتبها **والد الأمير** عند رجوعه من الحجِّ، ومروره على (**جزيرة قبرص**)، سنتحدَّث عنها في موضعها أيضا من هذه الدِّراسة.

ولنرجع إلى الحديث عن الأجوبة، فالجواب الأوَّل كان عن نشأة الأمير وترجمة والده، فأجاب عنها الأمير مبتدئا بذكر التَّعريف بنسب الأسرة، ممَّا هو معروف ومتَّفق عليه، ثمَّ واصل حديثه عن الأمير فقال: «نشأ (رضي الله عنه) بطرف (**غريس**)، من الجهة الغربيَّة على مرحلة من (**أمِّ عسكر**) بمستقرِّ أبيه، في قرية اختطَّها والد والده، على رأس المائة من القرن الثَّالث عشر، اشتهر اسمها بـ (**القيطنة**)، مشتقَّة من القطن، ضدَّ الظَّعن، لأنَّ أهله قاطنون ليسوا بأهل عمود، على مشارع (**وادي الحمَّام**)، وهو واد أكبر الأودية، ينسب الوادي إلى مزار قبرٍ معترض بين **الحمَّام** وبين القبلة، اسمه **محمَّد ابن الحنفية** ... الخ.

وبعد أن ذكر وفاة مؤسِّس القرية الشَّيخ **مصطفى بن المختار**، قال إنَّه ورثه ولده **محيي الدِّين** الذي كان له تلاميذ ومريدون يبلغ عددهم: (600) ستمائة فرد، تسعُهم سبعُ حلقات لدراسة العلم، ثمَّ تعرَّض لمسجد القرية فقال: إنَّه بناه بايات **(وهران)**، كما أنَّ بايا آخر، بنى رحى، وآخر بنى المسكن ... الخ».

وهنا بين قوسين ننبِّه المستمعين على أنَّ تاريخ اختطاط (القيطنة) الذي اشتهر عند الخاصِّ والعامِّ بأنَّه كان سنة 1206هـ، مصدره الوحيد فيما أظنُّ، صاحب **(تحفة الزَّائر)**، وهو خطأ وغلط يخالف الواقع، إذ نجد المؤرِّخ أبا راس النَّاصري، أوَّل مَن وصف قرية **(القيطنة)** في عهد مؤسِّسها، قال في **(رحلته)**: «وقد ذهبتُ لـ **(القيطنة)** ذات يوم أسأل في البيوت ما يأكل الطَّلبة، ووقفتُ بباب الجامع، فإذا هو نوَّالة كبيرة بمحرابها، وعن يمينه بيت الشَّيخ **المشرفي**، فرأيتُ الشيخَ **مصطفى البطيوي** يدرس في الأوَّل من **(المختصر)**، ثم رجعتُ في ساعة فرأيت الشَّيخ **مصطفى البطيوي** يدرس في الثَّاني، ولم يبال بي أحد ... الخ » اهـ.

وقد كان **المشرفي** هذا، هو الإمام **عبد القادر بن عبد الله المشرفي**، صاحب التَّأليف الذي طبع أخيرا بـ **(الجزائر)**، واسمه: **(بهجة النَّاظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الاسبانيِّين بوهران من الأعراب كبني عامر)**، وهو أستاذ جدِّ الأمير **مصطفى بن المختار** مؤسِّس قرية **(القيطنة)**، كما هو أستاذ المؤرِّخ **أبي راس**، وقد توفي المشرفي هذا، سنة 1192هـ وكان يدرِّس بالمسجد المؤسَّس بقرية **(القيطنة)**، فكيف يعقل أنَّ المسجد أسِّس سنة 1206هـ، أي بعد وفاة مَن درَّس فيه بأربع عشرة سنة، وكذلك القرية، فإنَّنا نجد أبا راس عندما زار قرية (القيطنة) ووصف مسجدها، كان ذلك قبل هجرته لطلب العلم بـ (مازونة)، وقد ذكر في **(رحلته)** أنَّه ذهب إلى **(مازونة)** بعد صومه بسنة، وإذا عرفنا أنَّ أبا راس من مواليد سنة 1165هـ ندرك أنَّ ما قدَّمه صاحب **(تحفة**

الزَّائر) مِن أنَّ القرية أسِّست سنة 1206هـ غير صحيح، وإنَّما يمكن أنَّ المسجد وقع تجديده سنة 1206هـ إذ أنَّ الباي **محمَّد بن عثمان** من تلاميذ **مصطفى بن المختار** مؤسِّس القرية المذكورة، ونفس صاحب **(المذكِّرات)** قال عن تاريخ اختطاط القرية: «اختطَّها والد والده على رأس المائة ».

ولنرجع إلى أجوبة الأمير التي واصل فيها حديثه: «وبقيَ **محيي الدِّين** إلى أن تولَّى ولده عبد القادر فمات بعد سنة من توليته »، ثمَّ تعرَّض للحياة الثَّقافية في بلاد **(غريس)** إذ ذاك، فقال: «إنَّ جدَّ الأمير **مصطفى بن المختار** أخذ عن **عبد القادر بن عبد الله المشرفي**، وهو أخذ عن المنوَّر التِّلمساني »، ثمَّ ذكر العلماء الذين أخذ عنهم أو كانوا في عهده، وذكر مختلف أسانيدهم المتَّصلة بعلماء **(الجزائر)**، و**(فاس)**، و**(تونس)**، و(الأزهر)، كلّ ذلك بتفصيل ودقَّة، لم نجدهما في غير هذه **(المذكِّرات)**، كان علماء ذلك العهد يعطون أهمِّيَّة كبرى للسَّند والإجازة، نجد في كتب التَّراجم خصوصا في بلاد المغرب العربي عندما كانت تتوتَّر العلائق بين ولاة **(الجزائر)** تارة مع ولاة **(المغرب)**، وتارة مع ولاة **(تونس)**، ويقصد علماء **(المغرب)** أو علماء **(تونس)** مكلَّفين بالسّفارة يقصدون المساجد، حيث يتَّصلون مع علماء البلاد الجزائريَّة، ويتبادلون معهم الإجازات والتَّآليف، وكذلك العكس عندما يذهب العالم الجزائري في نفس المهمَّة إلى **(المغرب)** أو إلى **(تونس)** يتَّصل بعلماء البلاد الموفَد إليها، ويتبادل معهم الإجازات والتَّآليف، والأدباء والشُّعراء منهم يمدحون بعضهم بعضا بالقصائد البليغة، لا زال المثير منها محفوظا بحمد الله، كما كان فضل هذه الاتِّصالات كثيرا ما يذلِّل العقبات، ويسهِّل على السَّفير بلوغ أمنيَّته.

ولماَّ أنهى صاحب **(المذكِّرات)** حديثه عن أسانيد العلماء الذين أخذَ عنهم جدُّ **الأمير**، عقَّب على ذلك بقوله: «هذا ما تيسَّر بحسب الوقت من طريقنا العلميَّة، ولا

يذهب الوهم بمن وقف على الأسانيد، فيعتقد أنَّنا لم نأخذ العلم إلاَّ من بعيد، بل وطننا الغريسي محطّ علم ومحل تعلُّم وتعليم، فها هو الجوزي في (**عقد الجمان**) لمَّا تكلَّم عن بعض الأجداد المذكورين في النَّسب قال: «ومنهم ... **أبو محمَّد** السَّيد **عبد القادر بن أحمد بن محمَّد**، من أبناء عبد القويّ، المعروف بـ: **ابن خدَّة** (مرضعته)، وبهذه الأوصاف حلاَّه الشَّيخ **عبد الله الونشريسي** في كتاب (**البستان في ذكر العلماء والأعيان**)، وتفقَّه عليه كثير من النَّاس، منهم: شيخنا السَّيد **عبد الرَّحمن ابن زرفة**، وسيِّدي ومولاي **علي الشَّريف** ... الخ ».

ثم استأنف صاحب (**المذكِّرات**) حديثه فقال: «وقد كان الغدامسي يعظم نقلَه، ويعبِّر عنه بشيخ شيوخنا في غير ما مرَّة في شرحه على (**الصُّغرى**)، ولما صنَّف خطيب (**الجزائر**) ومفتيها سيِّدي **قدُّورة** في (**التَّوحيد**) قال: هذا ما جعلته كالتَّكميل لتقييد شيخنا السَّيد **عبد القادر بن خدَّه**، فلا بدَّ من الجمع بينهما على أنَّ **الجوزي** ذكر أنَّ في غريس كان ما يزيد على مائة قرية، قال شيخنا السَّيد **ابن عبد الله ابن** الشَّيخ **المشرفي** ـ (وهنا بين قوسين) يقصد **مصطفى ابن التُّهامي** شيخه **ابن عبد الله المشرفي**، حفيد **عبد القادر ابن عبد الله المشرفي**، الذي سبق الحديث عنه، إذ كثيرا ما يشتبه الحفيد بسميِّه الجدّ، وابن عبد الله شيخ **مصطفى ابن التهامي** حافظ مشهور له (**فهرس**)، وقد تولَّى القضاء في العهد التُّركي والتَّدريس بـ (**أمِّ عسكر**)، ثمَّ تولَّى الخلافة في عهد **الأمير عبد القادر** وأوفده في سفارة إلى ملك (المغرب)، حتَّى لقي حتفه ودفِن بـ (**مكناس**) ـ قيل مات مسموما ـ قال صاحب (**المذكِّرات**): «قال شيخنا **ابن عبد الله ابن** الشَّيخ **المشرفي** رأيت كتابا وقفت على تمامه، فوجدت الكاتب لما كتب اسمه قال: كتبه بقرية (**أولاد علي ابن صناج**)، وفي القرية ما يزيد على ثلاثمائة مؤلَّف، والقرية هي اليوم خربة تسمَّى (**القواير**)، وبقربها (**روضة سيدي عثمان بن عمر**)، تحت (**أم عسكر**) عند انحدار واديها

إلى الأرض المستوية البطاح، ثمَّ قال: «وناهيك بوطن خرج منه العلاَّمة شيخ الإسلام **محمَّد المصطفى الرمَّاصي** ومن حاكاه من تلامذته»، وذكر عددا وافرا من علماء الرَّاشديَّة، وختم قائمة العلماء بذكر علماء **(وهران)** و**(تلمسان)**، ثم تعرَّض إلى الحديث عن **(الفقرة الثَّانية)** من الرِّسالة، أي: الرِّحلة إلى الحجِّ.

نرجع إلى الحديث عن الحياة الثقافية بالرَّاشديَّة تعليقا على ما ذكره صاحب المذكرات، إذ نجده أطال النفس في ذلك، وتأييدا لما ذكره وتتميما للفائدة نذكُر أنَّ مراكز الثقافة بالجزائر في العهد التُّركي انتقل جلها من المدُن إلى القُرى والجبال كما وقع لـ **(بجاية)** بعد احتلال **الإسبان** لها، فإنَّ المراكز الثَّقافيَّة بها انتقلت إلى واديها، وإلى قمم جبالها، وصار طلبة المدن يلتحقون بها، ومنهم سكَّان مدينة (قسنطينة) نفسها التي لم تصَب بمكروه، بفضل موقعها، ومع هذا، نجد كثيرا من علمائها قصدوا معاهد (وادي بجاية) للعلم وللقراءات، كما ذكر ذلك وترجم لكثير من هؤلاء الأعلام، عبد الكريم ابن الفكُّون في تأليفه الذي خصَّه لتراجم علماء **(قسنطينة)** ما بين القرن العاشر والحادي عشر، وكذلك وقع لنفس طلبة العلم بمدينة **(الجزائر)** التي رغم استحالتها في العهد التُّركي إلى عاصمة، ومع هذا نجد نخبة علمائها انتقلوا إلى معاهد **(قرومة)** و**(مجَّاجة)**، وقد تخرَّج من **(معهد مجَّاجة)** العالم الشَّهير الشَّيخ **سعيد قدُّورة**، وأستاذه **أبو القاسم المطاطي**، اللَّذان توليا الإفتاء المالكي بالعاصمة الواحد بعد الآخر، أمَّا القطاع الغربي الذي له صلة بموضوع بحثنا، فإنَّه اشتهر ابتداء من أوائل القرن العاشر، وامتاز بأنَّه من أعظم المراكز العلميَّة، التي تخصَّصت في دراسة الفقه والتَّوحيد، وصار طلبة العلم يَرِدون على **الرَّاشديَّة** مِن مختلف بلاد المشرق والمغرب، رغم وجود عاصمة العلم القديمة **(تلمسان)**، وكان المتخرِّجون من معاهد الرَّاشديَّة يثبتون في إجازاتهم وتآليفهم ـ عند حديثهم عن أسانيدهم في الفقه أو التَّوحيد ـ يقولون مثل ما قاله **أحمد المقري**

التِّلمساني في (**حاشيته**) على (**صغرى الإمام السَّنوسي**) عند ما كان يريد أن يدعِّم نظريَّة تتعلَّق بفنِّ التَّوحيد: «إنَّه أخذه عن مشايخه بـ (**تلمسان**)، وغيرهم من علماء الرَّاشديَّة العارفين بهذا الشَّأن »، وما قاله أبو مهدي عيسى السَّكتاني قاضي (**مراكش**): «هكذا تلقَّيناه من أشياخ علماء الرَّاشديَّة وغيرهم ».

ثم إنَّ دراسة علم التَّوحيد كانت لها أهمِّيَّة إذ ذاك، كما نجد الرَّاشديَّة من المراكز الممتازة لدراسة الفقه، واشتهر فقهاؤها بمقاطعة عدَّة تآليف فقهيَّة مشهورة، ومعتمدة في البلاد الإسلاميَّة والمغرب العربي بالخصوص، ومن ذلك ما قاله صاحب (**تسهيل المطالب لبغية الطالب**) في معرض حديثه عن الرَّاشديَّة، فقال في التَّعريف بها: «وهي التي عناها الشَّيخ **مصطفى الرمَّاصي** (محشِّي **التَّتائي**) في بعض أجوبته بقوله: وأراك أيُّها السَّائل تحتفل بكلام **عبد الباقي**، وذلك بمعزل عن التَّحقيق، لأنَّ شرحه وشرحَ **الخرشي** لا نكترِث بهما في بلادنا **الرَّاشديَّة**، لعدم تحقيقهما، وعمدتُهما كلام **الأجهوري**، وهو كثير الخطأ »، وممَّا يؤيِّد هذا، وجود تأليف للفقيه **مصطفى الرمَّاصي** المذكور، أحصى فيه غلطات الخرشي في شرحه على (**مختصر خليل**).

ولم تكن شهرته مقتصرة على بلاد (**الجزائر**) والمغرب العربي فقط، بل جاوزتها إلى بلد المشرق، وبالخصوص في (مصر)، وقد روى الإمام محمَّد بن علي السَّنوسي ـ دفين (**ليبيا**) ـ في (**فهرسته**) أنَّ شيخه محمَّد ابن القندوز المستغانمي، تلميذ الدَّردير أخبره أنَّ شيخه الدَّردير عندما كان بصدد تأليف شرحه على (**مختصر خليل**)، كان يعتمد على (**حاشية الرمَّاصي على التَّتائي**)، ويقول: إنَّ صاحبها من المحقِّقين، فهي تغنيني عن غيرها، وهذا ما يؤيِّده الشَّيخ محمَّد الحجوي الذي قال في كتابه (**الفكر السَّامي في تاريخ الفقه الإسلامي**) عند ترجمته لخليل مؤلِّف (**المختصر**)، قال: «فـ (**مختصر خليل**) أكثر المؤلَّفات الفقهيَّة صوابا، رغما عن كون مؤلِّفه إنَّما خرَّجه إلى النِّكاح كما سبق، وقد وقع للزَّرقاني أغلاط في

النَّقل وغيره، فاعتنى المغاربة بتصحيحه، ووضعوا عليه حواشي مستمدَّة من حواشي الشَّيخ مصطفى الرمَّاصي على التَّتائي وغيرها، منهم الشَّيخ محمَّد بن الحسن بناني... الخ».

كما أشاد كثير من علماء المشرق والمغرب بالرَّماصي، منهم عبد الرَّحمن الجامعي الفاسي في رحلته المسمَّاة: (**التَّاج المشرق الجامع ليواقيت المغرب والمشرق**)، قال: «كنتُ وفدتُ على العالم الرَّاوية النَّقَّاد، منهل العلم الأصفى، أبي عبد الله سيِّدي **محمَّد المصطفى الرمَّاصي**، فوجدته يسكن بأهله بيوت الشَّعر، قرب غابة في رأس جبل يأوي إليهم ليلا، ويظلُّ بالنَّهار في داره ومسجده، يطالع كتبه، ويقرئ طلبته، فسألته عن ذلك، فقال: كنَّا على هذه الحالة، على عهد الإسبانيِّين خوفا منهم، فإنَّنا كنَّا لا نأمن في الدُّور من أن يصكُّونا ليلا، فخرجنا لبيوت الشَّعر، ليسهل علينا الفرار لغابة الجبل» اهـ.

كانت هذه الزِّيارة حوالي سنة 1120هـ ، والذين ترجموا للرمَّاصي وأشادوا به وبعلومه كثيرون، وقد ذكر هو نفسه ما يفيد ذلك في معرض توبيخه أحد تلاميذه الذي خالفه في قضيَّة فقهيَّة، قال له في آخر كتابٍ طويل قيِّم أرسله إليه: «لكن استغنيت بنفسك، واستقللت بفهمك على عادتك، إذ أنت قد أحللت نفسك للفتوى، لم تسألني عن مسألة، ولم تباحثني في قضيَّة، والأئمة ترد عليَّ أسئلتهم من (**تلمسان**)، ومن (**المغرب الأقصى**)، ومن (**الجزائر**)، والإخوان عن يمينك وشمالك، تباحثني، مكاتبة ومشافهة، وتلك طريقة أهل العلم ... الخ »اهـ.

هذه فقرات علَّقت بها على (**النُّقطة الأولى**) المتعلِّقة بالحياة الثَّقافية بـ (**الرَّاشديَّة**) التي تعرَّض لها صاحب (**المذكِّرات**) بمزيد من الضَّبط والتَّفصيل.

ولنواصل حديثنا عن (**الفقرة الثَّانية**) من (**المذكِّرات**) التي خصَّصها لرحلة الأمير صحبة والده إلى الحجِّ، وبعد أن ذكر أنَّ السَّيد **محيي الدِّين** سافر من (**وهران**) يوم السَّبت 2 شعبان سنة آخر ثلاثين ومائتين وألف (أي: سنة 1240هـ) مع الوفد

الرَّسمي، بيَّن أنَّ منطلق رحلة الأمير مع قافلة الحجَّاج كان من مدينة (**سيق**)، إلى (**وادي سيدي المقداد**)، إلى (**جديوية**)، إلى (**مجَّاجة**)، إلى (**العطَّاف**)، إلى (**جندل**)، إلى (**المدية**)، ثم منها إلى (**أربعاء بني سليمان**)، إلى (**برج حمزة**)، إلى قرية (**بني منصور**) في مبتدأ ـ البيبان ـ (**سيدي مبارك**)، إلى (**سطيف**)، إلى (**وكدة البار**) (؟)، إلى (**قسنطينة**)، ثمَّ منها إلى (**الصَّومعة**)، إلى (**وادي الشَّارف**) ... إلى أن وصلوا (**تونس**)، فقال « ووافق دخولنا المدينة الخضراء (**تونس**) المؤنسة، أوَّل يوم من رمضان 27 يوما من يوم مسيرنا فأعجبنا تأنُّقها، وبعد اطِّلاعنا على مساجدها البهيَّة، وأسواقها الشَّهيَّة، قلنا: والله إنَّها لهية، فاستقبل أهلها الوالد بالتَّعظيم والتَّبجيل، خصوصا علماء التَّدريس والتَّحجيل، فكانت أهلا لحسن المقيل.

لتـونس تـؤنس مـن جاءهـا | وتودعـه لوعـة حيـث سـار
فيغدو ولو حل أرض العـراق | يحـن إليهـا حنـين الوجـار
ويأمـل عـودا ويشـتاقه | اشتياق الفـرزدق عـود النـوار

فأقمنا فيها أحد عشر يوما مكرَمين عند علمائها وأرباب دولتها، خصوصا الفقيه العلاَّمة السَّيد **أحمد المحرزي**، سلالة الشَّيخ **الطَّاهر**، حائز رياسة العلم والعمل بـ (**إفريقية**)، ولقِيَنا وكيل أوقاف المغاربة الحاج **أحمد الحريشي** بإكرام، وأيّ إكرام، وأخذَ ما عندنا خيلا وبغالا وجمالا بأثمانها متضاعفة »، ثمَّ بعد ما ذكر إكرام الوكيل المذكور لوالده ورفاقه، وأثنى عليه قال: إنَّه هيَّأ لهم سفينة، يظهر أنَّ قائدها إيطالي، ثمَّ قال إنَّه لا يستحضر اسمه غير أنَّه عنده صغيرين أديبين، حاذقين اسم أحدهما (**كوكو**)، واسم الآخر (**أندري**)، وسافرنا ستَّة أيام عارضتنا الرِّيح النَّكباء، وما قدرنا إلاَّ على التَّولِّي للمرسى، ولمَّا رأى الرَّئيس صاحب المركب الذي ركب فيه أهل مخزن (**وهران**) سافر ومركبه باق، اغتاظ لذلك وقال: هذا مركب انجليز، ونحن أدقُّ منهم صنعة، وأقوى

منهم على المسائل العلميَّة، وها هي سبقتني وشدَّ حينئذ قلاعه، ووافقت الرِّياح، فبقينا في البحر بين أيَّام الرُّجوع الصَّعبة والتيسُّر تسعة عشر يوما، فوافق نزولنا لمرسى مقصد المغاربة والمشارقة مدينة **(الإسكندرية)**، آخر يوم من رمضان، واجتمع لنا بذلك عيدان، عيد الفطر وعيد السُّرور بالخلاص من البحر ...»، ثمَّ قال: «ثم سافرنا في **(وادي النيل)** بالمتاع، وسافر الوالد من موضع يقال له **(كافور الزيات)**، لزيارة وليِّ الله سيِّدي **أحمد البدوي**، وفي اليوم السَّادس وصلنا **(قاهرة مصر)**، فلقينا خارجها وليُّ لله البركة، المقتدي في السُّكون والحركة، السَّيد **محمَّد السَّعيد الغاندي**، وجدناه بعيدا من المدينة ينتظرنا منذ سمع خبر الوالد، وهو ولد سيِّدنا ومولانا **محيي الدِّين**، فمشى بنا إلى داره، مكثنا بها اثني عشر يوما، ونحن وجميع الرُّفقة طعامُنا من داره، غداءً وعشاءً، وأخبيتُنا بموضع يقال له **(بركة الفيل)**، ورأينا بداره (رضي الله تعالى عنه) من اجتماع العلماء ورؤساء الدَّولة عنده في كلِّ وقت، ما فيه معلوم لمن يجهل قدره، مغنم لمن يأمل أجره، وشاهدنا من برِّهم بالوالد وأدَبهم معه، وتعظيمهم ما يزهي النَّاظر، ومشى معنا لزيارة **الحسنَين** (عليهما السَّلام) [كذا] !، والإمام **الشَّافعي**، وأهل **(القرافة)** الكبرى والصُّغرى، و**(الجامع الأزهر)**، ما بهر وأزهر، ثمَّ بعدُ زرنا علماءها المحقِّقين، كالشَّيخ **علي الميلي**، والشَّيخ فراج، والشَّيخ **محمَّد ابن الأمير** وأمثالهم، ثمَّ سافرنا يومَين وليلة إلى **(مرسى بحر سويس)**، فلقيَنا ضابطُ مدينتهم بإكرام وتبجيل، وعيَّن لنا مركبا مع رفقتنا، رئيسه اسمه: الرَّئيس سعيد يمان، وخليفته: بخيت، وركبنا ـ بإذن الله وعونه ـ بعد صلاة الجمعة، وفي أكثر أيَّامها نمشي بالنَّهار، نرسي باللَّيل لما في البحر من كثرة الحجر التي تهلك الفُلك، فأرسينا على ينبوع البحر في تاسع يوم من سفرنا »، ثمَّ ذكر وصولهم إلى **(جدَّة)** بعدما وقفوا بـ **(رابغ)**، حيث أحرموا وضيَّفهم الرَّئيس **سعيد** بمنزله في **(جدَّة)**، وبعد أن نوَّه بالضِّيافة وقال: إنَّها اشتملت على الإكرام المعجوز عنه من كثير من النَّاس، واصل حديثه بقوله: «وسرنا منها ليلتين ويوما بالتَّلبية والتَّهليل إلى

أن دخلنا (**بلاد الله الحرام**) قبل الفجر بمقدار ساعة»، وبعد أداء المناسك، ووصف وفود الحجَّاج قال: «وقد فرغنا من مناسكنا حينئذ، فجملة إقامتنا لمناسك الحجِّ والعمرة ستَّة وأربعون يوما، ثمَّ سافرنا مع الرَّكب الشَّامي قاصدين الرَّوضة الغنَّاء الشَّريفة، فأقمنا بها أيَّام عاشوراء، مقدار ما صلَّينا جُمُعتَين بملازمة المسجد النَّبوي، وتلاوة قرآن، ودعاء وابتهال، إلاَّ أن نخرج لزيارة (**أهل البقيع**)، من زوجاته وبناته، ومَن به من الصَّحابة والتَّابعين، أو لزيارة (أحُد)، وقبر عمِّه حمزة، أو زيارة (**مسجد قباء**)، ثمَّ خرجنا مودِّعين صاحب (**الرَّوضة**)، زائرين مدينة السَّلام (**بغداد**)، على طريق (**الشَّام**) لوجود اللُّصوص قطَّاع الطُّرق، الذين لا ينالهم حكم سلطان ولا خوف الله» اهـ. ملخَّص محتوى النُّقطتَين اللَّتَين أجاب عنهما الأمير، أو بعبارة أصحّ: أشرف على الجواب عليهما.

وقبل أن يواصل حديثه على بقيَّة رحلته إلى (**دار السَّلام**)، ذكر أنَّه لَمَّا كان بالحجّ بلغتهم بعض أخبار البلاد، من جملتها ثورة ابن الشَّيخ الحالي، الذي وقعت له معه حروب في عهده، دعته إلى محاصرة (عين ماضي)، ثمَّ انتهى هذا الحصار باستسلام ابن الشَّيخ وإذعانه بعد تمرُّده ومخالفته الجماعة، وسنتعرَّض له في فرصة أخرى، كما سنتعرَّض للرِّسالة التي كتبها والده من (**جزيرة قبرص**) إلى أخيه وأهله بـ (**القيطنة**)، وهذه الرِّسالة كانت مجهولة، واكتشِفت منذ سنوات قليلة، وقد كتبها بعدما قضى سنتين في المشرق، وهي تختلف عن رسالة الأمير، حيث إنَّ والده اقتصر في رسالته على الأهوال التي لاقَوها في (**مصر**)، بسبب الحرب بين **محمَّد علي** والمماليك، وفي (**الحجاز**) بسبب الحرب بين أمير (**مكَّة**) والوهَّابيِّين، ويظهر أنَّه كتبها في طريق رجوعه من (**جزيرة قبرص**)، وبعد أن وصف (**الجزيرة**) ذكر أنَّه بعث أمتعتَه مع رفقائه على موعد اللِّقاء بـ (**الإسكندرية**)، حيث عزم على الرُّجوع برًّا لزيارة قبر والده ـ دفين (**برقة**)

(ليبيا) ـ ولم يذكر ولده **الأمير** في رسالته، مع أنَّه ذكر جلَّ رفقائه الذين كانوا من جهاتٍ مختلفة بالقطاع الغربي، كما ذكر في رسالته أنَّه ترك واحدا منهم مريضا بـ **(معان)** ـ شرق **(الأردن)** ـ واكترى له مسكنا بطلبه، واعترف أنَّه لم يجد ما يدفع به كراء هذا المسكن، حتَّى باع كساءه.

وتعرَّض في رسالته هذه، إلى ذكر المسافة التي قطعوها بين **(مصر)** و**(جدَّة)**، وهي رسالة قيِّمة بالنِّسبة لتاريخ حياة الأمير وتاريخ **(الجزائر)**، نتمنَّى أن يَهتمَّ بهما، أي: بـ **(الرِّسالة)** و**(المذكِّرات)** بعض الباحثين، إذ تشتملان على صفحات من تاريخ البلاد تصحِّح كثيرا من الأغلاط والأخطاء.

عنوان المحاضرة: أضواء على مذكرات الأمير عبد القادر
السجين تسجيلا بقصر أمبواز بفرنسا.

المحاضر: المهدي البوعبدلي.

الرقم والتاريخ (71) ألقيت بتاريخ 22/01/1975

بسم الله الرحمن الرحيم.

حضرة الإخوة الأخ الكريم والإخوة. السلام عليكم

وبعد،

إنني اخترت لسمركم هذه الليلة كما يدل عليه عنوانه
أضواء على مذكرات الأمير عبد القادر التي أشرف
على تسجيلها بقصر أمبواز.

إن هذه المذكرات لم يكتشف عنها الغطاء إلا
منذ سنوات قليلة وبالضبط منذ ثماني سنوات
وقبل أن أتناول الموضوع اسمحوا لي أن أتعرض
للحديث عن الظروف التي اكتشفت فيها هذه
المذكرات. إذ كانت قبل هذا الاكتشاف مجهولة
تماما سواء في المصادر العربية وأهمها كتاب
تحفة الزائر أو المصادر الأجنبية التي
تعد بالمئات.

غادر الأمير كما هو معلوم الجزائر لآخر مرة

صورة عن الصَّفحة الأولى من النُّسخة الخطية المعتمدة

أضواء على كتاب
(شرح الفريد في تقييد الشَّريد وتوصيد الوبيد)[1]

صاحب هذا التَّأليف هو العلاَّمة الشَّيخ **أبو القاسم ابن عبد الجبَّار الفجيجي**، شرح به منظومة عمِّه: (**روضة السَّلوان**)، المشهور بـ (**السَّلوانية في الصيد**)، وهو أي: صاحب (**السَّلوانية**)، أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الجبَّار الفيجيجي، وقد اشتهر هذا التَّأليف في البلاد الإسلامية بصفة عامَّة، وفي بلاد المغرب العربي بصفة خاصَّة، إلاَّ أنَّه لم يحظ بالاهتمام الذي يستحقُّه، ولم يعرف عنه القرَّاء إلاَّ بعض المخطوطات في بعض الخزائن الخاصَّة والعامَّة، أو أبيات، أو مقالات باحثين تناولوها بالبحث والتَّعريف، مِن بينها دراسة بالفرنسيَّة للمرحـوم عبد القادر نور الدِّين، الأستاذ في عهده بـ (معهد الدِّراسات العليا)، بـ(الجزائر)، شاركه فيها أحد الأساتذة الفرنسيِّين بـ(جامعة الجزائر)، طبعت في الخمسينات من القرن الجاري الميلادي، وفي هذه الأيَّام وبالضَّبط في الثَّاني من مارس الجاري، سمعنا بـ (إذاعة الرِّباط المركزية) نبأ يبشِّر بظهور الكتاب، وقد أنجز طبعه بعد تحقيق ناشره الدُّكتور عبد الهادي التَّازي مدير (المعهد العلمي الجامعي) بـ (الرِّباط)، وبعد تعداد المذيع لمحاسن المؤلَّف ذكر من بينها أنَّ محقِّقه اعتمد

(1) مجلَّة (**الثَّقافة**)، عدد: 84، (ص: 155 ـ 166)، صفر ـ ربيع الأول 1405هـ/ نوفمبر ـ ديسمبر 1984م، كما وقفنا على نسخة بخطِّ الشَّيخ **المهدي** (رحمه الله تعالى) تقع في (23) صفحة، وهي بعنوان: **التَّعريف بِمخطوط: (شرح السلوانية) للشَّيخ أبي القاسم عبد الجبار الفجيجي، المسمَّى: (شرح الفريد في تقييد الشَّريد وتوصيد الوبيد)**، وهي عبارة عن اختصار لمقالة **مجلَّة الثقافة**. (ع)

على أقدم نسخة مخطوطة، وإنَّنا إذ نشارك غبطة المذيع في بشراه، حيث يعدُّ هذا التَّأليف ذخيرة من ذخائر التُّراث العربي، واغتناما لهذه الفرصة، حرَّرتُ هذه الدِّراسة كما يدلُّ عليها عنوانها، لأبيِّن فيها أنَّ المخطوطة من هذا التَّأليف القيِّم خُتم بها المطاف بـ (الجزائر)، وأظنُّها أقدم نسخة، حيث كتبها تلميذ مؤلِّفها، وما دمنا لم نطَّلع على تاريخ هذه المخطوطة التي اعتمدها المحقِّق الخبير الدُّكتور عبد الهادي التَّازي، الذي ذكر مذيع (الرِّباط) بأنَّها أقدم نسخة اعتمدها، فيبقى السُّؤال مطروحا عن تاريخ أقدمية النُّسخ الموجودة للتَّأليف، ولمزيد من البيان اخترتُ التَّعريف بالمخطوطة التي هي بين أيدينا، وأدعِّمها بوثائق مصوَّرة، وإنَّ التَّاريخ كما يقال: وثائق وحقائق، وهذه الوثائق التي نقدِّمها للقرَّاء في هذه الدِّراسة مصوَّرة من أصولها تشتمل على:

1) الوثيقة الأولى [رقم: 1]: صوَّرتُ فيها صفحتين من أوَّل المخطوطة وبداية الشَّارح في الموضوع.

2) الوثيقة الثَّانية [رقم: 2]: تشتمل على آخر المخطوطة، الخاصَّة باسم النَّاسخ محمَّد بن عبد الرَّحمن الشَّريف السّكوني الفجيجي (تلميذ المؤلِّف).

3) الوثيقة الثَّالثة [رقم: 3]: صورة وثيقة، هي عبارة عن تأليف كتبه ناسخه بـ (تونس)، والكاتب قريب للمؤلِّف أبي القاسم بن عبد الجبار وتلميذه، وتحتوي على ملحق فيه ترجمة المؤلِّف المذكور بمزيد من البيان.

4) الوثيقة الرَّابعة [رقم: 4]: وثيقة ثابتة مثل سابقتها، وبخطِّ كاتب الوثيقة الثَّالثة [رقم: 3]، كتبتْ بـ (المدرسة الجديدة)، خارج (باب وزير) بـ (تلمسان).

وهذه الوثائق الأربعة كلُّها كتبتْ في زمان واحد، في عهد المؤلِّف **أبي القاسم ابن عبد الجبَّار الفجيجي**، وكتابها تلاميذه مباشرة، وفيه دلالة واضحة على أقدميَّة المخطوطة التي ختم بها المطاف بـ (**الجزائر**)، وأغتنم هذه الفرصة لأتعرَّض في هذه

الدِّراسة إلى ذِكر لقطات من التَّعريف بهذا التَّأليف الذي يعدُّ ـ كما سبقت الإشارة إليه ـ في طليعة ثمرات المكتبة العربية وذخائرها، وممَّا يزيد في قيمته ـ كما ذكر ذلك المذيع السَّابق ـ أنَّ ناشره اعتمد على أقدم نسخة، ونحمد الله أن وجدَ نسخةً مِن الكتاب تعدُّ بحقٍّ في قائمة النُّسخ القديمة إن لم تكن أقدمها.

ولنواصل حديثنا عن التَّعريف بمضمون هذا الكتاب، الذي شرح فيه مؤلِّفه منظومة عمِّه المعروفة بـ **(السّلوانية)**، فاستهلَّه بالتَّعريف بمؤلِّفها، قال: «هو العلاَّمة الشَّيخ **أبو إسحاق إبراهيم ابن** الإمام العالم العلم الحاج الرَّحال **عبد الجبَّار بن أحمد الفجيجي** »، ثمَّ تعرَّض الشَّارح ـ على عادة مؤلِّفي عهده ـ فذكر الدَّاعي إلى تأليفه فقال إنَّ بعض تلامذته التمسوا منه هذا الشَّرح، فاعتذر لهم أوَّلا، ثمَّ أجابهم لرغبتهم بعد إلحاحهم عليه، وحينئذ شرع في صميم الموضوع، وقال: «فقد جمع فيه بين عذوبة الألفاظ والسَّجع، من غير تكلُّف ولا إِحفاظ، مضمرا أن يُعنى بها جهابذة الحفاظ، وبين معان غريبة، وتسريح أفكار في معان جادَّة، فما أخال في فنِّها أبدع من نظمها، ولا أجمع لغزلها من بعضها مع صغر جرمها، جمعت بين محاسن الصَّيد وسياسته، وضبط أحوال النَّزيه المواظب، على طيِّ الفدافد والسَّباسب، أن لها سابقا ... »، إلى أنْ قال معتذرا على إحجامه عن إجابة دعوة مَن طلبوا منه شرح هذه المنظومة، فقال: «... فامتنعتُ لترادف تضني النِّحرير الماهر الحبر، حتَّى تصيِّره كالقابض على الجمر، حتَّى سفرت عليه في ذلك مخاتم لا أستطيع ردّها، ولا أمض من كثرة عدِّها، فتقوَّى لديَّ السَّبب، مع ما تقدَّم من الطَّلب، ظنًّا أنَّ الرّهام سمنا، ولم يسبق لها أحد بشرح يكون إليه التجاء ووددت أنَّه كان كذلك فيسع الامتناع، أو يكون على غريبها تعليق يكون به الانتفاع، مع أنَّها جديرة بالاهتبال، إذ قد تضمَّنت من اللُّغة رفقة الصَّيد ومحاسن النَّزاهة، مع الهمَّة والنَّباهة، ما لا يسع الحازم رفضه بالانفصال، فشرعتُ في وضع

تعليق عليها، يوضِّح إن شاء الله غريبها ...»، إلى أن قال: «وأشير من المعنى اللاَّئق بكلّ منها لا على الاستيفاء، إذ لو تتبَّعتُ المعاني لأربى على مجلَّدات، مع تراكم أهوال الوقت وشبّ الفتن المنغِّصة، لما سيأتي في أحوال أهل البلد من كلام النَّاظم (رحمه الله)، فقد أشار إلى شيء من ذلك في مقدِّمة هذا النَّظم، وله في نظم آخر، به بعض أهل العلم والفضل من نظرائه، إذ عُدِيَ عليه فقتل عدوانا (رحمة الله على الجميع)، فقال:

تغيرت البلاد واحلولك الليل ... وشب ضرام الشر وانهمر الليل
وآن الرحيل من ديار تآمرت ... بها المفسدون واستمر بها العول
فلا فكتة إلا وتنسيك فتكة ... ولا فتنة إلا ويدخلها العول
ولا صلح إلا إثره ألف غدوة ... ولا قول إلا غيره العقد والقول
سلام عليكم لا يجاوز جيرة ... من الجور عنهم إذا عتبوا القتل
أأسكن أرضا لكم ليس يُنهى سفيهُها ... ولا يتقَّى بها قصاص ولا عدل
ولا يأمن الخيار شر شرارها ... على خطر يبقي بها منه فضل
تعين فرضا أن يُهاجِر عنهمُ ... إلى الله من له بصيرة أو عقل
نهينا عن الرهبان من غير ديننا ... فكيف بأهل الدين جاءكم الويل
فتكتم بعبد الحق لا درَّ درُّكم ... على قوله للحق وهو له أهل
هنيئا له الشهادة منكم ... وويل لكم من حاكم حكمه عدل
فإن يشككُم خلق إلى خلق مثلِكم ... فإنا شكوناكم لمن لا له مثل

ثمَّ واصل الشَّارح حديثه، فقال: «وللنَّاظم (رحمه الله) غير ذلك، وقد نظم قصيدة أخرى سمَّاها: (مفيدة)، ضمَّنها من عيون الفقه ونوادر المسائل ما لم يوجد في غيرها وبعد ذلك تعرض لترجمة عمه مؤلف المنظومة فقال: مع أنه رحمه الله مشغول بالأسفار، في سائر الأقطار، وقد أخذ علوما من مدينة فاس حرسها الله عن الشيخ الصغير وابن

غازي و**الونشريسي**، ولقي شيوخا جلَّة بـ (تلمسان)، كالإمام **السَّنوسي**، و**ابن مرزوق**، و**العقباني**، و**التَّنسي**، وأخذ في رحلته للشَّرق أيضا عن الإمام **السُّيوطي**، و**السنباطي**، و**ابن النَّجار الحنفي**، وبـ (**المدينة المشرَّفة**) عن **السَّخاوي**، و**الشُّمنِّي**، وله من الجميع إجازات ومناولات ومسلسلات، وأطلقوا له القول في الجميع، ومات (رحمه الله تعالى) في (**السُّودان**)، وكلامه (رحمه الله) يشهد لغزارة علمه، وجودة قريحته، وقوَّة ذكائه، وسلامة طبعه، وعذوبة ألفاظه (نفع الله الجميع) بما تفضَّل به من علوم إنعامه».

ثم قال: «وأنا أستخير الله تعالى في التَّعليق المبارك على حلِّ ألفاظ هذه المنظومة، رجاء دعوة صالحة تلحقني مِن راغبٍ فيها أو مشغوفٍ بما تضمَّنته من غريب ونحوه ».

وبعد هذا التَّمهيد طرق المؤلِّف في صميم الموضوع، واستهلَّه بشرح مقدِّمة النَّاظم في منظومته، وهذا نصُّ (**المقدِّمة**): «لمَّا كانت بلد (**فجيج**) أشبه بالبادية من الحاضرة، وعقول أهلها وهِممُهم في معاني النَّاس متقاصرة، وقلوبهم بما انطوت عليه من الأحقاد متناكرة متنافرة، وعلى البغضاء والشَّحناء متضافرة، فهم في فتنة تصبح منها فئة مؤمنة وتمسي كافرة، وفي حميَّة جاهليَّة عاقبتها النَّدامة في الدُّنيا والآخرة، بحيث تجب الهجرة والهجران من الطَّائفة الباغية الفاجرة، الطَّاغية الخائرة، مع ابتلائي بخطَّة الفصل بينهم، ومعاناة الأجلاف منهم والجلامد، ومقاساة شيطنة كلِّ مارد، سيما الطَّائفة الموسومة منهم بـ (الأفارد)، فلربَّما جنَّ عليَّ ليل الانقباض، فأفرُّ إلى الصَّحاري كالبعير الشارد، فأستريح برهة من الزَّمان من نقل الصَّادر والوارد، ثمَّ تردُّني إليهم حقوق الأهل والولد والوالد، فأتمثَّل بقول عبد الوهاب (رحمه الله):

لحـــا الله دنيـــا ألجأتنـــا إلـــيهم　　　فبُعدُهمُ أشـهى إلينـا مِـن القُـرب

صَــحِبناهمُ لَمَّـا اضــطررنا إلــيهم　　　كما اضطرَّ صياد إلى صحبة الكلب

فلماَّ أَلِفتُ سياحة البراري، وقنص مهامه الصحاري، والتَّفكير في مصنوعات

الباري، فلا قيل ولا قال، ولا همج ولا ثقال، ولا جمام يسلب الهيبة كما قال:

وطول جمام المرء في مستقرّه ... يغير لونا وريحا ومطعما

كان ممَّا اخترتُ الاصطياد فيه، لنزاهته ودرايته ونجابته الصَّقر دون الكلب، لحقارته وقذارته، على نباهته وسرعة إجابته، وكنتُ أقول: (صقر وقور خير من كلب عقور)».

هذه نبذٌ نقلناها من شرح المؤلِّف، تشتمل على ترجمة صاحب المنظومة، وعلى لقطات من موضوعها، مع التَّعرُّض إلى تصوير الجوِّ الذي كان يسود البلاد، ممَّا ألجأ أُباة الضَّيم إلى هجرانها، وهذه النَّاحية التي تعرَّض لها صاحب المنظومة وشارحها، لها أهميَّة عظمى، وهي بمثابة شهادة مُعاصِر شاهد عيان، إذ الشَّارح وتلميذه ـ ناسخ الكتاب ـ كانا من أبرز علماء عهدهما، وشارك كلٌّ منهما في الثَّورة الثَّقافية التي اندلعت في عهدهما بتلك المنطقة، وشارك فيها ثلَّة من علماء بلاد المغرب العربي، وقد تركت تلك الفترة بصماتها في التَّاريخ، حيث خصِّصت بعدَّة تآليف، ومازال مَعين هذه التَّآليف لم ينضب إلى عهدنا هذا، كما سنبيِّن ذلك في هذه الدِّراسة.

إنَّ هذه الثَّورة الثَّقافية التي أشرنا إليها، هي التي أثارها العالم الشَّهير **أبو العبَّاس أحمد بن عبد الله بن أبي محلي** (967 ـ 1022هـ) على صهره الشَّيخ **عبد القادر بوسماحة**، المشهور بـ (سيدي الشِّيخ) ـ دفين (الأبيض سيدي الشِّيخ) ـ وخصَّصها أبو العباس المذكور بعدَّة تآليف، من بينها كتاب: (**المهراس**) الذي هو شبه مذكِّرات، استعرض فيه أطوار هذه المعركة، وقد اعتنى بهذه القضيَّة أخيرا ـ أي: من ثلاث سنوات ـ المستشرق الشَّهير جاك بيرك، الأستاذ المتقاعد حاليا، من (جامعة الكوليج دو فرانس)، بـ (باريس)، تحت عنوان:

Uléma fondateur insurges de Maghreb, édition sindbad, paris 18 siècles.

وفي هذا التَّأليف (**المهراس**) ذكر الشَّيخ **ابن أبي محلي** في معرض حديثه عن خصمه سيدي الشِّيخ، أنَّ من جملة مؤيِّديه أستاذه **أبا القاسم بن عبد الجبَّار**، وكذلك تلميذه **محمَّد** بن عبد الرَّحمن السّكوني ـ ناسخ (**شرح الفريد**) موضوع دراستنا ـ وما قاله صاحب (**المهراس**) من أنَّ **محمَّد بن عبد الرَّحمن السّكوني** تلميذ **أبي القاسم بن عبد الجبَّار** هو المصدر الوحيد الذي اعتمدناه في هذه الدِّراسة.

ولنرجع إلى الحديث عن التَّأليف (**شرح الفريد**)، فتعرف أنَّ مؤلِّفه أبو القاسم بن عبد الجبَّار السَّابق الذِّكر، وذلك اعتمادًا على الوثيقة الثالثة [رقم: 3] المصوَّرة، وهذه الوثيقة عبارة عن تأليف أتمَّه صاحبه بضريح سيدي **محرز بن خلف** (دفين تونس)، وناسخه تلميذٌ لـ: **أبي القاسم بن عبد الجبَّار** وقريبه، وقد علَّق كاتبٌ آخر على الكتاب المذكور معرِّفا بالنَّاسخ وأستاذه **أبي القاسم بن عبد الجبَّار**، فقال: «هو الإمام العالم الهمام المتضلِّع من المعقول والمنقول، الآتي في الفنِّ بما يهزُّ كلَّ العقول، **أبو عبد الله** سيِّدي **محمَّد بن** الإمام العالم القاضي **أبي العبَّاس أحمد بن** الشَّيخ الجامع المتواضع، الجامع بين العلم والولاية، وترقى في عالم الدَّرجات سيِّدي **عبد الجبَّار بن أحمد بن موسى الشَّريف الحسني الوثدغيري**، ثمَّ **البرزوزي**، وهو من نجع في (وتدغير)، أخذ عن أشياخ، ورحل إلى المشرق، وأخذ عن أشياخها أيضا، وكان كثير التقييد للفوائد، وأخذ عن غير واحد، منهم علاَّمة زمانه، وشيخ شيوخ عصره وأوانه، ابن عمِّه **أبو القاسم بن محمَّد بن عبد الجبَّار**، ونظم (رحمه الله) (**الآجرُّوميَّة**) وشرحها، وله تآليف في المنطق، وله نظم عجيب في شمائل المصطفى ﷺ، وقصائد أخرى (رضي الله عنه ونفع به)»، كما أنَّ للنَّاسخ المذكور كتابا نسخه بمدينة (**تلمسان**)، قال في ختامها إنَّ مؤلِّفها فرغ من تأليفها بـ (**المدرسة الجديدة**) خارج (**باب الزِّير**) بمدينة (**تلمسان**)، ولازال حي (**باب الزِّير**) هذا يحتفظ بمسجد الصَّلوات الخمس يحمل اسم الحي: (**جامع باب الزِّير**).

وقد قدَّمنا صورة لهذه الوثيقة، وهي الوثيقة [رقم: 4]، وتتميما للتَّعريف بهذا المخطوط الذي ختم به المطاف بـ **(الجزائر)**، وذكرت أنَّه أقدم نسخة، بدليل أنَّ ناسخه هو العلاَّمة محمَّد بن عبد الرَّحمن السّكوني ـ تلميذ المؤلِّف ـ ولم نرسل القول على عواهنه، بل أيَّدناه بحجج خصوصًا صورة الوثيقة الثَّانية [رقم: 2] المصوَّرة، التي قال فيها ناسخها: «كمل التَّعليق المبارك بحمدِ الله وحُسنِ عَونه، وصلَّى الله على نبيِّنا **محمَّد** وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليما كثيرا، على يد عبيد الله تعالى، أحقر عبيده، **محمَّد بن عبد الرَّحمن بن محمَّد بن بكر الشَّريف السّكوني الفجيجي** (غفر الله له، ولطف به) بمنِّه وكرمه، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليما».

ولنرجع قليلا إلى الوراء لمواصلة الحديث عن المخطوطة والمنظومة التي استهلَّها صاحبها، وهو **أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الجبَّار** بقوله:

يلومونني في الصَّيد والصَّيد جامع	لأشياء للإنسان فيها منافع
فأوَّلها كسب الحلال أتت به	نصوص كتاب الله وهي قواطع
وصحَّة جسم ثمَّ صحَّة ناظر	وإحكام إجراء السَّوابق رابع
وأيضا لعِرض المرء فيه سلامة	وحفظ لدينه وذلك تاسع
وفيه لأهل الدِّين والفضل عبرة	وتذكرة لما لديهم مواقع
ويورث طيب النَّفس والجود والسَّخا	فيألف فيه الصَّبر مَن هو جازع

وقد شرحها ابن أخيه **أبو القاسم بن عبد الجبَّار**، تقدَّمت لنا نقل فقرات منه نختمُها بما ختم به تأليفه ـ أي: **(شرح الفريد)** ـ فقال: «يقول كاتبه وواضعه تعليقا لنفسه ولمن شاء مطالعته واستحسانه، طالبا من الجميع صالح الدَّعوة، عسى المولى يمنّ بقبولها فيعطف على الفقير الذليل الحقير بِرحمةٍ واسعة، وعفوٍ وصَفح عَن زلاَّت واقعة، وجنايات متفرِّقة متتابعة ... فيا أوسع العفو جميل العطاء، ويا دائم الغفران جميل الستر

والعطاء، أُعفُ واغفر لعبد طال ما لهى وسها، قال ذلك وكتبه فقير ربِّه وأسير ذنبه، عبيد الله تعالى، أفقر عبيده وأحوجهم إلى توفيقه وتسديده، **أبو القاسم بن محمَّد بن عبد الجبَّار** (رحمه الله ورضي عنه)، وكان الفراغ من تعليقه عشيَّة الاثنين، سادس عشر من شهر ذي الحجَّة سنة ستّ وثمانين وتسعمائة، حامدا لله ومصلِّيا على مولانا رسول الله، ومهلِّلا ومحسبِلا ومحوقِلا، وكان في حدود التِّسعين وتسعمائة، وقد تخلَّلته فترات للتَّحلُّل من العثرات والغفلات، والانهماك في سكرات وغمرات، وتلاطم أمواج التُّرهات، ومجاري الدُّنيا من الخزعبلات، جبر الله صدع قلوبنا، وغفر ذنوبنا، وجعل جميع استعدادنا لمعادنا، ووفَّر دواعينا فيما يرضيه عنَّا، إنَّه وليُّ ذلك والقادر عليه، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد، عدَدَ ما ذكره الذَّاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين».

نكتفي بهذا القدر الذي استعرضنا فيه لقطات ممَّا اشتمل عليه التَّأليف، والتَّعريف المؤيَّد بالحجج لتاريخ كتاباته، وترجمتَي كلّ من صاحب المنظومة وشارحها التي توارث أفرادها العلم والمجد عدَّة قرون، وقد نقلنا ذلك من ترجمة العلاَّمة الشَّيخ **عبد الحي الكتَّاني** الفاسي، التي خصَّصها لمترجمنا الشَّيخ **أبي القاسم بن عبد الجبَّار** في تأليفه: (**فهرس الفهارس**)، فقال: «هو العالم المحدِّث الصَّالح الرَّحَّال سيِّدي **بلقاسم بن** الإمام **أبي عبد الله محمَّد ابن** الإمام الكبير الحافظ **أبي محمَّد ابن عبد الجبَّار بن أحمد بن موسى البرزوزي الفجيجي**، أحد مشاهير (**المغرب**) الذين لهم الصَّيت الطَّائر، وهو شارح (**منظومة الصَّيد**) لعمِّه **أبي إسحاق إبراهيم** المسمَّى بـ (**الفريد في تقييد الشَّريد وتوصيد الوبيد**)، وهو شرح ممتعٌ في مجلَّد عندي، وتجوَّل في الآفاق، وأخذ عن أعلامها، وعمدتُه في الطَّريق سيِّدي **محمَّد بن أبي الحسن البكري** عن أبيه، **زرُّوق**، وروى عن والده عن **ابن غازي**، و**الونشريسي**، و**الدقون**، **والسَّنوسي**، وابن **مرزوق** (الضَّرير)،

والقلصادي وغيرهم، ويروي أيضا عن **أبي إسحاق إبراهيم التَّازي** عن **أبي الفتح المراغي**، مات سنة 1021هـ».

ثمَّ قال صاحب (**فهرس الفهارس**): «وبيت **عبد الجبَّار** بـ (**فجيج**) له شهرة بالعلم والدِّين، وكانت لهم خزائن كتب عظيمة، حتَّى نقل الشَّيخ **أبو عبد الله التَّاودي ابن سودة** في أوَّل (**فهرسته**) عن **أبي العبَّاس** الهلالي أنَّه مكث مدَّة من يومين، لم يتصفَّح منها إلاَّ أوائل كتبها، وفي (**رحلة ابن عبد السَّلام النَّاصري الكبرى**) كانت لهذا الإمام يعني المترجَم مِن بعده خزانة كتب عظيمة، احتوت على دواوين غريبة، ثمَّ تلاعبت بها أيدي الحدثان، وممرِّ الدُّهور والأزمان، فتفرَّقت شذر مذر، حتَّى لم يبق منها إلاَّ الأثر، ثمَّ قال: كان دخوله لـ (**فجيج**) سنة 1197هـ، وأظنُّه يقصد النَّاصري صاحب (**الرِّحلة**) »، انتهى كلام صاحب (**فهرس الفهارس**).

نكتفي بهذا القدر الذي يعطي للقارئ صورة مصغَّرة عن هذا التَّأليف وصاحبه، وتراجم بعض أفراد أسرته، واعتمدنا منها على وثائق نادرة احتفظ بها التَّاريخ، وخصوصا التَّأليف الأصلي، والوثائق المصوَّرة، وتتميما لهذا الموضوع الخاصِّ بهذه الأسرة نختم دراستنا هذه بالتَّعرض إلى التَّعريف بأوَّليتها على مصدر جوهري في الموضوع، وهو كتاب: (**فتح الرَّحمن في عقد الجمان**) للعلاَّمة الشَّيخ محمد **الجوزي بن محمَّد بن محمَّد بن أحمد بن أبي القاسم الرَّاشدي** المزيلي، شارح كتاب: (**عقد الجمان النَّفيس، في ذكر الأعيان من أشرف غريس**)، تأليف العالم الشَّيخ **أبي زيد عبد الرَّحمن بن عبد الله بن أحمد التُّوجيني**، نسبةً إلى ابن توجين المشهورة بـ (**ونشريس**)، فقد ترجم لـ : **أبي الحسين علي بن عبد الرَّحمن الفجيجي**، فقال: «نسبةً إلى (**فجيج**) ـ بكسر الفاء ـ منسوبة إلى (فجيج)، وهي مدينة ذات محن وبلايا، وفتن ورزايا، قلوب أهلها متناكرة، وعلى الظُّلم والعداوة متضافرة، من أبناء **عبد الجبَّار بن عمر بن سالم بن عبد الجبَّار بن**

فرج ـ بفتح الفاء والرَّاء المهملة بعدها ـ كما ذكره الشَّيخ محمَّد الونشريسي في: (**رياض الأزهار في ذكر النَّبي المختار**)».

وبعدما استعرض المؤلِّف المذكور ـ أي: **الجوزي** ـ آراء بعض الباحثين في سلسلة نسب هذه الأسرة، وفي بحثٍ علميٍّ اعتمدَ فيه على أدلَّة وحجج، ختمه بقوله: «وقبره ـ أي: **أبي الحسين علي بن عبد الجبار الفجيجي** ـ معروفٌ عند أهل محلِّه في (غريس) الشَّرقي، يزورونه ويتوسَّلون به إلى ربِّهم في زعازع الأمور، ويقضي الله ما شاء (رحمةُ الله عليه)، وفي نسخة (غفر الله له) » انتهى ما ذكره **الجوزي** في: (**فتح الرَّحمن شرح عقد الجمان النَّفيس في بيان ذكر الأعيان من أشراف غريس**).

بهذا الملحق نختم دراستنا عن مخطوطة: (**شرح الفريد، وتقييد الشَّريد وتوصيد الوبيد**) التي خُتِمَ بها المطاف بـ (**الجزائر**)، وهي كما تحدَّثنا عنها تعدُّ أقدم نسخة من الكتاب، أو على الأقلِّ في طليعة قائمة المخطوطات التي احتفظ لنا بها التَّاريخ كما ذكرناه لك ونوَّه به مذيع (**إذاعة الرِّباط**)، يوم الجمعة ثاني شهر مارس الجاري، عندما بشَّر القرَّاء بظهور هذا التَّأليف القيِّم في المكاتب، بعدما قام بنشره الدُّكتور **عبد الهادي التَّازي**، وما هي بأولى حَسناته، ولا يَسعُنا إلاَّ تجديد شكرنا له، إذ تشرَّفتُ بمعرفتِه في (**الجزائر**) في (**ملتقيات الفكر الإسلامي**)، وفي (**الباكستان**) حيث حضَرنا في (**مؤتمر السِّيرة النَّبويَّة**) ـ كثَّر الله من أمثاله ـ.

1

جوانب من شرح الفريد في
"تقييد الشريد وترصيد الوبيد"
للشيخ ابي القاسم بن عبد الجبار
الفجيجي شرح فيه منظومة عمه
المشهورة "بروضة السلوان" في
الصيد
هذا التأليف مشهور كثيرا ما
يشير اليه الكتاب وقد اطلعنا
على ما كتبه عنه الباحث الجزائري
المشهور الشيخ عبد القادر نور الدين
المتوفى منذ خمس سنوات ونشر
منه مترجما بالفرنسية مع احد
الاساتذة الفرنسيين بالجامعة
الجزائرية في عهده كما نشر سنة

صورة عن الصَّفحة الأولى من النُّسخة الخطية المعتمدة

مقدِّمة تحقيق كتابِ
(منشور الهداية في كشف حال مَن ادَّعى العلم والولاية)[1]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

... وأربعين وألف، التمسَ منِّي أن أذكر له إسنادي في الحديث والفِقه، والإجازة فيهما وفي غيرهما، بعدما التمستُ منه الإِجازة في مصنَّفاته وغيرها... الخ».

وبيت ابن الفكُّون مِنَ البيوتات التي ضربت الرَّقم القياسي في محافظتها على توارث العلم ما يقرُب من عشرة قرون، وقد خلَّد اسم هذا البيت عميد الأسرة الأديب الشَّهير **أبو علي حسن بن علي بن محمَّد القسنطيني**، المعروف بـ (**ابن الفكُّون**)، بهذا عرَّفه **العبدري** صاحب (**الرِّحلة**)، وذكر أنَّه لَمَّا وصل إلى (**قسنطينة**) واجتمعَ بِبعضِ علمائها فسأله « عن الأديب **أبي علي حسن** المذكور، فذكر لي أنه أدركَه وهو طفل صغير، ولم يحفظ له مولداً ولا وفاةً، ورُمتُ أن أجِدَ مَن أروي عنه قصيدَته المشهورة في

(1) اعتمدنا في إثبات هذا المقال على صورة من (مخطوط) يقع في (63 ص)، مبتور الأول والآخر، وهو بخطِّ الشَّيخ **المهدي** (رحمه الله تعالى)، وهذا المقال هو عبارة عن مقدِّمة أعدَّها الشَّيخ لتُنشر مع تحقيق الكتاب، غير أنَّه ولظروف ذكرها في بعض مُراسلاتِه مع الدُّكتور **أبو القاسم سعد الله** لم يكتب لها أن تُنشر، انظر: **رسائل في التُّراث والثَّقافة، مراسلات الشَّيخ المهدي البوعبدلي**، منشورات: (المجلس الإسلامي الأعلى) 1428هـ/ 2007م، وراجع **القسم الثَّاني** من كتابنا: (**الشَّيخ المهدي البوعبدلي، نصوص ووثائق**)، منشورات: (**المكتبة الوطنيَّة الجزائرية**) 1429هـ/ 2008م. (ع)

رِحلتِه من **قسنطينة** إلى مراكش فلم أَجِده، فقيَّدتها هنا غير مرويَّة ... الخ »، وقد ذكرها بتمامِها، والقَصيدة تحتوي على اثنين وثلاثين بيتا، افتتحها صاحبها بِقوله:

ألا قُـل للسَّـريِّ ابـن السَّـري   أبي البـــدر الجـــواد الأريحـــي

إلى أن يقول:

فجِئـتُ بِجايـة فجُلـتُ بـدورا   يضيقُ بِوَصفِها حـرف الـرَّوي

وفي أرضِ الجزائـر هـامَ قلبـي   بِمعســولِ المراشِــف كــوثري

وهي مشهورة لا يخلو تأليف في تاريخ الأدبِ العربي منها، كما ترجمه صاحب (**عنوان الدِّراية**)، ولم يُشِر إلى هذه القصيدة وإنما ذكر ديوان شِعره.

ولنرجع إلى الحديث عن مترجمنا الذي هو **عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن يحيى**، وكثيراً ما اشتبه مترجمنا على بعض الكتَّاب والباحثين بِجدِّه المتوفَّى سنة (988هـ)، وهي سنة وِلادة المترجم صاحب التَّأليف، ومن هؤلاءِ المؤرِّخ **أبو راس الناصري** الذي ذكر في (**رحلته**) أنه لما وصلَ إلى **قسنطينة** في وِجهتِه إلى المشرق، ونزلَ ضيفاً عِند أسرة الفكُّون، قال: «ولما دخلتُ **قسنطينة** نزلتُ على محطِّ رحالِ الأفاضِل، ومنبع الفضائل والفواضل، العلامة الشَّيخ سيدي **محمد ابن** الشيوخ أولي النُّهى والرُّسوخ، منهم القطب الكبير الشَّيخ **عبد الكريم بن محمد الفقون**، وعبد الكريم هذا، قال الشيخ أحمد بابا: هو تلميذ مَن ازدانَ به الزَّمان وزَان، الشيخ **أبي عبد الله الوزَّان**[1]، والذي في (**نفح الطيب**) ما نصُّه: عالم قسنطينة وصالحها وكبيرها ومفتيها، سلالة العلماء ... الشَّيخ **عبد الكريم الفقون**، وقد قال في مخاطبة الشَّيخ **أحمد المقري** في مكاتبات بينهما: وقد اتصل بِيدي جوابكم، أطال الله في العلم بقاءكم، وأصلح عشائركم وأرقَّاءكم ... فرأيتُ من

(1) توفي الشيخ **الوزان** سنة (965هـ)، وقد قرأ عليه **عبد الكريم بن يحيى** جد المترجَم، أما مترجمنا فإنه مِن مواليد سنة (988هـ).

البلاغة والعذوبة ما يذهل مِن العلماء فحولها، ومِن أشهر أسلافه الشَّيخ **حسن بن علي بن عمر الفكون** أحد أشياخ **العبدري** صاحب (**الرِّحلة**)، وله قصيدة مشهورة عِند علماء المغرب، وهي مِن دُرِّ النظام، وحرِّ الكلام ... ضمَّنها ذكر البلاد التي رآها مِن **قسنطينة** إلى **مراكش**، منها:

وكنـت أظـنُّ أنَّ النَّـاسَ طـرا سِـوى زيـد وعمـرو غـير شي

ولما سمعَ علماء البِلاد أتَوني للسلامِ جزاهم الله خيرا ... » اهـ. ما ذكره **أبو راس** في (**رحلته**).

وقد غلط كما ذكرنا حيث اشتبه عليه عبد الكريم ـ الذي ذكره **العياشي** و**المقري** ـ بِسميِّه وجدِّه **عبد الكريم بن يحيى** الذي أخذ عن **الوزَّان**، وترجمه **أحمد بابا**.

كما غلط **أبو راس** عِندما نسبَ عميد الأسرة **حسن بن علي** بأنه من مشايخ العبدري، وقد ذكرنا ما قاله العبدري في (رحلته) أنه لما وصل إلى **قسنطينة** سأل بعض علمائها عن الأديب المذكور، فأجابه بأنه أدركه صبِيًّا، وكان **العبدري** يريد أن يصِلَ به سنده في رواية القصيدة، ولو كان من تلامذته لَمَا احتاج إلى ذلك.

لعِبَ أفراد هذه الأسرة أدوارا في تاريخ **قسنطينة**، فإنَّ كثيرا من أفرادِها تولَّوا الوظائف العِلمية في عهدِ الدَّولة الحفصية التي كانت تتبادل عواصم دولتها بين تونس وقسنطينة، ثمَّ بِجاية، وفي عهدِ الدَّولة الحفصية الأخير كان ملك **تونس الحسن الحفصي** الذي استعان بالملك الصَّليبي شارلكان لاحتِلالِ **تونس** وذلك سنة (941هـ)، كما لعب ولده **عبد الكريم** جد المترجَم المتوفى سنة (988هـ) دورا خطيرا، إذ هو الذي كلَّف بِتقديمِ بيعة سكَّان **قسنطينة** لباشا **الجزائر**، وذلك سنة (975هـ)، إذ كان والي الحفصيِّين بِقسنطينة مستبِداً بالحكم، معارضا لدخولِ الأتراكِ، وكان له أعوان، فانقسمَ السكَّانُ

إلى قِسمَين، وقد اعترفَ الأتراكُ بِفضلِ أيادي أسرة ابن الفكُّون، وخصَّصوا لها وظائف سامية، منها: إمارة ركبِ الحجِّ، ومَشيخة البلد، وقد كانوا ذوي كفاءة وبرهنوا بسلوكهم أنهم أهل للثِّقة التي وضعَها فيهم حكَّام الأتراك، إذ كان ذهاب رؤساء أركاب الحج يشرِّفُ سمعةَ بلاد **الجزائر**، كما كان لموقف شيخ الإسلام **محمد بن الفكون** المتوفى سنة (1256هـ) ـ عن سنٍّ ناهزَ التِّسعين، وهو الذي نزل في ضيافته المؤرِّخ أبو راس سنة (1204هـ) ـ كان لموقفِه مظهر الرُّجولة واليقظة عِندما ظهر في الأفق الثَّائر **ابن الأحرش الدَّرقاوي** سنة (1220هـ)، وحاصر البلدة وكان الباي **عثمان** غائبا بنواحي **سطيف**، فقد قام بالدِّفاع عنها دفاع الأبطال إلى أن رجع الباي ولحق الثَّائر، فقتِل الباي في معركته معه.

لمترجمنا عِدَّة تآليف، ذكر بعضها **أبو سالم العياشي** في (**رحلته**)، وقد لخص منها: (**محدد السنان في نحور إخوان الدخان**) الذي جمع فيه مؤلِّفه فتاوى معاصريه في حكم استعمال الدخان، وركَّز تأليفه في الرَّدِّ على فتاوى العلماء الذين أفتَوا بحلِّيَّته، ومنهم الفقيه الشَّهير **علي الأجهوري** المصري، وقد لخصه **العياشي** في سبع صفحات من (**رحلته**)، ثمَّ ذكر ما يزيدُ على المائة بيت مِن (**ديوانه**) في مدح الرَّسول ﷺ، وإنَّ أهمَّ ما وصلنا من تآليفه: (**منشور الهداية في كشف حال مَن ادَّعى العلم والولاية**)، وهو كتاب جليلٌ نادر في نَوعه، وهو موضوع تقديمنا.

التَّعريف بكتاب (منشور الهداية في كشف حال مَن ادَّعى العلم والولاية):

حلَّل صاحبه في مقدِّمته الأسباب الدَّاعية إلى تأليفه، مع بيان محتواه، فقال: «أمَّا بعد، فلمَّا رأيتُ الزَّمان بأهله تعثَّر، وسفائن النَّجاة من أمواج البدع تتكسَّر، وسحائب الجهل قد أظلَّت، وأسواق العلم قد كسدت، فصار الجاهل رئيسا، والعالم في منزلة يُدعى مِن أجلها خسيسا، وصاحب أهل الطَّريقة قد أصبح وأعلامُ الزَّندقة على رأسه لائحة، وروائح السَّلب والطَّرد من المولى فائحة، إلاَّ أنَّهم ـ أعني الطَّائفتين ـ تمسَّكوا مِن دنياهم بمناصب شرعيَّة، وحالات كانت قِدْمًا للسَّادة الصُّوفيَّة، فموَّهوا على العامَّة بأسماءٍ ذهبت مسمَّياتها، وأوصافٍ تلاشت أهلها منذ زمان وأعصارها، لبَّسوا بانتحالهم لها على أهل العصر أنَّهم من أهلها، فما راقبوا المولى أن يعاجلهم، ولا خافوا فجأة الموت فما بعدها أن تصادمهم، لولا حلم مَن سبقت رحمتُه غضبه، فاغترُّوا وما نظروا، واستهونوا وما استبصروا، كلُّ ذلك والمولى يمهل لهم »، إلى أن يقول: «والطَّائفة الأخرى سطرت أناملهم في قراطيس السجلاَّت، ما يوهم مَن لم يرهم ممَّن يأتي في غابر الزَّمن أنَّهم من حزب العلماء، بل ومن مشايخهم الأعلين، كلُّ ذلك والقلب منِّي يتقطَّع غيرة على حزب الله العلماء، أَن يُنسَب جماعة الجهلة المعاندين الضَّالِّين المضلِّين لهم، أو يذكروا في معرضهم، وغيرة على جناب السَّادة الأولياء الصُّوفيَّة أن تكون أراذل العامة وأنذال الحمقى المغرورين أن يتسمَّوا بأسمائهم، أو يظنّ بهم اللُّحوق بآثارهم.

ولم آلُ في التَّنفير من كلتا الطَّائفتين والتحذير منهم في كلِّ زمان وأوان، وبين كلِّ صالح مِنَ الإخوان، إلى أن احتسستُ لسان القول قد انطلق بنسبة ما لا يليق ذكره من أفواههم، فشرح الله صدري في أن أعتكف على تقييد يُبدي عَوارهم، ويفضح أسرارهم، ويكون وسيلة إلى الله في الدُّنيا والأخرى، لأنِّي غرتُ على دائرة الكمال من

أهل حضرته، وذَببتُ جهدي باللِّسان والبنان عن أهل صفوته، فلا جرمَ وإن كنتُ متلوِّثًا بالخطايا والأوزار، وممَّن أحمل عدَّة من القبائح آناء اللَّيل والنَّهار، أن أرجو من الله المغفرة، فهذا الجهاد الذي هو أحدُّ من السَّيف في نحور أعداء الله، وناهيك بهم أعداءً نسخوا شرع سيِّدنا ومولانا محمَّد ﷺ بآرائهم المسطَّرة بأقلامهم في سجلاَّتهم، وأحلُّوا الرشى بأفعالهم، والتَّمدُّح بها والعكوف على طلبها، والاعتناء بأخذها في أنديتهم، فهي عندهم أرفع المكاسب وأسنى المطالب ».

ثمَّ يذكر طائفة المشعوذين الدَّجَّالين بأوصافهم، ويختم تقديمه بقوله إنَّه رتَّبه على ثلاثة فصول وخاتمة:

(**الفصل الأوَّل**): فيمن لقيناه من العلماء والصُّلحاء المقتدى بهم، ومِن قَبل زمنهم ممَّن نقِلت إلينا أحوالهم وصفاتهم تواترا، أردنا التَّنبيه عليهم، وذكر ما كانوا عليه، وزمانهم، وتواريخ وفاتهم.

(**الفصل الثَّاني**): في المتشبِّهين بالعلماء، وهم الذين قصدنا بهذا التَّقييد إيضاح أحوالهم.

(**الفصل الثَّالث**): في المبتدعة الدَّجاجلة، الكذَّابين على طريق الصُّوفيَّة المرضيَّة.

و(**الخاتمة**): في إخوان العصر، وما هم عليه.

هذه هي النِّقاط الرَّئيسيَّة التي حلَّلها المؤلِّف في تأليفه الذي هو كما ذكرنا فريدٌ في بابه، إذ لم يقتصر على تعرُّضه للأوصاف التي ينكرها الشَّرع، بل جسَّم المتَّصفين بها، وأفرد لكلِّ واحد منهم ترجمة حياته العامَّة والخاصَّة، ومعظم مَن تعرَّض لهم كانوا معاصرين له، وله بهم علائق القرابة والتَّلمذة وما إلى ذلك، فقد ذكر أوَّلا العلماء المقتدى بهم، سواء معاصريه أو مَن كانوا قبلهم بقليل، أي أوائل القرن العاشر

الهجري، ثمَّ ثنَّى بالعلماء الذين تولَّوا الخطط الدِّينيَّة أو الشَّرعيَّة، كالإفتاء والقضاء والتَّدريس، وذكر الظُّروف التي استغلُّوها لتولية هذه الخطط وهم ليسوا أهلا لها، ثمَّ تعرَّض بتفصيل للدَّجاجلة المحتالين الذين نصَّبوا أنفسهم مشايخ طرق وأولياء صالحين، سواء بالوراثة أو الادِّعاء، وكشف، بل ألقى أضواءً على نشأتهم وأحوال تطوُّراتهم، وبيان انحرافاتهم ومخالفتهم لتعاليم الدِّين فيما يقترفونه من بدع في سلوكهم الدِّيني والدُّنيوي، ويختم الكتاب بذكر بعض معاصريه، سواء الموظّفين أو رؤساء الدِّين وكان سلوكهم معتدلا، وختم فصل هذه **(الخاتمة)** بترجمة وافية لصديقه ومعاصره أبي العبَّاس أحمد المقرِّي التِّلمساني، صاحب كتابي: **(نفح الطِّيب)** و**(أزهار الرِّياض)**، الشَّهير.

والكتاب زيادة على ما يشتمل عليه من التَّراجم، سواء الذين مدحهم أو قدحهم، نجد معظم تراجمه مرتبطة بأحداث سياسيَّة اجتازتها البلاد حينئذ، وهي مفيدة جدًّا لحقبة من تاريخ البلاد لا زالت تفاصيلها غير واضحة، منها الخلاف الذي أعقب احتلال **عرُّوج** و**خير الدِّين** لـ **(الجزائر)**، وامتناع والي **(قسنطينة)** التَّابع للدَّولة الحفصيَّة مِن تمكينهم دخول البلدة، بل تحصَّن فيها حتَّى انقسم السُّكَّان إلى فريقَين، فريقٌ أيَّد الأتراك، وكان على رأسه عبد الكريم ابن الفكُّون ـ جدُّ المؤلِّف ـ والفريق المعارِض، وكان على رأسه شيخ الإسلام عبد المومن، وبقيَت البلاد منقسمة طيلة ثلاث سنوات، كما ذكر ظروف استعانة الملك **الحسن الحفصي** بـ **(تونس)** بالملك الصَّليبي **شارلكان** الذي احتلَّ **(تونس)** سنة 1041هـ، وقد ذكر المؤلِّف هذه الأحداث عندما ترجم لجدِّه **يحيى** الذي تولَّى إمامة (جامع الزَّيتونة) بها، وصاهر علية القوم، كأسرة البرزلي، والشَّيخ الزَّلديوي، وقد قتل جدُّ المترجم هذا في الاحتلال المذكور، وهو في حلقة درسه بـ (جامع الزَّيتونة).

كما ذكر المؤلِّف عدَّة مرَّات الإقطاعيِّين من مشايخ العرب والبربر، وكان يسمِّيهم باللُّصوص، ويرى أنَّ مخالطة بعض العلماء لهم تقدح في مروءتهم، وكذلك قبول هداياهم أو الانضواء تحت سيطرتهم، وقد حمل حملة شعواء على كثير من مشايخ الطُّرق الذين كانوا يوادُّونهم، وينتصرون بهم، بل ذكر كثيرا ممَّن تصدَّروا للمشيخة بعد أن كانوا لصوصا وقطَّاعَ طرق، ومِن ذلك ما قاله المؤلِّف في ترجمة رجلٍ منهم يُدعى: طراد (ص: 177)، ذكره في (**الفصل الثَّالث**) الذي خصَّه لمن سمَّاهم بالدَّجاجلة، قال: «ومن هذه الطَّائفة رجلٌ يقال له: طراد، وهو مِن ناحية بلد (العنَّاب) فيما بينها وبين (باجة)، وهو على طريق (تونس)، في مقربة من (خمير) و(السبعة)، وأصله لصٌّ من اللُّصوص، وكان كبير المتلصِّصة، ثمَّ إنَّه زعم أنَّه تاب وإلى الله أناب، فصار من أهل الصَّفوة والولاية، وهو باعتبار ظاهر الشَّرع مِن أهل الطَّرد والجناية، والبُعد عن الله والغواية، كان لصَّ الظَّاهر صار لصَّ الباطن والظَّاهر، رمحه الظَّاهر لم يزل بيده للحرابة والفساد، وسبحته هي ما يذبح بها العباد، ويضلُّهم بها عن طريق الرَّشاد، ويقطعهم عن باب الملك الجواد، .... »، إلى أن يقول: «ولهذا الرَّجل حروب ووقائع مع شطر قبيلته، إذ لم تدخل تحت طاعته، ويشنُّ الغارات عليها، ويأخذ أموالهم ويستحلُّها ».

وبعد أن يذكر موبقاته والطُّرق التي يستعملها لجلب النَّاس، يذكرأنَّ سكَّان (عنَّابة) دخلوا في أحبولته، ومنهم: «خطيب جامعها، وفقيه بلدها »، ـ وهما: عبد الكافي ومحمَّد ساسي ـ.

ومحمَّد ساسي هذا، هو جدُّ أحمد ساسي البوني، صاحب: (**الدُّرَّة المصونة في علماء وصلحاء بونة**)، الذي تقدَّم الحديث عنه.

[قال:] «وعكف على اتِّباعه أجلاف البوادي، وامتلأ بأكاذيبهم حافَّتا الوادي، وأكثرَ من مآثره ـ التي هي في طيِّ الخرافات ـ الحاضرُ والبادي ... الخ».

كما كان يحمل على البلديِّين المعروفين بـ (الحضر)، وقد تولَّى تعريفهم عندما ترجم لأحد كبار علماء البلدة، تولَّى الخطط، وكانت له مكانة عند أمراء (الجزائر)، ووقع خلافٌ بينه وبين بعض زملائه، قال[1]: «فوقعتْ بينهما ألفة الظَّاهر، وفي الباطن مختلفان على عادة صنفهم المسمَّى بـ (الحضر) إذ ذاك، صفة لهم لازمة بمجرى العادة لا تتخلَّف ولو في النَّادر، وإن كنتُ أظنُّ تخلُّفها في بعضٍ منهم، كما أشرتُ إليه في تأليفنا (**محدَّد السِّنان**) ظنًّا منِّي لمرآه، ولم أشعر باطنه كما يأتي التَّنبيه عليه ـ إن شاء الله ـ، فانبهر لي عموم الوصف في جميعهم، إلاَّ أنَّ بعضهم يخفي ما يكنُّ[2] إلى بلوغ قصده وإربه».

وقال في موضعٍ آخر في نفس الموضوع، وعلى نفس الشَّخصيتين[3]: «ورجعت المودَّة بينهما شحناء، والمحالفة بغضاء، ومع هذا ففي الحضور تحسبهم جميعا وهم بالغاية القُصوى، قلوبهم شتَّى، وأهواؤهم متبدِّدة، يودُّ كلٌّ منهما وقوعَ منتهى الشُّرور بصاحبه، وليس هذا بدعا ممَّن هو من الجنس الذي يلقَّب حضريا، فقد جبِلوا على ذلك كما أودعتُ بعض صفاتهم تأليفنا (**محدَّد السِّنان**) ... الخ».

وهكذا نرى المؤلِّف يحمل على الحضر، والعجب أنَّ أسرته استوطنت بلدة (قسنطينة) قرونا، ولأسرته ارتباط المصاهرة والقرابة بجلِّ بيوتات البلدة، وإذا كان الخلاف بين سكَّان البدو والحضر شنشنة قديمة عالميَّة، فإنَّنا نجهل مدلول الكلمة عند المؤلِّف ـ أي: الحضر ـ.

---

(1) ص: 57.

(2) في الأصل: «أكنُّ».

(3) ص: 63.

وكثيرا ما يصرِّح المؤلِّف بأنَّ هذه الأوصاف خاصَّة ببلدة (قسنطينة)[1]، ولربَّما يكون له مقاييس خاصَّة كما تظهر جليَّة في تأليفه.

ولنرجع إلى الحديث عن نموذج من المترجم لهم ـ أي: **(القسم الثَّاني)** ـ الذي خصَّه لمن تولَّوا الخطط العلميَّة، كالقضاء، والإفتاء، والتَّدريس، والتَّوثيق، بل حتَّى الوظائف الإداريَّة، وليست فيهم كفاءة، ويقصد بالكفاءة: الثَّقافة، والسِّيرة المحمودة، والابتعاد عن كلِّ ما يقدح في المروءة.

قال في ترجمة بعضهم بعد أن عرَّف به وبأسرته: «وكان في أوَّل زمانه ممَّن أحبَّنا لله، وأحببناه فيه، وكان ذا نجابة في أحوال الدُّنيا وطلب رياستها، تولَّى النِّيابة عن قضاة

(1) وقد اطَّلعنا على كتاب ألَّفه السَّيد الشَّريف بن حبيلص، القاضي الموثق، والنَّائب بالبرلمان الفرنسي، سمَّاه: **(الجزائر الفرنسيَّة)**، وكتبه طبعا بالفرنسيَّة، طبعة سنة 1914م، بـ (مطبعة فونطانة)، بـ (الجزائر)، ترجم فيه **(المحاضرات)** التي كان يلقيها الشَّيخ المولود بن الموهوبـ(نادي صالح باي) بـ (قسنطينة)، وتعرَّض للحياة السِّياسية إذ ذاك، إلى أن جرَّه الحديث إلى البلديين من سكَّان (قسنطينة) الذين كانوا يقابلون بعض الكتَّاب المشهورين، مثل المولود بن الموهوب، المدرِّس والمفتي بها إذ ذاك، بالسُّخريَّة والتَّهكُّم، عندما شرح **(منظومته)** أستاذُه عبد القادر المجاوي، ونشرها الشَّيخ كحُّول في: **(كوكب إفريقيا)** سنة 1910م، فقال: «... مِنَ الغرائب ما استحالت إليه بلدة نشأ فيها ونسِب إليها أبو البركات ابن باديس، وعبد الكريم ابن الفكُّون، والشَّيخ الحفصي، وعبد القادر الرَّاشدي، وغيرهم من أكابر العلماء، فـ **(المنظومة)** ـ أي: (منظومة) ابن الموهوب في البدع ـ كان لها تأثيرٌ سيِّءٌ، وجرحَ كبرياء هذه البرجوازيَّة التي اكتفت بنسبتها إلى العرب والحضر، هاتان الصِّفتان اللَّتان جعلتاها تتيه عجبا وفخرا، هذه البرجوازيَّة المتجبِّرة مغرورة بكبريائها، وإنَّ أفرادها زينة السَّاحات العموميَّة بالبلدة، لكنَّهم أقلِّيَّة لا يؤبه لغضبهم وسخطهم».

L'Algérie française vu par un émigré, 1914, P.83, Librairie orientale Fontana, Alger.

العجم ـ يعني: الأتراك ـ وامتحن من الولاة كثيرا، وسجِن وأغرم المال مرَّات، وتشكَّت به العامَّة، وكان مقليا عند الخاصَّة، وينسبون إليه أمورا لا يليق صدورها بعاقل، وكان يخدم الولاة ويعظِّمهم، ويمتهن نفسه في موالاتهم، ويعطيهم الرّشا، وربَّما يقال ـ فيما اشتهر ـ إنَّه يتوسَّط لهم في ذلك من أهل البلد والرَّعايا، وينال هو من ذلك حظًّا، وتولَّى خطَّة الفتوى في زمن **أبي زكرياء ابن محجوبة**، وكانت له يد عليه في بعض الأحيان، إلاَّ أنَّه كان يستعين عليه بالجمع الخاصّ، وفريق العامَّة، وبعد وفاته استقلَّ برياستها في التَّصدُّر، وكان أمي الخطاب والكتابة، لا يعرف طريق الخطِّ ولا يحسِنُ الرَّسم، غير عارف بالهجاء، حتَّى إنَّه في غالب أحواله يتفقَّد مَن يجالسه مِن أحبابه مَكاتِبَه ليصلِح ما فيها من فساد الرَّسم، وكان في ابتداء أمره منصِفا واقفا عندما يُحدُّ له ... »، إلى أن يقول: «وقد يكتَب له الإفتاء في بطاقة، ويصدع هو بها عند نقلها بخطِّه، ليستظهر على غيره، وينسبها إليه، وكان مَن عاصره لا يعتقدون صدورها منه، لأنَّه عندهم بالحضيض الأسفل في ذلك الأمر ... الخ».

ثمَّ يذكر آخر[1]، فيقول: «وأمَّا تكالبه على الدُّنيا وانكبابه عليها، فهو أشهر مِن أن يذكر، وأوضح مِن أن يسطَّر، فتراه في جمعها يرتكب أمورا لا يبالي بها مِن ضعة أو هلكة، ولا عليه مِن أن تكون مِن حلٍّ أو لا، حتَّى تحقَّق فيه وعيد حديث: «مَن لم يبال مِن أين مطعمه ومشربه، لم يبال الله أي باب جهنَّم يدخله »[2]، هذا مع تغييره للشَّريعة، وتجاهره بالرّشاء، وجمع حطام الدُّنيا، وعدم اكتراثه بالأوامر الشَّرعيَّة، وتسويغه للعامَّة أو مَن كان على شكله من الخاصَّة أمورا لا يرضاها مَن في قلبه مثقال حبَّة مِن إيمان، وتسهيله لهم الأمور الشَّاقَّة في النَّواهي والزَّواجر، ويهتك حدودها فعلا وقولا...»، إلى

(1) ص: 68.

(2) حديث غريب منكر. (ع)

أن يقول: «وأمَّا استعمال أعوان السُّوء وأنصار الباطل، وارتضاؤه خصلة الظُّلم طريقة، فلا يكاد يخفى أمرها إلاَّ على غبيٍّ، فتراه يجمع حثالةً مِنَ النَّاس، يزخرف لهم ناديه بأكاذيب وترهات وتقوُّلات ينسبها لمن سلف، ويتجرَّأ على الله بدعاوى ومرائي لكي يصرف بها وجوه العامَّة وبعض الخاصَّة إليها، ويقطع زمانه ما بين حديث خرافة وتزكية النَّفس وتطهيرها ـ بزعمه ـ من رذائل هو غريق في بحر قذارتها، ويرى لنفسه منَّة على غيرها... الخ»، ثمَّ يقول: «أمَّا العمل فلا حظَّ له فيه، إلاَّ ما سُطِّر من مساويه، وهي بالنِّسبة إلى كلِّها كغرز إبرة في بحر، وأمَّا العلم فهو أجهل مَن رأيت، وأحمق مَن لاقيت، وإن كان يتصدَّى لإقراء (المختصر) و(الرِّسالة)، وأعجب من ذلك تعاطيه (لابن الحاجب) في ناديه، مع جمعٍ عمَّتْهُمُ الجهالة، فلو كان في زمن محتسب لله لكان له معه شأن وأيُّ شأن »، إلى أن يقول: «ولعمري لا يصلح لأنْ يقعد بين يدي العلماء، فضلا أن يتسمَّى بالعلم، أحرى أن يتصدَّى للتَّدريس، لكنَّ غباوة الجهل، وقلَّة الحياء من الله، وخراب البلدة، وكثرة العامَّة، هي التي جرَّأته على ذلك، وزاده حبّ المدحة والافتخار، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ (الحج: 46).

وبعد أن يذكر مِن جملة مساويه تغيير كثير مِن أحباس البلدة، وهتك حرمتها، والإغراء على بيعها، فتجده عاكفا على بيعها وابتياعها، حتَّى إنَّ كلَّ مَن صادفته يد الفقر واضطرَّ، يأتيه فيجعل له أشياءً يموِّه بها على المسلمين في بيع الأحباس، وربَّما يذكر ويشهِّر أنَّه يشاطره أو يعطيه ربع المبيع، ويقتسم العقب الباقي، ولقد سمعتُ مِن والدي أنَّه أحصى جميع ما باعه من الأحباس، وتسبَّب في هتك حرمتها، والبيع والابتياع خمسة وثلاثين حبسا، أو نحوها، ومع هذا لم يعتبر بما نال من تسبب في فسخها منَ العقب، أو رضيه مِنَ الاحتياج والقلَّة والذِّلَّة والفقر الفادح، حتَّى إنَّه ترامى به الحال أن فعل ذلك في الأحباس الموقوفة على خدمة المدينة الشَّريفة، ولم يراع فيها جانب

النَّبي الشَّريف، ولا عظَّمه ولا وقَّره في هتك ما نُسِب إليه، ولقد رأى عاقبة أمره مناما ولم يتفطَّن لها، وصار يموِّه برؤياه على العامَّة والخاصَّة الذين لا يعلمون، فكان يقول لهم: رأيتُ النَّبيَّ ﷺ في النَّوم، وحانتْ صلاة ـ عيَّنها هو ونسيتُها أنا ـ وأقيمت الصَّلاة، فتقدَّمتُ وصلَّيتُ بالنَّبيِّ ﷺ وبأصحابه، ويراها مِن كراماته، وأنَّه بالحالة العليا في التَّنسُّك والعبادة، ويذكرها بين يدي الأمراء لتزيدَ حظوته عندهم، ويُشيعُها أتباعه ومَن يعمر ناديه، وما درى هذا الخبيث أنَّ ما رآه وبالُ أفعالِه السَّيِّئة، وجزاء سيرته الخبيثة، وقد نصَّ المعبِّرون على أنَّه مَن صلَّى بالنَّبيِّ ﷺ فهو ممَّن نبذ الإسلام وراء ظهره، فما علِم ما أُرصِدَ له، وما أُخفِيَ عنه، وبالجملة فهو رجل أهَّله الله للشَّرِّ، وأجراه على يده... الخ».

وختم هذه التَّرجمة بقوله: «ولنكفَّ العنان، فإنَّ مساويه أكثر مِن أن يحصيها الإنسان، ولمَّا كان هذا التَّأليف للنُّصح العامِّ، أتينا بنبذة مِن مَساويه ليدلَّ مَبدأُه على منتهاه، ولله عاقبة الأمور...».

ثمَّ يذكر آخر(1)، فيقول: «تولَّى خطَّة النِّيابة ـ أي: نيابة القضاء ـ بالبلد، ومكث فيها زمانا، وعزل مرَّات ... وكان عامي القلم والفكر، لا يعرف ما يصلِح به وضوءه وصلاته، فضلا عمَّا وراء ذلك، غير أنَّه اتَّخذ كَتْبَ الوثيقة صناعة، على ما فيها منَ الفساد والإفساد، علما ورسما، وضعف الدِّين أوجب إنزاله تلك المنزلة، وامتحِن مرَّات، وغرم كرَّات، وهو أوَّل مَن أظهر الغرامة على خطَّة النيابة، أعطى عليها مالا لقضاة العجم ـ الأتراك ـ حتَّى ولَّوه إيَّاها، وربَّما أرشى الولاة يمينا وشمالا، وسمعتُ عن شيخنا **أبي عبد الله التواتي** المذكور أنَّه طُلِبَ منه الرُّجوع لـ (قسنطينة) بعد أن خرج منها واستوطن (باجة) كما قدَّمناه، فاعتذر بأنَّه لا يرجع إلى بلدٍ (فلانٌ) فيه نائبٌ أو

(1) ص: 72.

قاضٍ، أو نحو ذلك، وكان موسوما بالرّشى، مغموصا بشهادة الزُّور، والله أعلم بالسَّرائر ... ».

ثمَّ يذكر آخر[1] تولَّى الإفتاء، فيقول: «وهو ضعيف العقل يزعم زعما أنَّه على ثقة من العلم، ويبالغ في ادِّعائه، ولا معرفة عنده ولا إدراك بها يحفظه إلاَّ ما ينقله مسطَّرا، وربَّما يأتي به في غير محلِّه، وربَّما يتعرَّض للشِّعر ليأتي بما هو ضحكة للضَّاحكين، ومع هذا فهو مغموص لضعف الدِّين، وتناول الزُّور بين المسلمين، وضرب الخطوط، حتَّى إنَّ الوثيقة إذا كان شاهدها وحده أو مع مَن هو على شاكلته لا تنسب إلاَّ للباطل والافتراء، وإن كانت في نفس الأمر حقًّا، ﴿وَرَبُّكَ يَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ (القصص: 69)

نكتفي بهذه العيِّنات من هذا (**القسم**)، وننتقِل إلى (**القسم الثَّالث**) الذي استهلَّه المؤلِّف بقوله: «(**الفصل الثَّالث**)[2]: فيمن ادَّعى الولاية مِنَ الدَّجاجلة الكذَّابين، والمتشدِّقة والمبتدعة الضَّالِّين المضلِّين، وربما ألجأ الحال إلى ذكر مَن لم يكن بصفة مَن ذكر لقصد التَّعريف به، فسننبِّه عليه ـ إن شاء الله ـ».

بدأ المؤلِّف هذا (القسم) بترجمة: قاسم ابن أمِّ هانئ ـ حفيد الشَّيخ الأحسن ـ وجدُّه ينسب إلى الصَّلاح، وكذلك سلفه، ثمَّ يذكر قضيَّة تاريخيَّة هامَّة تتعلَّق بحياة الشّيخ عبد الرَّحمن الأخضري ـ دفين (بنطيوس) ـ والشَّهير بتآليفه التي فرضَت نفسها منذ قرون في عدَّة جامعات مِن بلاد العالم الإسلامي، ومع هذا بقيَت جوانب من ترجمة حياته مجهولة، وقد اتَّفق جلُّ مترجميه على أنَّه لم يعمِّر طويلا، حتَّى اكتشف أخيرا العالم

(1) ص: 75.

(2) ص: 110.

البحَّاثة الأستاذ عبد المجيد حبَّة العقبي (**منظومة**) له، ذكر فيها تاريخ انتهائه من (**المنظومة**)، فكان متأخِّرا على ما أجمع عليه مترجموه بنحو العشرين سنة، وقد رأينا أنَّ الشَّيخ **أبا القاسم الحفناوي** تشكَّى في مقدِّمته لـ (**تعريف الخلف**) بأنَّه بذل جهودا في التَّحصيل على ترجمته فلم يوفَّق، ولهذا فكل ما عثرنا على ما يتعلَّق بحياته، كتاريخ وفاته، ومواقفه مع بعض معاصريه، يعدُّ كسبا مفيدا لتراثنا المفقود.

وقد اختلف النَّاس في تأويل حملته على المبتدعة الذين خصَّهم بمنظومته المشهورة بـ(**القُدسيَّة**)، المحتوية على (357) بيتا، وقد تبارى معاصروه ومَن بعدهم بشرحها والتَّعليق عليها، منهم الشَّيخ **الحسين الورتلاني**، صاحب (**الرِّحلة**) الشَّهير، والحقيقة أنَّ **عبد الرَّحمن الأخضري** وإن كان على مذهب مؤلِّف (**منشور الهداية**)، أي: لا ينكر التَّصوُّف مِن أصله ولا الصَّلاح، بل نجدُ معظمَ مَن ترجم لـ: **عبد الكريم ابن الفكُّون** يذكرون أنَّه مِن كبار رجال التَّصوُّف، ومِن ذلك ما قاله في ترجمته **أحمد المقرِّي التِّلمساني**[1]، فبعد أن ترجمه كما سبق ذِكرُه في أوَّل التَّقديم، ونشَر رسالته التي كاتبه بها عقَّب على ذلك بقوله: «والمذكور عالم المغرب الأوسط غير مدافع، وله سلف علماء ذوو شهرة، ولهم في الأدب الباع المديد، غير أنَّ المذكور مائل إلى التَّصوُّف، ونِعمَ ما فعل، تقبَّل الله عملي وعمله، وبلَّغ كِلانا أمله»، وقال **أبو سالم العياشي**[2] في ترجمته: «وكان (رضي الله عنه) في غاية الانقباض والانزواء عن الخلق ومجانبة علوم أهل الرُّسوم، بعد ما كان إماما يقتَدى به فيها، وله في كثير منها تآليف شهِد له فيها بالتَّقدُّم أهل عصره، فألقِيَ في قلبه ترك ذلك والعكوف على حضرته بالقلب والقالب، والتَّردُّد إلى (الحرمَين الشَّريفَين) مع كِبر السِّنِّ، وكان يقول إذا ذكِر له شيء مِن هذه العلوم:

---

(1) كتاب (**نفح الطِّيب**) ج/ 1، ص: 564، المطبعة الأزهريَّة المصريَّة، سنة 1303هـ.

(2) **الرِّحلة العياشية**، المطبوعة بالمطبعة الحجريَّة، بـ(فاس) ج/ 2، ص: 390.

(**قرأتها لله، وتركتها لله**)، وقنعت منه (رضي الله عنه) بالكلمة التي قالها لي لَمَّا علمتُ حاله وخشيتُ أن أثقِل عليه وأكلِّفه ما لا تطيب به نفسه، فإنَّه (رضي الله عنه) من أهل القلوب، ومرويَّاته (رضي الله عنه) مستوفاة في (**فهرسة**) شيخنا **أبي مهدي عيسى الثَّعالبي** ... الخ »، فإنَّ هذه التَّآليف ـ أي: تآليف **الأخضري** وغيره ـ ظهرت لَمَّا طغت البدع وأصحابها، فتصدَّى لهم علماء السُّنَّة السَّلفيُّون بالإنكار، فنجد الأخضري يصف أحوالهم في (**القُدسيَّة**)، فيقول:

يـا وَيلتَـى هـذا زمـان البـدع   مات بهـا أهـل التُّقـى والـورع

بعد أن عرَّف الولاية الحقيقيَّة بقوله:

واعلــم بــأنَّ الــوليَّ الرَّبَّــاني   لَتـــابعُ السُّـــنَّة والقـــرآن

والفرق بين الإفك والصَّواب   يعـــرف بالسُّـــنَّة والكتـــاب

وقال في وصف الدَّجَّالين المحترفين للتَّصوُّف:

فــأين حــال هــؤلاء القــوم   مـن سـوء حـال فقـراء اليـوم

قـــد ادَّعَـــوا مراتبـــا جليلـــة   والشَّـــرع قـــد تجنَّبـــوا ســـبيله

قـد نبـذوا شريعـة الرَّسـول   فالقوم قد حادوا عـن السَّـبيل

قـد ملكـت قلـوبهم أوهـام   فـــالقوم إبلـــيس لهـــم إمـــام

كفـــاك مـــن جمـــيعهم خيانـــة   إذ ختلـــوا الـــدُّنيا بالدِّيانـــة

وهتكـــوا محـــارم الشَّـــريعة   وســـلكوا مســـالك الخديعـــة

وقد تصدَّى كثير من العلماء لمحاربتهم، فعلاوة على مَن ذكرنا نجد (**منظومة**) الشَّيخ عبد الرَّحمن بن محمَّد بن علي المجَّاجي[1]، وقد ترجم عبد الكريم بن الفكُّون

---

(1) كانت له (**منظومة**) سمَّاها: (**قارعة الأسماع والقلوب في محاربة مبتدعة الدِّين المدَّعية علم الغيوب**).

لصاحبها الذي زاره بـ (قسنطينة) مرارا، وأهدى له (منظومته) التي كان ينوي شرحها، وكذلك الشَّيخ محمَّد بن حوَّاء [1] ـ دفين (مستغانم) ـ فإنَّه تعرَّض في منظومته: **(سبيكة العقيان فيمن حلَّ بمستغانم وأحوازها من الأعيان)** لكشف فضائحهم وانحرافاتهم عن تعاليم الدِّين.

ولنرجع إلى الجانب الذي تعرَّض له المؤلِّف عند ترجمته لقاسم ابن أمِّ هانئ وأفراد أسرته، خصوصا أحد أجداده ـ معاصر الشَّيخ **عبد الرَّحمن الأخضري** ـ فقال: «وجدُّه ينسَب إلى الصَّلاح، وكذا سلفُه، وإن كان حُكِيَ لي عن الشَّيخ سيِّدي **عبد الرَّحمن بن صغير** الطَّعنَ عليه، فتلك أمَّة قد خلت، وكذا حكى لي الطَّعن منه على الغراب المدفون بـ (عين الحمَّة)، خارج (قسنطينة)، وربَّما قيل إنَّ الشَّيخ عبد الرَّحمن أمر تلامذته بضرب الغراب حين فاجأهما اللِّقاء، وكان الغراب راكبا على حصان فبال دمًا، قيل لي: فقال عند ذلك للشَّيخ عبد الرَّحمن: إنَّك أمرتَ تلامذتك بضربي، فالتفتَ الشَّيخ لأصحابه، وقال لهم: ألم تر أنَّا أرسلنا الشَّياطين على الكافرين تؤزُّهم أزّا، والله أعلم بحقيقة الأمر، وكان الشَّيخ المذكور فيما يُقال، يظهر النَّكير كثيرا على مثل هؤلاء، وجعل قصيدة فيهم وفي نظائرهم مِن مبتدعة زمانه، وكان يطعن في جدِّ قاسم المذكور ولا ينسبه للولاية».

فتبيَّن لنا من هذه الفقرات أنَّ الشَّيخ عبد الرَّحمن الأخضري كان ممَّن يغيِّر المنكر بيده ولسانه، وقد استشهد بكلامه صاحب التَّأليف في عدَّة تراجم.

ثمَّ يقول المؤلِّف: «والميزان الأعدل في ذلك أن تنظر إلى المرء وما هو عليه من الطَّريق القويم، والصِّراط المستقيم في اتِّباع السُّنَّة، قولا وعمَلا، فما كان فهو ممَّن يجب الاعتقاد فيه، وما لا فلا».

---

(1) محمَّد بن حوَّاء ـ دفين (مستغانم) ـ كان من علماء منتصف القرن الثَّاني عشر الهجري.

ثمَّ قال: «ولنرجع إلى التَّعريف بالرَّجل المذكور، وبدأنا به لعظم مفسدته بين الخلق، وشهرة بدعته وقوَّتها، فاعلم أنَّ هذا الرَّجل كان في ابتداء أمره ذا سمت حسن باق، جانب جبايا زواياهم، إذ لأسلافه رعايا يؤدُّون لهم الأعشار والزَّكوات، فكان ذلك الرَّجل مباعِدا لأمورهم، مشغولا عنهم بجعله لنفسه خلوة في أماكن يعدُّها، ويواظب على الصَّلوات والصَّوم، ويرى تناول أكله لطعام الشَّعير، ويتقشَّف في لبسه بلبس الغرارة والمرقَّعة، حتَّى أمال القلوب إليه، وأصغى الآذان نحوه، وأشارت بالأكفِّ إليه الأصابع، وسبب ذلك أنَّ رعاياهم امتدت إليها أيدي اللُّصوص، فلم يبق لها بينهم حرج، وصاروا يأخذونهم حيث ما وجدوهم، إلاَّ أن يجعلوا غرامة للُّصوص، وذلك بعد موت جدِّه الأحسن المذكور، وخصوصا لمَّا وقع لولده أبي عبد الله محمَّد من القيام وشقِّ العصا بجبالٍ قرب (**نقاوس**) ما هو مشهور، وخرجتْ إليه عساكر قواد (**قسنطينة**)، وافتضح أمره، وهرب إلى بعض نواحيها، سقطوا في أعين الخاصِّ والعامِّ، وصارت الأعين ترقبهم بما فعل والده».

إنَّ هذه الثَّورة التي ذكرها المؤلِّف كانت في عهد (**الدَّولة الحفصيَّة**)، وأظنُّ [أنَّها وقعت] في عهد والد الملك الحسن، المتوفَّى سنة 932هـ، إذ كان محبوبا عند الرَّعيَّة، أمَّا ولده الحسن فإنَّه ما عدا الأيَّام الأولى من حكمه فقد ثار عليه السُّكَّان من كلِّ جهة، وقد كان ختام تصرُّفاته أنَّه استعان بملك أسبانيا على استرجاع (تونس)، بعد أن ملكها خير الدِّين باشا، لهذا كثرت في عهده التَّمرُّدات.

ولنرجع إلى الحديث عن **قاسم ابن أمِّ هانئ** الذي بدأ بترجمته، وذكر كثيرا من موبقاته، منها أنَّه يدَّعي الصَّلاح والولاية، فحكم عليه المؤلِّف بالزَّندقة، فقال: «وأمَّا الزَّندقة فبدعواه أنَّ ما أصاب من النَّكبات مَن لم يوافقه على مرغوبه، هو ببركته، ومِن أجل حضرته، وقد علِم أنَّ التَّحدِّي فارقٌ بين منصب النُّبوءة والولاية، فالوليُّ إذا تحدَّى

تزندق، وخرج عن دائرة أهل القُرب والخصوص، وقد ذكر علماؤنا في كتبهم أنَّ مَن قال: أنا وليٌّ، فهو زنديق، هذا لو كان آثار الطَّريقة ظاهرة على صاحبها، وأمَّا مَن هو في لجج العماية غريق، وفي تيه الحرمان راكض، متلطِّخ بقذرات المعاصي الظاهرة، التي هي عنوان عن الباطن، «أمرت أن أحكم بالظَّاهر» [1]، فأنَّى يشمّ رائحة أهل الله، أو يفضي إلى مناهجهم الرَّشيدة، أو يهتدي إلى منازلهم السَّعيدة، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (المجادلة: 22)، ولله درُّ أبي زيد الشَّيخ عبد الرَّحمن الأخضري، حيث نظم ما قاله السَّادة الصُّوفيَّة في هذه الطَّائفة، قال (رحمه الله تعالى):

وقال بعض السَّادة الصُّوفية ... مقالة جليَّة صفيَّة

إذا رأيتَ رجلا يطير ... أو فوق ماء البحر يسير

ولم يقف عند حدود الشَّرع ... فإنَّه مُستدرَجٌ وبِدعي

...الخ

وقد استدلَّ المؤلِّف بكلام الشَّيخ **أحمد زرُّوق البرنُسي الفاسي** في وصف المدَّعين للطُّرق الصُّوفيَّة في عهده ـ أي: في أواخر القرن التَّاسع ـ فنقلَ مِن تأليفه المسمَّى: **(كتاب البدع)** فقرات قال فيها: «تتبَّعتُ بفكري الطُّرق الاصطلاحيَّة الموجودة بأيدي النَّاس الآن، فلم أجد عند أهلها نفحة ولا نورا، ولا حقيقة ولا علما، ولا ذوقًا ولا فَهما جاريًا على القياسِ الأوَّل، إلاَّ لذَّة نفسانيَّة، غالبها من استشعار الرِّياسة، والالتذاذ بالامتياز والاختصاص بالنِّسبة ونحوها، قال: هذا ما وجدتُ في صادقهم، وأمَّا غيره فلم أر منه إلاَّ لعبا ولهوا، وفخرا وكِبرا، وتعصُّبا وخروجا عن الإضمار بكلِّ وجه، فكلُّ مَن تأمَّل ذلك وجده عند مخالطتهم، والنَّظر في أحوالهم» اهـ. كلام زرُّوق الذي نقله

---

(1) إشارة إلى حديث اشتهر على ألسِنة الناس، وليس له أصل. (ع)

المؤلِّف.

ثمَّ يذكر أفرادا كثيرين كانت لهم علائق مع رؤساء الإقطاع الذين يسمِّيهم المؤلِّف باللُّصوص، ويسترسل في حديثه عن بعض مَن يدَّعون الجذب، ويعقد بحثا مفيدا في الجذب فيقول عن بعض المترَجَم لهم: «فإن زعموا أنَّه مِن أهل الجذب، وأنَّه غير مخاطَب، فيقال لهم: ما تعنون بالجذب ؟ أَجذْبَ أهلِ الولاية، أم جذْبَ مَن سلب العقل والدِّراية ؟.

أمَّا (**الأوَّل**): فهو مقامٌ عالٍ، ومرتبةٌ رفيعة، يتحاشى صاحبها عن ترك المندوبات فضلا عن الواجبات والوقوع في المحرَّمات، وكيف لا وقد جذبته مِن أوصاف النَّفس يدُ العناية، وطهَّرته من أدناسها، وأبعدته مِن إيناسها وإحساسها، وقد اختلف في السَّالك المجذوب، والمجذوب السَّالك، أيُّهما يقدَّم على الآخر في استحقاق الشيخوخة، فقال ابن عبَّاد في (**رسائله الكبرى**): «الذي يظهر لي صحَّة ما قاله السَّهروردي (رحمه الله تعالى)، لأنَّ المجذوب السَّالك أرجح تربيَّة مِنَ السَّالك المجذوب، فيصِل به المريد في أقرب مدَّة، لأنَّ سلوكه كان على بيِّنة، وبعدَ تقدُّمِ مشاهدةٍ »اهـ. فإذا كان مَن فيه صفة الجذب بالمعنى المذكور أقرب للتَّربيَّة، وأرجح لمرتبة المشيخة، فكيف يُعتقَد فيه ارتكاب المحرَّمات وترك الواجبات ! وهل معتقِد هذا إلاَّ أعمى البصيرة، وخبيث السَّريرة، يُدخِل في حضرة أولياء الله تعالى جماعةَ العاصين، ويحكم على جانب الرُّبوبيَّة بأنَّهم عنده مِنَ المقرَّبين، فما أشنعها مِن مصيبة في الدِّين، وما أعظمها بين العالمين، وقد قال تعالى في قريب مِن هذا: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ (الزخرف: 19).

وأمَّا (**الثَّاني**): وهو سلب العقل والدِّراية، فلا يصحُّ في عقل عاقل أن يدَّعى الولاية فيمن سلِبَ عقله، وصار بمثل البهيمة لا يعرف معروفا، ولا ينكر منكرا، وقد قال تعالى فيمن سلِب التَّوفيق، وحاد عن سواء الطَّريق: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ

سَبِيلًا ﴾ (الفرقان: 44)، وقد علم أنَّ العقل جعله الله تعالى مناطا للتَّكليف، وأنَّه لا يسكنه إلاَّ مَن أحبَّ، وقد امتنَّ به على الإنسان، فكيف يكون [مَن هو مِن] أهل صفوته ووُدِّه مسلوبا منه؟!

فانظر إلى سخافة عقول هؤلاء، وقلَّة تمييزهم في نسبتهم مَن كان كالأنعام أو أضلّ، وكالخشاش، أولياء مقرَّبين، وقد أخبر الله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (الأنفال: 22)، فهل ترى مَن أخبر الله عنهم بصفة الشَّرِّ أن يكونوا أهل الحضرة والحظوة ؟ وهل معتقِد هذا إلاَّ جاهلٌ غبيٌّ، أو معاندٌ شقيٌّ ؟ عافانا الله ممَّا ابتلاهم، وعافانا ممَّا به دَهاهُم».

ثمَّ يختم هذا الفصل بقوله: وقد يهجس في النَّفس بأنَّ ذكر هؤلاء في الأوراق، والاعتناء بهم في الكتب تنويه بذكرهم وترفيع لقدرهم، وإهمالهم أولى، وعدم التَّعرُّض لذكرهم أحقُّ وأجلى، إلاَّ أنَّ النُّصح العام هو الملجئ لذكرهم، والغيرة على حمى الله ورسوله وبساط أوليائه وأصفيائه أن يدَّعى جلوس مثل هؤلاء عليه، هو الموجب للتَّعرُّض لهم، ولي في هذا سلف من خير سلف، لقد أوضحت علماء الدِّين وأئمَّة المسلمين نقلة حديث سيِّد المرسلين، وكشفوا عن رُوَاتِه، وبيَّنوا مَن يصحُّ النَّقل عنه ومَن لا يصحّ»[1].

من هذه الجملة الأخيرة يتبيَّن لنا أنَّ المؤلِّف لم يطَّلع على مَن سبقه من المؤلِّفين في هذا الموضوع ـ على فرض وجودهم ـ ولهذا جعل قدوته فيه علماء الحديث الذين أجازوا التَّعديل والتَّجريح في رجال السَّند ورواة الحديث.

ثمَّ يتعرَّض المؤلِّف لطبقات خاصَّة تدَّعي الانتماء إلى أسَر شريفة أو علميَّة، وتبالغ

(1) ص: 202.

في الكِبر والجبروت، والتَّرفُّع على مَن عداها، فقال: «ظهر منهم العتوُّ والاستكبار، وصار العقب عند الخاصَّة والعامَّة في عصرنا ممَّن لا يلحق لهم شأو، ولا يقاسون بقياس غيرهم إذا قالوا: أولاد فلان، جرى تفضيلهم على جميع الأمَّة، علمائها وصلحائها، بل وأولاد سيِّد المرسلين، فيجعلون لهم من الرِّفعة والافتخار ما لم يجعلوا معشاره لأولاد النَّبيِّ المختار، والكفر أقرب لهؤلاء من الإيمان، والطَّرد أولى بهم والخذلان (عافانا الله وإياهم ممَّا ابتلاهم)، والفخر كلّ الفخر لأولاد سيِّدنا رسول الله ﷺ، حتَّى أنَّهم ربَّما يُنسبون إليه، وافتخارهم بجدِّهم الأقرب، وانتماؤهم إليه، ونسَوا مَن أخرج الله به الخلق من العمى، وجاء بالخير والهدى، فهذه فتنة ومصيبة لا أعرفها إلاَّ في هذه البلدة الظَّالِمِ أهلُها، ولقد ذكر مَن أثقُ به أنَّه اجتمع مع بعض جبابرة العقب المذكور، ممَّن نشأ في حِجر الظُّلم والفجور (أراح الله منه العباد، وطهَّر منه عاجلا البلاد) أنَّه قال: نحن بني فلان لسنا من النَّاس، وليس مثلنا أحد، أو كلاما هذا معناه» اهـ.

وفي الحقيقة ما زالت بقايا من هذه الطَّوائف في البلاد استغلُّوا ما حصل عليه آباؤهم مِن ريع الأحباس، وكوَّنوا ثروات ضخمة، فزاحموا أهل الرِّياسة، وتسابقوا إلى الوظائف الإداريَّة والسِّياسيَّة، كما وقع في عهد الاحتلال عندنا، والكثير منهم، خصوصا الأسر المنتمية لبعض العلماء الصَّالحين إلاَّ أنَّ أفرادها تركوا العلم، وانحرفوا عن تعاليم الدِّين، وكوَّنوا عصابات كانت خطيرة، انتشرت في عهد الأتراك، وبقيت منها بقايا هزيلة في عهد الاحتلال، ومع التَّأثير الزَّمني تلاشت وضعُفت.

وقد ختم المؤلِّف هذا الفصل ـ أي: الثَّالث ـ برسالة منهجيَّة في موضوع هذا الفصل، كتبها الشَّيخ أحمد زرُّوق لتلميذَين مِن تلامذته، فيها وصايا ومنهج سلوك، قيِّمة في بابها، علَّق عليها المؤلِّف بقوله: «قلت: لله درُّه، ما أعلمه بالطَّريقة، وما أتبعه للسُّنَّة ».

وهذه الوصيَّة جامعة[1] لمباني الطَّريقة والحقيقة، فهي قائمة مقام الشَّيخ لمن تلقَّفها وعضَّ عليها بالنَّواجذ، والعدول عنها إتعابُ للنَّفس، وتسوُّرٌ للشَّيء من غير بابه، وعلى الله قصد السَّبيل ».

ثمَّ انتقل إلى الحديث عن (**الفصل الرَّابع**) والأخير، الذي جعله خاتمة تأليفه، فقال: «خاتمة الكتاب: في ذكر مَن أردنا ذكره من الأصحاب والأحباب »، وقد ذكر في هذا الفصل بعض المنتسبين للطَّريق، والموظّفين كالقضاة والمفتين والمدرِّسين من معاصريه، وكانت أحوالهم في مجموعها مستقيمة، فبدأ بالشَّيخ بلغيث، فقال: «فنبدأ بالشَّيخ الصَّالح، الفقيه بلغيث، كان بـ (تونس) في ابتداء أمره يطلب العلم، فنال منه ما صار به من أهل الفقه والمعرفة»، إلى أن يقول: «وصل إلى (مصر) ورجع إلى مدينة (تونس)، استعمل نفسه في بيته، واحتجب، واتَّخذ طريقة القوم من الجمع والذِّكر وإعداد الأطعمة والتَّلامذة، حتَّى ظهر أمره، ولولا ما فيه من العلم والمعرفة اللَّذين هما زمام الطَّريقة لكان فيه بعض شيء، إلاَّ أنَّه استفاض عنه أنَّه لا يأخذ ما يُعطى له لنفسه، بل يجمعه ويصرفه للفقراء، كان قليلا أو كثيرا، والله أعلم بصحَّته »، إلى أن يقول: «وكان ينقل عنه بذل المال للأسرى، وبناء ما وهى مِنَ المساجد، وأحدث زوايا بأماكن شتَّى، وجعل خارج سماطها ما يأتي له من العِدات والصَّدقات على يد وكلائه ».

ثمَّ يذكر الشَّيخ **أبا عبد الله محمَّد الموهوب بن أبي عبد الله محمَّد بن علي**، صاحب (المعهد) الشَّهير ببلاد (زواوة)، وقد زارهم للمنزل، ونزل ضيفا عند والده في طريقه إلى الحجِّ، كما لازمهم ولده، وأخذ عن المؤلِّف، وقد لخَّص المؤلِّف سيرة المترجَم في قوله: «وتوفي (رحمه الله) بعد قدومه من الحجِّ لمدَّة أعوام، واسقلَّ ولده (حبيبنا الله، المخلص فيه) سيِّدي محمَّد الموهوب، فقام بسيرته بل أشدّ، واتَّبع سنَّته وطريقته في

(1) في الأصل: « جمعت ». (ع)

إطعام الطَّعام، والإحسان إلى عباد الله، والأخذ بأيديهم، وتحصيل النَّفع لهم، وطريقتُهم المألوفة أنَّهم يتردَّدون مع القوافل والسفار المجتازين ببلادهم لكي يأمنوا من مكر أهل ذلك الوطن، إذ هم لصوص، الغالب عليهم استلاب القوافل والسفار، واستئصال آخذهم، إلاَّ أن يكون معهم من أولاده أحد، وربَّما اضطرَّه الأمر إلى الوقوف بنفسه في الأمر المهمِّ من كثير من أموال أو عظيم قفل لابدَّ فيه مِن وجاهته».

ثمَّ يذكر آخرين، ومنهم: عالِمَان جليلَان من **(تونس)** وردا إلى **(الجزائر)** في مهمَّة دبلوماسية[1]، وتعرَّفا بزميلهما الجزائري في **(قصر جابر)** بـ **(الجزائر)**، حيث كانوا نازلين، فحدَّثهما الجزائري، وهو الشَّيخ **أبو العبَّاس أحمد بن الحاجَّة** عن أستاذه عبد الكريم ابن الفكُّون، فكاتباه بكتابَين بليغَين، وهذان العالِمَان هما: أبو إسحاق إبراهيم الغرياني القيرواني، و**أبو محمَّد تاج العارفين التُّونسي**، وهذه هي الظُّروف التي اجتمعا فيها بتلميذ المؤلِّف كما ذكرها في ترجمة تلميذه أبي العبَّاس أحمد بن الحاجَّة، فقال: «وقد اتَّفق له حين وقع اجتماعه مع السَّيِّد **أبي إسحاق إبراهيم الغرياني** مِن بيتات[2] (القيروان) وأكابرها، ولهم ولأسلافهم صيتٌ عظيم بتلك النَّاحية، ولهم زاوية يطعم بها الغرباء والواردون، واجتمع أيضا بالسَّيِّد الإمام الخطيب **أبي محمَّد تاج العارفين**، حفيد السَّيِّد أبي بكر الأموي في نسبه، كذا رأيته بخطِّه في مراسلاتهم، وهم أيضا دار

---

(1) وقد قال صاحب **(المؤنس)**: «وفي سنة سبع وثلاثين كانت الواقعة العظمى بين عسكر (الجزائر)= =وعسكر (تونس)، ومات فيها خلقٌ كثير... ومشت جماعة من مشيخة البلاد، مثل الشَّيخ تاج العارفين البكري والشَّيخ إبراهيم الغرياني....الخ»، وقال في موضع آخر: « ولم يكن بالدِّيار التُّونسيَّة من يوم حلَّ بها العسكر العثماني مَن تعاطى الرِّواية والدِّراية إلاَّ الشَّيخ العالم العلم الرَّبَّاني الشَّيخ أبو عبد الله محمَّد تاج العارفين العثماني (سقى الله ثراه من صوب الرَّحمة والرِّضوان)، وكان مجلسه بـ (الجامع الأعظم) مِن أجلِّ المجالس، وتحضره الأجلاَّء من أهل العلم ... الخ ».

(2) كذا في الأصل، والصواب: «بيوتات». (ع)

علم وصلاح، وجدُّه كان خطيبا بـ (**جامع الزَّيتونة**) بـ (**تونس**) بعد امتحانه الواقع له.

وكان خروج المذكورين رسلا من قِبَل عسكر (تونس) قاصدين الصُّلح مع عسكر (الجزائر) في الواقعة التي وقعت بينهما في عام سبعة وثلاثين[1]، وكان أبو العبَّاس صاحبنا المذكور ممَّن توجَّه مع عساكر (الجزائر المحميَّة)، فتذاكر السَّيِّدان مع حبيبنا لله أبي العبَّاس [في] شأني، وما أنا عليه من طباع جبلني الله عليها، هي عند صاحبنا المذكور حسنة، والله يعلم المفسِدَ منَ المصلِح (جزاه الله على نيَّته خيرا، ووالى عليه أجرا، وجعله له في المعاد ذخرا)، فراسلاني برسالتَين، من كلٍّ واحد رسالة، أفصحا فيهما من البديع الشَّكل إلى شكله، ولسان حالهما ينادي: ﴿**فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ**﴾ (البقرة: 23)، وإذا بلغ الكلام إلى هذا المقام فذكرهما هنا ممَّا لا يلحق فيه ملام...»[2].

وقد نشر الرِّسالتَين القيِّمتَين اللَّتَين ملأتا 15 صفحة من التَّأليف، وختم بعدهما بترجمة معاصره **أبي العبَّاس أحمد المقرِّي التِّلمساني**، الشَّهير بتآليفه، خصوصا (**نفح**

---

(1) كان ذلك في عهد **يوسف داي**، المتوفَّى بـ (تونس) سنة 1047هـ، وترك آثارا هامَّة، منها (جامع سيدي يوسف)، بـ (حي القَصَبة)، وقد ذكر هذه الواقعة ابن أبي دينار في: (**المؤنس**) وغيرُه من مؤرِّخي ذلك العهد.

(2) وهذه الميزة التي كان يمتاز بها علماء المغرب العربي، حيث إنَّهم رغم الخلافات بين ملوكهم التي كانت كثيرا ما أدَّت بهم إلى إعلان الحرب على بعضهم بعضا، وعندما يذهب علماء البلاد للتَّفاوض في الصُّلح، فيتَّصلون بعلماء القطر الشَّقيق ويتبادلون معهم الإجازات والتَّآليف، وقد كان هذا بالخصوص بين علماء (المغرب الأقصى) وعلماء (الجزائر)، وقد رأينا العلماء التونسيِّين أيضا بمجرَّد وصولهم واتِّصالهم بزميلهم الذي عيِّن للتَّفاوض معهم، أفادهم بمكانة أستاذه، فسارعا إلى مكاتبته من دون سابق معرفة، وهذه الرَّابطة بين علماء الإسلام كانت لها أهمِّيَّتها وفوائدها الجمَّة.

الطِّيب) الذي يعدُّ مِنَ الموسوعات في تاريخ الأدب العربي بـ: **الأندلس والمغرب**، ولا زال محلَّ اهتمام بحوث الأدباء والعلماء مِن مختلف الأجناس[1].

وكشف المؤلِّف جوانب من تاريخ حياة زميله المقرِّي لم يُعرِّج عليها غيره، وخصَّ لها عشرين صفحة، ولو لم يوجد في هذا التَّأليف إلاَّ ترجمة **المقرِّي** لكان له وزنه وقيمته في إحياء التُّراث، إذ **المقرِّي** شخصيَّة عالميَّة اهتمَّ به وبآثاره كثيرٌ مِنَ الكتَّاب، وبقيَت جوانب مِن حياته مجهولة، وإنَّ أهمَّ ما وصلنا مِن تاريخ حياته مِن الكتَّاب المتأخرِّين، التَّرجمة التي خصَّه بها الشَّيخ العبَّاس بن إبراهيم المرَّاكشي في تأليفه **(الإعلام بمن حلَّ بمرَّاكش وأغمات مِنَ الأعلام)**[2]، وترجمة الأستاذ عبد الوهَّاب بن منصور في تقديمه لـ **(روضة الآس العاطرة الأنفاس، في ذكر مَن لقيتُه من أعلام الحضرَتَين مرَّاكش وفاس)**، الذي عثر عليه أخيرا، بعد أن كان يظنُّ أنَّه فُقِد منذ قرنَين، وقامت بطبعه (المطبعة الملكية)، بـ (الرِّباط)، سنة 1383هـ/ 1964م.

وكِلا العالِمَين تتوفَّر لهما المعطيات التي قلَّ أن تتوفَّر لغيرهما، إذ قضى المقرِّي زهرة شبابه في (المغرب)، وكان لأسرته ـ خصوصا عمُّه وأستاذه سعيد المقرِّي ـ اتِّصالٌ وثيقٌ بعلماء (المغرب)، كما كان لجدِّه مِن قبلُ محمَّد، الذي تولَّى القضاء وإدارة (المدرسة العنانية)، في عهد الملك أبي عنان المريني، ثمَّ هاجر إلى (المغرب) بقيَّة أفراد الأسرة المقريَّة بعد احتلال فرنسا لـ (الجزائر)، وهاجر قبلها ومعها كثيرٌ من علماء (تلمسان)، ونقلوا معهم خزائن كتبهم.

فرغم هذه المعطيات، لم نستفد منها شيئا زائدا عن تراجم القدامى، وقد غفل

---

(1) ومِن جملة مَن كتبَ عنه مِنَ الأجانب في عصرنا هذا، المستشرق الرُّوسي **كراتشوفسكي** في تأليفه: **(تاريخ الأدب الجغرافي)**.

(2) المطبوع بـ (المطبعة الجديدة)، بـ (فاس).

جلُّهم على ذكر مروره على عاصمة (الجزائر)، وإقامته بها، وهي عاصمة البلاد إذ ذاك، حتَّى اطَّلعنا على ما كتبه هو نفسه في ختام حاشيته على الصُّغرى المسَّماة: (**إفادة المغرم المغرى، بتكميل شرح الصُّغرى**)[1]، قال في آخرها: «قال جامع هذه الفوائد، وملتقط هذه الفرائد، عبيد الله الفقير إلى رحمة الله، **أحمد بن محمَّد بن أحمد بن يحيى بن عبد الرَّحمن بن أبي العيش بن أحمد بن محمَّد المقرِّي القرشي، التِّلمساني** مولِدا ومنشأً، نزيل محروسة (فاس)، (وقاه الله كلَّ ضرٍّ وباس، وكفاه شرَّ الجِنَّة والنَّاس)، هذا آخر ما تيسَّر جمعه مِنَ الحواشي التي كان أكثرها في مقيَّداتي، وبعضها نقلته مِن خطِّ شيوخنا الفاسية، ووضعتها في محلِّها تتميمًا للغرض، على أنِّي لم ألحقها إلى الآن، وأحذف منها التّكرار، وأرتِّب ما غلطت في تقديم بعضه على بعض من كلام الشَّارح، فلم أشعر به إلاَّ بعد كتبه، وقد ألهمني المولى الكريم إلى جميع ما ذكِر مع اضطرام أهوال، فكتبتُ جميعه في أيَّامٍ عشرة، جمعتُ فيها جميع ما تفرَّق وما أبرزه التَّقييد ونشره، بعد أن كان ذلك مِن قبيل المتعذِّر الإمكان، وقد كنتُ قيَّدتُ عن أشياخنا بـ (تلمسان) قبل هذا الأوان، وغيرهم من علماء (بني راشد) العارفين بهذا الشَّان... وكان الفراغ في جميع ذلك... بمحروسة (الجزائر) (حماها الله تعالى)، قال المؤلِّف: وألحقتُ فيها نحو الأربع مواضع بعد هذا التَّاريخ بـ (ثغر الإسكندريَّة)، عام ثمانية وعشرين بعد الألف (عرَّفنا الله خيره) آمين ...».

تبيَّن لنا من هذا التَّأليف أنَّ المترجَم كتبه في محروسة (الجزائر)، كما أفادنا بأنَّه أخذ عن علماء (بني راشد) علم التَّوحيد، وحقيقة إنَّ كثيرا من تلامذة **السَّنوسي** كانوا من

(1) أظنُّ أنَّ هذا الاسم اقتبسه من قول الشَّاعر الثغري في مدحه للملك الغنيِّ بالله أبي زيان التِّلمساني الذي كان ينسخ (**المصاحف**) و(**صحيح البخاري**) بيده، قال:

لــه بكتــاب الله أعنــى عنايــة   وبالسُّنة الغرَّاء هو المغرمُ المغـرا

(بني راشد)، وأحدثوا معاهد بها، فاشتهر مِنهم الشَّيخ **محمَّد بن يحيى المغراوي**، و[الشَّيخ] **عبد القادر بن خدَّة الرَّاشدي**، صاحب **(الحاشية)** المشهورة على **(الصُّغرى)**، وغيرهما، وهذا جانبٌ أيضا لم يعرَف مِن حياة المقرِّي، إذ مترجموه يذكرون مشايخه التِّلمسانيِّين والمغاربة.

ثمَّ وجدنا في **(مذكِّرات)** سعيد قدُّورة[1] (مفتي المالكية) بـ (الجزائر)، فيما جمعه حفيده ووارث خزانة كتبه: محمَّد بن سيِّدي سعيد، المتوفَّى في أوائل القرن الهجري الجاري، وسمَّاه: **(جليس الزَّائر وأنيس السَّائر)**، قال: «لغزٌ للإمام سيِّدي سعيد بن **إبراهيم الجزائري** على الإمام سيِّدي **أحمد المقرِّي** حين ورد على **(الجزائر)** قاصدا المشرق:

أبدرا بدا مِـن غربنـا بجزائـر	وبحرا عبابا من نفـيس ذخـائر
أحاجيك يا فخر الزَّمان بلفظة	أتت في مقام الرَّفع دون محـاذر

وزاد أبياتا ثلاثة، فأجابه المقرِّي:

أتاني نظام مـن فقيـه الجزائـر	فحيَّيتــه إذ كــان أكــرم زائــر
أشــار بــه فـيما أظـنُّ للفظـة	عراها من الاتباع حكمٌ مغاير»

ثمَّ زاد ثلاثة أبيات، واسترسلا في هذه المساجلة التي يضيق هذا التَّقديم عن متابعتها وتسجيلها، وإنَّما ذكرنا بعضها لنستدلَّ على مرور المقرِّي على (الجزائر)، واجتماعه بعلمائه، منهم: الشَّيخ سعيد قدُّورة، الذي كان إماما إذ ذاك بـ (جامع سيدي رمضان)، لأنَّه تولَّى الإفتاء سنة 1028هـ ـ أي: بعد زيارة المقرِّي بسنة ـ.

---

(1) سعيد قدُّورة الجزائري: توفي سنة 1066هـ، وقد اشتهر بكثرة تلامذته، خصوصا في الحديث، وقد أخذ عنه **محمد ابن سليمان الرُّوداني السُّوسي**، وذكره في (فهرسته)، وكذلك ذكره **ابن زاكور الفاسي** ضمن شيخ مشايخه، وكان من تلاميذ **سعيد المقرِّي**، التحق به حوالي سنة 1008هـ.

هذا كلُّ ما سبقت لنا معرفته عن مرور المقرِّي بـ (الجزائر)، إلى أن اطَّلعنا على ترجمته في: (**منشور الهداية في كشف حال مَن ادَّعى العلم والولاية**) لابن الفكُّون، موضوع تقديمنا، فألقى أضواءً على ترجمته، منها: إقامته بـ (الجزائر)، ومروره على (تونس)، ومرافقته لأحد أعلامها، والأسباب الدَّاعية إلى خروجه من (المغرب)، والظُّروف التي وصل فيها إلى (القاهرة) ثمَّ إلى (دمشق)، ومراسلته إياه ـ أي: مكاتبة المقرِّي لابن الفكُّون ـ والدَّاعي إلى ذلك، وذكر مَن تسبَّب فيها، ثمَّ ردّ ابن الفكُّون على المقرِّي، وختمها بانطباعاته ـ أي: ابن الفكُّون ـ عن المقرِّي من خلال كتابه، فكانت بعض أحكامه عليه قاسية، لم نر مَن سبقه بها، قال المؤلِّف في ختام تأليفه: «ومِن جملة مَن نذكره هنا، وإن نأت داره، وبَعُد مستقرّه وقراره، الحافظ النِّحرير، أفصح زمانه، ودرَّة وقته وأوانه، أبو العبَّاس أحمد المقرِّي، وأختمُ به ـ إن شاء الله ـ هذا التَّأليف:

كان خطيبا بـ (**جامع القرويِّين**) بـ (**فاس**)، وأصله من مدينة (**تلمسان**)، قريب خطيب جامعها **أبي عثمان سعيد المقرِّي**، وارتحل إلى (**فاس**) وقطن بها، وحصل له من العلم، واستعان عليه بالحفظ، وبعد فساد بلد (**فاس**) بتبدُّل دولها بين أولاد أميرها وتداعت للخراب ارتحل، يقال: إنَّه عن خوفٍ من **الأمير** الذي تولَّى إذ ذاك، لكونه فيما يقال: له خلطة بالأمراء، والانتماء إلى بعض دون بعض، فنزل بدار (**الجزائر**) على فقهائها وعلمائها، وتصدَّى للتَّدريس بها، وقرأ التَّفسير على ما قيل في أيَّام إقامته، وسأله عالمها وخطيبها (حبيبنا لله تعالى) أبو عثمان سعيد بن إبراهيم الملقَّب بـ (كدُّورة)، وبيني وبينه محبَّة ورسائل (نفعنا الله بها فيها)، فأرسل إليه لغزا في: (**هاج الصِّنَّبْر**) نظما، فأجابه على ما قيل لي بديهة، لم يصادف المرام، فأعاد عليه السُّؤالَ، فتفطَّنَ وأبدع في المقال، وهو مشهورٌ متداول»[1].

---

(1) وقد نشره بتمامه صاحب: (**جليس الزَّائر وأنيس السَّائر**)، الذي نقلنا بعضه في (ص: 56)، أمَّا المؤلِّف فإنَه لم يذكر إلاَّ شطر البيت الأوَّل.

ذكر المؤلِّف الظُّروف التي غادر فيها المقرِّي (**المغرب**)، وذلك أنَّه تحيَّز لفريقٍ من أولاد **أحمد المنصور الذهبي**، وخشي من الفريق الآخر، كما ذكر بتفصيلٍ نزولَه بـ (**الجزائر**) وتصدِّيه لقراءة التَّفسير، ومساجلته مع سعيد قدُّورة زميله في الدِّراسة عند عمِّه **سعيد المقرِّي** ـ ، ثمَّ مروره على (**تونس**) ومرافقته أحد كبار علمائها، وهو: **أبو محمَّد** تاج العارفين، الإمام بـ (**جامع الزَّيتونة**)، الذي جاء في مهمَّة دبلوماسية إلى (**الجزائر**)، وتعرَّف بالمؤلِّف **ابن الفكُّون**، وكانت مرافقته للمقرِّي إلى الدِّيار الشَّرقيَّة قبل اتِّصاله بـ: **ابن الفكُّون**.

ثمَّ تتبَّع **ابن الفكُّون** ترجمته للمقرِّي فقال: «ثم سافر للمشرق واجتاز على تونس وصحبه منها إمام جامع الزيتونة بها **أبو محمد تاج العارفين** المذكور قبله، ولم يكن إذ ذاك متوليا للجامع المذكور وإنما تولاه بعد قدومه من الحج فسافرا معا إلى الحج في البحر وأقام **أبو العباس المقري** بـ: **مصر** ودرس بها بجامعها الأزهر وبها ووالاه من فقهائها الشيخ **أبو الحسن الأجهوري** وهو صاحب الجواب الذي ذكرته عنه في تأليفنا: (**محدَّد السنان في إباحة شرب الدخان**)، ثم يذكر المؤلف ما أخبره به أحد علماء الجزائر اتصل به في المشرق، قال: «فذكر لي عنه أنه رحل إلى الشام زائرا ورجع إلى مصر وبلغني أنه مشغوف بوطنه وأهله لأنه ترك به زوجا وابنة فيقال لي: إنه مهما تذكر ذلك بكى وحزن »، ثمَّ يذكر قصَّةً هامة كانت سبب التعرُّف به، وذلك أنَّ أحد تلامذة **ابن الفكون** ـ وهو **أبو عبد الله محمد بن باديس** ـ كان اجتمع بالمقري في المشرق وأطلعه على فتوى للفكون كان كتبها لتلميذه **ابن باديس** المذكور الذي سأله عن إعراب **ابن عطية** (المفسر) قوله تعالى: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي﴾ (البقرة: 105) فاطلع عليها المقري وعلق عليها وأثنى كثيرا على **الفكون** وأشاد به وبأسرته وهو كتاب بليغ فنشر المؤلف به فتواي

وقد... ثم تعليق المقري أو تقريظه ثم انطباعاته ـ أي: المؤلف ـ عنه فجوابه هو عن تقريظ **المقري** بجواب يماثله كما وكيفا.

وهذه فقرات من تقريظ **أحمد المقري** الذي قدمه **ابن باديس** إليه بعد رجوعه قال في مستهله: «الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم لما دخلت من أبواب، ما بمُحوَّله من الجواب، وأمعنتُ النَّظر في وصف بانيه الرَّافل في أثواب حلل الصَّواب، ألفيتُه ـ والله ـ مبنيًّا على قواعد التَّحرير منميا إلى مقاصد التحرير، دالا على تبحر صاحبه في الفنون وتصديقه في علماء قطر المغرب الظنون، فلو رآه **ابن قنبر**[1] و**الخليل** لاعترفا بأن فيه شفاء الغليل و**الأخفش** لأبصر ونكص عن معارضته واقصر ...»، إلى أن يقول: «... وبالجملة فهو العالم الذي ورث المجد لا عن كلالة، وتحقق الكل أن بيته شهير الجلالة، بيت بني **الفكون**، هضاب العلم والوقار والسكون،لازال الخلف منهم يحيون مآثر السلف:

ودام عبـــد الكـــريم فـــردا	في العلـــم والزهـــد والولايـــة
فهـو الـذي حـاز فضـل سـبق	وصـــار في ذا الزمــــان آيـــة
والله يبقيــــــــه ذا ســــــمو	مخلـــد الفضــــل والدرايـــة
بجـاه خـير الـورى المرجـى	مـــن خصــــه الله بالعنايـــة
عليـــه أزكـــى الصَّـــلاة تَـــتْرا	لـــــدى ابتــــداء وفي نهايـــة

قال: «هذا، وكتبه عجلا خجلا مرتجلا، العبد الفقير **أحمد بن محمَّد المقرِّي المالكي**، التِّلمساني المولد والمنشأ، نزيل (فاس) المحروسة، ثمَّ (القاهرة) (أخذَ الله بيدِه)» اهـ.

وقد ذكر المؤلِّف جوابه عن هذه الرِّسالة بعد أن مهَّد لها بقوله: «وهذا الجواب

---

(1) هو الإمام سيبويه. (ع)

منِّي، وإن كان كالصَّدى، فلا مندوحة عنه لمن بلغ مِن الإنصاف مرصدا، وحسب الواقف على جواب العالم المذكور اقتفاء أثره، والاستضاءة بنور شمسه وقمره، وقد خططتُ هذه الحروف عند قدومي مِن (الحجاز الشَّريف) مع اشتغالي بالسَّلام، وأجدر يرتفع بها عنِّي إن أخطأتُ الملام، والله يجعلنا ممَّن نظر إليه الواقف عليه بالعين الكليلة، وجعل بعون الله في التَّدبُّر الختم دليله » اهـ.

وقبل أن ينشر جوابه سجَّل انطباعاته عن كتاب المقرِّي، وعن شخصيَّته، [و] سنرجع إليها بعد نشر فقرات من الجواب، وهذه هي: «.... فنقول: ومِنَ الله أطلب التَّوفيق في المقول، ولله الحمد والمنَّة، وأصلِّي على أوَّل مَن يقرع باب الجنَّة، لَّما انفتحت لي أبواب رياض المسطور، وسرحتُ طرفي في منظومه والمنثور، فإذا هو بستان شهير، وروض نضير، رصِّعت جدرانه بلآلئ الفصاحة، ونضِّدت أرجاؤه بيواقيت البلاغة، وبهرمان الصَّباحة، واكتسى مِن أزهار حلل المعاني، ونوار أردية الاستعارات ما أروى بتوريَتِها خبايا طال ما نشر عليها ليل المراقبة جناحه، بانيه أحكمَ مبانيه، ومعانيه خبرة لمغانيه، سماع أوتار أفنان بيانه يشغف الألباب، ويُحيِي مَواتَ النُّفوس منه ريّا تلوين الخطاب، أعجوبة الدَّهر والأوان، وصناعة بديع الزَّمان، لو رآه **سحبان** لسحب ذيل الطَّاعة والإذعان، وأخرس بين الأقران، ولو أبصره **ابن هانئ**، لقابل بالبشرى والتَّهاني، واعترف ببلوغ الأماني، ولو ظفر به **أبو نواس**، لكان له به في المحاضرة إيناس، ولو تعرَّى **للمعرِّي**، لقال: هذا مقرِّي، وفرَّ من أثواب أدبه إلى حصن التَّعري .... الخ».

وختم هذا الجواب بأبيات قال فيها:

يـا نخبـة الـدَّهر في الدِّرايـة   علـما تعاضـده الرِّوايـة
لا زلـتَ بحـرا في كـلِّ فـنٍّ   يـروي بـك الطَّـالبون غايـة

لقـــد تصـــدَّرتَ في المعـــالي كـــما تعاليـــتَ في العنايـــة

إلى أن يقول:

يـــا أحمـــد المقـــرِّي دامـــت بُشـــراك تصـــحبها الرِّعايـــة
بجـــاه خـــير العبـــاد طـــرًّا والآل والصَّـــحب والنّقايـــة
صـــلَّى الإلـــه عليـــه تـــترا نكفـى بهـا الشَّـرّ والغوايـة

...الخ.

ولنرجع إلى انطباعاته التي ذكرها قبل، وقد اعتذر قبلها بأنَّه عندما أجاب تلميذه **أبا عبد الله ابن باديس** كان ما زال يشكو من الأمراض التي لازمته سنوات، بحيث إنَّه لو لم يطَّلع على الجواب الذي كان بخطِّه لَمَا ذكره، وفي ذلك يقول بعد فراغه مِن كتابته: «هذا آخر جوابي عن المسألة، ولم أشعر به لما أنا عليه من فادح المرض حتَّى لو سئلت عنه، أو عن المسألة لما حصل لي علم بذلك، حتَّى ورد عليَّ **أبو عبد الله محمَّد ابن باديس** مِن حجِّه، فذكر لي أنَّه حمل معه جوابا لنا أجاب عنه أبو العبَّاس المقرِّي تصحيحا لا توضيحا، غير ما طرَّزه بأوصافٍ هي إلى التَّهكُّم عنده أقرب منها للتَّحقيق، ونحن نورِدها بلفظها لا مِن حيث استحسان ظهور الثَّناء بها، بل مِن حيث إبانة ما له مِن فصاحة القلم التي حملته على ما أراده، ﴿ وَرَبُّكَ يَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴾ (القصص: 69)، والجواب الحقُّ بإظهار العلم لا باستصناع اللَّفظ، فلمَّا أرانيه استخبرته عنه، وجهلت أنَّني كنتُ خرج مِن يدي فلم أشعر إلاَّ وهو مخرجه من كمِّه، فرأيته فعلمتُ أنَّه لي بخطِّي، ولم أشعر بالموطن، ولا زمن كَتْبِه، ورأيتُ جواب **أبي العبَّاس المقرِّي** (حفظه الله تعالى)، ونصُّه ...».

ثمَّ ذكر الكتاب الذي نشرنا منه فقرات، وعقَّبه بتعليق، قال فيه: «وهذا الجواب منِّي، وإن كان كالصَّدى، فلا مندوحة عنه لمن بلغ مِن الإنصاف مرصدا...»، ثمَّ قال:

«قلتُ: هذا جوابه، وقد ضمَّنه التَّقيَّة من إبانة خطئه من صوابه، وليس هذا من شأن العلماء العاملين، ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ (العنكبوت: 69)، ولعمري لقد خان الله ورسوله بزعمه أنَّه علم من الجواب أبوابا يدخل منها، فغطَّاها بتزويق الألفاظ، وما ألجأه لهذا الأمر إلاَّ الثَّناء الجميل وحبّ المدحة المنهي عنه من الشَّرع، فباع إظهار الحقِّ على زعمه بثمن عاجل، فدخل في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ﴾ (آل عمران: 187)، أليس الواجب عليه تبيين ما في الجواب من الخطأ أو الصَّواب، ولا عليه ممن قال، أو يقول، هذا وهو في فسحة من دنياه، وبينه وبين صاحب الجواب بلاد ومهامه، ومفاوز خطيرة، فكيف لو كان بِقُربه أو نزيله ؟ وهذا الذي أورثه ما أورثه، ولله عاقبة الأمور.

وقد راجعتُ ما خرج مِن يدي من الجواب بعد كتابته ما كتب عليه، فلم أر فيه ما يخالف القواعد، بل ما تأوَّلت به كلام ابن عطيَّة هو الذي وقع لغيره من بعض العلماء في إعرابه »، ثمَّ يسترسل في الحديث، ويتَّهم المقرِّي بأنَّه لم يجِب سائله في صميم الموضوع، وقد فهم منه أنَّه قد لمزه في تقريظه، كما نبيِّن ذلك.

ثمَّ انتقل إلى ما بلغه عن المقرِّي فقال: «ولقد حكى لي عن أبي العبَّاس المذكور مَن أثق به أنَّه سأله عن قول **ابن مالك**: الخبر الجزء المتمُّ الفائدة، وفيه إن كان فيه، فصرف الوجهة إلى أنَّ حدود ابن مالك كلُّها مدخولة أو معترضة، فانظر هذا الجواب، مِن هذا الحافظ الذي أوقعه فيما هو أدهى وأمرّ من الحكم بكلِّيَّة لا تسلم مقدِّماتها، ولا تصدق نتائجها، مع أنَّه كان يسلم بالجواب عن المسألة المسؤول عنها فقط إن حصل له، أو (لا أدري) التي هي أسلم، وقليلٌ مِنَ النَّاس يرضاها.

وحكَى لي عنه أنَّه سأله عن قول **الجزولي** في (**دلائل الخيرات**): وأسيد النَّاس ...

كيف هذا اللَّفظ ؟ فلوَّى عنه، وقال: هذا فيه كلامٌ كثير، إلاَّ أنَّ المؤلِّف لا يُتعرَّض له. فانظر رحمك الله بعين الإنصاف، أهذا جواب مقنِع، فضلا عن صميم الحقِّ؟ فالواجب بيان ما استغلق على السَّائل إن كان في حفظه، وإلاَّ دفعه إلى غيره، لكن: حبُّك الشَّيء يعمي ويصمّ ».

ثمَّ يستنتج من ذلك كلِّه ما حكم به على المقرِّي، فيقول: «والرَّجل فرح بما أوتي من فصاحة اللِّسان، وصوغ الشِّعر وحفظ التَّصانيف والأقوال، وجانبته رياح التَّوفيق، فتغطَّى فكره عن اقتناص بنات التَّدقيق، وهل طلبَ المولى من العبد إلاَّ العلم، والعلم غير الحفظ، وهو نور يقذفه الله في قلب مَن يشاء، ثمَّ إذا أنعم المولى على العبد بنعمة الحفظ، أو فصاحة اللِّسان، إنَّما تقابل بالشُّكر الذي هو سبب المزيد، لا بالاحتقار والاستصغار لغيره، وهل ما ناله من كدِّه أو كدِّ أبيه أو جدِّه، إنَّما الفضل والمِنَّة لله لا لغيره: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ (النساء: 113)، فلا يرى الموفَّق لنفسه فضلا ولا شفوفا على غيره ممَّن لم يصل إلى درجته، هذا هو عين الصَّواب وطريقة العلماء العاملين أن لو كان مع ما عنده من الحفظ، الفهم فيما حفظ، والمعرفة بأبحاثه وتوجيهاته، فما بالك بمن هو جامدٌ في ذلك، كما قال في جوابه إِّه منه كالصَّدى، صوتٌ خالٍ عن معنًى.

ثمَّ أوضح دخيلاءه وأظهر ما كمن في النَّفس من الحسد ورفعة النَّفس وترفُّعها أن جعل للدَّماميني البيت المذكور ليتوصَّل به إلى إذاية المجيب وانتقاصه، حيث ذكر لفظة: (عندي) بأن قال:

ومَن أنتم حتَّى يكون لكم عندُ

أرأيتَ هذا الحسَّ جوابا في معرض الأنظار، وإنَّما يصلح في مجاورة السَّبِّ المنهي عنه شرعا، وكيف يتعاطاه مَن تصدَّى لمرتبة وراثة النُّبوَّة، أما يكفيه بعدا وطردا مِن

ساحتها أن رماها وراء ظهره، واتَّصف بأوصاف ما نهى عنه ﷺ، فأيّ طريق تسلك بهذا، وأيّ علم يؤخذ منه أو يقلد فيه، أو يؤتمَن على سماعه منه، ثمَّ يقال له: أي شيء أوجب لك مِن هذه اللَّفظة الإنكار، أفهِمتَ منها ما لم يأمر به الشَّرع مِن تعظيم النَّفس، فهو تنقيرٌ منك عن القلب، واتِّهامٌ للمسلم بما لا يقوله، ولا هو في خلده، وهو تعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور.

وكان المؤلِّف في جوابه لابن باديس ذكر من جملة وجوه الإعراب في الآية المسؤول عن إعرابها، قوله: «ويحتمل في إعرابه وجها آخر، وهو: أن يكون ﴿ولأتمَّ﴾، معطوفا على محذوف، هو علَّة للخشية، والتَّقدير: فاخشوني لِأُوَفِّقَكم، وأتِمَّ عليكم نعمتي، كذا ذكره بعضهم، وفيه بحثٌ عندي ....الخ».

وقد قال **المقرِّي** في تقريظه على هذه الجملة: «... أو الدَّماميني لأدمنَ مطالعتها، وارتحل إلى الغرب بدلا عن الهند، وأنشد لأخيه في حبِّ أهل تلك النَّاحية:

يقولون هذا ليس بالأمر عندنا ومَن أنتم حتَّى يكون لكم عندُ

ففهم منه المؤلِّف بأنَّه لمزه على قوله: «وفيه بحث عندي ».

وقد أطلنا كثيرا حيث لم يتعوَّد القرَّاء التَّطويل في مقدِّمات التَّآليف، إذ كثيرا ما يكتفي المحقِّق بالإشارة والإحالة، إلاَّ أنَّه نظرا لقيمة الشَّخصيتَين، ولمكانة المقرِّي وشهرته.

ثمَّ أظنُّ أنَّه ما لقيَ في حياته مَن قَسا عليه بمثل هذه القساوة، وكال له مثل هذه التُّهم التي نسبته إلى السّفسطاء، والتَّخلُّصِ من تحمُّل المسؤوليَّة، [و] النَّظرةِ السَّطحيَّة، والعجبِ والحسد، وقد سبق للمؤلِّف في أوَّل تعريفه به ـ أي: قبل أن يذكر قضيَّة

الفتوى والتَّقريظ ـ أن فاه بعبارات تمسُّ بشرف **المقرِّي**، حيث ذكر في ترجمته أنَّه[1] لَّمَا وصل إلى **(مصر)**، وانتصب للتَّدريس بـ **(الأزهر)**، قال: «وظهر للمقرِّي صيتٌ عظيم بـ **(مصر)**، وقصد أشراف دولتها بالنَّظم، وأجازوه غير ما مرَّة، وكذا تجَّارها »، خصوصا وأنَّ المؤلِّف كان ينكِر كثيرا على تلامذته ومعارفه الذين يتَّخذون هذا النَّوع من الاتِّصال بالأمراء والأغنياء ورؤساء الإقطاع ـ أي: المتسلِّطين، كما كان يسمِّيهم ـ.

والخلاصة أنَّ هذا التَّأليف كما ذكرنا له أهمِّيَّة، وطرق موضوعا لم يُطرق قبله، جمع فيه الطَّبقات الممتازة التي هي نخبة البلاد، وكانت له شجاعة أدبيَّة نادرة، حيث تعرَّض لمعاصريه الذين كان الكثير منهم من أقاربه، وكانوا محتَرمين مبجَّلين عند الحكَّام وعند رؤساء الإقطاع.

أمَّا رؤساء الإقطاع فإنَّا وجدنا كثيرا من الفقهاء كصاحب **(الدُّرر المكنونة في نوازل مازونة)** الذي نقل عنه الونشريسي في **(المعيار)**، نشر كثيرا من أجوبة العلماء الذين بيَّنوا مظالمهم، وتحدِّيهم للملوك والسَّلاطين، فإنَّ مؤلِّفنا لم يصفهم إلاَّ بالمتسلِّطين، وكان صارِما في حملته على مَن يلوذ بِحماهُم ويقبل هداياهم أو جوائزهم مِن العلماء، ثمَّ إنَّه في كثير من تراجم الطَّبقات المختلفة التي تناول أفرادها بالتَّعريف، ذكر أحداثًا تاريخيَّة هامَّة، مرتبطة بهم.

وذكر المراكز العلميَّة داخل البلاد وخارجها، خصوصا (معهد القراءات)، ببلاد (زواوة)، وقد أيَّد ما ذكره أحد علماء (تونس)، وهو أحمد برناز الذي ذكر في تأليفه أنَّه زار (بني وغليس) وجاور أستاذا متخصِّصا في القراءات، وعنده اجتمع بشيخه.

[كما ذكر] بلدة قسنطينة بصفة خاصَّة، و(جبل الأوراس) وبلاد (زواوة) بصفة

---

(1) في الأصل: « إنَّما ».

[عامَّة]، وبالجملة فإنَّنا نجد فيه تصوير حالة البلاد الاجتماعيَّة والعلميَّة في القرنَين، العاشر والحادي عشر.

وقد تعرَّض كذلك للدَّولة التي تكوَّنت مدَّة بـ (جبال الأوراس) وانضمَّ لها سكَّان القبائل، وحاولت السُّلطة التُّركيَّة المركزيَّة بالعاصمة القضاء عليها وفشلت، إلى أن التجأت إلى طرق الكَيد والخِداع، فتمكَّنت مِن نصب كمين للثَّائر وقتِل مخدوعا ...

6

وأنعي والف التمس مني ان اذكر له اسنادا
في الحديث والفقه والاجازة فيهما وفي غيرهما
بعد ما التمست منه الاجازة في مصنفاته
وغيرها الخ"
وبيت ابن الفكون من البيوتات التي حرصت الرقم
القياسي في محافظتها على توارث العلم ما يقرب
من عشرة قرون وقد خلد اسم هذا البيت عميد
الاسرة الاديب الشهير ابو علي حسن بن علي بن
محمد القسنطيني المعروف بابن الفكون بهذا
عرفه العبدري صاحب الرحلة وذكر انه
لما وصل الى قسنطينة واجتمع ببعض علمائها
فسأله "عن الاديب ابي علي حسن المذكور فذكر
لي انه ادركه وهو طفل صغير ولم يحفظ له مولدا
ولا وفاة ورمت ان اجد من اروي عنه قصيدته المشهورة
في رحلته من قسنطينة الى مراكش فلم اجد، فقيدتها
هنالك غير مروية الخ" وقد ذكرها بتمامها
والقصيدة تحتوي على اثنين وثلاثين بيتا

صورة عن الصفحة الأولى من النسخة المعتمدة (المبتورة)

كتاب (الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل)(1)
تأليف: أبي اليمن مجير الدِّين عبد الرَّحمن ابن أحمد العليمي العمري الحنبلي (المتوفَّى عام 928هـ/1522م)

هذا التَّأليف مِن أحسن التَّآليف التي خصِّصت لتاريخ القدس والخليل، وقد استوعب فيه مؤلِّفه زبدة ما كتبه المؤرِّخون القدامى السَّابقون لعهده، ذكر هذه التَّآليف حاجِّي خليفة في تأليفه (**كشف الظُّنون عن أسامي الكتب والفنون**).

وقد طبع (**الأنس الخليل**) هذا بـ (**مصر**) في المطبعة الوهبية، سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف (1283 هجرية)، الموافقة لسنة ثلاث وستِّين وثمانمائة وألف (1863ميلادية) (2)، والكتاب كما يدلُّ عليه عنوانه، جمع فيه مؤلِّفه تاريخ القدس والخليل، من بداية ظهور سلسلة المؤلَّفات التي خصَّصها مؤلِّفوها لتاريخ القدس، ابتداءً من القرن الخامس عندما هاجم الصَّليبيُّون بيت المقدس وسقطت في أيديهم، وذلك حوالي سنة (492 ـ 583هـ/ 1099 ـ 1187م).

كان للحملة الصَّليبيَّة على الدِّيار المقدَّسة ردَّة فعلٍ عند المسلمين شبية بادِّعاءات الصَّليبيِّين، الذين كانوا يرون أنَّهم أحقُّ من غيرهم في امتلاك هذه البقاع، إذ علاوة على

(1) اعتمدنا في إدراج هذه المقالة ضمن هذا المجموع على نسخة (مخطوطة) تقع في (5) صفحات، وهي بخطِّ الشَّيخ **المهدي** (رحمه الله تعالى)، وعلى نسخة أخرى (مرقونة) تقع في (5) صفحاتٍ أيضا، ويظهر أن هذه المقالة هي عبارة عن مقدِّمة لتحقيق هذا الكتاب.

(2) كذا في الأصل، والصواب أنها موافقة لسنة 1866م. (ع)

تكتُّل جهود المسلمين لمقاومة الصَّليبيِّين في ساحات الوغى، فقد دعَّموا هذه الحروب بسلسلة مِن التَّآليف، تثبت بأنَّ أرض القدس هي أرض معادهم، لا ينازعهم في شرعيتها أي منازع، وذلك أنها تضمُّ مقابر الأنبياء والمساجد التي مِن بينها مسجد أولى القِبلتين المقدَّس، تلك القَداسة التي لا تفوتها إلاَّ قداسة (الحرَمين الشَّريفَين).

وقد ظهرت هذه السِّلسلة من التَّآليف التي كان ختامها كتاب **(الأنس الجليل)** موضوع تقديمنا، وبالطَّبع استوعب فيه مؤلِّفه من هذه السِّلسلة المذكورة التي اتَّخذ كثيرا منها مصادر لتأليفه، كان من جملة هذه التَّآليف:

1) كتاب: **(الإعلام بفضائل الشَّام ودمشق وذكر ما فيها من الاثارات والبقاع الشَّريفة)** لأبي الحسن علي الرَّبَعي، الذي أنهى تأليفه حوالي عام (435هـ/ 1043م).

2) وكتاب: **(فضائل البيت المقدس والشَّام)** لأبي المعالي المشرف ابن المرجي بن إبراهيم المقدسي، الذي كان يعيش في أواخر القرن الخامس الهجري.

ثمَّ ظهرت سلسلة أخرى من التَّآليف، كان مِن بينها:

1) كتاب: **(الرَّوض المغرس في فضائل بيت المقدس)** تأليف تاج الدِّين عبد الوهاب السُّبكي، المتوفى سنة (776هـ/ 1370م).

2) وكتاب: **(تسهيل المقاصد لزيارة المساجد)**، تأليف شهاب الدِّين أحمد بن محمد الأقفهسي المصري، المتوفى سنة (808هـ/ 1405م).

3) وكتاب: **(مثير الغرام في زيارة الخليل عليه السَّلام)** لإسحاق ابن إبراهيم التَّدمري، الخطيب بـ (مسجد الخليل)، المتوفَّى سنة 938هـ الموافق لسنة 1532هـ.

وإنَّ أكثر هذه التَّآليف لم تحظ بالنَّشر، كما أنَّ بعضها في حكم المفقود، وإنَّما عرِفت بورود ذكرها في تآليف أخرى، وقد اهتمَّ بهذه التَّآليف كثيرٌ من المستشرقين، فحقَّقوها،

وترجموا بعضها إلى مختلف اللُّغات، وكان مِن بين هذه التّأليف: (**الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل**)، الذي وصلتنا من بين الدِّراسات التي خصِّصت له، دراسة دقيقة قيِّمة للمستشرق الرُّوسي الشَّهير، والبحَّاثة الخبير **كراتشوفسكي**، ضمَّنها تأليفه النَّادر المثال في موضوعه: (**تاريخ الأدب الجغرافي العربي**)، الذي كان الفضل في نقله إلى اللُّغة العربيَّة يرجع إلى الدُّكتور **صلاح الدِّين عثمان هاشم** (الأستاذ بجامعة الخرطوم)، تعرض **صلاح الدين عثمان** في تقديمه لترجمة المؤلف **كراتشوفسكي** ومكانته في مختلف النَّشاطات لإحياء التُّراث الإسلامي، ثمَّ خصَّص نشاطه في مجالات الجغرافيَّة العربيَّة، فقال: «شغل الاهتمام بالجغرافية العربيَّة مكانة مرموقة في النَّشاط العلمي لـ: **كراتشوفسكي**، خاصَّة في العشرين عاما الأخيرة من حياته، وقد اهتمَّ **كراتشوفسكي** بالجغرافية عامَّة منذ سنوات حياته العلميَّة الأولى، فانتخِب عضوا في (الجمعيَّة الجغرافية الرُّوسية) منذ عام 1909م، وأصبح نائبا لرئيسها في عام 1945م.

هذا الاهتمام بالجغرافية إلى جانب معرفته العلمية بالأدب العربي، وبالحضارة الإسلاميَّة، جعلت منه أنسبَ شخصٍ للقيام بذلك العمل الجبَّار، وهو كتابة علم الجغرافية في الإسلام، وقد أحسَّ الدَّارسون دائما بمَسيس الحاجة إلى مؤلَّف تركيبي ضخم، يسدُّ ذلك النّقص، خاصَّة وأنَّ (رينو) (Reinaud) قد طال عليه العهد، ولم يعد يفي بمطالب البحث المعاصر، أضِف إلى هذا أنَّ المقالات والأبحاث المتفرِّقة لكبار المستشرقين الذين اهتمُّوا بالجغرافية الإسلاميَّة، مثل: (هالينو) (Halino)، و(مينورسكي) (Minorski)، و(هونجمان) (Honigman)... الخ، لم يكن من شأنها أن تغني عن دراسة جامعة تتناول جميع أطراف الموضوع، وميزة هذا التَّأليف أنَّه ثمرة جهود بذلت ما يقارب من نصف قرن، قضاها مؤلِّفه (كراتشوفسكي) محاضِرا، وباحثا في مادَّته الغزيرة بـ (جامعة بطرسبرغ)، تحت عنوان: (**نظرة الأدب الجغرافي، مع مطالعة نصوص مختارة منه**)، وتارة تحت عنوان: (**أدب التَّاريخ والجغرافيا عند العرب**).

وقد استعرض كراتشوفسكي قبل أن يدخل في صميم موضوع النَّقد والتَّحليل لكتاب **(الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل)** مجموعة من التَّآليف الجغرافية تحليلا علميًّا دقيقا، وختم استعراضه بقوله مشيرا إلى (الأنس الجليل)، موضوع هذا البحث، فقال: «أمَّا المؤلَّف الوحيد الموجود مصنَّفه في طبعة شرقيَّة، ولو أنها ترتفع في الواقع إلى عهد قديم (1283هـ/ 1866م) فهو آخر مؤلِّف عرفته هذه السِّلسلة، أعني بذلك **مجير الدِّين عبد الرَّحمن بن أحمد العليمي العمري**، توفي عام (928 هـ/ 1522م)، الذي يحمل مصنَّفه عنوان كتاب: **(الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل)**.

وكما حدث مرارا في تاريخ الأدب العربي، فقد زحمت الآثار المتأخرة الآثار المتقدمة عليها وطردتها ووصلت إلى متناول الأيدي قبلها، ونفس هذا القول يصدق على مصنَّف العليمي، غير أنَّه ممَّا أعان على ذلك من هذه الحالة الأخيرة، هو أنَّ المصنَّف الذي نحن بصدده، يعتبر أوسع وأحفل وصف تاريخي طوبوغرافي يعالج الكلام على (القدس) و(حبرون)، وبقية مدن (فلسطين)، وهو من حيث طابعه النَّقلي، لا يختلف كثيرا عن المصنَّفات السَّابقة.

أمَّا مؤلِّفه العليمي، فأصله من (القدس)، ولكنَّه تلقَّى تعليمه بـ (القاهرة)، ثمَّ تولَّى منصب القضاء بمدن (فلسطين) المختلفة، وقد بدأ تأليف كتابه في عام (901 هـ/ 1497م)، وأتمَّه في خلال أربعة أشهر بالتَّقريب، وذلك في نفس العام، ومثل هذه السُّرعة في تصنيف مؤلَّف كبير الحجم كهذا، يدعو إلى الوقوف والتَّحرُّز من المنهج الذي اتَّبعه المؤلِّف في التَّأليف، وهو قد اهتمَّ فيما بعد بإكمال القسم التَّاريخي، فساقه إلى عام (914هـ/ 1508م)[1].

والكتاب بصفته مصنَّفا نموذجيًّا في هذه السِّلسلة، يمكِن تقسيمه إلى أربعة أقسام:

---

(1) مصدره: بروكلمان (**تاريخ الأدب العربي** (ص: 1052): **العليمي**.

(الأوَّل) منها في وصف (القدس).

و(الثَّاني) منها في وصف المسجد الأقصى، والكلام على مدارس وأدْيرة (فلسطين)، ومدنها.

و(الثَّالث) يحوي تراجم السَّلاطين، والعلماء بحسب المذاهب الأربعة عشر [كذ]، ومشاهير القضاة، والوعَّاظ، والفقهاء.

أمَّا (القسم الرَّابع) فيعالج الكلام على تاريخ الولاة، ويختتمه بتاريخ سلطنة قايتباي[1].

ومن هذا يتَّضح لنا أنَّ الكتاب لا يخلو مِن بعض المزج من حيث موضوعه، فهو في جوهره يرتبط بالجغرافيا الدِّينيَّة، وذلك على طراز الكتب التي تدعو إلى الحجِّ، ولكنَّه من ناحية أخرى يفسح المجال لتاريخ الشُّعوب على أساس معالجة سِير مشاهير رجالها.

أمَّا هيكله العام فيعتمد قبل كلِّ شيء على ما نقله من مؤلِّفَين اثنَين، هما:

1) المقدسي، صاحب (**مثير الغرام**)[2].

2) والسُّيوطي، صاحب (**إتحاف الأخصَّا بفضائل المسجد الأقصى**) لـ: شمس

---

(1) هو السلطان السابع عشر من ملوك الجراكسة، وهو السلطان الأشرف قايتباي المحمودي، توفي سنة اثنتين وسبعين و ثمانمائة، وكانت مدة سلطنته ثلاثين سنة إلا ثمانية أشهر.

(2) أحمد بن محمد جمل الدين المقدسي، توفي عام 765هـ/ 1394م، هو صاحب كتاب: (**مثير الغرام إلى زيارة القدس و الشام**)، أنهاه سنة 756هـ/ 1351م، ترجم بعض فصوله المستشرق لسترانج (Le Strange)، وقال عنه **كراتشوفسكي**: «إن من بين الجغرافيِّين الذين تخصَّصوا= =في المكتبة الفلسطينية في منتصف القرن الرابع عشر إلى نهاية القرن الخامس عشر: المقدسي، والسيوطي، ومجير الدين العليمي».

الدِّين محمَّد بن أحمد السُّيوطي، الذي أنهى تأليفه سنة (875 هـ/ 1470م).

ويلعب الدَّور الرَّئيسي بالنِّسبة له المؤلَّف الأوَّل، حيث تبلغ نقوله عنه في بعض المواضع إلى ما يمثِّل تسعة أعشار المتن الأصلي [1].

ونظرا لوجوده في عدد هائل من المخطوطات، ولأنَّه من المؤلَّفات القليلة المطبوعة فقد اجتذب هذا الكتاب أنظار المستشرقين، وتوجد مخطوطتان له بـ (معهد الدِّراسات الشَّرقيَّة)، وهو معروف في أوساط المستشرقين منذ منتصف القرن الثَّامن عشر، وقد قدَّم (هامير) (Hammer) مقتطفات منه منذ بداية القرن التَّاسع عشر، لا تتميَّز كما هو الحال دائما مع أعمال هذا المستشرق بأية قيمة ذات بال ولو أننا لا نستطيع أن نغمطه حقَّه في الأسبقيَّة، و**مجير الدِّين** هو المؤلِّف الوحيد من بين جميع حلقات هذه السِّلسلة الفلسطينيَّة الموجود كتابه، ولو بصورة مختصرة في ترجمة أوروبيَّة كاملة (1876م)، نَدين بها للعالم (**النميات**) (Numiatic)، والمؤرِّخ الشَّهير (**سوفير**) (Sauvaire) الذي أثبت في غضون عشرة أعوام من هذا، أنَّه خبير كبير بالأدب الطوبوغرافي (**الخطط لمدينة دمشق**)، وذلك في مؤلَّف آخر له، اعتمد فيه كثيرا على معرفته بالأدب الفلسطيني، وقدَّم فكرة جليَّة عن جميع هذه السِّلسلة في أشخاص ممثِّليها الثَّلاثة الكبار، تلك المقتطفات التي ترجمها إلى الرُّوسية، وعلَّق عليها (**مدنيكوف**) (Mednikov)، وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ هذه السلسلة من المؤلفات لا تمثل حدثا مرموقا أو جديدا من وجهة نظر التطور العام للأدب الجغرافي العربي، ولكنها تعتبر من وجهة نظر التاريخ الحضاري شيئا طريفا، خاصة على ضوء ظروف الحروب الصليبية، وهي تتمثل في ضخامة عددها واتساع مداها، شيئا منفردا ترك طابعه الخاص على الأدب الجغرافي لهذه البلاد،

---

(1) مصادره: Koenig (ص: 2)، مدنيكوف (Mednikov) (**تاريخ فلسطين**)، ص: 117، هارتمان (Hartmane)، ص: 15.

إلى الفتح العثماني، وستبصر فيما بعد تأثير جوانب معينة من هذا الأدب على أدب العصور التالية لذلك ». انتهى كلام **كراتشوفسكي**.

ولنضف إليه ما وصلنا من تقاريظ أخرى، من بينها تقريظ المستشرق الفرنسي (كليمان هيار) (Clément Huart) في تأليفه: **(تاريخ اللُّغة العربيَّة)**، طبع بـ (باريس) 1923م، فقال في تقريظه: «**أبو العيون**[1] **عبد الرَّحمن مجير الدِّين العليمي** قاضي القضاة الحنبلي بـ **(القدس)**، توفي سنة 1522م، كتب تاريخ القدس والخليل: **(الأنس الجليل)**، وترجم منه عدَّة فصول المستشرق الألماني **يوسف دو همار** (Joseph de Hammer) في **(معادن الشَّرق)**، وترجم ما ذكر **هنري سوفير** (Henri Sauvaire).

كتب مجير الدِّين العليمي هذا التَّأليف في مدَّة أربعة أشهر، وعرضت له موانع أعاقته عن إتمامه ». انتهى كلام هيار المستشرق الفرنسي.

كما نوَّه بهذا التَّأليف الكاتب الشَّهير الدُّكتور **قوستاف لوبون** (Dr Gustave Lebon) في تأليفه: **(الحضارة العربيَّة)**، فقال: «**(الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل)** ترجمه **سوفير** (Sauvaire) إلى الفرنسيَّة، وطبع بـ **(باريس)** سنة 1876م، وهذا نصُّ مقاله: **سوفير** (Sauvaire) تاريخ القدس من عهد **إبراهيم الخليل** إلى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي ترجمه من النَّص العربي **لمجير الدِّين** بـ **(باريس)** سنة 1876م » انتهى كلام **قوستاف لوبون**.

نقتصر على هذه اللقطات من التَّقاريظ لكتاب: **(الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل)** التي يظهر لنا مِن خلالها انطباعات ثلَّة من علماء متخصِّصين في الأدب الجغرافي التاريخي الإسلامي، وميزة الكتاب في محتواه، وقد أنهاه مؤلِّفه كما معلوم من

(1) كذا، والصواب: «أبو اليُمن». (ع)

النُّسخة الأصلية المطبوعة بـ (مصر) سنة 1283م سنة إحدى وتسعمائة هجرية، وفي ذلك قال المؤلِّف: «وكان ابتدائي في جمعه في خامس عشر ذي الحجَّة سنة تسع مائة، وفرغتُ من جمعه وترتيبه في دون أربعة أشهر، مع ما تخلَّل في ذلك من عوارض الدَّهر نحو شهر لم أكتب فيه شيئا، ومع اشتغال الفكرة بأمور الدُّنيا، وإنَّ الله لطيف بعباده، وإن فسح الله في الأجل جعلتُ له (ذَيلا)، أذكر فيه ما يقع من الحوادث بـ (القدس الشَّريف)، وبلاد سيِّدنا الخليل عليه السَّلام، وغيرهما، مِن أوَّل سنة إحدى وتسعمائة إلى آخر وقت يريده الله تعالى فيها ما بقيَ من العمر» اهـ.

إلى هنا تنتهي النسخة المطبوعة بخلاف المخطوطة، كان فيها زيادات سأذكرها عندما أتعرَّض لوصفها، وقبل الحديث عنها بمزيد من البيان أذكر أنه زاد المؤلف في المخطوطة ما يلي: «وكان الفراغ من تبييضه في اليوم المبارك نهار الاثنين السَّابع عشر من شهر رمضان المعظَّم قدره وحُرمتُه من شهور سنة إحدى وتسعمائة، ووافق الفراغ من كتابة هذه النُّسخة في ضحى يوم الخميس السَّادس من شهر جمادى الآخرة سنة اثنين وتسعمائة (902) من الهجرة الشَّريفة النَّبويَّة المحمَّديَّة، على صاحبها أفضل الصَّلاة والسَّلام، والتَّحيَّة والبركة، والحمد لله وحده كثيرا دائما، وصلواته على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلامه، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله العليِّ العظيم».

انتهى ما وجدناه زائدا على النسخة المطبوعة في المخطوطة التي نملكها، ولنرجع إلى ما ذكره المستشرق كراتشوفسكي في تقريظه لـ (**الأنس الجليل**)، فقال: «إن مؤلفه مجير الدين العليمي توفي سنة (928/ 1522م) ـ أي بعد انتهائه من تأليفه بستٍّ وعشرين سنة ـ ولهذا فقد أنجز وعده، حيث قال في آخر تأليفه: «إنْ فسحَ الله في الأجل جعلتُ له (ذَيلا).

وقال كراتشوفسكي في الموضوع: «ولقد اهتمَّ فيما بعد بإكمال القسم التَّاريخي،

فساقه إلى عام (914هـ / 1508م)»، وقد ذكر كراتشوفسكي أنَّ مصدره في هذه الرِّواية (**تاريخ الأدب العربي**) لبروكلمان (ص: 1052).

ثمَّ إنَّه بلغنا أنَّ إدارة الثَّقافة للجامعة العربيَّة بصدد إعادة طبع هذا التَّأليف النَّفيس، فكنَّا نترجَّاه بفارغ الصَّبر إلى أن وافانا نبأ مِن مصادر مطَّلعة أنَّ إعادة طبعه هذه، عبارة عن تصوير النُّسخة المطبوعة (الطبعة الوهبية) بـ(مصر) سنة 1283هـ من غير أيَّة زيادة، وإنَّنا لم نحظَ بالاطِّلاع على النُّسخة التي قال عنها كراتشوفسكي بأنَّ مؤلِّفها: اهتمَّ بإكمال القسم التَّاريخي منها فساقه إلى عام (914هـ/ 1503م) »، فإنَّ لدينا نسخة مخطوطة من هذا الكتاب (**الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل**)، ختم بها المطاف بالجزائر في خزانة إحدى الأسر العلمية، يرجع تاريخ كتابتها ـ أي: نسخها ـ إلى سنة 1070هـ، وتمتاز عن المطبوعة بوجود زيادات ذات أهمية نسبيا، منها ذكر أحداث سنتَي: (902ه) و(903ه) سجَّلها في آخر (المخطوطة) كاتبٌ يدعَى موسى ابن فتيان، ثمَّ تقريظ للتَّأليف بقلم شيخ الإسلام كمال الدِّين أبو المعالي بن أبي الشَّريف، الذي نوَّه بترجمته المؤلِّف في آخر تأليفه، وذكر علاقته به وعدَّه مِن أمثل أساتذته، وكان تقريظ شيخ الإسلام **أبي المعالي ابن أبي الشَّريف** هذا، في ختام (المخطوطة) حتَّى ظنَّ بعض مالكيها أنَّه هو مؤلِّف الكتاب (**الأنس الجليل**)، ولهذا رأينا أنَّ هذه (المخطوطة) جديرة بالنَّشر.

وصف المخطوطة:

تشتمل المخطوطة على: (500) صفحة، طول الصَّفحة: (23) سنتيمترا، وعرضها: (18) سنتيمترا، كما أنَّ كلَّ صفحة تحتوي على: (23) سطرا، وكلَّ سطر يشتمل على: (14) كلمة، خطُّها نسخي مغربي، واضح سليم من الأخطاء، وقد ذكر أحد مالكيها في ختامها، أنَّها تحتوي على: (350) ورقة، ووجدنا أنَّ حوالي: (200) صفحة، تنقصها من أوَّل إلاَّ أنَّ النّقص لا يشمل صميم الموضوع، إذ ينتهي في (فصل الأذان في بيت المقدس)، (ص: 206) من النُّسخة المطبوعة.

وقد نسِخت هذه (المخطوطة) سنة 1070هـ، وسجَّل مالكها الجزائري تاريخ شرائها في سنة1310هـ.

كما تشتمل (المخطوطة) على عدَّة تراجم، معظمها منقول من كتاب: (**نظم العقيان في أعيان الأعيان**) لجلال الدين السُّيوطي، ثمَّ ختم بـ (**القصيدة العينية**) لأبي علي ابن سينا بخطٍّ ناسخ (المخطوطة).

حرِّر بـ (الجزائر) في ربيع الأوَّل سنة 1397هـ

المهدي البوعبدلي

عضو (المجلس الإسلامي الأعلى) و بـ (المركز الوطني للبحوث التاريخية)

(الجزائر)

(1)

" كتاب الانس الجليل في تاريخ القدس والخليل "

تأليف ابي اليمن مجير الدين عبد الرحمن ابن احمد العليمي

العمري الحنبلي (المتوفي عام 928هـ = 1522م)

هذا التأليف من احسن التآليف التي خصصت لتاريخ القدس والخليل ، وقد استوعب فيه مؤلفه زبدة ما كتبه المؤرخون القدامى السابقون لعهده ، ذكر هذه التأليف حاجي خليفة في تأليفه " كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون " وقد طبع " الانس الجليل " هذا بمصر في المطبعة الوهبية سنة ثلاث وثمانين ومائتين والف (1283) هجرية الموافقة لسنة ثلاث وستين وثمانمائة والف ميلادية ، والكتاب كما يدل عليه عنوانه ، جمع فيه مؤلفه ، تاريخ القدس والخليل ، من بداية ظهور سلسلة المؤلفات التي خصصها مؤلفوها لتاريخ القدس ، ابتداء من القرن الخامس عندما هاجم الصليبيون بيت القدس وسلطت في ايديهم وذلك حوالي سنة (492هـ ــ 583هـ = 1099ــ1187م .)

كان للحملة الصليبية على الديار المقدسة رد فعل عند المسلمين شبيه بادعاءات الصليبيين الذين كانوا يرون انهم احق من غيرهم في امتلاك هذه البقاع ، اذ علاوة على تكتل جهود المسلمين لمقاومة الصليبين في ساحات الوغى ، فقد دعموا هذه الحروب بسلسلة من التآليف تثبت بان ارض القدس هي ارض معادهم ، لا ينازعهم في شرعيتها اي منازع ، وذلك انها تضم مقابر الانبياء والمساجد التي من بينها مسجد اولى القبلتين القدس ، تلك القداسة التي لا تفوقها الا قداسة الحرمين الشريفين .

وقد ظهرت هذه السلسلة من التآليف التي كان ختامها كتاب الانس الجليل ، موضوع تقديمنا ، وبالطبع استوعب فيه مؤلفه من هذه السلسلة المذكورة التي اتخذ كثيرا منها مصادر لتأليفه ، كان من جملة هذه التآليف كتاب " الاعلام بفضائل الشام ودمشق وذكر ما فيهما من الاثارات والبقاع الشريفة " لابي الحسن علي الربعي الذي انهى تأليفه حوالي عام 435هـ = 1043م ، وكتاب " فضائل البيت المقدس والشام " لابي المعالي المشرف ابن المرجي بن ابراهيم المقدسي الذي كان يعيش في اواخر القرن الخامس الهجري .

ثم ظهرت سلسلة اخرى من التآليف كان من بينها كتاب " الروض المغرس في فضائل البيت المقدس " تأليف تاج الدين عبد الوهاب السبكي المتوفي سنة 776هـ ، 1370م ، وكتاب " تسهيل المقاصد لزوار المساجد " تأليف شهاب الدين احمد بن محمد الاقفهسي المصري المتوفي سنة 808هـ = 1405م ، وكتاب " مثير الغرام في زيارة الخليل عليه السلام " لاسحاق بن ابراهيم التدمري الخطيب بمسجد الخليل ، المتوفي سنة 833هـ الموافق لـ 1429م ، وان اكثر هذه التآليف لم تحظ بالنشر ، كما ان بعضها في حكم المفقود ، وانما عرفت بورود ذكرها في تآليف اخرى ، وقد اهتم بهذه التآليف كثير من المستشرقين فحققوها وترجموا بعضها الى مختلف اللغات ، وكان من بين هذه التآليف : " الانس الجليل في تاريخ القدس والخليل " الذي وصلتنا من بين الدراسات التي خصصت له ، دراسة دقيقة قيمة للمستشرق الروسي الشهير والبحاثة الخبير كراتشكوفسكي ضمنها تأليفه النادر المثال في موضوعه : " تاريخ الادب الجغرافي العربي " الذي كان

../..

صورة عن الصَّفحة الأولى من النُّسخة المرقونة

"كتاب الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل"
تأليف قاضي القضاة أبو اليمن مجير الدين
العُليمي قاضي القدس
وقد طبع في جزءين بالمطبعة الوهبية في القاهرة
سنة ١٢٨٣ هـ
كما ترجم كثيراً من فصوله بعض المستشرقين منهم
Henri Sauvaire, الألماني Joseph de Hammer
الفرنسي الذي أظن أنه ترجمه كاملاً في كتابه المسمى
"Histoire de Jerusalem et d'Hebron,
depuis Abraham jusqu'à la fin du
15e siècle de J. C. traduite sur le texte
arabe de Moudjir Ed-dyn Paris 1876
نفذت الطبعة العربية منذ زمان، وحاول مدير "دار
العلم للملايين" ببيروت طبعه، فخاطبني في ذلك منذ
سنوات ثم لم نجتمع
وقد بلغني أن الجامعة العربية أعادت طبعه إلا أنها
اقتصرت على تصوير النسخة المطبوعة المذكورة
طبق الأصل. أما المخطوط الموجود عندنا فإنه
يستحق العناية لامتيازه بزيادة ما في النسخة

صورة عن الصَّفحة الأولى من النُّسخة المخ

مقدِّمة كتاب
(سلسلة الأُصول في شجرة أبناء الرَّسول)[1]
تأليف الفقيه المنعم الشَّيخ عبد الله حشلاف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إنَّ هذا التَّأليف كما يدلُّ عليه عنوانه، تعرَّض فيه مؤلِّفه لتراجم بعض الأسر الجزائريَّة العلميَّة، جريا على تقاليد علماء البلاد الذين كانوا يعطون أهمِّيَّة كبرى لهذا النَّوع من التَّآليف، وقد انقسم المؤلِّفون في هذا الفنِّ إلى قسمين:

(قسم): اقتصر على تراجم علماء البلاد، بقطع النَّظر عن نسبهم.

و**(القسم الآخر)**: خصَّص تآليفه لمن ثبت شرفهم، كصاحب كتاب: **(العِقد النَّفيس في بيان علماء وأشراف غريس)** الذي ترجم فيه صاحبه لعلماء القرن الحادي عشر.

وقد امتاز الغرب الجزائري بعدَّة تآليف في هذا الفنِّ ـ أي: تراجم العلماء، بقطع النَّظر عن نسبهم ـ، ومِن بين هذه التَّآليف منظومة **(بغية الطَّالب في ذكر الكواكب)**، لأبي مهدي عيسى بن موسي التُّوجيني، التي خصَّصها مؤلِّفها لمعاصريه من أهل القرن العاشر، وشرحُها المسمَّى: **(تسهيل المطالب لبغية الطَّالب)** لمحمَّد بن الأعرج الغريسي، و**(سبيكة العقيان فيمن حلَّ بمستغانم وأحوازها من الأعيان)** لمحمَّد بن حوَّاء ـ دفين (مستغانم) ـ التي خصَّصها لعلماء (مستغانم)، ومؤلِّفها مِن علماء القرن الثَّاني عشر.

---

(1) اعتمدنا في إثبات نصِّ هذه المقدِّمة على **(نسخة مخطوطة)** تقع في (36 ص)، وهي بخطِّ الشَّيخ **المهدي** (رحمه الله تعالى)، ويظهر كذلك أنه كتبها لتكون مقدِّمة في تحقيق هذا الكتاب.

وعلم التَّراجم كان محلّ عناية عند كثير منَ الباحثين المسلمين وغيرهم من قديم، وقد امتازت بحوث المسلمين فيه بالصِّبغة الدِّينيَّة، كالصَّلاح والنَّسب الشَّريف، إذ كان العلماء المنحدِرون من سلالة النَّبيِّ ﷺ يحظون بمكانة مرموقة في المجتمع الجزائري، وقد خصَّصت السُّلطات للمبرِّزين منهم عدَّة امتيازات، منها: إحداث خطَّة (**نقيب الأشراف**) يتولَّى صاحبها الإشراف على سجلاَّت الأسر الشَّريفة في البلاد، أو الواردة عليها، مصحوبة بالوثائق المدعَّمة بالحجج، وفي العهد العثماني بـ (الجزائر) كانت خطَّة (**نقيب الأشراف**) تتوارثها أسرة محمَّد الشَّريف الزَّهَّار، من علماء القرن العاشر، وبقِيت أفراد أسرة الزَّهَّار تتوارث هذه الخطَّة إلى عهد الاحتلال الفرنسي، ورغم الاحتياطات التي اتَّخذتها السُّلطات في ذلك العهد، حيث كانت الوثيقة التي تثبت شرف الأسرة، يشترط فيها زيادة على شهادة العدول، موافقة القاضي الحنفي بـ (**الجزائر**)، الذي كان بمثابة (**وزير العدل**)، ومع هذا كلِّه تسرَّب إليها التَّزوير، وذلك أنَّ الحكم العثماني كان يفرض على الرَّعايا الجزائريِّين: (**السُّخرة**) التي تتمثَّل في نقل حبوب الزَّكاة إلى مخازن الدَّولة، والقيام بحراسة القوافل، واستضافة الجيش المتجوِّل، وحراسته في حلِّه وترحاله، ولا يُعفَونَ من هذه المهنة الشَّاقة إلاَّ الشَّخصيَّات المنتمية للشَّرف، أو بعض العلماء الذين تُعطى لهم (**ظهائر**) موقَّعة مِن طرف الباشا بـ (**الجزائر**)، ولذلك كان كثير من أعيان البلاد يسعَون بجميع الوسائل لتحصيل هذه الشَّهادات.

وقد ضاق ذرعا بهذه الشَّهادات المزوَّرة المؤرِّخ **أبو راس النَّاصري**، الذي عندما ألَّف تأليفه المشهور (**عجائب الأسفار ولطائف الأخبار**)، الذي يشرح به منظومته (**الحلل السُّندسية في شأن وهران والجزيرة الأندلسية**)[1]، وتعرَّض فيه لذكر القبائل

---

(1) منظومة الحلل السندسية هذه قدَّمها المؤلِّف للباي محمد بن عثمان (فاتح وهران) سنة 1206هـ مهنِّئا له بالفتح، ثم شرحَها بعدَّة شروح، وقد تَرجمها إلى الفرنسية الجنرال faure Biguat ، وطبعت سنة 1903.

البربرية، كـ (**مغراوة**) و(**صنهاجة**) و(**بني يفرن**)، فنسب لهذه القبائل كثيرا من العلماء الذين كان النَّاس يعتقدون أنَّهم من سلالة الأشراف، ولماَّ اشتدَّ الجدل بين **أبي راس** ومعارضيه، خصَّص لهذا الموضوع الشَّائك تأليفا سمَّاه: (**كتاب مروج الذَّهب في نبذة من النَّسب ومن إلى الأشراف انتسب وذهب**)، لم يكتف فيه بتجريد بعض الأسر المشهورة بالشَّرف منَ الانتماء إلى آل البيت، بل جرَّدها حتَّى من الانتماء إلى البيوتات العربيَّة، وحاول إثبات انتمائها إلى أصل بربري، ولا زال صدى تأليف **أبي راس** يردِّده المعاصرون، ويتَّخذونه حجَّة لحكمهم على هذه الأسر بأنَّها بربرية، لا حظَّ لها في الشَّرف، فمِن هذه الزَّاوية نجد تأليف: (**سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرَّسول**) حلقة من حلقات سلسلة هذا النَّوع من التَّآليف التي كانت لها أهمِّيَّة، ولا يخلو تأليف منها من ذكر بعض الأسر وتراجم علمائها وأعيانها على ضوء ما اكتشف من الوثائق، وقد تعرَّض المؤلِّف **حشلاف** إلى المصادر التي استقى منها تأليفه، والكثير منها كان متداولا بالبلاد، إلاَّ أنَّها لا تخلو من زيادة ونقص، ومن هذه التَّآليف: كتاب العشماوي الذي اتَّخذه صاحب (**تحفة الزَّائر في مآثر الأمير عبد القادر**)حجَّة لشرف **عبد القوي التُّوجيني**، صاحب (إمارة ونشريس)، وقد ذكر حشلاف في تقديم تأليفه أنَّه خصَّص خاتمته للتَّعريف بعبد القويّ، حيث ذكر ثلاثة أفراد منهم: عبد القوي الحسني، وعبد القوي الحسيني، و**عبد القوي التِّجاني** ـ أي: التُّوجيني ـ مؤسِّس (إمارة ونشريس)، وهذا الموضوع، أي فرز **عبد القوي التُّوجيني** مِن تسمية **عبد القوي** جدّ الأشراف الذي تنسب إليه كثير مِنَ الأسر، لازال مكتنَفا بالغموض.

وقبل أن نُواصل دراستَنا نقف وقفة قصيرة للتَّعريف بالمؤلِّف بإيجاز، فهو كما تقدَّم ذِكره **عبد الله بن محمَّد بن الشَّارف حشلاف**، القاضي في عهده بمدينة (**الجلفة**)، وينتمي إلى أسرة علميَّة توارث أفرادها العلم قرونا بقبائل (**فليسة**)، قرب (**جبل بوزقزوق**)، بالجنوب الغربي لمدينة العاصمة، ثمَّ تصاهر المؤلِّف **حشلاف** بأسرة علميَّة لها مكانة في

تاريخ (**الجزائر**) الثَّقافي، مِن بين مَن اشتهر مِن أفرادها الفقيه **يحيى بن موسى بن عيسى أبو زكريا المغيلي**[1] (قاضي مازونة) في عهده، صاحب كتاب (**الدُّرر المكنونة في نوازل مازونة**)، وكان والده هو الذي ابتدأ تأليفها عندما تولَّى قضاء (مازونة)، ولموسى والد المؤلِّف تآليف عديدة، منها: (**ديباجة الافتخار في مناقب أولياء الله الأخيار**)، ضمَّنها علماء (**مازونة**) ونواحيها، ثمَّ اختصرها في تأليف عرِف بـ (**مناقب الشَّلفيِّين**)، وهو من التَّآليف المفيدة جدًّا، حيث تعرَّض فيه مؤلِّفه لجوانب من تراجم **عبد القوي التُّوجيني** مؤسِّس إمارة ونشريس[2]، ويغمراس بن زيان مؤسِّس الدَّولة الزِّيانية بـ (تلمسان) بعد سقوط دولة الموحِّدين، وبعبارة أصحّ بعد انحلالها وتفكُّكها، كما له تأليف قيِّم مفيد سمَّاه: (**الرَّائق في تدريب النَّاشئ من القضاة وأهل الوثائق**)، وقد سدَّ **حشلاف** بتأليفه فراغا، حيث ترجم فيه لكثير من علماء عهده وأسره، وأثبت بعضا من تآليفهم، كمنظومة: (**سبيكة العقيان فيمن حلَّ بمستغانم وأحوازها من الأعيان**) لمحمَّد بن حوَّاء ـ دفين مستغانم ـ.

كما أفادنا هذا التَّأليف أنَّه رغم تعرُّض خطَّة القضاء بـ (الجزائر) بعد الاحتلال الفرنسي للضَّربات القاسية التي توالت عليها من طرف الاستعمار، الذي بذل جهودا للقضاء على الشَّخصيَّة الجزائريَّة، بقيت بقيَّة متشبِّثة بالمحافظة على سمعتها، ولم تقتصر على القيام بمأموريَّتها في ميادين القضاء والتَّوثيق، بل ساهم أفرادها في التَّدريس والتَّأليف.

---

(1) يحيى بن موسى تولَّى قضاء (**تنس**)، و(**مستغانم**)، و(**مازونة**)، ودفن بـ (**تلمسان**)، إذ كان مستشارا عند الملك المتوكِّل على الله الزِّياني، وفي مدَّة إقامته بـ (**تلمسان**) تعرَّف به أحمد بن يحيى الونشريسي، وقرَّظ تأليفه: (**الدُّرر المكنونة**).

(2) تأسَّست (**إمارة ونشريس**) في أواخر القرن الرَّابع، في عهد (**دولة بني زيري**)، وفي عهد عبد القوي نالت (ونشريس) شبه استقلال، بإعانة من (الدَّولة الحفصية).

ولنَذكر نماذج من هذه الطَّبقة كدليل على ما ذكرناه: فقد اشتهر بعد الاحتلال الفرنسي مباشرة أمثال الشَّيخ **الطَّيب بن المختار** ـ ابن عمِّ **الأمير عبد القادر** ـ (قاضي تيغنِّيف)، صاحب كتاب: (**القول الأعمّ في بيان نسب الحشم**)، وقريبه **أحمد أبو طالب** المدعو: القليل (قاضي مستغانم)، صاحب تأليف قيِّم في موضوعه سمَّاه: (**الإنصاف في ردِّ اعتراضات السَّفساف**)، انتصر فيه لأستاذه **علي ابن الحفَّاف** (مفتي الجزائر)، إثر الخلاف الذي وقع بينه وبين الشَّيخ **محمَّد بن مصطفى المشرفي** في قضيَّة ثبوت هلال رمضان، فردَّ عليه المشرفي بتأليف سمَّاه: (**السِّهام الصَّائبة في ردِّ الدَّعاوى الكاذبة**)، فأعاد القاضي أبو طالب الكرَّة مرَّة ثانية، وكتب رسالة سمَّاها: (**الحسام في تكسير السِّهام**)، وهذه التَّآليف الثَّلاثة وإن أثارت في عهدها قضيَّة شائكة، وهي قضيَّة ثبوت الهلال بالرُّؤية، ولا زالت لم تسوَّ بعد التَّسوية النِّهائيَّة، وتبادل القاضي **أبو طالب** وخصمه **المشرفي** في تآليفهما السَّبَّ والشَّتائم، فإنَّ هذه التَّآليف المذكورة لم تخلُ من فوائد، فالقاضي أبو طالب في تأليفه: (**الإنصاف في ردِّ اعتراضات السَّفساف**)، بعد تناوله بالبحث قضيَّة الرُّؤية من النَّاحية الفقهيَّة والفلكيَّة، ترجم لأستاذه علي بن الحفَّاف ترجمة راقية، وذكر ظروف تعرُّفه به عندما كان قاضيا بـ (**الأربعاء**)، وكان يتردَّد على دروسه بـ (**الجزائر**)، ويحضر أختامها، كما تعرَّض لعلماء (**الجزائر**) وعوائدهم، والمحافظة على تقاليدهم، وهو مفيد جدًّا، حيث لولا هذا التَّأليف لما كنَّا نطَّلع على ترجمة ابن الحفَّاف وبعض أستاذته، وبالخصوص عوائد (الجزائر) في حفلاتهم الدِّينيَّة، كما نجد تأليف خصمه المشرفي (**السِّهام الصَّائبة في ردِّ الدَّعاوى الكاذبة**)، علاوة على موضوع الرُّؤية تعرَّض فيه صاحبه للخلاف الذي عمَّ في تلك السَّنة البلاد بين العلماء الأحرار والموظَّفين الرَّسميِّين، مِن قضاة، ومفتين، انتقل المشرفي إلى الحديث عن تراجم علماء أسرته، خصوصا المهاجرين منهم إلى (**المغرب**) بعد الاحتلال، ونشر وثائق تتعلَّق بتاريخ البلاد الثَّقافي.

وبعد هذه الطَّبقة من القضاة ظهرت طبقة ثانية، من بين أفرادها شعيب بن علي بن عبد الله الجليلي، المكنَّى: أبا بكر (**قاضي تلمسان**) حوالي سنة 1886م، فسار على سَنن متقدِّميه، وشارك في عدَّة مؤتمرات للمستشرقين بـ (**أوروبا**)، وألَّف تآليف عديدة، ممتازة في مختلف الفنون، وقد قرَّظ بعضها أمثل علماء عهده، مِن بينهم الشَّيخ محمَّد عبده المصري الذي زار (**الجزائر**) سنة 1903م، وهذه فقرات من التَّقريظ المذكور: «الحمد لله، قرأتُ (**قصائد**) الفقيه الفاضل الطَّيب الذِّكر، الباقي الأثر، المولى شعيب بن علي بن عبد الله من ذرِّيَّة سيِّدي عبد الجليل، صاحب (**تنبيه الأنام**) رحمه الله تعالى، بعضها في مدح النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم، وبعضها في نظم العقائد، ومحاسن الأعمال، فوجدتها مرآة صافية، تتمثَّل فيها حال مَن كان حول الأستاذ من الأقوام وما كانوا عليه، وما عسى أن يصلوا إليه على ممرِّ الأيَّام، فهي تعبِّر عن منزلتهم من العلم بأفصح لسان، وتشير إلى مكانتهم من الفهم بما لا يخفى على ذوي العرفان، فقد اتَّخذ (رحمه الله) مواهبهم العقليَّة ميزانا لشعره، وتنزَّل إليهم في المقال ليخلب ألبابهم بسحره، وخيرُ الكلام ما قرُب من الأفهام، وانتفع به الأنام، جزى الله النَّاظم عن قومه خير الجزاء، وأنزله مِن جواره نزول الأولياء والأصفياء» اهـ.[1].

كما شرح وقرَّظ تأليفه في (**العقائد**) الشَّيخ محمَّد بن عبد الرَّحمن الدِّيسي، وقال في مدح المؤلِّف:

فَدعني مِن ذكرى عُـذَيبٍ وبـارقٍ ... فإنَّ بياض الشَّيب نادى بسـلوان
بلى إنَّ شوقي للإمام أخـي العـلا ... شعيب بن عبد الله قاضي تلمسـان
همـام سري ماجـد وابـن ماجـد ... يعـنعن إن شـاء المزايـا لعـدنان

(1) عن كتاب: (**الكلمات الشَّافية في شرح العقيدة الشُّعيبيَّة الجليليَّة الكافية**)، تأليف الشَّيخ **محمَّد بن عبد الرَّحمن الدِّيسي**، أتمَّها سنة 1316 هـ، طبعت بـ (الجزائر).

فـــما مـــنهم إلاَّ كَمِـــيٌّ وعـــالم وناشرُ سِرِّ القوم من أهـل عرفـان
أئمَّـة صـدقٍ لا يُسـامَى فخـارُهم عليهم من الـرَّحمن أكـبر رضـوان

ولنختم هذه النَّماذج من القضاة بمحمَّد بن طيبة الملياني ـ وهو من خرِّيجي (المدرسة الرَّسميَّة) التي أُحدِثَت للقُضاة الشَّرعيين، كما سنتعرَّض إلى ذلك في هذه الدِّراسة ـ تولَّى القضاء في مدينة (قصر البخاري)، وورث خزانة علميَّة، إذ كان من بيت علم، وقد اطَّلعنا على تأليف مخطوط سمَّاه: **(حاجة العباد إلى الاقتصاد والاتِّحاد)**، حثَّ فيه مواطنيه على الاهتمام بالحياة الاقتصادية، وضرب لهم المثل بتقدُّم الأوروبيِّين في هذا الميدان، وقد أشار إلى هذا بقوله: «فالمسلمون، خصوصا الجزائريِّين لا يفترون يبرزون اعتقادات واهية، عزَوها إلى الدِّين والدِّينُ بريء منها، ومن كثير من أهلها، إذ هي هادمة للنِّظام الاجتماعي، منافية للجدِّ في العمل، كعقيدة التَّوكُّل بلا عمل، ونحوها، فأصبح فقيرُهم سائلا يتكفَّف النَّاسَ، وغنيُّهم كسلان يتثاءب ... »، إلى أن قال في خاتمة رسالته ا لتي أتمَّها سنة 1337هـ وحصر هذه الخاتمة في نقاط ثلاث:

(الأولى): الحث على العمل.

(الثَّانية): الحاجة إلى الإتقان في العمل.

و**(الثَّالثة)**: الحاجة إلى اختيار العمل.

ثمَّ أضاف إليها كلمة إجمالية عن التِّجارة، والاقتصاد في المعيشة، ثمَّ تربية الأولاد وإعدادهم لمجابهة الحياة التي يتطلَّبها الزَّمان المتطوِّر ... الخ».

نكتفي بهذه النَّماذج من القضاة الجزائريِّين الذين كان الشَّيخ حشلاف خاتمتهم، ولنرجع إلى الحديث عمَّا لاقاه القضاء في (الجزائر) بعد الاحتلال، إذ كانت خطَّة القضاء بين نارَين، فمِن جهة جهود الدَّولة لمحو هذه الشَّخصية تحت ستار الدَّعوة إلى

الإصلاح والتَّفتُّح، ومن جهة أخرى مقاومة الفقهاء لهم، ونظرا لضيق مجال هذا (**التَّقديم**) نذكر وثيقتين هامَّتين في الموضوع:

(**الأولى**): شهادة اكتشفت أخيرا، وضمَّنها صاحبها [1] (أطروحته) التي نال بها (دكتوراه الدَّولة) بـ (جامعة ميشيقان)، (أمريكا)، وهي عبارة عن ملفٍّ اكتشفه الأستاذ الأمريكي بمستودع الوثائق بـ (آيكس آن بروفنس) (Aix en province) يذكر فيه بعض مراحل محاولات السُّلطات الفرنسيَّة للقضاء على الشَّخصية الجزائريَّة.

و(**الوثيقة الثَّانية**): هي رسالة ألَّفها صاحبها، وهو من الفقهاء المحافظين، يردُّ فيها على قاضٍ مِن قُضاة عهده، كان معاصرا لصاحب التَّأليف، أي: في العشرينات من القرن الجاري الميلادي.

(**الوثيقة الأولى**) كما أشرنا إليها وإن خصَّصها صاحبها إلى الحركة الفكريَّة الجزائريَّة في القرن التَّاسع عشر، فقد تعرَّض لموضوع بحثنا، حيث قال: «ففي أوائل الستِّينات من القرن التَّاسع عشر، وقع تهجُّم عامٌّ على مؤسَّسات القضاء الإسلامي في (الجزائر)، ورغم أنَّ مرسوم 31 ديسمبر 1859م، لم يُلغِ (مجالس القضاء) بشكل رسمي، فإنَّ الوكيل العام قد رفض تولية أعضاء المجالس، وبذلك ألغى المجالس بوسيلة شبه رسميَّة »، ثمَّ قال: «وفي سنة 1862م أصدر نائب الحاكم العام أمرا، منح به المدارس الرَّسميَّة للقضاة والعدول الذين (يفهمون أفكار الحكومة) ـ بخلاف طلاَّب الزَّوايا ـ

(1) صاحب (**الأطروحة**) المذكورة، وهو الأستاذ: آلان كريستلو، مِن (جامعة ميتشغان)، اكتشف ملفًّا بمستودع الوثائق بـ (إيكس إن بروفنس) (Aix en province)، يتضمَّن هذا الملف كما قال المكتشف: « على بعض الرَّسائل الرَّسميَّة ذات الأهمِّيَّة الملحوظة بالنِّسبة إلى الحركة الفكريَّة الجزائريَّة في القرن التَّاسع عشر ...» اهـ .

احتكار التَّرشيح لوظائف القضاء، واستهدف هذا الأمر خلق[1] طبقة مِن المشهورين بروحهم المتعصِّبة» اهـ.

وقبل مواصلة ما يتعلَّق بتطوُّر القضاء الذي تعرَّض له الأستاذ: آلان كريستلو، نقف قليلا للتَّعريف بظروف اكتشاف هذه الوثيقة، كما ذكرها صاحبها في دراسة قيِّمة نشرها بإمضائه في مجلَّة: الثَّقافة الجزائريَّة، (تصدرها وزارة الإعلام والثَّقافة بالجزائر)، بعددها: (46)، بتاريخ: (شعبان/ رمضان) 1398هـ/ (أغسطس/ سبتمبر) 1978م.

نشر هذه الدِّراسة تحت عنوان: (**حول بداية النَّهضة الجزائريَّة: كُتيب لعبد القادر المجَّاوي**) [2]، وقد ضمَّن الكاتب مقاله هذا، بأنَّه عثر على ملفٍّ في مستودع الوثائق بـ (**إيكس إن بروفنس**)، يتعلَّق بما أحدثه تأليف عبد القادر المجَّاوي، والملفُّ عبارة عن مجموع تقارير أرسلها الحاكم العسكري بولاية (**قسنطينة**) إلى رئيسه الوالي العام بـ (**الجزائر**)، ثمَّ قال الأستاذ الأمريكي: «أمَّا هذه الرَّسائل فهي بخطِّ يد (**كوماندنت**) إقليم (**قسنطينة**)، والمبعوث إليه هو الحاكم العام، وإنَّ الصُّور التي عثرتُ عليها مسجَّلة في دفتر مراسلة (**الكوماندنت**)، فقد كتب في أوَّل هذه الرَّسائل بتاريخ: 15 نوفمبر 1877م: أنَّ عبد القادر التِّلمساني، المعروف لنا بـ (**المجَّاوي**)، الذي اشتغل في ذلك الوقت إماما بـ (جامع قسنطينة) ـ أي: (**سيدي الكتَّاني**) ـ والذي كان مرشَّحا لوظيفٍ في (**المدرسة الرَّسميَّة**)، قد نشر كتيِّبا في (القاهرة)، وأكَّد (**الكوماندنت**) لقائده

---

(1) كذا في مجلَّة (**الثَّقافة**) ص: 58، والصَّواب: «واستهدف هذا الأمر حذف طبقةٍ مِنَ المشهورين بروحهم المتعصِّبة». (ع)

(2) **عبد القادر المجَّاوي**: عالم جزائري، من مواليد منتصف القرن التَّاسع عشر، ألَّف عدَّة كتب، منها: كتاب في إصلاح التَّعليم، طبع بـ (**مصر**) حوالي سنة 1877م، وأثار ضجَّة في الأوساط الاستعماريَّة.

أنَّ ذلك الكتيِّب أثار سكَّان (قسنطينة) إثارة خطيرة »، ثمَّ قال: «وبعد ذلك بشهر تقريبا، تكلَّم (الكوماندنت) عن الأستاذ المجَّاوي مرَّة أخرى، وهو في هذه المرَّة قد تحدَّث عنه بالنِّسبة إلى جريدة عربية منشورة بمدينة **(قسنطينة)**، فكتب في رسالة بتاريخ: 20 ديسمبر 1877م: إنَّ هذه الورقة التي يطبعها محرِّر **(لبروقري دلاست)** (Le Progrès de l'est) تبدو لي ذات روح سيِّئة جدًّا، وإنَّ أهمَّ مقالٍ فيها يناقش ملخَّص النَّشرة الجديدة لـ **(سي عبد القادر التِّلمساني)**، الذي وضعته في **(المبشِّر)** ـ أي: الجريدة الرَّسميَّة ـ ويكاد يكون هذا المقال طعنا في موقف الحركة ... ومن الممكن أنَّ محرر **(البروقري)** سيناقش أعمال الحكومة في الأعداد التَّالية، وهكذا يقدِّم إلى السُّكَّان الأهليِّين هذا النَّوع من الانتقاد المتحمِّس، ذي الإرادة السَّيِّئة، الذي يطبع **(لبروقري دلاست)** ... وقيل لي إنَّ الاشتراك من أجل تأييد النَّشرة قد فتِح، وإنَّ بعض الموظَّفين المسلمين كانوا مِن بين المشترِكين الرَّئيسيِّين.

وبعد ذلك بيومَين كتب **(الكوماندنت)**: يشرِّفني أن أطلب منك يا سيِّدي الحاكم العام، أن تقول لي ما يجب فعله في هذه الأحوال، فإنَّني أعتقد أنَّه يجب علينا منع إذاعة هذه (الجريدة) وسط القبائل ...، وقال **(الكوماندنت)** إنَّه يخشى أن تصبح هذه الجريدة العربية صدًى لاحتجاجات كلِّ المسلمين في إقليم **(قسنطينة)** ».

وبعدما تحدَّث الأستاذ الأميركي عن هذه التَّقارير، وعن تأليف المجَّاوي والسَّبب فيه، قال فيما يهمُّ موضوع دراستنا قال: «ففي أوائل الستِّينات من القرن التَّاسع عشر وقع تهجُّم عامٌّ على مؤسَّسات القضاء الإسلامي في **(الجزائر)**، ورغم أنَّ مرسوم 31 ديسمبر 1859م لم يلغ مجالس القضاء بشكل رسمي، فإنَّ الوكيل العام قد رفض تولية أعضاء المجالس، وبذلك ألغى المجالس بوسيلة شِبهِ رسميَّة »، إلى آخر ما تقدَّم نشره.

ثمَّ قال الأمريكي: «ولكن بعد ثورة (1864ـ1865م)، ـ وهي ثورة أبناء سِيدي

الشِّيخ التي اندلعت بالجنوب الوهراني ـ نلاحظ تغيُّرا ذا أهمِّيَّة غير قليلة في مجال السِّياسة القضائية، فقد حاول الفرنسيُّون في ذلك الوقت أن يصالحوا الجزائريِّين لأسباب متعدِّدة: خطر الحرب في (أوروبا)، وتورُّطهم السَّخيف في (المكسيك)، وخوفهم من انفجار جديد في (الجزائر)، ومن أجل هذه المصالحة استفتت الحكومة بعض الأعيان المسلمين ذوي النُّفوذ الواسع ... وبعد المفاوضات بين الإدارة والأعيان في أواخر سنة 1865م، وتسميتها الرَّسمية (لكوميسيون قاسطامبيد) (La commission Gastambide)، صدر مرسوم جديد ينظِّم القضاء الإسلامي على أساس جديد، ومن أهمِّ أحكام هذا المرسوم، تأسيس منهج الامتحانات لاختيار العدول والقضاة، وقد قبِل في هذه الامتحانات كلُّ طالب، سواء كان خرِّيج (**المدرسة الرَّسميَّة**) أو طالبا في زاوية من زوايا (**الجزائر**)، أو في جامعة من الجامعات الإسلاميَّة، في الخارج كـ (**الزَّيتونة**)، أو (**القرويِّين**)، أو (**الأزهر**)، وأجرِيَت الامتحانات للمرَّة الأولى في خريف 1869م»، إلى أن قال الأمريكي فيما يتعلَّق بموضوعنا: «ويجدر بنا أن نذكر أنَّه في سنة 1877م تغيَّرت سياسة الحكومة بالنِّسبة لتعليم القضاة مرَّة جديدة، فقد تقرَّر من جديد احتكار (**المدارس الرَّسميَّة**) ... الخ».

نكتفي بهذا القدر الذي اقتصرنا فيه على هذه (**الأطروحة**) التي نشر فيها صاحبها عيِّنات من هذه القضيَّة، وأنَّه رغم ما تعرَّض له القضاء في مراحله، فإنَّ الشَّعب رضي ببقائه، حيث لمَّا فتِح باب استئناف أحكام القضاء لدى (**محاكم الاستئناف الفرنسيَّة**)، لم يتقدَّم إليها مسلم واحد، وكذلك لما فتِح باب الاختيار للمسلمين في التَّحاكم لدى القضاة المسلمين والقضاة الفرنسيِّين مباشرة، فلم يرض المسلمون بالمحاكم الفرنسيَّة، وكان كثيرٌ من المتخاصمين يقصدون التَّحاكم عند الفقهاء غير الرسميِّين، فحينئذ مُنِع هؤلاء الفقهاء من مجالسهم التي كانوا يعقدونها في الأسواق، وارتطموا بالقضاة المتطوِّرين، وهذا ما

أشرتُ إليه بـ (**الوثيقة الثَّانية**) التي ضمَّنها أحد الفقهاء انتقاداته عن قضاة عهده ـ أي: عند (**الحرب العالميَّة الأولى**) ـ وهذا الفقيه هو الشَّيخ **قدُّور بن البشير آل ابن دوبة البرجي (معسكر)**، تعرَّض فيها للقاضي **مصطفى ابن عبد الجبار**[1] الذي ألَّف رسالة سمَّاها: (**تنبيه القضاة**)، وهي رسالة قيِّمة في موضوعها، قارن فيها مؤلِّفها ما بين ما يتطلَّبه الشَّرع من القضاة، وبين حالتهم في عهده، وصوَّر لنا حالة بعض القضاة، فقال: «ولنذكر كيفيَّة بعضِ القُضاة الذين نصَّبوا أنفسهم لفصلِ الخِصامِ على شريعة سيِّد الأنام ﷺ ...»، إلى أن قال: «﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ (المجادلة: 19)، ، سكَنهم الكِبر والعجب حتَّى ظنُّوا أنَّ الشَّرف الكريسي والنَّسبي [كذا]، وأهل العلم والفضل ليس لهم حظٌّ في الآدميَّة، وكيفيتهم هي التي عليها المراد، ما أشدَّ مظلمة هؤلاء الفجَّار، المزخرِفون رؤوسهم بالعمائم الصُّفر، ورقابهم بالرَّبط و(القرافيط) (Cravates) المنوَّعة، وأرجلهم بالنَّعل المزدادة الأطراف الأكوشية، وبعضهم بالشَّواشي الحمر المعقوفة بنصف الرَّأس وبجانبيه، وحلق اللِّحى مع عدم تقصيص الشَّارب، وغير ذلك من اللِّباس المختَرَع والمبتدع، فإنَّهم ضلُّوا وأضلُّوا، وتركوا أهلَ العلمِ والورع في حيرة، وحوَّلوا أردية الجهل والظُّلم من رقابهم ورمَوها على العلماء وأتلفوهم، وقالوا: إنَّ هؤلاء نائمون في غفلة، ونحن فاطنون في يقظة، وأقلامهم بالسَّفسطة تملا، وسجلاَّتهم بالنِّيران شاعلة ... الخ» اهـ.

نقلتُ هذه الفقرات من رسالة: (**تنبيه القضاة**)[2]، ولو كانت لغتها مهلهلة، لأنَّها

---

(1) كان قاضيا إذ ذاك بمدينة (سعيدة).

(2) رسالة متداولة عند كثير من فقهاء نواحي (**معسكر**)، أهدى لي منها نسخة ولد المؤلِّف.
قلت: وقد تحصَّلنا على صورة من هذه النسخة من مكتبة الشَّيخ **المهدي**، وقمنا بتحقيقها، وسننشرها قريبا ـ إن شاء الله تعالى ـ. (ع)

تعطينا صورة المجتمع في ذلك العهد، فالقضاة الذين تخرَّجوا من (المدارس الرَّسميَّة) لم يقفوا في سلوكهم عند الحدود ولا تقاليد هذه الخطَّة، كما أنَّ الفقهاء كانوا متشدِّدين لا يفتون ولا يعترفون بالأحكام المخالفة للمشهور من مذهب مالك مما أدَّى إلى اعتناء كثير من المستشرقين بترجمة مختصر خليل ورسالة ابن أبي زيد القيرواني ليتجنبوا انتقادات الفقهاء.

ولنختم هذا (**التَّقديم**) بما لعبته (**مدرسة مازونة الفقهيَّة**) في هذا الباب، فإنَّ (**مدرسة مازونة**) التي تخصَّصت لدراسة الفقه المالكي، وتخرَّج منها فحول العلماء، كان خرِّيجوها يمتازون عن غيرهم بالتَّضلُّع في الفقه، ويقدَّمون لمناصب القضاء، وبعد إدخال الإصلاح المتقدِّم الذِّكر، أُلحِقت بالزَّوايا وغيرها مِن المعاهد، ولكن كان أكثر طلبة (مدرسة مازونة) مِن شرق (المغرب الأقصى)، وكانت شهاداتهم تؤهِّلهم لخطَّة القضاء، ولمَّا طبِّق قرار الحكومة عندما خصِّصت خطة القضاء للمتخرِّجين من (**المدارس الرَّسميَّة**)، وشمل قرارها هذا طلبة (**مدرسة مازونة**)، بقيت سلطات (المغرب الأقصى) تعترف بشهادة (مازونة)، وتعيِّن حامليها قضاة وعدولا، إلى أنْ لفظت هذه المدرسة نفَسها الأخير، عند اندلاع (**الحرب العالمية الثَّانية**)، وما زال إلى يومنا هذا بعض قضاة المنطقة المغربية المذكورة من متخرِّجي (**مدرسة مازونة**)، وكان أمثلهم الفقيه **محمَّد بن** العالم **اليزناسني** (**قاضي وجدة**) في عهده، ثمَّ عيِّن عاملا على (**وجدة**) بعد استقلال (**المغرب**) سنة 1956م.

هذه لمحة ذكرناها بمناسبة (**تقديم**) هذا التَّأليف، والتَّنويه بمحتواه، وبمؤلِّفه الذي كان من القضاة الممتازين الذين حافظوا على شخصيَّة القاضي الجزائري، في مراحلها المحفوفة بالمخاطر.

ولا يفوتنا قبل الختام أن نذكر ما أشرتُ إليه في (**التَّقديم**)، من أنَّ فنَّ النَّسب هذا

كان محلّ اعتناء الباحثين المسلمين والأجانب من قديم، ومن جملة ما وصلنا من تآليف الأجانب، ما نشرته جريدة (لوموند) اليومية (Le Monde) (14/ 15 ديسمبر 1974م)، نقدت فيه تأليفَين في الموضوع:

(أوَّلها): **(الورثة الذين أبحث عنهم)**

Les Héritiers que je cherche, Par Maurice Contot Ed Laffa, paris.

وثانيها: **(البحث عن سلفنا)**.

A La recherche de nos ancêtres, Par yarm grandeau Edit Stok Paris.

وكان عنوان النَّقد:

Généalogie: deux livres, une progression passionnante.

هذه هي بعض الخطوط العريضة من هذا **(التَّقديم)**، حاولتُ خلالها أن ألفِتَ انتباه القرَّاء إلى هذا النَّوع من التَّآليف، وإلى هذه الطَّبقة من المؤلِّفين الذين حافظوا وواصلوا أعمال سلفهم، لا كما يتَّهمهم به كثير من الباحثين الذين اختلط عليهم الحابل بالنَّابل، وحكموا على جميع قضاة عهد الاحتلال بحكم جائر، أقلُّ ما يوصف به هو أنَّه: «تحامل وظلم».

1 بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة لكتاب "سلسلة الأصول في
شجرة الرسول" تأليف الفقيه المنعم
الشيخ عبد الله حشلاف

إن هذا التأليف كما يدل عليه عنوانه تعرف
فيه مؤلفه لتراجم بعض الأسر الجزائرية العلمية
جريا على تقاليد علماء البلاد الذين كانوا
يعلون أهمية كبرى لهذا النوع من التأليف
وقد انقسم المؤلفون في هذا الفن إلى قسمين
قسم اقتصر على تراجم علماء البلاد بقطع
النظر عن نسبهم والقسم الآخر فله تآليف
لمن ثبت شرفهم كصاحب كتاب "العقد النفيس
في بيان علماء الأشراف غريس" الذي ترجم

صورة عن الصَّفحة الأولى من النسخة المعتمدة

دراسة كتاب

(عيون الأخبار ونزهة الأبصار)[1]

لمحمَّد بن محمَّد أبي السّرور البكري الصَّدِّيقي الشَّافعي المصري (998 ـ 1060هـ)

ذكر هذا التَّأليف صاحب: (**كشف الظُّنون عن أسامي الكتب والفنون**)، فقال: «كتاب (**عيون الأخبار ونزهة الأبصار**)، تاريخ كبير من أوَّل الخلق للشَّيخ محمَّد بن أبي السّرور البكري الصَّدِّيقي، ذكره في تاريخه المتوسِّط المسمَّى بـ (**تذكرة الظُّرفاء**) ».

يحتوي هذا التَّأليف على ستَّة عشر مقصَدا:

(**المقصد الأوَّل**): ابتداء الخلق.

(**المقصد الثَّاني**): ملوك الفرس.

(**المقصد الثَّالث**): ملوك اليونان.

(**المقصد الرَّابع**): ملوك الرُّوم.

(**المقصد الخامس**): رسالة النَّبي ﷺ.

(**المقصد السَّادس**): الخلفاء الرَّاشدون، (زاد على الخلفاء الأربعة: الحسن بن علي).

---

(1) محاضرة شارك بها في **ملتقيات الفكر الإسلامي**، الملتقى الحادي عشر، **ورجلان**: 1397هـ/ 1977م، (4/ 423 ـ 430)، ونشرت أيضا في **مجلَّة العلم والإيمان**، عدد: 21، سبتمبر 1977م، ص: 94 ـ 99، تونس. (ع)

(**المقصد السَّابع**): خلفاء بني أميَّة.

(**المقصد الثَّامن**): خلفاء بني العبَّاس.

(**المقصد التَّاسع**): بنو أميَّة بـ (الأندلس).

(**المقصد العاشر**): الدَّولة البوَيهيَّة.

(**المقصد الحادي عشر**): الفاطميُّون.

(**المقصد الثَّاني عشر**): السَّلاجقة.

(**المقصد الثَّالث عشر**): الأيُّوبيُّون.

(**المقصد الرَّابع عشر**): الدَّولة التُّركية.

(**المقصد الخامس عشر**): الجراكسة.

(**المقصد السَّادس عشر**): الدَّولة العثمانيَّة (من بدايتها إلى سنة 1032هـ).

يشتمل الكتاب على حوالي: (533 صفحة)، تحتوي كل صفحة على: (31) سطرا، وكلُّ سطر يحتَوي على: (10) كلمات، وقد قال مؤلِّفه في تقديمه: «... وبعد، فيقول مؤلِّفه العبد الحقير محمَّد بن محمَّد أبي السّرور الصَّدِّيقي الشَّافعي التَّيمي سبط آل الحسين: لمَّا كان علم التَّاريخ، به معرفة أحوال المتقدِّمين، والأمم الماضين، وقد ألَّف النَّاس في ذلك كثيرا، وتتبَّعوه تتبُّعا كبيرا، فمِن بين طويل مملٍّ، وقصير مخلٍّ، فأحببتُ أن أجمع تاريخا ليس بالمختصَر المقلّ، ولا بالمطوَّل المملّ، ورتَّبته على ستَّة عشر مقصدا ... الخ ».

وقد شرع فيه مؤلِّفه سنة إحدى وثلاثين وألف، وأنهاه سنة اثنتين وثلاثين وألف[1].

(1) **عيون الأخبار** ؟.

مؤلِّفه: مؤلِّف الكتاب: محمَّد بن محمَّد أبي السّرور بن محمَّد أبي الحسن تاج العارفين البكري الصَّدِّيقي (المتوفى سنة أربع وتسعين وتسعمائة) [1].

أمَّا والد المؤلِّف **محمَّد أبو السّرور** شيخ الإسلام فقد توفي سنة سبع وألف، وقد ترجم والدَ المؤلِّف (محمَّدا أبا السّرور)، وجدَّه (محمَّدا أبا الحسن تاج العارفين) ـ المذكورَين ـ، صاحب: (**خلاصة الأثر في بيان علماء القرن الحادي عشر**)، فقال في ترجمة أبي السّرور البكري بعد أن ذكر عمود نسبهم المتَّصل بالخليفة أبي بكر الصَّدِّيق، قال: «هذا نسب [السَّادة] البكرية، سادات (مصر) من جهة الآباء، ولهم مِن جهة الأمَّهات سيادة، وأبو السّرور هذا، أحد أولاد الأستاذ محمَّد بن الحسن البكري الصَّدِّيقي المصري الشَّافعي، ولد في دولة أبيه، وتربَّى في حِجر الفضل والصَّلاح، وكان له الذَّوق الصَّحيح في معارف الصُّوفية، والبلاغة الكاملة في التَّقرير، وهو أنبل إخوته وأفضلهم، وأكثرهم مداومة على الإفادة وإلقاء الدُّروس، وكان له اتِّساع في الدُّنيا، ومخالطة للحكَّام، ومداخلة في أمور كثيرة، ودرَّس بـ (الخشانية) بعد موت شيخ الشَّافعيَّة الشَّمس محمَّد الرَّملي، شارح (**المنهاج**)، وله مؤلَّفات ...»، إلى أن قال: «... وكانت وفاته سنة سبع بعد الألف (رحمه الله)» اهـ .

كما ترجم كلاًّ منهما ـ أي: الوالد والجدّ المذكورَين ـ شهاب الدِّين محمود الخفَّاجي في كتاب: (**ريحانة الألبَّاء**)، فقال: «ومن البيوت بـ (مصر) بيت السَّادة البكريَّة، وهو البيت المعمور ... الأستاذ أبو الحسن البكري، وهو جامع الفضائل والمحاسن، ومظهر

---

(1) **عيون الأخبار** (ص: 433).

ملاحظة: الظاهر أنَّه يقصد أنَّ جدَّه أبا الحسن توفي سنة 994هـ، إلَّا فقد عُلِم أنَّ المؤلِّف توفي سنة 1060هـ، ولم يكن قد ولِدَ سنة 994هـ، ولا أدركَ جدَّه، فقد ولد سنة 998هـ (من إفادات الأخ **عمر عشاب** (حفظه الله تعالى). (ع)

اسم الظَّاهر والباطن، الذي شيَّد لهم منار الطَّريقة، وجاز من قنطرة المجاز إلى الحقيقة، وتآليفه وآثاره وكلماته التَّامَّة وأخباره غنيَّة عن البيان، مسطَّرة في صحف الإمكان ... الخ» اهـ.

أمَّا مترجمو المؤلِّف من المتأخِّرين، فقد وصلتنا ترجمة صاحب كتاب: (**الغزو العثماني لمصر ونتائجه على الوطن العربي**)، طبع مؤسَّسة: شباب الجامعة بالقاهرة، سنة 1972م، تأليف محمَّد عبد المنعم السَّيد الراقد، وإشراف الدُّكتور أحمد أحمد الحتَّة، أستاذ التَّاريخ بـ (جامعة الإسكندريَّة)، الذي ذكر في تقديم تأليفه المترجَم في معرض انتقاده لمؤرِّخي العصر العثماني بـ (مصر)، الذين لم تكن لديهم الحرِّيَّة أو الشَّجاعة الأدبيَّة عندما تعرَّضوا في تآليفهم لذكر أحداث الغزو العثماني، وخصَّص المترجَم ابن أبي السّرور بأنَّه رغم أنَّه عاش حياته بأكملها في مطلع الحكم العثماني، فلم يتعرَّض في كتاباته لتسجيل تاريخ تلك الفترة، بل أشاد بالحكم العثماني في تأليفه الذي ذكر فيه آل عثمان، وهو كتاب: (**المنح الرَّحمانيَّة في الدَّولة العثمانيَّة**). وهاك ما قاله المؤلِّف المذكور في تقديم تأليفه: (**الغزو العثماني لمصر ونتائجه على الوطن العربي**)، قال: «بينما كان ابن إياس الذي عاصر الغزو صريحا في كتابته، ووصف أحداث الغزو وما قاسته (مصر) من محن وأهوال ... فإنَّها الكائنة العظمى التي لم يقع مثلها في تاريخ (مصر) قطّ»، ثمَّ قال: «إلاَّ أنَّه من الملاحظ أنَّ المؤرِّخين المصريِّين بعد ابن إياس لم تكن لديهم الحرِّيَّة أو الشَّجاعة الكافية عندما شرعوا في الكتابة عن أحداث الغزو، فمثلا أبو السّرور البكري المتوفى سنة 1618م[1]، والذي عاش حياته بأكملها في مطلع الحكم العثماني، ابتدأ مخطوطه (**المنح الرَّحمانية في الدولة العثمانية**)[2] بالعبارة الآتية: «(في امتداد دولتهم

---

(1) الأقرب أنَّه توفي سنة 1005هـ/ 1596م، (من إفادات الأخ **عمر عشاب**). (ع)

(2) **المنح الرَّحمانيَّة في الدَّولة العثمانيَّة**، مخطوط بدار الكتب المصريَّة، رقم: 1926 (تاريخ).

النَّقيَّة، وأوَّل من تسلطن منهم): فهو مولانا السُّلطان **عثمان خان** ... ويتَّصل نسبه الشَّريف إلى **يافث**، من أولاد سيِّدنا **نوح** (عليه السَّلام)...»، والبعض الآخر من مؤلَّفات تاريخ (مصر) الحديث، اكتفى بالتَّعرض لدراسة نظام الحكم العثماني، دون التعرُّض ـ تفصيلا ـ لأحداث الغزو ومذابحه» اهـ.

وفي نفس الموضوع ـ أي: تقصير مؤرِّخي العهد العثماني بـ (مصر) ـ قال د . عبد المنعم ماجد في مقال نشرته مجلَّة: **(الهلال)**، عدد خاص عن الجبرتي، جمادى الأولى 1394هـ/ يوليو 1974م، قال فيه: «اشتهرت **(مصر)** بمؤرِّخيها العِظام، لا سيما في فترة حكم سلاطين المماليك (648 ـ 918هـ/ 1250 ـ 1512م)، ففيها ظهر منهم أعداد، وطبقات لا تحصى، قدَّموا حشدا من مادَّة تاريخيَّة، لا مثيل لها في أيِّ سابقة أو لاحقة، أو في أيِّ بلد عربي آخر ... إلاَّ أنَّه بفتح العثمانيِّين لـ (مصر)، وعلى مدى ما ينيف على ثلاثة قرون (918 ـ 1226هـ/ 1512 ـ 1811م) لم نصادف من مؤرِّخي[1] (مصر) غير عدد قليل جدًّا، يعدُّ على الأصابع، [و] ليست لهم تآليف هامَّة» اهـ.

فممَّا ذكرناه يتبيَّن أنَّ الباحثين المعاصرين لم يطَّلعوا على كتاب **(عيون الأخبار ونزهة الأبصار)** لمحمَّد بن محمَّد أبي السّرور البكري، الذي تعرَّض في تأليفه **(عيون الأخبار ونزهة الأبصار)** للغزو العثماني، وإنَّه وإن لم يخفِ إشادته بالعثمانيِّين والانتصار لهم، فقد

قلت: وهو الآن مطبوع مع ذيله **(اللَّطائف الرَّبانيَّة)** لنفس المؤلِّف، تقديم وتحقيق: الدُّكتورة ليلى الصَّبَّاغ، دار البشائر، دمشق: 1995م. (ع).

(1) مثل شمس الدِّين محمَّد بن أبي السّرور البكري الصَّدِّيقي (1060هـ/ 1650م)، الذي ألّف **(مختصر الخِطط)** للمقريزي، سمَّاه: **(قطف الأزهار من الخطط والآثار)**، وكذلك مؤلِّف آخر اسمه الإسحاقي لا نعرف عنه شيئا يذكر، ألَّف كتابا بعنوان: **(أخبار الأوائل فيمن تصرَّف في مصر من أرباب الدُّول)**، القاهرة 1215هـ .

تعرَّض للأحداث التي مرَّت على (مصر) وما والاها من البلاد الشَّرقية إثر سقوط دولة الغوري بمزيد من البيان والتَّفصيل، وتعرَّض لمساوي كثير من الولاة الأتراك ومثالبهم، وقد خصَّص لعهد المماليك ـ الغوري ـ والعثمانيِّين ثلث مجموع تأليفه، ويظهر أنَّه كتب عدَّة تآليف أخرى، منها تأليف سمَّاه: (**بدر الجمان في دولة مولانا عثمان**)، يقصد به السُّلطان **أبا النَّصر عثمان ابن** السُّلطان **أحمد** الذي تولَّى سنة 1027هـ، وهو السُّلطان السَّادس عشر من سلاطين آل عثمان، كما له كتب أخرى منها: (**الفتوحات العثمانيَّة للدِّيار المصريَّة**)، الذي خصَّصه للمدَّة التي حكم فيها طومان (باي مصر) بعد هزيمة الغورى، ورغم كلِّ هذا، فإنَّنا لم نجد للكتاب ذكرا عند الباحثين المعاصرين، الذين تحدَّثوا عنه وعن بعض تآليفه التي لا زالت مخطوطة بـ (دار الكتب المصريَّة)، وقد ذكرها صاحب: (**الغزو العثماني لمصر ونتائجه على الوطن العربي**).

كما نجد كتَّابا آخرين ذكروا مترجمنا محمَّد بن محمَّد أبي السّرور ضمن مؤرِّخي العهد العثماني في القرن الحادي عشر، مثل الدُّكتور محمَّد أنيس الذي خصَّص دراسة قيِّمة ألقاها في (**النَّدوة الدُّولية لتاريخ القاهرة**)[1].

وقال عنها (د. أحمد درَّاج): «وقد دفع (د. أنيس) إلى كتابة هذا البحث القيِّم ما لاحظه من أنَّ العهد العثماني في (مصر) لم ينل حتَّى الآن عناية كاملة من جانب المشتغلين بدراسة تاريخ هذه الفترة من المؤرِّخين المصريِّين والغربيِّين على حدٍّ سواء، وإنَّ مردَّ ذلك يرجع إلى الاعتقاد الشَّائع لدى جمهرتهم عن ندرة وقلَّة مصادر هذه الفترة، هذا فضلا عن عدم الاهتمام ـ حتَّى الأربعينيات من هذا القرن ـ بكتابة تاريخ (مصر) العثمانية، فحتَّى ذلك الوقت كانت دراسات هذه الجمهرة من المؤرِّخين تتركَّز

---

(1) دراسة الدُّكتور أحمد درَّاج، نشرها بالمجلَّة، عدد: 149، أيار 1969م، تحت عنوان: (**مصادر تاريخ القاهرة**).

حول تاريخ (مصر) في القرن التَّاسع عشر، وبالذَّات حول تاريخ أسرة محمَّد علي، ويقسِّم الدُّكتور أنيس مصادر تاريخ (مصر العثمانية) إلى أنواع ثلاثة:

1) الوثائق الرَّسميَّة: وهذه الوثائق، منها المصري والتُّركي والأوروبي.

2) الكتَّاب المعاصرون: وهؤلاء ينقسمون إلى مجموعتَين:

أ) مجموعة الرَّحَّالة الأجانب الذين زاروا (مصر) خلال العصر العثماني، وكتبوا عن أحوالها، وفي مقدِّمة هؤلاء: مجموعة الدِّراسات التي كتبها علماء الحملة الفرنسيَّة في كتاب: (**وصف مصر**)، ثمَّ دراسات الرَّحَّالة الفرنسيِّين، والرَّحالة الإنجليز، الذين زاروا (مصر) في العصر العثماني، ودوَّنوا لنا فيها مشاهداتهم عن الأوضاع العامَّة في (مصر).

ب) مجموعة المؤرِّخين المصريِّين المعاصرين، وكتُب هذا الفريق من المؤرِّخين تعتَبر ذات أهميَّة كبرى في كتابة (**تاريخ مصر العثمانية**)، لأنَّها تعالجها من زاوية مصريَّة، وبطريقة مباشرة.

وممَّا يؤسف له أنَّ أغلب كتابات المؤرِّخين المصريِّين لا تزال في نسختها الخطِّيَّة، وأنَّها مبعثرة في دور الكتب الشَّرقيَّة والأوروبيَّة، ولهذا فإنَّ الجانب الأكبر من بحث الدُّكتور أنيس يقدِّم لنا حصرا كاملا لأوَّل مرَّة لهذه الكتب، كعمل تمهيدي لجمعها والقيام على نشرها، وعلى هذا النَّحو تتحقَّق خدمة (**تاريخ مصر في العهد العثماني**)».

ثمَّ يسترسل (د. **أحمد درَّاج**) في حديثه الذي ختمه بقوله: «هذا، ويعود الدُّكتور أنيس في حديث مسهب إلى الحديث عن هؤلاء المؤرِّخين المصريِّين، والتَّعريف بهم وبمؤلَّفاتهم التي لم ير معظمها النُّور حتَّى الآن».

وهو في حديثه هذا يقسِّمهم إلى ثلاثة أقسام: مجموعة المؤرِّخين الذين ظلُّوا في كتاباتهم لتاريخ (مصر العثمانيَّة) متأثِّرين بمدرسة التَّاريخ الإسلامي، ويمثِّل هؤلاء في

القرن العاشر الهجري، كلٌّ من: ابن إياس، وأحمد شلبي عبد الغني، وفي الحادي عشر، كلٌّ من: الإسحاقي، وابن أبي السّرور البكري الصَّدِّيقي، ويمثِّلهم في القرن الثَّاني عشر: عبد الرحمن الجبرتي، وعبد الله الشَّرقاوي.

هذا، وإنَّنا كما سبق لنا ذكره أنَّ المؤرِّخ محمَّد بن محمَّد أبي السّرور ولو كان معروفا عند الباحثين بأنَّه من مؤرِّخي العهد العثماني، إلاَّ أنَّ تأليفه (**عيون الأخبار**) كان مجهولا عندهم، إذ لو اطَّلعوا عليه لتحقَّقوا أنَّه تعرَّض للعهد العثماني بدقَّة وموضوعيَّة، ولم ندر هل (د. أنيس) الذي ذكره، اطَّلع على كتابه (**عيون الأخبار**)، أم اطَّلع على كتبه الأخرى الكثيرة ؟ وعلى كلِّ حال فإنَّ كتاب (**عيون الأخبار**) هذا، خُتم المطاف بنسخة منه في بلادنا.

وممَّا لا شكَّ فيه أنَّها كتبَت في عهد مؤلِّفها، بدليل وجود هذا (التَّعليق) على ظهر الصَّفحة الأولى من (المخطوطة): «الحمد لله تعالى، قد كتِب هذا التَّاريخ البديع، المؤلَّف على أحسن اختصار بأكمل صنيع، برسم المولى الهمام، والعالم الأوحد الصَّمصام، طراز العِصابة الهاشميَّة، ونور حديقة الرَّوضة المحمَّديَّة، المتوَّج بتاج التَّوفيق، والمتوشِّح بحُلَلِ المعارف والتَّحقيق، المولى السَّيد زين العابدين، لا زال ملحوظا بعين العناية من ربِّ العالمين، آمين» اهـ.

كما كُتب على نفس الصَّفحة وبخطٍّ مخالف (تمليك)، قال فيه صاحبه: «في نوبة الفقير السَّيد زين العابدين ابن السَّيد علي (غفر الله ذنوبهما، وستر عيوبهما)... الخ »، وغالب الظَّنِّ أنَّ زين العابدين هذا، هو الذي ألِّف الكتابُ برسمه، وقد بيع هذا التَّأليف سنة 1267هـ، ثمَّ بيع مرَّة أخرى سنة 1272هـ وكان يتوارثه أفراد أسرة مشتريه بمكاتب خاصَّة، شأن كثير من الكتب التي توارثها بقايا بعض الأسر العلميَّة، [الذين] حرِموا من الثَّقافة وصاروا لا يراعون في هذا التُّراث إلاَّ التَّبرُّك بمآثر

أسلافهم، فلا يعيرونها لأحد، ولا يعرفون لها قيمة. والذي ألفتُ إليه انتباه القارئ، هو أنَّ تاريخ ولادة المؤلِّف ذكرها المؤلِّفُ نفسه في: (**عيون الأخبار**)، أمَّا تاريخ الوفاة فقد ذكرها صاحب: (**الغزو العثماني لمصر ونتائجه على الوطن العربي**)، وقد ذكر تاريخ الولادة فجعلها سنة 1005هـ، وهو غلط، إذ المؤلِّف عندما تعرَّض في كتابه لتاريخ وفاة والده قال: «إنَّه توفي سنة 1005 وكان عمري إذ ذاك سبع سنوات»[1].

والكتاب ـ أي: (المخطوط) كما ذكرتُ ـ تنقص منه ورقتان أو ثلاث على الأكثر، وقد كان أوَّل مالكيه بـ (الجزائر) السَّيد مصطفى ولد الباي **محمَّد الصَّغير ابن** الباي **محمَّد الكبير بن عثمان**[2] فاتح (وهران) سنة 1206هـ، وبيع في تركة كتبه، واشتراه بعض أقاربه ـ كما تدلُّ عليه تملُّكاتُهم.

(1) توفي سنة 1071هـ/ 1676م، كما في **الأعلام** (ج7، ص: 64). (م).

(2) محمَّد الصَّغير: تولَّى بايا على (وهران) سنة 1220/1805م، وقتِل بعد ثلاث سنوات من توليته، بأمر (باشا الجزائر).

كتاب عيون الأخبار ونزهة الأبصار

لمحمد بن محمد أبي السرور البكري الصديق الشافعي المصري

(998 - 1060)

ذكر هذا التأليف صاحب « كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون » فقال : « كتاب عيون الأخبار ونزهة الأبصار » ، « تاريخ كبير من أول الخلق للشيخ محمد بن أبي السرور البكري الصديقي ذكره في تاريخه المتوسط المسمى بتذكرة الظرفاء » يحتوي هذا التأليف على ستة عشر مقصداً .

المقصد الأول : ابتداء الخلق .
المقصد الثاني : ملوك الفرس
المقصد الثالث : ملوك اليونان
المقصد الرابع : ملوك الروم
المقصد الخامس : رسالة النبي صلى الله عليه وسلم
المقصد السادس : الخلفاء الراشدون (زاد على الخلفاء الأربعة الحسن بن علي)
المقصد السابع : خلفاء بني أمية
المقصد الثامن : خلفاء بني العباس
المقصد التاسع : بني أمية بالأندلس
المقصد العاشر : الدولة البويهية
المقصد الحادي عشر : الفاطميون

— 94 —

صورة عن المقال المنشور بمجلَّة العلم والإيمان

شرح منفرجة ابن النَّحوي المسمَّى بـ:
(الأضواء البهجة في إبراز دقائق المنفرجة)
تأليف: زين الملَّة والدِّين أبي يحيى زكريا الأنصاري الشامي[1]

توجد منه نسخة بـ (الأسكوريال) تحت عدد: (441)، كنتُ اطَّلعت عليها في جانفي (1962م)، كما اطَّلعت على كتاب (**الأنوار المنبلجة**) تأليف **أبي العبَّاس أحمد بن** الشَّيخ الصَّالح **أبي زيد عبد الرَّحمن النَّقاوسي** الأصل، البجائي، تحت عدد: (440)، و(المخطوط) نقل سنة 944هـ.

أمَّا (**الأضواء البهجة**) تأليف الشَّيخ **أبي يحيى زكريا**، فهو بخطِّ مؤلِّفه، ويقول في ختامه: «... تمَّ الشَّرح بحمد الله وعونه، في سلخ شهر رمضان سنة اثنين وثمانين وثمانمائة [2]، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وكان الفراغ من كتابته في الثَّاني عشر من شهر شعبان المكرَّم سنة أربع وثمانين وثمانمائة»[3].

---

(1) اعتمدنا في إثبات هذه المقالة على (**نسخة مخطوطة**) تقع في (12 ص)، وهي بخطِّ الشَّيخ **المهدي** (رحمه الله تعالى). (ع)

(2) وفي كثير من النُّسخ المخطوطة التي وقفنا عليها فيها أنَّه أتمَّ الشَّرح سنة (881هـ).

(3) انظر: النَّصّ الثَّالث مِنَ القسم الثَّالث مِن كتابنا: **الشَّيخ المهدي البوعبدلي، نصوص ووثائق،** ورسالة (**الأضواء المنبهجة**) أعدَّها للنَّشر وعلَّق عليها الأستاذ مصطفى مرزوقي، وطبِعت بدار الخلدونية، الجزائر، 1425هـ/ 2005م، واختصر الشَّيخ أبو يحيى زكريا الأنصاري شرحه هذا في رسالة تحت عنوان: (**فتح مفرِّج الكُرب**). (ع)

وقد اطَّلعتُ على نسخة لشرح الشَّيخ **أبي يحيى زكريا الأنصاري**، يقول كاتبها في ختامها: «... تمَّ الشَّرح بحمد الله وعونه في حادي عشر ذي الحجَّة الحرام سنة إحدى وثمانين وثمانمائة، والصَّلاة والسَّلام على أشرف خلقه، سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه، كلَّما ذكرَه الذَّاكرون، وغفلَ عن ذِكره الغافلون. انتهى ما وجِد بخطِّ أبي الأمِّ سيِّدي محمَّد الموهوب بن عبد القادر (رحمه الله تعالى)، وتاريخ نسخها أواسط ذي القعدة الحرام من شهور عام 1166هـ».

والنَّاسخ هو الشَّيخ يحيى بن أحمد بن يحيى بن موسى بن محمَّد بن حمُّود[1]، تاريخ أوَّل يوم من جمادى الثَّانية الذي هو يوم الأربعاء أحد شهور عام 1281هـ، في آخر النُّسخة كتِب ما يلي: «قال سيِّدي أبو العبَّاس أحمد ابن سيِّدي عبد الرَّحمن النَّقاوسي في (**شرح المنفرجة**)، بعد كلام: اعلم أنَّ ناظم هذه القصيدة هو أبو الفضل يوسف بن محمَّد بن يوسف، المعروف بـ (ابن النَّحوي)، وأصله من (توزر)، وبها كانت ضياع أبيه محمَّد النَّحوي، وله أخ اسمه علي، واستوطن **أبو الفضل** (القلعة الحمَّاديَّة) التي هي الآن قفر تَباب، وبلقع خراب، «وكلُّ الذي فوق التُّراب تراب».

وكانت لآل حمَّاد دار الملك، وواسطة السّلك، وقاعة الدَّولة وحضرة الإمارة، وبها قام ميزانهم، وفيها كان سلطانهم، وكانت حاضرة أهل العلم، ومخيَّم الأفاضل أولي الفهم، وبها مات وقبره الآن مشهور، وبالبركة مذكور، وهو أحد أئمَّة المسلمين، وأعلام الدِّين».

---

(1) الشَّيخ **يحيى حمُّودي**: من أسرة علميَّة توارثَ أهلُها العلمَ بـ (بني يعلى)، وكان جدُّهم تلميذا أزهريا، من جملة مجيزيه مرتضى الزَّبيدي، شارح (**القاموس المحيط**)، وما زال أفراد الأسرة يحتفظون بإجازته. (**المهدي**)، **قلت**: وقد يسَّر الله لنا الوقوف على نسخة من هذه الإجازة بخطِّ الشَّيخ **المهدي** (رحمه الله تعالى)، نشرناها ضمن مجموع بعنوان: **إجازات علماء الجزائر**، في إطار تظاهرة تلمسان عاصمة الثقافية الإسلامية 2011م. (ع)

قال الشَّيخ القاضي الجليل أبو عبد الله محمَّد بن عبد الله بن حمَّاد في (**تاريخه**): «وهو أحد رجال (**العنوان**)، وممَّن أخذ على الشَّيخ أبي مدين (رضي الله تعالى عنه)، كان أبو الفضل ابن النَّحوي في بلادنا بمنزلة أبي حامد الغزالي في (العراق) في العلم والعمل».

وقال الشَّيخ الحافظ الصَّالح العارف أبو يعقوب يوسف بن عيسى التَّادلي، المعروف بـ (ابن الزيات): «إنَّ أبا الفضل صحِب أبا الحسن عليًّا اللَّخمي».

وقال القاضي أبو الفضل عياض: «أحذ عنه هو والإمام أبو عبد الله المازري وغيرهما، وتفقَّه هو والقاضي أبو عبد الله بن داود بالشَّيخ أبي عبد الله محمَّد بن أبي الفرج المازري، المعروف بالذَّكاء، الفقيه الحافظ المدرك النَّبيل، المتقدِّم في علم المذهب، ولسان التفنن في علم القرآن وسائر المعارف، وسكن (قلعة آل حمَّاد) ثمَّ المشرق».

قال الزيات: «وكان أبو الفضل من أهل الفضل والعلم، وعلى هدي السَّلف الصَّالح، وكان أبو الفضل عالما بالفقه والنَّظر وأصول الدِّين، زاهدا شديد الخوف من الله (عزَّوجلَّ)، غالب أحواله الحضور مع الله تعالى، آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر، معظَّما عند ملوك وقته، من ... (كذا) المرابطين».

وقال ابن حمَّاد: «لا يقبلُ مِن أحدٍ شيئا، وإنما يأكل ما يساق إليه من بلدة (**توزر**)».

وقال الإمام أبو عبد الله محمَّد بن علي التُّوزري، شارح (**الشَّقراسية**) في تخميس هذه (**القصيدة**): «كان من أهل العلم والدِّين بالمكان الذي يردُّ الطَّرفَ كليلا، ويجلى الشَّمس فلا يحتاج إلى الوضوح دليلا ».

وقال الأستاذ الإمام أبو جعفر أحمد بن يوسف الفهري اللَّبليُّ: «كان الإمام أبو الفضل من أهل (**إفريقية**)، وكان إماما عالما عاملا، مجاب الدَّعوة، متكلِّما فصيحا متقنا».

قال الشَّيخ الجليل أبو القاسم عبد الرَّحيم بن عيسى ابن الملجوم العبَّاسي: «ورد أبو الفضل (**فاس**) فلزِم أبا موسى، حفِظ عليه (**اللُّمع**) للشِّيرازي في عام أربعة وتسعين وأربع مائة، وسافر منها وأقام بـ (**القلعة**) إلى أن مات بها ».

قال ابن الزيات: «أخذ نفسه لمَّا غادر (**المغرب**) إلى (**القلعة**) بالتَّقشُّف، وهجر اللِّباس، ولبسِ الخشن من الصُّوف، وكانت جبَّته إلى ركبته، فمرَّ يوما بالفقيه أبي محمَّد بن عصمة، وكان فقيها مفتيا بـ (**القلعة**) فلم يسلِّم عليه أبو الفضل لشغل باله، وعظُم ذلك على ابن عصمة، فلمَّا رجع أبو الفضل ناداه الفقيه ابن عصمة محقِّرا له: يا يوسف، فلبَّاه أبو الفضل وجاء، فقال له: يا توزَري، صفَّرتَ وجهَك، ورقَّقتَ ساقَيك، وصِرتَ تمرُّ فلا تسلِّم، فاعتذر له أبو الفضل، فلم يقبل عذرَه، وأغلظَ له القول، فقال الشَّيخ أبو الفضل: غفر الله لك يا فقيه، يا أبا محمَّد، وانصرف، وكان مجاب الدَّعوة، حتى كان يقال: نعوذُ بالله مِن دعوة ابن النَّحوي.

أخذ عنه العلم غير واحد، وحصلتْ لهم المزيَّة في الفقه والنَّظر، فمنهم من الأئمَّة الأعلام والفقهاء النُّظَّار: الفقيه أبو عبد الله محمَّد بن علي المعروف بـ (ابن الرَّملة)، وكان رئيس المفتين بـ (فاس)، والأخوان الذَّكيَّان النَّاظران: أبو بكر [و]محمَّد ابنا مخلوف بن خلف الله، والفقيه أبو عمران بن حمَّاد الصَّنهاجي».

قال الفقيه الإمام أبو عبد الله محمَّد بن علي الفاسي: «أنشد ني أبو الفضل:

أصبحت فيمن له دين بلا أدب ... ومن له أدب عار من الدِّين

أصبحت فيهم فقيد الشَّكل منفردا ... كبيت حسَّان في ديوان سحنون

أشار (رحمه الله تعالى) إلى البيت الذي لحسَّان في (كتاب الجهاد) من (**المدوَّنة**):

فَهَانَ عَلَى سَرَاةِ بَنِي لُؤَيٍّ ... حَرِيقٌ بِالبُوَيرَةِ مُسْتَطِيرُ

وشهدت له هذه القصيدة بجودة الشِّعر وإتقانه، واستعمال أساليب البلاغة فيه بلا تكلُّف، بل مقتضى السَّليقة وجودة الطَّبيعة، واعترف بالعجز عن أدنى مرامها والوقوف على أوَّل قدم من مقامها، فخمَّسها الفقيه البليغ أبو عبد الله محمَّد بن علي التُّوزري، قال: «هي للفرج عنوان، وللمعارف ديوان، تلوح متقنِّعة، وتروح على بعض الأفهام متمنِّعة بسموٍّ مراتب منشيها، ورقَّة متونها وحواشيها»، قال: «وهي من المحاسن التي أطلعها الجديد، وأبرزها دون خجل منها البرية، وتقلَّدها الأديب بهجة والمريد، يعني لاشتمالها على أساليب البلاغة وأقبان الرياضة، ويظهر لك ما قال من تفسيرنا لألفاظها، وتحرير أغراضها.

(ذكر بعض ما شوهِدَ من عجائبه وحسن قيامه): منها أنه لما عزم على الرحلة إلى الحجاز، قال له أهله مع من تتركنا وما تترك لنا، فكتب لهم رقعة وقال لهم: خذوا هذه فاستحفظوا عليها، فأخذوها وجعلوها في طاقة لهم، فلمَّا ارتحل كان شخص يأتيهم كلَّ يومٍ بما ينوبهم في شأنهم، حتَّى أتاهم، ففتَّشوا الرّقعة بعد ذلك فإذا فيها مكتوب: «إنَّ الذي وجَّهتُ وجهي له، هو الذي خليته في أهلي، فإنَّه أرفق منِّي بهم، وفضله أوسع مِن فضلي».

ذكر الشَّيخ **ابن الزيات** أنَّ الشَّيخ **أبا الفضل** بات عنده ضيف، فدخل الشَّيخُ في البيت يصلِّي فيها وكثر اللَّغط وارتفعت الأصوات في الدَّار، فقال الضيف لابنه: «أما تشغلون خاطر الشَّيخ بهذا في صلاته، فقال له ابنه: إذا دخل في الصَّلاة لم يشعر بذلك، فعجب الضَّيف من قوله، كالمنكر له، فأخذ ابنُه السِّراجَ وأدناه من عين **أبي الفضل** وهو في صلاته، ولم يحسَّ به، لحضوره مع الحقِّ وغيبته عن الخلق. ومرَّ به رجلٌ وهو يمشي في طريق فاس فقال له: أين الطريق إلى سوق البقر؟ فقال له **أبو الفضل**: هو الذي تمشي عليه.

قلت: هذا مثل ما ذكر **الغزالي** (رحمه الله تعالى) عن عتبة الغلام أنه دخل على عبد الواحد بن زيد فقال له: من أين جئت يا عتبة ؟ فقال: من موضع كذا وكذا، وكان طريقه على السوق، فقال: مَن لقيت في الطريق ؟ فقال: ما رأيت أحدا.

فهؤلاء من المقربين استغرقت قلوبهم بملاحظة جلال الله وانكسرت تحت هيبته فلم يبق فيها التفات، ولا متَّسع لغير الله، فمراقبتهم مراقبة الإجلال والتَّعظيم مقصورة على القلب، وهي أعلى درجات المراقبة، ومنها ما ذكر الشَّيح الفقيه الحافظ الزَّاهد السَّالك سبيل أهل الإنابة إلى الله أبو الحسن علي بن إسماعيل بن محمَّد المعروف بـ (ابن حرزهم)، قال: أوصاني أبي أن أقبِّل أبا الفضل ابن النَّحوي متى لقيته، ولو لقيته في اليوم ألف مرَّة، فبعثني يوما إليه أن يدعو لي، فأتيته وقت الغروب، فوجدته يتوضَّأ، فلمَّا فرغ من وضوئه، فنظرت فوجدتُ كأنَه لم ينقص من شيء، فلمَّا غربت الشَّمس أذَّن وأقام وصلَّى، فصلَّيتُ معه، فلمَّا أراد أن يكبِّر نظرتُ إلى ثوبه على كتِفَيه فتحرَّك حركة شديدة يسمَع صوتُها مِن شدَّة الخوف، ثمَّ قرأ قراءة مبينة حرفا حرفا، فلمَّا سلَّم دعا لي فانصرفتُ إلى أبي، فوجدته وقلتُ له: رأيته صلَّى عند غروب الشَّمس قبل الوقت الذي يصلِّي فيه أهل البلد، فأهوى بيده ولطمني، وقال لي: أتتكلَّم في وليٍّ مِن أولياء الله؟ وهل وقت المغرب إلاَّ ذلك الوقت الذي يصلِّي فيه **أبو الفضل**، وإنَّما النَّاس ابتدعوا التَّأخير عنه، ثمَّ أمرني أن أحكي له فعل أبي الفضل من أوَّله ... الخ، ولقد رأيته حين دخل وعليه نورٌ، فعلمتُ أنَّ الله (عزَّوجلَّ) أجاب فيه دعوة أبي الفضل.

قلت: دلَّت هذه القصَّة على اتِّباعه السُّنة في فعله وقوله على شدَّة خوفه وعلى كرامته في رؤية النُّور والإجابة، وقد حصل لولده أبي الحسن ما قصد من بركة أبي الفضل، فكان أبو الحسن المذكور أحد أئمَّة المسلمين وفقهاء الدِّين، من أهل الإنابة إلى الله تعالى فانتفع به الشيخ الإمام القطب **أبو مدين شعيب بن الحسن الأنصاري**، وكان مفتاح قلبه.

قال الشَّيخ **أبو مدين**: قيل لي إنْ أردتَ أن تتفرَّغ لدينك بقلبك فبمدينة (فاس)، فتوجَّهتُ إليها ولزمتُ جامعها، وتعلَّمت الوضوء والصَّلاة وكيف أجلس إلى حِلَق الفقهاء الذَّاكرين فلا أثبت على شيء، إلى أن جلست إلى شيخ ثبت كلامه في قلبي، فسألتُ عنه، فقيل لي: هو أبو الحسن بن حرزهم، فأخبرتُه أنِّي لم أحفظ إلا ما سمعته منه خاصة، فقال لي: هؤلاء يتكلَّمون بأطراف ألسنتهم، فلا يجاوز كلامهم الآذان، وقصدتُ الله بكلامي فيخرج من القلب ويدخل إلى القلب، قال: وسمعتُ عليه (**رعاية**) المحاسبي.

وكان الشَّيخ **أبو مدين** فيما ذكره الشَّيخ **أبو الصبر أيوب الفهري** زاهدا فاضلا عارفا بالله، خاض من الأحوال بحارا، ونال من المعارف أسرارا، وخصوصا مقام التَّوكُّل لا يشق غباره، ولا تجهل آثاره، وكان مبسوطا بالعلم، مقبوضا بالمراقبة، كثير الالتفات إلى الله (عزَّوجلَّ)، حتَّى ختِم له بذلك، قال: قال مَن أثق به فيما أخبرني به رأيته عند آخر الرمق يقول: الله الحي القيوم، فهم عندنا كما قال تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ (آل عمران: 34).

قال الشَّيخ الفاضل الصَّالح **أبو علي سالم بن سلامة السُّوسي** ـ أحد صلحاء (المغرب) المذكورين في كتاب **ابن الزيات** ـ قال: «إنَّ أبا الفضل لمَّا قدِم (سجلماسة) نزل بمسجد ابن عبد الملك لتدريس الأصلَين، فمرَّ عليه عبد الله بن بسَّام، وكان من رؤساء البلد، فقال: ما العلم الذي يقرِّره هذا الإنسان ؟ فقيل له: أصول الدِّين، وأصول الفقه، وكانوا قد اقتصروا على علم الرَّأي، فقال: إنَّ هذا يريد أن يدخِل علينا علوما لا نعرفها، فأمر بإخراجه من المسجد، فقام أبو الفضل من مكانه، ثمَّ قال له: أمتَّ العلم أماتك الله ها هنا، وكانت عادة أهل البلد أن يعقِدوا أنكحتهم بالسَّحر في المسجد، فكلَّم قومٌ عبد الله بن بسَّام أن يحضُر لهم لعقد صبيحة اليوم الثَّاني بالسَّحر، فقام وقعد

في المكان الذي دعا عليه فيه أبو الفضل، فمرَّت به جماعة من (صنهاجة) فقتلوه بالرِّماح.

ومنها أنَّه لما توجَّه إلى **(فاس)** بعد خروجه من **(سجلماسة)** نزل في عقبة ابن دبوس القاضي، وجرى له مع أهل **(فاس)** مثل ما جرى له مع أهل **(سجلماسة)**، ولقِيَ من القاضي مثل ما لقي من ابن بسَّام، فدعا على القاضي فأصابته أكلة في فري رأسه، فانتهت به إلى حلقه فمات. وقال أبو الحسن بن حرزهم ـ المذكور ـ: إنَّ أبا الفضل لماَّ أعاد عليه ابن دبوس وأن ... مع الخروج من **(فاس)** قطع اللَّيلة التي خرج في صبيحتها مسيرة سورة واحدة، ودعا في آخرها بأن قال: عليك بابن دبوس، فأصبح القاضي ميتا.

قال الشَّيخ الأستاذ **أبو موسى بن عبد العزيز الجزولي**، صاحب **(الكرَّاسة في علم المعرفة)**: لماَّ خرج أبو الفضل مِن **(فاس)** تبِعه تلاميذه، وفيهم ولد القاضي، فأمره بالرُّجوع، فقال له: ارجع لتحضر جنازة والدك، فحضر فوجد القاضي ميتا.

ومِن قيامه المحمود أنَّه لماَّ أفتى الفقهاء بإحراق كتاب **(الإحياء)** فأُحرِقَ في صحن جامع السُّلطان بـ **(مراكش)**، ووصل إليه كتاب **علي بن يوسف بن تاشفين اللَّمتوني**، سلطان **(المغرب)** إلى **(فاس)** بالتَّخريج على كتاب **(الإحياء)** وتحليف النَّاس بالأَيمان المغلَّظة أن ليس عندهم **(الإحياء)**، انتصر أبو الفضل لأبي حامد الغزالي، وكتب إلى السُّلطان في ذلك، وأفتى بأنَّ تلك الأَيمان لا تلزم، وانتسخ كتاب **(الإحياء)** في ثلاثين جزءا، يقرأ كلَّ جزء منه في كلِّ يوم من رمضان، وقال: وددتُ لو أنِّي لم أنظر في عمري سواها.

وذكر **ابن الزيات** أن الشيخ الصالح الزاهد **أبا محمد عبد الله الرجراجي**، سأل عنه الذين أفتوا بإحراقه، فكلما سمَّى له واحدا دعا عليه، ثم قال: والله لا أفلحَ هؤلاء الأشقياء أبدا، فما انقضى شهر حتى مات جميع أولئك الأشقياء، وقيل: إن أول ما أنكره

على أهل **سلجماسة** أنه جاء إلى المسجد فأراد أن يصلي في موضع منه فقيل له: هذا موضع أبي فلان فجاء إلى موضع آخر فقيل له كذلك، فقال منكرا عليهم: ما ظننت أن مثل هذا يكون في بيوت الله.

ومن كريم خلُقِه ما ذكره الشيخ الفقيه **أبو الحسن بن حرزهم** أن **أبا الفضل** كان يلبس البياض فدخل عليه شاب من طلبة العلم فبادر أن يسلم عليه فأراق الحبر على ثوب أبي الفضل من محبرته فخجل من ذلك فقال له أبو الفضل رفعا للخجل عنه كنت أقول أي لون أصبغ به هذا الثوب، فالآن أصبغه حبريا فجرده وبعث به إلى الصباغ.

وكان **أبو الفضل** إذا احتاج وتأخَّر عنه ما يأتيه من بلده دعا بالدعاء المأثور عن الخضر عليه الصلاة والسلام على ما ذكره الغزالي في كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من كتاب **(الإحياء)** فيفرج عنه، وهو: «اللَّهمَّ كما لطفت في لطفك دون اللُّطفاء، وعلوت بعظمتك دون العظماء، وعلمت ما تحت أرضك كما علمت ما فوق عرشك، وكانت وساوس الصُّدور كالعلانية عندك، وعلانية القول كالسِّرِّ في علمك، وانقاد كلُّ شيء لعظمتك، وخضع كلُّ سلطان لسلطانك، وصار أمر الدنيا والآخرة كلُّه بيدك، اجعل لي من كلِّ همٍّ أمسيت فيه فرجا ومخرجا، اللَّهمَّ إنَّ عفوك عن ذنوبي، وتجاوزك عن خطيئتي، وسترك عن قبيح عملي، أطمعني أن أسألك ما لا أستوجبه ممَّا قصَّرت فيه، أدعوك آمنا، وأسألك مستأنسا بأنَّك المحسِن إليَّ وأنا المسيء إلى نفسي، فيما بيني وبينك، تتودَّد إليَّ بنعمك، وأتبغَّض إليك بالمعاصي، ولكنَّ الثِّقة بك حملتني على الجراءةِ عليك، فجُد بفضلك وإحسانك عليَّ، إنَّك أنتَ التَّواب الرَّحيم.

قال الفقيه الإمام **أبو عبد الله محمَّد بن علي التُّوزري**: «أنشأ الشَّيخ أبو الفضل هذه (القصيدة) عند شدَّة هالت، فانقشعت بفضل الله للحين وزالت، وعاد الحال إلى أحسن ما كانت عليه، ودلت لسبب رؤيا رآها الباغي عليه قطع بها، وروع بسببها،

فكفت يده العادية وردت عاديته البادية، قال: وقد ألمعت بتلك الشدَّة طليعة كتائبها ومقدما عجائبها، يعني أوَّل أبيات هذه (القصيدة)، فقال: فهي لهذه المزيَّة مِن أوثق العُدد والعدَّة، وأرفق أسباب الفرج بعد الشدَّة، وكان بعض الشُّيوخ يحضُّ على حفظِها وأخذ النَّفس منها بحظِّها، ولذلك سمِّيت (**المنفرجة**)، وقيل إنَّ الشَّيخ أبا الفضل شكا إليه بعض أهله، ما هم فيه من ضَيق الحال وشِدَّته، لفراق بلده فرارا من الظَّالم، ورغِب إليه أن يرجع لرئيس البلد الآمر ليأذن لهم بالرُّجوع، فقال لهم: سأفعل، وتضرَّع لله (عزَّوجلَّ) في ليل تهجُّده، فقال:

لبِستُ ثوبَ الرَّجا والنَّاس قد رقدوا وقمتُ أشكو إلى مـولايَ مـا أجِـدُ
وقلتُ يا سـيِّدي ويـا منتهـى أمـلي يا مَن إليـه بكشـف الضرِّ أعتمـد
أشـكو إليـك أمـورا أنـت تعلمهـا مـا لي عـلى حملهـا صـبرٌ ولا جلَـدُ
وقد مددتُ يـدي بالضـرِّ مشـتكيا إليك يـا خـير مَـن مُـدَّت إليـه يـدُ

ونظم (**المنفرجة**)، وأعيد عليه السُّؤال، فقال: للسَّائل بلغ الأمر أهله، وسترى بعد ذلك بيسير.

ورد الكتاب من (**توزر**) بالتَّلطيف للشَّيخ ورغبته أن يرجع، وقال للسَّائل: قضِيت الحاجة، فإن شِئت فارجع، ورأى الباغي العادي رؤيا فظيعة، ورأى في منامه فارسا يحمل عليه بيده حربة من نار، فيتنبه مذعورا، ويتعوَّذ ثم ينام فيعاوده كذلك، إلى أن قال له: إنما يتعوذ من الشيطان وأنا... مالك والعبد الصالح، أو معنى هذا، فهذا بيان للرُّؤيا الفظيعة التي أشار إليها التُّوزري .

وذكر الفقيه القاضي الأجلُّ أبو العبَّاس أحمد ابن الشَّيخ أبي العبَّاس الغبريني أنَّ الفقيه أبا محمَّد عبد الله بن عبد الله بن نعيم اعتقِل مع السَّيد أبي عمران وقت أخذ البلد من يده ـ على ما هو معروف ـ فبعد ليلة أو ليلتين مِن اعتقاله رأى محلَّ الإمارة (**أهلين**)

النَّبي ﷺ في المنام أن يسرح أبا محمَّد مِن اعتقاله، فاستيقظ وبعث إليه في بقيَّة ليله فارتاع من ثقف معه في ذلك الموضع، واستشعروا شرًّا، فدعي مِن بينهم أبو محمَّد وسُرِّح وسيقَت له كسوة وبغلة، وأُحسِن إليه، وسئل عن السَّبب في ذلك، فقال: إنَّه لم يكن سبب سوى أنَّه خمَّس قصيدة الشَّيخ أبي الفضل عند دخوله السِّجن.

قال القاضي ومازالت هذه القصيدة معلومة الإفادة، ظاهرة الزيادة، ثمَّ قال: وأرويها مع وصية الشَّيخ عن الشَّيخين المغربيَين أبي عبد الله محمَّد بن رميمة الكناني وأبي العبَّاس بن خضر الصدفي.

قلت: ويتَّصل إسنادي عنهما من طرقٍ أقربها عن الشَّيخ الفقيه العالم العلاَّمة المحصِّل المتقن الأجلِّ المفتي الأفضل أبي القاسم بن أحمد الغبريني ـ المذكور ـ عن أبي عبد الله محمَّد بن صالح الكناني، وعنه عن أبي القاسم ـ المذكور ـ عن رواية أبي عبد الله محمَّد بن غربون عن أبي العبَّاس أحمد بن خضر الصدفي في وصيَّته ووفاته، نصُّها بعد البسملة: «الحمد لله الحفيظ، هذا ما أودع العبد يوسف الرَّبَّ الذي خلق الأشياء ورزق الأحياء، وملك العالمين، وحفظ السَّماوات والأرضين، أودعه جميع ولد أبيه، وأهله وأهل أبيه، وأهل أخيه وجميع ما جر لهما من نعمه، وملكها من قسمه ظاهرا وباطنا، وصيَّر ذلك إلى أمانته، وأسلمه إلى رعايته، واستحفَظ في ذلك ويبرأ إليه من حوله وقوَّته، ولم يرج سوى فضله وطوله، وهو الحفيظ الذي لا يُهمِل، الوكيل الذي لا يُقيل، العليم الذي لا يجهل، الجواد الذي لا يبخل، الذي ينعم ويتطول، هو الآخر الأوَّل، الذي لا يزول ولا يتحوَّل، السالم مَن غَنِمَه، والغانم مَن عصَمَه، والمفلح من ذكره، قد رضيه مستودعا ووثق به مستحفظا ولم يحتج إلى ما يحتاج إليه في الأمانات من تحصيل التقبضات وانتقال الحالات، في ضروب التَّصرفات، فإنَّ الكلَّ تحت قبضته، الخلق عبيد ربوبيَّته، فالبدء إليه تقبيض والثقة به تسليم والرُّكون إقرار بالملك والرَّجاء إيذان

بالنجح، وذلك بعد أن ثبتت لديه الشَّهادات الصَّادقة، واتَّضحت لديه البراهين الصَّادعة، على ألسنة الدَّلالات، وفي أمكنة الاحتياجات العدول عن بصمة المغفول لما كشفت عن وجهها مسفرة، وتبدت ضاحكة مستبشرة، قبلها بقلبه، ونفذ قضيتها بعزمه، وأحكم وثيقتها بحزمه، ومن المودع المحمود أوَّل الأمر وآخره، وباطن الجود وظاهره، يسبق جميل جزائه، ويلحق جزيل عطائه، لم يشارك في جوده، ولم يماثل في وجود، ومن التجأ إلى الله فقد رشد مساعيه، وسعدت أمانيه، واستحكمت تدبيراته، واستكملت تمييزاته، وحسن النَّظر لنفسه، وبلغ الغرض بحسه، اشهد العبد يوسف المذكور على هذا الإيداع الموهوب الرب المودع وحده بلا شاهد بعدَه، وأمضى على نفسه حكمَه فلا يخاف أحدٌ ظلمَه، قد رضيه ربًّا، وعبدَه عبدا، وذلك بعد أن قرأ ما سطره، وعرف سِرَّه وجهرَه، وهو صحيح العقل جيِّد النَّقد نافد الميز في تاريخ لا ينساه المودع، ولا يتعدَّاه المودع، في ساعة المراد، في يوم الرَّشاد، في شهر التَّوفيق، من عام التَّحقيق، وحسب المودع في وديعة من أودعه، وعليه أوقف رغبته، ولم يشرك أحدا معه بل أفرده، وصرف إليه الفهم أجمعه، أسأل الله أتمَّ الصَّلوات وأزكاها، وأعمَّ البركات وأنماها، لرسوله محمَّد المصطفى، وآله وسلَّم تسليما كثيرا.

وانتهت وصيَّة الشَّيخ أبي الفضل (رضي الله عنه)، وتوفي أبو الفضل (رضي الله عنه) بـ (قلعة آل حمَّاد) سنة ثلاث عشرة وخمسمائة (513هـ) في أيَّام العزيز المنصور ابن النَّاصر ابن علناس بن حمَّاد، وفي هذه السَّنة توفي الشَّيخ الإمام **أبو حامد الغزالي** (رحمه الله).

قال **ابن الزيات**: «وذكر بسنده عن الحاج المعروف بالبغدادي من أهل (فاس) أنَّه حدث بعد انصرافه عن رحلته المتَّصلة في بلاد المشرق، ومقامه في مدينة (بغداد) لطلب وصحبة الفقيه أحمد أخي الفقيه أبي حامد الغزالي (رحمه الله تعالى)، وقال: «كان الشَّيخ

الإمام أبو حامد (رحمه الله تعالى) في آخر عمره قد غلب عليه التَّبتُّل واستصحاب أحوال المشاهدة، وكان يأوي إلى موضع على مسافة أميال من (بغداد) ينفرد فيه للعبادة، وكان يخدمه رجل من أهل الفضل والإرادة، ويتكفَّل بضروراته إلى أن قضى نحبه، وظهر له عند ذلك من الكرامات ما أعرب عن علوِّ منصبه في مقامات الأولياء، فممَّا وصفه الحاج المذكور أن قال: كنت ملتزما للحضور بحلقة أخيه لسماع العلم، وكان بعض الأيام يلم به الرَّجل الذي كان يقوم بخدمة أخيه أبي حامد (رحمه الله تعالى)، قال: بينما نحن في بعض الأيام جلوس عنده إذ دخل عليه الرَّجل المذكور، فدنا من الفقيه أكثر مِن عادته، وأسرَّ له حديثا فهمنا على إثره التَّغيُّر العظيم على وجه الفقيه، وقام على الفور ولم نقدر على مكالمته، وغابا عنَّا يوما أو نحوه، فلمَّا رأيناه استفهمنا عن السَّبب الذي أزعجه من مقامه، فأخبرنا بوفاة أخيه أبي حامد الغزالي (رحمه الله)، وذكر أنَّ ذلك الرَّجل المذكور المختصّ بخدمة أخيه حدَّثه أنَّ أبي حامد الغزالي كان في اليوم الذي مات فيه باللَّيلة المتصلة به استدناه ولم يكن به ألم ولا ظهور تغير فأعلمه بأنَّه يموت في تلك اللَّيلة، وأوصى إليه أن يدرجه إذا مات في أكفان عيَّنها به ويستدعي قوما مِن أهل قرية كانت قريبة من موضعه ذلك لحضور الصَّلاة عليه، ويحفر قبره في موضع بيَّنه له، ويضعه على شفيره ولا يتقدَّم أحد للصَّلاة عليه حتَّى يصلِّي شخص لا يعرف، فيتقدَّم للصَّلاة عليه، قال: وبقي على حالته لم يظهر عليه مرض، ثمَّ انغمس في الماء وتطهَّر وجن عليه اللَّيل، وأقبل على صلاته وذِكره، قال: كنتُ آتيه السَّاعة بعد السَّاعة، فأسمع هيمنته وخشوعه، فلمَّا أصبح تفقدته فإذا هو قد قضى نحبه، مستقبل القبلة، ففعلت جميع ما أمرني به، وحضر النَّاس للصَّلاة عليه، وهو موضوع على شفير القبر، فلمَّا اعتدلوا للصَّلاة شاهدوا رجلا يقبل من البريَّة ملتفًّا في ثوب مستندا، فلمَّا وصل للنَّعش سلَّم على القوم واستقبل القبلة وتقدَّم للصَّلاة فصلى عليه وصلَّينا بصلاته، ثمَّ سلَّم وانصرف على أدراجه دون أن يكلِّمنا أو نكلِّمه، ولم نزل

نتبعه أبصارنا حتَّى توارى عنَّا، واشتغلنا بعده بدفن الفقيه، وعجبنا لما شاهدنا من كرامته كلَّ العجب».

قال **ابن الزيات**: «وهذه الحكاية صحيحة، ورأينا من يوهنها ويقول إنَّما دفن أبو حامد ببلده بـ (طوس)، ولا يستبعَد أن يكون نقل إلى بلده (**طوس**) حيث قبره، لأنَّه توفي عام ثلاثة عشر وخمسمائة، وقال غيره: بل توفي قبل هذا التَّاريخ، والشَّيخ أبو الفضل على أثره في الزَّمان وما... في العلم والعمل (رضي الله تعالى عنهما)» اهـ .

«ونقلته من نسخة كثيرة التَّصحيف والتَّحريف والتَّطفيف، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه».

الحمد لله تعالى، قال في (**عنوان الدِّراية**): «ومنهم الشَّيخ الفقيه الجليل الكاتب المحصِّل الفاضل الأديب أبو محمَّد عبد الله بن عبد الله بن نعيم الحضرمي الفرطبي، نشأ بـ (**تونس**) وتوفي بـ (**قسنطينة**) عام ستَّة وثلاثين وستّمائة، أحد الأشياخ المنتصبين للتَّدريس والرِّواية، قرأ عليه ناس وسمع منهم شيخنا أبو عبد الله التَّميمي وغيره، وأخبرني أبو عبد الله أنَّه شرح (**مقامات الحريري**)، وأنَّه كتب على خطبتها نحوا من خمسة عشر كرَّاسا بالقالب الكبير، وكان يذكر عنه أنَّه كان في علم الأدب متبحِّرا، وكان مشرفا في (**بجاية**) في مدَّة السَّيد أبي عمران مِن بني عبد المؤمن، وكان المشارف في ذلك الزَّمان على سنن العمل والالتزام طرق الفضل، ولماَّ أَخِذت البلاد من ابن السَّيد من بني عبد المؤمن على ما عرف، وأخذت عائشة معه، فكان الفقيه أبو محمد أحد المأخوذين ومن جملة المأخوذين، ولما كان بعد ليلة أو ليلتين من اعتقاله رأى محلَّ الإمارة العليَّة (برَّد الله ضريحه) النَّبيَّ ﷺ في المنام، وأمره أن يسرِّح أبا محمَّد ابن نعيم من اعتقاله، فاستيقظ وبعث إليه الفتيان في بقيَّة اللَّيلة، فارتاع من كان في الشقاق في ذلك الموضع، واستشعروا شرًّا، فاستُدعيَ أبو محمَّد مِن بينهِم وسيقَت له بغلة وكِسوة

وسرِّح، وأُحسِن إليه، فسئِل (رحمه الله تعالى) عن السَّبب في ذلك، فقال: إنَّه لم يكن له سبب سوى أنَّه خمَّس القصيدة (**الجنبية**) عند دخوله السِّجن، وهي المعروفة للشَّيخ أبي الفضل ابن النَّحوي (رحمه الله)، وهو تخميس حسن لا بأس به، وها هو يذكر مع القصيدة التماسا لبركتها، وإظهارا لمزيَّتها (رضي الله عنهما، ونفع بهما وبأمثالهما، آمين)،

لابـــدَّ للضَّـــيق مـــن فـــرج　　　والصَّـــبر مطيَّـــة كـــلِّ شـــج

وبـــدعوة أحمـــد فـــابتهج　　　اشـــتدِّي أزمـــة تنفـــرج

قد آذن ليلك بالبلج ... الخ.

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وسلَّم تسليما ».

هذا ما نقلته من (**مخطوط**) أعاره لي الأستاذ **نعيم النُّعَيمي**، وهو بخطِّ الشَّيخ حمُّود من (**بني ورتيلان**)، واحتفظت على أمانة النَّقل، فلم أغيِّر منه شيئا.

شرح منفرجة ابن النحوي ١٠١
المسمى "الاضواء البهجة في ابراز دقائق المنفرجة" تأليف
زين الملة والدين ابي يحيى زكرياء الانصاري الشافعي

توجد منه نسخة بالاسكوريال تحت عدد ٤٤١ كنت اطلعت عليها
في جانفي ١٩٧٢ كما اطلعت على كتاب "الانوار المنبلجة في بسط اسرار
المنفرجة" تأليف ابي العباس احمد بن الشيخ الصالح ابي زيد عبد الرحمن
النقاوسي الاصل البجائي تحت عنوان عدد ٤٤٠ والمخطوط نقل
سنة ٩٤٤ اما "الاضواء البهجة" تأليف الشيخ ابي زكرياء فهو بخط مؤلفه
ويقول في ختامه "... تم الشرح بحمد الله وعونه في سلخ شهر رمضان
سنة اثنين وثمانين وثمانمائة وحسبنا الله ونعم الوكيل وكان الفراغ
من كتابته في الثاني عشر من شهر شعبان المكرم سنة اربع وثمانين
وثمانمائة"

—

وقد اطلعت على نسخة لشرح الشيخ ابي زكرياء الانصاري يقول كاتبها
في ختامها "... تم الشرح بحمد الله وعونه في حادي عشر ذي الحجة الحرام
سنة احدى وثمانين وثمانمائة والصلاة والسلام على اشرف خلقه
سيدنا محمد وآله وصحبه كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون انتهى
ما وجد بخط ابن الامام سيدي محمد الموهوب ابن عبد القادر رحمه الله تعالى
وتاريخ نسخها اواسط ذي القعدة الحرام من شهور عام ١١٦٦
(والناسخ هو الشيخ يحيى بن احمد بن يحيى بن موسى بن محمد بن حمود تاريخ
اواسط من جمادى الثانية الذي هو يوم الاربعاء احد شهور عام ١٢٨١)
في آخر النسخة كتب ما يلي: "قال سيدي ابو العباس احمد بن سيدي
عبد الرحمان النقاوسي في شرح المنفرجة بعد كلام اعلم ان ناظم هذه

صورة عن الصفحة الأولى من النسخة المعتمدة

مؤتمر المستشرقين الألمانيِّين بـ (بريل)

من 24 إلى 29 مارس 1980م الذي أطلقوا عليه عنوان: المؤسَّسات الدِّينية في المجتمع المغربي

كتاب: توشيح طِراز الخِياطة بِشمائل شيخ شلَّاطة

للشَيخ محمد العربي بن مصباح

(معهد شلَّاطة ببلاد زواوة)[1]

بناءً على منشور **معهد الدِّراسات الإسلامية** بـ: **جامعة برلين الحرة**، المؤرَّخ في مايو 1978م، المتعلِّق بجدول أعمال مؤتمر الأبحاث عن الأدوار الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي قامت بها المؤسَّسات الدِّينية في المغرب العربي منذ بداية القرن الثامن عشر حتى الحرب العالمية الثَّانية.

وبناءً على أن مِن جملة النِّقاط التي اختار المشرفون على هذا **المؤتمر** تناولها بالبحث والدِّراسة بالنسبة إلى **الجزائر** منطقتَين، هما: منطقة مدينة **الجزائر**، ومنطقة القبائل **زواوة**.

---

(1) تلقَّى الشَّيخ **المهدي** عرضًا للمشاركة في هذا المؤتمر من معهد الدِّراسات الإسلامية، بـ (**جامعة برلين الحرَّة**) في 02 ماي1978وأرسِلت له نشرة مفصَّلة (وثيقة المشروع) تتضمَّن أهداف هذه المؤسَّسة، والمواضيع التي ستناقش في هذا المؤتمر، وقد شارك فيه بدراسةٍ عن كتاب: (**توشيح طراز الخياطة بشمائل شيخ شلاَّطة**) للشَّيخ **محمَّد العربي بن مصباح**، وقد اعتمدنا في إثبات هذه المقالة على نسخة بخطِّ الشَّيخ **المهدي** (رحمه الله تعالى) تقع في (33) صفحة، كما وقفنا على الرِّسالة التي تلقَّاها مِن المشرفين على هذا المؤتمر، وهي بإمضاء الأستاذ: جميل أبي النَّصر، والأستاذ بابر يوهانسَن (baber johansen). (ع)

فإنَّني اخترتُ أن يكون موضوع دِراستي في هذا المؤتمر: **معهد شلاطة بالقبائل الكبرى**، وذلك لتوفُّر وثائق هامَّة تتعلَّق بهذا المعهد منذ تأسيسه، ومختلف الأَدوار التي قام بها في الميدان الدِّيني والثَّقافي طيلةَ قرنَين كامِلَين، وكذلك ترجمة مُسهبة مفصَّلة عن ترجمة حياة مؤسِّسه، تلك التَّرجمة التي تَنعكس على تصوير جوانب مِن الحياة الثقافية بمنطقة القبائل في القرن الثامن عشر، وأهمية التَّعريف بترجمة المؤسِّس مِن حيث مكانتُه الثَّقافية والاجتماعية هي أنَّ معهدَه توارثه أبناء المؤسِّس وأحفاده مِن عهده إلى الحرب العالمية الثانية.

والمعاهد بالجزائر سواء في البلاد القبائلية ـ موضوع دراستنا ـ أو في بقية أنحاء القُطر كانت لا تختلف كثيرا عن بعضها فيما يخصُّ الناحية الأَدبية، إذ المواد الدِّراسية فيها مِن لغة وفقه وقراءات، وإن كانت تختلف قوَّة وضعفًا لا تختلف في مجموعها عَن الموادِّ التي كانت تدرَّس بالجامعات الإسلامية ببلاد المغرب العربي، كـ : **الزيتونة** بتونس، و**القرويِّين** بفاس، كما سنبيِّن ذلك، وإنما نجدُ الخلافَ بينها في نُظمِها الماديَّة، أي: مواردها مِن أحباسٍ وتبرُّعات، سواء كانت تلقائية أو قارَّة من جِهة.

ثمَّ نظُم الحياة اليَومية للطلبة المقيمين فيها والزُّوار وعابِري السَّبيل وإِيوائهِم، منها ما كان تلامذة المعهد هم الذين يتولَّون القيامَ بشؤونهم، كجمع التَّموين مِن حبوبٍ وزَيت وتين في فصولٍ وجِهاتٍ معيَّنة، ومنها مَن يتولَّى الإِطعام صاحب المعهد أو السكَّان بالتَّناوب.

ودراسةُ **معهد شلَّاطة** هو نموذج مِن نماذج المعاهد الإسلامية، خصوصا ببلاد القبائل، وأهمية هذِه الوثيقة التي ركَّزتُ عليها هذه الدِّراسة أنَّ محرِّرها كان مِن أكابر علماء عَهده، ومن تلامذة المعهد المعاصرين للمؤسِّس، وإن هذه الوثيقة مجهولة عند مترَجمي صاحب المعهد ولا زالت لم تحظَ بالنَّشر أو حتى بالإِشارة إليها، وقد سمَّاها

مؤلِّفها بعدَّة أسماء، من بينها: (**توشيح طراز الخياطة بشمائل شيخ شلاطة**)، ومؤلِّفُها هو العالم الشَّيخ **محمد العربي بن مصباح** الذي ينحدر مِن أُسرة **ابن مصباح**، أصحاب **معهد بني يعلى** المشهور ببلاد القبائل الصُّغرى، توارث أفرادُها العلمَ وخطط القضاء والتَّدريس، وأداروا معهدَهم قرونا.

و**بني يعلى** هذه امتازت بأنَّها انتقل إليها كثيرٌ من علماء **بجاية** بعد احتلال **الأسبان** لها في أوائل القرن العاشر الهجري، وأسَّسوا بها معاهد، وسنثبِتُ إجازةً مِن إجازات معهد آل مصباح تُثبِتُ لنا أن الفنون التي كانت...[1].

وميزة هذا التأليف أيضا أنَّ صاحبه ذكر أن الأسباب الدَّاعية إلى تأليفه، منها أنَّ شيخَه **محمد بن علي الشريف** كان تلقَّى سِتًّا وثلاثين قصيدة، مدحَه بها أصحابها، جلُّهم مِن تلامذته، فالتمسَ منه أستاذه **ابن علي الشَّريف** المذكور أن يجمعَها في مؤلَّفٍ يعرِّف بأصحابها، ويصلح ما يوجَد في بعضها مِن الأخطاء اللغوية أو في الوزن، فامتثَلَ أمرَه وألَّف هذا المجموع، الذي استوعَب فيه حياة المؤلَّف [له] مِن بدايتها إلى نهايتها، وتأسيسه للمعهد وتطوُّره، كما أَثبتَ فيه ثلاثين قصيدة انتقاها مِن بين السِّت والثلاثين، تُعطينا مِن جهتها صورةً مصغَّرة مِن الحياة الثقافية في عهده، إذ جلُّ أصحاب القصائد ينتمون إلى مختلف جِهات الوطن وطبقاته، وليسوا كلهم مِن تلامِذة **المعهد**، ولا تخلو قَصائدهم مِن التَّعرُّض إلى جوانب مِن حياة صاحب **المعهد** وشمائله، وأحداث عهده، خصوصا إجازة المؤلِّف العِلمية التي أجازه بها قريبه مدير **معهد ابن مصباح**، واستعراضه فيها لجميع الفنون التي أخذَها عنه بتفصيل، تلك الفنون الدَّالَّة على أنها لا تقلُّ عن الفنون التي كانت تدرَّس بالجامعات الإسلامية الشَّهيرة إذ ذاك، كـ : **الأزهر** بمصر، و**الزيتونة** بتونس، و**القرويِّين** بفاس.

---

(1) بياض بالأصل. (ع)

والحياة الثقافية بمعاهد القبائل الصُّغرى ـ التي أثْرتها الجالية الأندلسية بعدما هاجَرت من **بجاية** إثر سقوطها في حكمِ **الأسبان** في أوائل القرن العاشر الهجري هي امتداد للحياة الثقافية لـ : **بجاية** التي امتازت بإِيوائها للمهاجرين الأندلسيِّين ابتداءً مِن تفكُّك عُرى الخلافة الإِسلامية بها، وكذلك ببلاد القبائل الكبرى ـ ضاعَت معظم وثائقها.

ومن المصادر التي تعرَّض أصحابها إلى ذِكر هذه المعاهد بإِجمال (**رحلة**) **الورتلاني** المعروفة بـ: (**نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار**) [1] للشيخ **الحسين الورتلاني** (1125 ـ 1193 هـ)، ضمَّنها رحلته إلى الحجِّ سنة 1179هـ، ورحلته عبر أنحاء بلاد القبائل الصغرى والكبرى التي عقدَها قبل ذهابِه إلى الحجِّ مباشرة، تعرَّض فيها لمعالمها الجغرافية، ولبعضِ مَعاهدها وتراجم أصحابها بإِيجاز، وكذلك: (**منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية**) لـ: **عبد الكريم ابن الفكون القسنطيني** (988 ـ 1073).

ومِن مميِّزات كتاب: (**توشيح طراز الخياطة**)، أنَّ مؤلِّفه تعرَّضَ لنظام الحياة المادية للمعهد، وقليلا ما يتعرَّض لها مؤلِّفو التراجم، إذ معظمهم يقتصِرون على الناحية الأدبية، وإن تعرَّضوا لذكر الناحية المادية فيذكرونها عرَضا.

وقبلَ أن نتطرَّق إلى صميمِ الموضوع نتحدَّث بإيجاز عَن المخطوطة ـ أي: (**توشيح طراز الخياطة بشمائل شيخ شلاطة**) ـ فإنَّها تشتمل على (60) صفحة، طول الصَّفحة (29) سنتيمتراً، وعرضها (19)، كما تَحتوي الصَّفحة على (24) سطرا، والسَّطر على (14) كلمة، وقَد أنهاه مؤلِّفه سنة 1191هـ.

أما مُحتوى التأليف فقَد استهلَّه مؤلِّفه بالتعرُّض للظُّروف لتي أَلَّفه فيها، فقال: «أما

---

(1) طبع فونطانا بالجزائر سنة 1326 ـ 1908.

بعد، فيقول العبد الفقير لرحمة فالق الإصباح، **محمد العربي ابن الموهوب بن أحمد ابن مصباح**، لَمَّا أنعمَ الله عليَّ بخدمة العلم وأهله، والبحثِ عن فرع الدِّين وأصلِه، وفَّقني لانتِخاب شيوخ جهابذة عِظام، والانتظام في سِلك أئمة فضلاء أَعلام، فمنهم شيخنا الربَّاني، وأستاذنا العرفاني، أوحد زمانه في العلم والدِّين، وشيخ أوانه في تربية المريدين، العلَّامة النّحرير العالي، **أبو عبد الله** سيدي **محمد بن علي الشَّريف اليلُّولي**.

هذا، وإني قد كنتُ مدحتُ هذا الشَّيخ بقصائد[1] وزفَفتها إليه معَ فوائد، فمِنها ما أنشدتُه بنفسي بين يدَيه، ومنها ما أرسلتُه مع الزَّائرين إليه، ثمَّ إنه أمتعَ الله بوجوده، وأسبغ علينا وعليه بسوابغ جُوده، بعثَ إليَّ بتلك القصائد، مع عِدَّة منظومات مدحَه بها علماء وقته مِن تلاميذه وأَصفيائه وأحِبَّته، ومجموع ذلك ينيف على ثلاثين قصيدة، كلُّ واحدةٍ تدلُّ على أنَّ قائلَها قد بلغ من حبِّ الشيخ والرَّغبة فيه الغاية البعيدة، فمنها ما استقام وزنه ومنها ما لا، جازى الله الجميعَ خيرا، وأجزلَ جوائزهم كمالا، وأَمرني (رضي الله عنه) أن أؤلِّفها منسوبةً لأربابها، وأَن أضيفَ إليها مِن عندي ما تيسَّر مما يقربُ منها ويناسبها، وأن أصلحَ ما أمكنَ إصلاحه منها، ونصُّ ما كتبه إليَّ بخطِّه الكريمة يُمناه، وبعثه إليَّ مع بعضِ طلبته الآتي بالقصائد كما قدَّمناه، بعد كتبِه الإِجازة لي وذلك مُنايَ وسُؤلي».

ثمَّ ذكر فقراتٍ مِن الكتابِ الوارد إِليه اقتطفنا منه هذِه الجمل: «والسَّلام مِن الله أضعافا مُضاعفة، ورحمة وبركة مترادفة، على خَدنٍ وخلٍّ سَجير[2] في وُدِّنا، وذي إنصاف صاف ومخبتٍ سَنْبَرٍ مجِدٍّ في أمرِنا، الفقيه العالم الجليل النِّحرير الأريب، الجهبذ الأديب، **أبي عبد الله** سيِّدي **محمد العربي ابن** سيِّدي **الموهوب ابن أبي العباس** سيِّدي

(1) أثبتَ منها ثلاثة في التأليف.

(2) أي: مخلِص في حبِّنا.

أحمد زرُّوق بن مصباح، مَن هو لأقفال العلوم مِفتاح، ولكلِّ ذي نَصب ووَصب مُستراح، ولأَبناء السَّادات مُرشد نصَّاح، أَعاننا الله وإياك على القيام بوظائف الدِّين، وجعلنا وإياكم مِن العلماء العاملين ».

ثمَّ استرسل الشَّيخُ **محمد بن علي الشريف** في رسالتِه إلى تلميذه، فقال: «وستَرد عليك مَنظومات أهل الصَّفاء، والنِّية والوَفاء، يمدحُون الخسيسَ الذي ليس أهلا لذلك إلَّا بِفضل الله وسَتْر مِن المولى المالك، أرومُ مِن جزيلِ فضلِك أن تجمعَها وتؤلِّفها في كتاب، معزوَّة كل قصيدة لقائلها، كما فعلَ بعض الفضلاء مِن **الشَّام** فيما قيل في سيِّدي **أحمد الباهي التونسي،** فلَنا في ذلك أُسوة، ولك مَزيَّة ومِنَّة، وأَضِف إليها ما أراك الله مِن ظريف القول ونَميقه، ومَليحه ورقيقه، وأصلِح ما في بعضِ القصائد، فإن كلَّ واحدٍ يقول بقَدر وسعِه، والله يجازي الجميع خيرا».

ثم قال المؤلِّف: «انتهى كلامه (رضي الله عنه)».

وواصلَ حديثَه فقال: «فامتثلتُ أمرَه، واقتفَيت أثرَه، وسمَّيت هذا الكتاب: **(توشيح طراز الخياطة بشمائل شيخ شلاطة)** »، وهنا بين قَوسَين ذكر المؤلِّفُ ثلاثة أسماء أخرى للتأليف[1].

ثمَّ تعرَّض المؤلِّفُ إلى القصيدة التي أَرسلها هو إلى شيخه مُلتمِسًا فيها الإجازة، وقد أجابه إلى رغبته، فقال في ذلك بعد أَن ذكر أن شَيخه بعثَ إليه مجموع القصائد السَّابقة الذِّكر مع بعضِ تلامذته، ومعَه الإجازة التي طلبَها منه، وضمَّن طلبَه في قصيدة طويلة تحتَوي على خمسين بيتا، وجعل لها تَقديما، نثبتُ بعضَ أبياتها، ومهَّد لهذه القصيدة رسالة نَثريةً بليغة، أشاد فيها بمكانة الإِجازة، نتأسَّف على عدمِ إثباتها، إذ

(1) هي على التَّوالي: (أ) **عِقد اللآلي في مدح الشَّيخ ابن علي الشريف اليلولي،** (ب) **روض الحدائق المنيف في مدح الشَّيخ ابن علي الشَّريف،** (ت) **دُرر التَّعريف بالشيخ ابن علي الشَّريف.**

تُغنينا عنها هذه الأبيات مِن القصيدة:

لقَد أباد الهوَى جِسمي فانصدَعا | لما رمقتُ بَريقَ البرقِ قَد لَمعا
مِن ربع **شلَّاطة** ربع الأَحبَّة لا | أَدري أبَرقٌ أَم نورُهم سَطعا
وهبَّ منهم نَسيم تحيي نَشقتُه | شممتُ منه شَميم المسك قد ضوَّعا

إلى أن قال:

ذاك الإمام أبو الإمداد سيِّدنا | شيخ المشايخ ضرَّار وقد نفعا
العالم البحر والغَوث الكريم فقَد | حازَ الرِّياسةَ لا لغيره مَطعما
مَعدن علمٍ وحِلم والتُّقى والهدَى | ومنبع البذلِ للاتحاف قد وسعا
أفعاله وزنت بالشَّرع وانتظمَت | في سِلك سنَّة مَن في الكلِّ جا شايعا

وهنا يتعرَّض لطلبِ الإجازة فيقول:

يا جامعًا لِشتاتِ العلمِ أحيَيْتَه | بعدَ المهات ففَخره بك اتَّسعا
أجِب لما طالما انتظرتُه راجيا | إجازة وهي أَغلى ما بها انتُفِعا
إذا ظفرتُ بها أنشدتُ مِن طرب | بُشرى لقَد أنجز الإقبال ما أطمعا

وعندَ حديثه عَن إجازة شَيخه **ابن علي الشريف** ذكرَ الإجازة التي أجازَه بها عمُّه **الحسين ابن مصباح** مدير معهد ابن مصباح المتقدِّم الذِّكر، فقال: «وقَد أجازني قبله ـ أي: قبل **ابن علي الشريف** ـ شَيخي ومولاي، وسبط محياي، علامة الدُّنيا على الإطلاق، الشَّهير عِلمه وعَدله في كلِّ الآفاق، **أبو أحمد** سيِّدي **الحسين بن أحمد زروق بن مصباح**، حشَرني الله تعالى معهم في زمرة أهل الصَّلاح، مِن علم الحديث بـ: **صحيحي البخاري ومسلم** وغَيرهما مِن الكتب السِّتَّة وغيرها، ومِن علمِ التَّفسير: **ابن عطية**، **والواحدي**، **والبيضاوي**، وا**بن جُزَيّ**، **والجلالين**، **والجواهر الحسان**، وغير ذلك، ومن علم الفقه بـ: **مختصر** الشَّيخ **خليل**، وشرَّاحه وحَواشيه، **والرِّسالة** وشرَّاحها، و**مختصر ابن الحاجب**،

وغير ذلك، ومِن علمِ الكلام بـ: **المقاصد** وشَرحها لـ: **السَّعد التفتزاني**، و**العقائد النَّسفية** وشرحها له أيضا، و**أم البراهين** وشرحها لمؤلِّفها، وحاشيتَي الشيخ **عيسى السَّكتاني** والشَّيخ **يحيى الشاوي** عليها، و**الكبرى**، و**الوسطى**، وغَيرهما من مؤلَّفات الشَّيخ السَّنوسي، و**الجوهرة** لـ: **اللقَّاني** وشرحها الكبير والصغير لناظمِها المذكور، ومن علم النحو بـ : **الكافية** و**التسهيل** وشروح كلٍّ، وغيرها مِن مؤلَّفات **ابن مالك**، و**الشُّذور**، و**قَطر النَّدى**، و**المغني**، و**قواعد الإعراب**، وغيرها مِن مؤلَّفات **ابن هشام الأنصاري**، و**التَّصريح**، و**الأزهرية**، وجميع مؤلَّفات الشيخ **خالد الأزهري**، ومن علوم التصوُّف بـ : **كتب ابن عطاء الله**، وتآليف **القُشيري**، والشيخ **زروق**، ومِن علمِ الأُصول بـ : **جمع الجوامع** وشروحه، ومِن علم البيان بـ : **التلخيص** وشرَّاحه، و**الجوهر المكنون**، و**شفاء عياض**، وبـ : **إحياء الغزالي**، ومن علم السِّير بـ: **ألفية العراقي** وشروحها، و**ابن سيد الناس**، وغير ذلك مِن صَرفٍ ومَنطقٍ وحِسابٍ وفَلك وفَرائض وعروض وتلاوةِ كتابِ الله، وبِقراءة **دلائل الخيرات**، و**أحزاب الشاذلي** و**النووي**، و**الوظيفة** الزروقية، ونظم **الدِّمياطي**، و**البردة**، و**الهمزية**، و**المنفرجة**، وغير ذلك مما هو مَرسوم في ثَبَتِه الذي أَجازني به (رحمه الله، ورحمنا به)، وقَد مدحتُه بقصائد، ورثيته بعدَ موته بأُخرى، ويُعلمُ ذلك بالوقوفِ عليها» اهـ[1].

---

(1) ذكر هذا العالم ومعهد أسرته **الورتلاني** في **(رحلته)** عند تعداده لعلماء ناحيته: « ومنهم الشيخ الفاضل الولي الصالح المعلوم النجاح سيدي محمد بن مصباح، ذو العلم المتين، والسِّرِّ المبين، وكذا أولاده فضلاء نجباء... الخ »، كما ذكر هذا المعهد وأثنى على صاحبه في عهده **عبد الكريم ابن الفكون القسنطيني** (988 ـ 1073) في كتابه: **(منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية)**، وذكر معهد آل مصباح الحسين **الورتلاني** في **(رحلته)** فقال: « وانفصلنا عن الأفاضل وغيرهم قاصدين بني يعلى فبلغنا محل المدرس الفاضل، والعلامة الكامل المحب على الدوام ذي الفضل والنجاح، سيدي الحسين بن مصباح، رحب الفناء، عالي السناء، شامخ البناء ... الخ ».

وقد تعرَّض المؤلِّفُ إلى ترجمة الشيخ **ابن علي الشريف**، فقال: «الشَّيخ العالم العلَّامة الأستاذ اللغوي **أبو الفضل** السيد **محمد ابن** العالم الزاهد السيد **علي الشريف**، برَّد الله ضريحه، وأسكنه في الجنان فَسيحه، **الزواوي** بلدا، اليلُّولي صقعا، الشَّلاطي مَولدا ومَنشأ، ولد (رضي الله عنه) سنة 1112 هـ».

وقد عرَّف الشَّيخ **محمد ابن علي الشريف** بنفسِه في مقدِّمة تأليفه المسمَّى: (**معالم الاستبصار بتفصيل الأزمان ومنافع البوادي والأمصار**)، في علم الفلك، فقال: «إنِّي كنتُ مَعروفا بجمود القَريحة، إذ ليس لي في العلوم تعلُّم ولا رِحلة، إلا في **مختصر خليل** في مدَّة قليلة مِن أجل عَوارض ناصية عابرة، وعوائق وهموم ثائرة، توفي والدي وهو بالعلم حافل، كارع فيه وناهل، وزاهد في دنياه بعلمِه عامِل، وما لنا سِوى الله كافل، وأنا وبُنيَّات له صِغار، وأمّنا تحنو علينا ونَحن في غُمومٍ كِبار، وما لنا مِن الأقارب، إلا كذِئاب وعقارب، ولا في الأباعد مُوادٍّ ولا مُساعد، ونحن أضعف مِن الجوازل، وأرقُّ مِن المغازل» اهـ.

وقَد قال **العربي بن مصباح** في الموضوع ما يلي: «وأخبَرنا (رضي الله عنه) أنه اشتغل بقراءة **المختصر** نحو ثلاث سنين، وحضر **المقدِّمة الآجرومية** مِن أوَّلها إلى **باب الأفعال** فقط، ومع ذلك فقَد أخذَ مِن كلِّ علمٍ أَوفر نَصيب، وله اليد الطُّولى في الفقه وعلم الفلك وغير ذلك، خصوصًا علم اللغة، ولم يسمع ذلك مِن معلِّم مخلوق، وإنما ذلك إلهام مِن الخالق، فقد كان لا يذكر قولا إلا ويَعزوه لقائله، حتى إنَّه حضر درسَه سيِّدي **محمد بن معزة** (قاضي مدينة ميلة) فأُعجِبَ به».

ثمَّ واصلَ مترجمه الحديث عنه وعمَّن حضروا دروسَه للاختبار، فانصرفوا مُعجبين بتضلُّعِه في فروع المعرفة.

ثمَّ ذكر مترجمه تزوُّجه بابنة خاله الفقيه الشيخ **الحلو**، ولم يصرفه الزَّواج عن القيام

بمهمَّتِه، وهنا يذكر لنا المترجِم حالةَ شيخه في أوليته، فيقول: «وكان متواضِعا يتولَّى أمورَ تلامذته بيده، ويأتيهم بمأكلهِم بنفسه المباركة، حامِلا بيده قصعتَين، كل واحدة يجلس عليها سبعة أو ثمانية، في ليلة مطر مظلمة مع بُعد المسافة ».

إلى أن قال: «ومِن بركته (رضي الله عنه، ونفعنا به) أنه تكفَّل بمؤونة جميع الطلبة، وهم يزيدون على ثلاثمائة، وبمؤونة جميع الضُّيوف والزَّائرين له، ومع ذلك إنَّما يقيم لغذائهِم أو عَشائهم امرأةً واحدة، وتفرغُ مِن عَشاء الجميع في الوَقتِ المعتاد لمن يمون أهل بيته فقَط، ويأكل الجميع دُفعةً واحدة، ولا تنتظر جماعة فراغ أخرى كما يفعل ذلك غيره ».

ثمَّ قال **العربي بن مصباح**: «قلت: فهذا أمرٌ لم يتَّفِق لغيره وجوده من أهل الولائم والأعراس كما هو مُشاهَد، فإنَّهم يُطعِمون الناس مُناوبة، مع تقدُّم طبخ الطعام بنحو يومٍ أو أكثر، ولا تَقوم بذلك امرأة واحدة » اهـ.

مِن هذا يتبيَّن لنا أنَّ **المعهد** في أوليته كان يأوي حوالي سِتَّة عشر طالبا، وبعد اشتهاره وإقبال الطلبة عليه مِن جميع أنحاء القطر بلغ عدد الطلبة ما يَربو على ثلاث مائة، كما أنه كان هو الذي ينفق عليهم، فزيادة على ما ذكره مترجمه عند قوله: «إنه تكفَّل بجميع مؤونة الطلبة »، نجِد أحد مادحيه يُشير إلى ذلك في قصيدة، وإن كان أسلوبها مهلهلا إلا أنه تعرَّض فيها لنبَذٍ مِن حياتِه لها أهمية، منها أنه كان يموِّن طلبة معهده وزوَّاره، مع أنه لم يكن يكسب أراضي فِلاحية، وفي ذلك قال:

كذا إنه يمون كل التلاميذ مع الزائرين القاصدين تفضُّلا
وكثرتهم زادت على العدِّ والحصا وكلٌّ لما أراده مُتناولا
فكلُّ ذا مِن كون وإلا فما له حراثة أَو بستان أو كسب أعملا

وقد تعرَّض نفس الشاعر إلى مشاركة الشَّيخ في الدِّفاع عن عاصمة **الجزائر**،

والغالب أنه يقصد حملة **شارلكان** (Charlequint) سنة [1541م] التي أَفردَها كثير من الكتَّاب بدراسات قيِّمة منهم ... [1].

وفي ذلك قال:

كـذا واقـع أعـداء ديننـا قـد أتـوا	جزائرنا قد كادوا أن يفتكـوا قـيلا
فشوهد هذا الشيخ هـازمهم عـلى	جـواد لمـا في جمـع نصـر تكمـلا
قـد انهزمـوا مـن غـير حـرب	مـن المسـلمين ظـاهرا فتـأملا

ثم يتعرَّض نفسُ المادح في قصيدته إلى علائق الشَّيخ بالحكَّام الأَتراك، فيقول:

وكل الملوك قـد أطاعـت لأمـره	وصاحب إسطنبول كُتبَه أرسـلا

والغالب على هذه العلائق أنَّ **باشوات الجزائر** كانوا يُرسلون إلى رؤساء الدِّين ظهائر يستَوصون بأصحابها خيرا، كما كانوا يُرسلون إليهم الهدايا والإعانات، وهذه المنطقة ـ أي: منطقة القبائل الكبرى والصُّغرى ـ كانت منذ سقوط مملكة **بجاية** في يدِ **الإسبان**، تقاسمَ حكمها إِمارتان:

الأولى: بالقبائل الصُّغرى، المشهورة بـ : **وادي بجاية**، وكان على رأسها **آل المقراني**.

والإمارة الثانية: هي إمارة **آل ابن القاضي**، كانت تحكم إمارة القبائل الكبرى.

وكان رئيسا هاتَين الإمارتين في حالتَي حربٍ وسلمٍ بينهما، ثمَّ كان وُلاتهما أيضا تارةً يُوالون الإسبان مدَّة إقامتهم في **بجاية**، وتارةً يوالون الأتراك، وإن كان أمير القبائل الكبرى **أحمد ابن القاضي الزَّواوي** هو الذي أعان **الأتراك** ـ أي: **عرُّوج** وخير **الدِّين** ـ على احتلال مدينة **الجزائر** إذ ذاك، وعلى كلِّ حالٍ كانت منطقتا القبائل الصغرى والكبرى في عهدِ الأتراك متمرِّدتَين على السُّلطات، وكانت قوافل التُّجار والحجَّاج

---

(1) بياض بالأصل.

تلتجئ إلى حماية رجال الدِّين، ومن ذلك ما حكاه صاحب كتاب: (**منشور الهداية في كشف حال مَن ادَّعى العلم والولاية**)، في ترجمة الشيخ **الموهوب** بايمولا أنه كان يُرسل لحماية القوافل التِّجارية التي تجوب المناطق المخوفة بعض أولاده أو طلبته، وإن لم يجِد مَن يُرسله منهم أرسلَ مركوبَه ـ أي: راحلتَه ـ فتمرُّ القافلةُ محميَّة ولا يَمسُّها أحدٌ بأَذى، وهذا أمرٌ كان فاشيا حتى في سهول البِلاد الغَربية، فكانت قَوافل الحجَّاج والتجَّار عِند مُرورها على الإِقطاعات الشِّبه مستقلَّة، يُرافِقُها رجال الدِّين لحمايتهم [1].

ولا يفوتُنا أن نلفِتَ انتباه القرَّاء أنَّ إمارة **آل المقراني** كانت في أوَّل عهدِها مؤسَّسة دينية، تخرَّج مؤسِّسُها مِن معهد **يحي العيدلي** بـ: **تَـمُقْرا**، ثمَّ تحوَّلت إلى إمارة سياسية، وكذلك إمارة القبائل الكبرى التي كان مؤسِّسها عالما دينيًّا قبل أن يتولَّى القضاء.

ولنرجع إلى الحديثِ عن مجموع **العربي بن مصباح**، فإنَّه ذكر مِن بين القصائد التي جمعها ونقَّحها قصيدةً لعالمٍ مِن مدينة **فاس**، قال عنه في المجموع: «وقَد وقع للعالم الأديب سيِّدي **عبد الله بن عمر الحسَني الإدريسي الفاسي** حين قدِم إلى الشَّيخ أنه اجتمع مع ابنه سيِّدي **محمَّد**، فسأله أن يَدعو له، فدَعا له، فكتب العالم المذكور إلى الشيخ بما نصُّه: أمَّا بعد، فإنَّ ولدَك الفاضِل النَّجيب، خليفتك ـ إن شاء الله تعالى ـ ووارث سرِّك، وهو سيِّدي **محمَّد** قد جاءَني وفرحتُ بِرؤيته، وشاهدتُ أسرارَ الطَّريقة والحقيقة في أَسارير جبهته، أقرَّ الله تعالى به عَينك، ومتَّعه ومتَّعك بِطول حياتِكما، وقد طلبتُ منه الدُّعاء فدَعا لي، وقلتُ له لَّما أن تشرَّفتُ بِلُقياه:

ونجلُ الذي في زواوة اليومَ قد بَدا   كما فوقَ عشرٍ قَد بدَت طلعـة البَـدرِ

---

(1) ذكر **محمد بن علي الصباغ القلعي** في تأليفه (**بستان الأزهار**) أن الشيخ **الزيتوني المغربي** أستاذ الشيخ **زروق الفاسي** (توفي: 899): لما مرَّ في طريقه إلى الحجِّ رافقَه عالمان، كان رئيس قبيلة سويد مِن تلامذتهما، فَرافَقاه مِن **غليزان** إلى **مليانة** حوالي 200 كم.

أغِث ضَيفك النَّائي الدِّيار بـدَعوة		تكونُ لـه حِصـنًا مَنيعـا مِـن الضـرِّ
بقيـتَ تَزيـد في العُـلا بهجـة كـما		يزيدُ شُعاعٌ في الطلـوع ضِـيا الفَجـر
ولا زلتَ والأيام تُسعف بالـذي		يريدُ أَبـوك مِـن عُـلاك مَـدا الـدَّهرِ
وهـا أنـا يـا نـورَ الهـدَى متشـفِّع		إليك مِـن أن تنظـر اليـوم في أَمـري
وقُـم فيـه عَونًـا قَومـةً هاشـمية		ودَع عنك الاستِعصامَ منِّـي بالقَـدرِ
فهـذي دمـاء المسـلمين مُباحـة		وأَعراضهم والمال ظُلـما كـما تَـدري
وأنتَ بِحَمـدِ الله في النَّـاس قـادر		على أَن تُزيلَ النكر في السِّرِّ والجهـرِ
فحـقٌّ عـلى أمثالِـك الغِـيرَة التـي		بها جدُّك قـد كـان يُمـدَح في الأَمـر

اهـ.

وسُقنا هذه القصيدة الشَّهيرة للاستِدلال على شُهرة الشَّيخ في عَهده التي لم تكن مُقتصرة على سكَّان **الجزائر**، بل جاوزتها إلى خارج الحدود، وعلى أنَّ صاحب القصيدة عندما خاطبَ الشَّيخَ ملتمِسًا منه كفَّ المظالم، صرَّح بأنَّ مكانَته تخوِّل له القيامَ بهذا الواجب المقدَّس في الإسلام، أي: الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، حيث قال:

وأنتَ بحمـدِ الله في النـاس قـادر		على أن تُزيل النكر في السِّرِّ والجهرِ

هذا، وإنَّ مجال هذه الدِّراسة لا يُساعِدُنا في تتبُّع بقيَّة القصائد الثلاثين المثبتة في التأليف، وإنَّما لا يفوتُنا أن نُشير إلى بعضِها [التي] تعرَّض فيها أصحابها إلى وصفِ المعهد ومَوقعه، وهي قصيدة ثانية للمؤلِّف **العربي بن مصباح**، وهي تحتوي على ستٍّ وثلاثين بيتا، نثبتُ بعض أبياتها، قال:

أَلَا مِل إلى شلَّاطة فهي مُنـى قلبـي		فتذكارها أحلى مِن الشَّـهدِ والرَّطـبِ
وحـدِّث بهـا عمَّـن تبـذح قاطنـا		لنَشـر علـوم مِـن مواسـاة ذي تـربِ
وإقــراء أَضــياف الإلــه بأَسرهــا		كـذا نفـع خلـق الله طـرًّا بِـلا رَيـبِ

ومــورد ظمــآن مُغيــث للهفــان	ومزهـق أشـجان ومـا ران عـن لـبِّ
لــه هِمَّــة عليــا علَــت كــلَّ همَّــة	وهمَّته الصُّـغرى فاقَـت كـلَّ كوكـبِ
فكم مِن كسيرِ القلـبِ جـاء مقامَـه	ففــازَ ببُرئــه في وقـــتِ التَّقـــرُّبِ
وكَـم مِـن ضريـر أمَّـه في حـوائج	فعــادَ بَصــيرا حــائزا للتَّــأدُّبِ
وكـــم جَهـــولٍ جـــاءَه مـــتعلِّما	فـــآضَ ذكيًّـــا عالمـــا ذا تهـــذُّبِ
فـــأَبحُر علمِـــه تفـــيضُ لموجِهـــا	كما فاضَ نيل مصر عن كـلِّ سَبسـبِ
وأخمـــدَ نـــارَ الّلعـــينِ وحِزبِـــه	وأظهــرَ ديــنَ الله في كــلِّ مــذهبِ
فنــارَت بِنــوره النَّــواحي وأَهلهــا	وصــار لخلــقِ الله كهــفَ التَّهــرُّبِ
وشــيَّد أَبراجًــا بُعيــدَ انهِــدامِها	فصــارَت بِحَمـدِ الله قَصـرا مهـذَّب
بعلــمٍ وعــدلٍ والولايــة والتُّقــى	لدَيـــه تجمَّعـــت بِغَـــير تكـــذُّبِ
فأَبقـــاه ربُّنـــا لنفـــع عَبِيـــده	وقَمـعِ جنـودِ الزّيـغ ذاتِ التَّلهُّـبِ

نكتفي بهذا القَدر الذي سُقناه كنموذج لهذه القصائد التي أثبتَها المؤلِّفُ بعدَما علَّق علَيها وشَرحها، ونختِمُها ببعضِ أبياتٍ مِن قصيدةِ العالم الشَّهير **محمد بن الحفَّاف** (المفتي المالكي بمدينة الجزائر)، كانت له مكانة في المجتمع، حيث إنَّه ينتمي إلى أسرة عِلمية تَوارثَ أفرادُها القضاءَ والإفتاءَ المالكيَين، وكذلك الإمامةَ بـ: **الجامع العتيق**، المعروف الآن بـ : **جامع سيدي رمضان**.

وقَصيدةُ المفتي في ذلك العهد تعدُّ حظوةً لم ينَلها إلَّا القليل، حيث إنَّ الشَّيخَ **محمَّد بن عبد الرَّحمن الجرجري الخلوتي** مؤسِّس **الطريقة الرحمانية** التي انتشَرت في بلاد القبائل وبقية أرجاء البلاد، شمالا وجنوبا، تعرَّض له بعضُ العلماء الرَّسميِّين في المدينة...[1].

(1) كذا في الأصل. (ع)

وقصيدة **ابن الحفاف** تحتَوي على أربعين بيتا، نقتطفُ مِنها بعض الأبيات، كما أن مقدِّمتَها النَّثرية ممتازةٌ في أسلوبها، فلنُثبِت منها بعضها.

قال في التَّقديم: «سَلاما تتفتَّق مِن عَبير المِسك زَهراتُه، وتَطيبُ بِمُباكرته رَوضكم اللائق أنفاسُه وهباتُه، وتتَّصِل بِسيادتِكم العليَّة صِلاته وهِباتُه، وتُصافح أخلاقكم الزَّكية نَسماته ونَفحاتُه، وتُهدي إليها مِن الله تحياته وزكياته، ورحمة الله وبَركاتُه يتسلسل سبيله خِلالَ تلك الشَّمائل، وتَسقطُ سُحب أندائِه تلك الخمائل... إلى المولى الرَّئيس، والدُّرِّ النَّفيس، والحِصن المنيع، والجنابِ الرَّفيع، قطبِ الأولياءِ حقًّا، وغَوثِهم صِدقا، مَلجأ الأرامل والأَيتام، ومَلاذِ الأَنام الذي يشهدُ بِفضله وإِحسانه، وجوده وكماله، الناطق والجمادات ... »[1].

(1) إلى هنا انتهى نصُّ هذه المقالة، وقد يسَّر الله لنا الوقوف على كتاب الشَّيخ محمد العربي ابن مصباح، ونحن عازمون ـ إن شاء الله تعالى ـ على تحقيقه ونشره، حقَّق الله الآمال بِمنِّه وكرمه، آمين. (ع)

المؤسسات الدينية في المجتمع المغربي
معهد شلاطة ببلاد زواوة

بناء على منشور معهد الدراسات الإسلامية
بجامعة برلين الحرة الموزع في مارس 1978
المتعلق بجدول أعمال المؤتمر عن الأدوار
الاجتماعية والسياسية والاقتصادية
التي قامت بها المؤسسات الدينية في المغرب العربي
منذ بداية القرن الثامن عشر حتى الحرب العالمية
الثانية "الخ
كانت من جملة النقاط التي اختار
المشرفون على هذا المؤتمر تناولها بالبحث
والدراسة، بالنسبة إلى الجزائر منطقتين:
مدينة الجزائر والقبائل الكبرى زواوة
فاخترت أن يكون موضوع دراستي معهد
شلاطة بالقبائل الكبرى، وذلك للتوفر
وثائق هامة تتعلق منذ تأسيسه، ومختلف بهذا المعهد

صورة عن الصَّفحة الأولى مِن النُّسخة المعتمدة

التعريف بكتاب
(التعريف البسيط في أخيار تمنطيط)[1]
لمحمَّد ابن الحاج عبد الرحيم

من نسخة أصيلة وجدتُها بخزانة العالم الفقيه الشَّيخ محمَّد بن الكبير رئيس معهد أدرار مارس 1978 ربيع الثّاني 1398هـ، وقد كنت لخَّصتُ منه بعض الفقرات وألقيت في التَّعريف به بعض محاضرات، إذ كان هذا التأليف محاطا بالغموض، وقد نسبه بعض لنفسه من أسرة الشَّيخ البكري، وقد حقّق هذا التأليف بعض الأساتذة وقدّم تحقيقه في قالب أطروحة أو دراسة لجامعة الجزائر سنة 1980، ولمَّا لا زلتُ لم أطَّلع على هذه الدراسة سجَّلت هذه اللَّقطات ممّا نقلته من مخطوط أصيل بالخزانة المذكورة.

البسيط في أخبار تمنطيط

للعالم العلامة السيد محمّد ابن الحاج عبد الرَّحيم لطف الله به.

« ... أمّا بعد، فيقول مؤلِّفه محمّد الطيّب ابن الحاج عبد الرحيم التواتي التمنطيطي القرشي ... وسمَّيته بـ: **البسيط في أخبار تمنطيط**».

فصل في ذكر علماء تمنطيط: **أوَّلهم** على ما بلغنا ذكره جدّنا السيّد أبو يحيى بن محمَّد

(1) اعتمدنا في إدراج هذه المقالة على نسخة تقع ضِمن كرَّاس بخطِّ يد الشَّيخ **المهدي** (رحمه الله تعالى)، وقفنا عليه بمقرٍّ مكتبته العامرة بمدينة بطِّيوة (وهران)، وعدد صفحاتها (25 ص). (ع)

المنياري نسبة لبني منيار قبيلة من العرب معروفة بأرض التلول، عرب من أرض حميان البادية، ويحكى عنها أنّهم إخوة للجعافرة وهم أيضا أولو قوَّة وأولو بأس شديد، غير أنَّ أوَّل منازلنا بتمنطيط كان يسمّى تجعفرت نسبة للجعافرة، وبنو منيار أصل نسبتهم ينتمي لقريش، إنّ نزول جدّنا هو بتمنطيط عام خمسة عشر في القرن التّاسع (815).

وجاء سيِّدي عبد الله العصنوني، إلى توات عام خمس وسبعين في القرن التّاسع (875).

ودخل سيدي سالم العصنوني القضاء في حياة عمِّه سيِّدي عبد الله المذكور سنة أربع عشرة في القرن العاشر (914).

جاء سيدي محمَّد بن عبد الكريم لتمنطيط ونزل في أولاد يعقوب عام اثنين وتسعين من القرن التّاسع(892).

ثمّ قال: «ومن بعد جدِّنا سيدي أبو يحيى جاء سيدي يحيى بن إيدير لتوات عام خمسة وأربعين في القرن التّاسع(845)».

ومن تلامذته الشَّيخ **ابن عبد الكريم المغيلي**، وضريحه بمقبرة أولاد علي بن موسى مشهور معلوم، ثمّ جاء من بعده سيدي عبد الله العصنوني وإخوة سيدي محمّد بن سيدي أبي بكر عام اثنين أو ثلاثة وستّين في القرن التّاسع (862).

وتقضى الصَّالح العالم سيدي سالم بن محمَّد الوليّ المشهور في حياة عمِّه سيدي عبد الله (المذكور) عام أربعة عشر في القرن العاشر (914) وولد عام اثنين وثمانين في القرن التّاسع، وفي تلك السنة جاء ابن عبد الكريم لتمنطيط و نزل في أولاد يعقوب وانتقل منها لـ: بوعلي وبه ضريحه ومقامه، وهو مشهور بالعلم الظَّاهر والولاية الباطنة فهو آية الله في أرضه وحجته في شريعته، وقصّته في جلاء اليهود من تمنطيط حين ظهر منهم

نقض العهد و خروج الذمّة، وخالف في ذلك القاضي المشهور سيدي عبد الله العصنوني حتّى ترافعا بنازلتهما ومحاورتهما إلى علماء الآفاق من المغرب فوافق الأكثر رأي العصنوني وقوله بناء على الظَّاهر، ووافق من أهل الظَّاهر والباطن الإمام السنوسي والتَّنَسي رأي **المغيلي** على ما بلغنا مِن أمرهما، واستنصر المغيلي بهما وبالعناية الربانيّة على جلاء اليهود وقد تقدّم أنّه لم يتناطح على ذلك عنزان.

ومات الشَّيخ ابن عبد الكريم المغيلي عام تسعة في القرن العاشر(909) ومات سيدي سالم في ذي الحجّة عام تسعة وخمسين في القرن العاشر(959).

وجاء سيدي **عبد الله العصنوني** إلى توات عام اثنين وسبعين في القرن التّاسع(872) ودخل سيدي سالم القضاء في حياة عمّه سيدي عبد الله المذكور سنة أربعة عشر من القرن العاشر(914)، وولد سيدي سالم بن محمّد عام اثنين وثمانين في القرن التّاسع(882).

جاء في سنة أربعة وثمانين في القرن التّاسع سيدي **محمَّد بن عبد الكريم** لـ: **تمنطيط** ونزل في أولاد يعقوب، وقامت فتنة أولاد يعقوب عام اثنين وتسعين في القرن التّاسع، وقامت فتنة سفيان عام ثمانية وسبعين(وقيل تسعين) غارت القبائل بعضها على بعض[1] ففي **تمنطيط** نجد سيدي سالم حفيد [2] سيدي **عبد الله العصنوني** تولى القضاء سنة 1509 مكان عمِّه الذي استقال من منصبه، وفي نفس السنة أولاد علي بن موسى وأولاد سعود بن عمر وتحاربوا مع عدّة قبائل.

وفي سنة 1510 أسَّس المرابطون زاوية تيمي أسَّسها المرابطون المهاجرون من

(1) وهنا نجد ما نقلناه من ترجمة (**البسيط**) للرَّائد **مارتان**، وهو مجموع تاريخ الصَّحراء والمغرب وسنتحدَّث عنه.

(2) بل هو ابن أخيه، (من إفادات الأخ الفاضل **عشاب**). (ع)

تلمسان عندما احتلَّ الإسبان مدينة **وهران**، وكان هؤلاء المهاجرون يدَّعون أنَّهم إدريسيون وكان سبب هجرتهم إلى **توات** أنّ لهم بها أقارب كما كانوا يحتفظون بشجرات نسب وظهائر من عهد الملك يعقوب المنصور الموحِّدي.

وفي سنة 1513 استقال سيدي سالم من القضاء، وذهب إلى الحجّ.

ثمَّ قال: المهاجرة تحاربوا وقد أطلق اسم المهاجرة على اليهود الذين اعتنقوا الإسلام.

وفي سنة 1517 غادر الحاج أحمد بن يوسف قصر أولاد انقال بتيمي وبنَى زاوية نتيلان وكان له شهرة رجل علم ودين ببلاد **توات**.

استقلال الواحات:

إنَّ الواحات التي استقلَّت كان أمراؤها في(تاحتايت أو نهطايت)، بدأ هذا الاستقلال سنة 1552وكانت هذه الواحات تحت حكم وطاعة القائد أحمد بن عمر التمنطيطي الذي استقلّ بعد انهزام مولاي زيدان بكابرتن (Kaborton) ثمَّ انقصمت وحدة القيادة ثم ظهر رؤساء كلّ منهم استولى على منطقة وهم سبعة سلاطين تداولوا الحكم على تحتايت (**تيميمون**) وكانوا مستقلِّين عن سلاطين المغرب إلى سنة 1548 [1].

إنَّ أهمَّ ما عثرنا عليه في مجموع « أربعة قرون من تاريخ الصَّحراء» للرَّائد (Martin) وغيره من المصادر أسماء تآليف قيمة ومن بينها ما ذكره أحد الرّحالين أنّ زاوية كنتة تعرّضت لهجومات جيرانها، ففي سنة 1551 ذهب أعيان كنتة إلى توات عند الشَّيخ موسى ابن الأحسن وعرضوا عليه غرامة سكّان تيمي 100 مثقال.

---

(1) سيدي باهية: عن أربعة قرون من تاريخ صحراء.

Voyage au Gourara les oasis indépendantes art des Emires à Tahtaït, Ct Martin.

ثمَّ استعرض المؤلف عدّة معارك بين سكّان هذه القبائل لضيق الوقت اكتفينا بالإشارة فقط إلى مصدرها.

وفي سنة 1582 أرسل باي طرابلس إلى ليبيا ولده مصحوبا بعشرة علماء، فاجتمعوا بعلماء **توات** الذين كان من بينهم سيدي علي بن عبد الله وسيدي محمّد بن العالم وسيدي مبارك بن أحمد ومشوا معهم إلى بادريان حيث أقاموا سنة كاملة.

وفي سنة 1584 جاء إلى فزان الشَّيخ عبد الله ابن الطيّب وأقام بتيمي واجتمع عليه علماء البلاد وحضروا دروسه.

تأسيس زاوية سيدي البكري: كانت أسرة من أسر المرابطين تسكن بقصر أولاد محمّد بتمنطيط حيث وردت على القصر المذكور بنحو قرن ونصف قبل تأسيس الزّاوية.

إنَّ أصل الأسرة مكتنف بالغموض، إلا أنَّ كثيرا من أفرادها اشتهروا بالعلم والصّلاح ابتداء من القرن العاشر، والكثير منهم كانوا يذهبون إلى الحجّ، وقد تولى أحد أفراد الأسرة قاضيا بقَادس (Ogadez) وتوفي مشهورا بالصّلاح، وإنَّ الوثائق التي بين أيديهم تثبت اتِّصالهم بالمرينيين وبالأدارسة.

إن رئيس الأسرة سيدي **محمَّد البكري** أسَّس الزَّاوية بعد رجوعه من الحجّ وقد تعرف بكثير من علماء المشرق وكان يكاتبهم حوالي سنوات 1618و1620 وأنَّه بعد خلاف وقع بينهم وبين بعض أفراد أسرتهم من جهة وبينهم وبين سكّان تمنطيط من جهة أخرى اشترى عدّة أراضي بقصر تازداية وأسّس زاويته التي اشتهرت بنشر العلم والدّين.

وكان لهذه الزّاوية نفوذ عظيم في المجالات الدّينيّة والسياسيّة كما كان لها اتّصال

ببلاد السّودان، حيث كان يتردّد بعض علمائنا على السّودان وكانوا يحتفظون ببعض الظهائر يستوصي فيها حكَّام البلاد بحاملِها خيرا.

زاوية الرَّقادية:

أسّس هذه الزَّاوية سيدي أحمد بن محمَّد الرَّقاد الذي أتى من دغاغ إلى توات وقد اشتهرت الزّاوية باسمه، أي الزَّاوية الرَّقاديّة، وجاور هذه الزَّاوية بعض الأشراف وهم الذين صاروا يتصرَّفون في الزَّاوية الكنتية وقد توفي سيدي أحمد الرَّقادي سنة 1651.

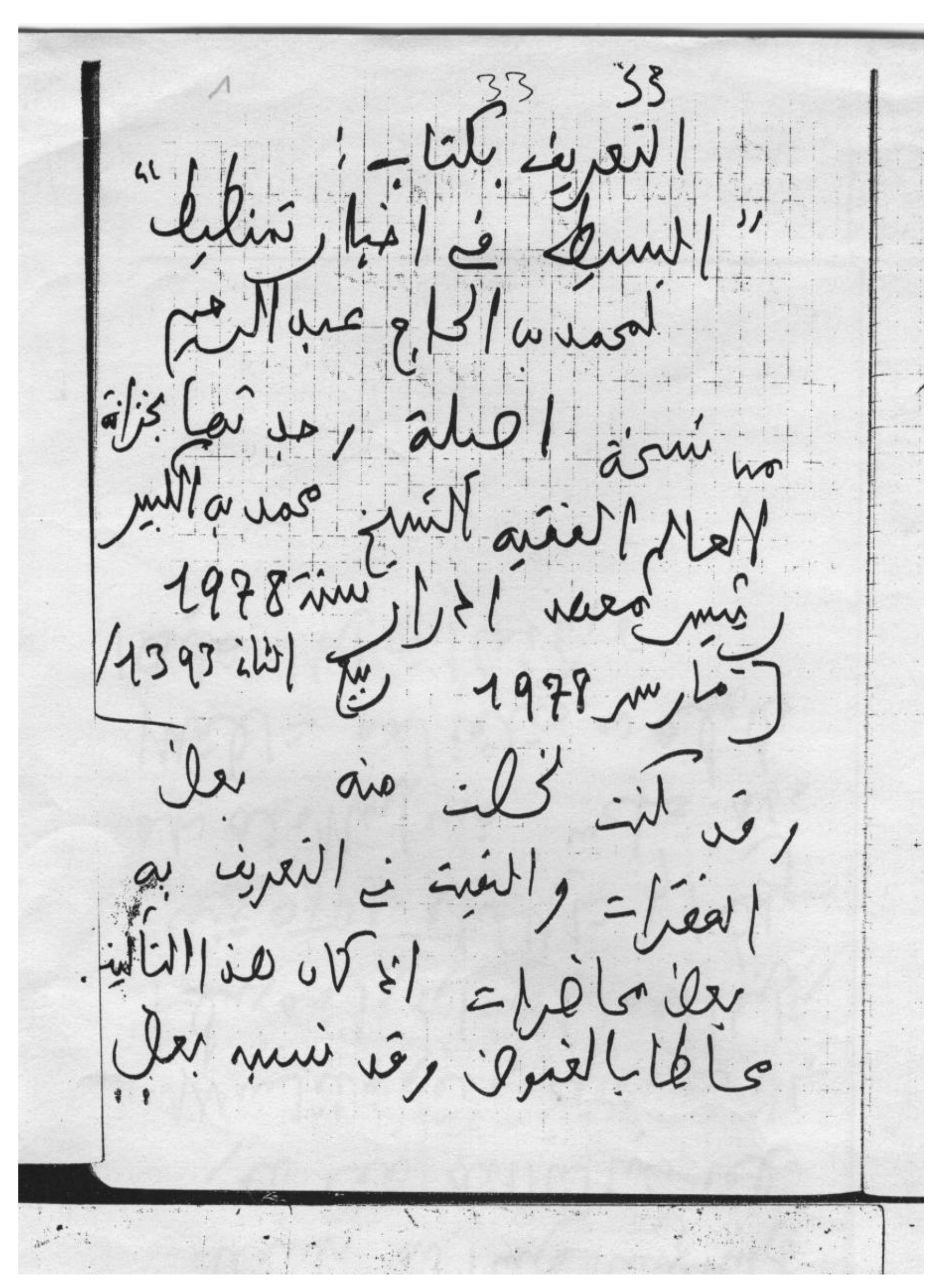
مسغبة الواحات سنة 1659:

ذكر الشَّيخ **أبو زيد عبد الرحمن بن عمر التواتي** المتوفَّى أواخر صفر 1139هـ/ الموافق 1727م، ذكر فيما نقله عن الحاج **أبي بكر بن بلقاسم الزَّجلاوي أنَّ** سبب هذه المسغبة الجراد الذي بقي مدّة أربعة أشهر لم يُبقِ ثمرة ولا ورقة شجر حتى بلغ ثمن رطل التّمر مثقال ونصف ذهب وبقي الجراد يتردَّد على البلاد ثلاث سنوات، يغادرها في فترات قليلة ويرجع إليها، ثمَّ أعقب هذه الكارثة وباء فمات جراءه آلاف الخلائق، فقد أُحصِيَ عدد الأموات بـ **(تيمي)** في يوم واحد ألف، وفي **(ماقرة)** دفن في يومٍ واحدٍ خمسون رجلا ومائة وعشرون امرأة، ثمَّ صار الدَّفن يتعذَّر للتلوُّث مِن انتشار الرَّوائح الكريهة التي لا تُطاق، وصار الأحياء يأكلون الجثَث الآدميَّة بعد ما أكلوا جثث الحيوانات مدَّة طويلة، فحينئذ بدأت هجرة الواحات المصابة وهي تمنطيط وبودة وقد هاجر سكَّان هذه المناطق إلى الدغامسة وقورارة (تيقورارين) فاستقبلهم السّكان بالإكرام والحفاوة والترحيب.

وبعد مرور سنتين على ظهور المسغبة تكوّنت قوافل التجّار الذين صاروا ينقلون التَّمر من **ورقلة** و**بسكرة** و**الوادي** بثمن رخيص، أي لم يستغلُّوا هذه المسغبة.

ظهور الخصب بعد الكوارث ببلاد توات:

وقد مرَّ بعد هذه المسغبة الرحَّالة **العياشي** وذلك في سنة 1663 آتيا من المغرب في طريقه إلى المشرق وكان دخوله لبلاد **توات** من قصيبات (ksibi) فسجّل انطباعاته ومشاهداته فقال:«إنَّ سبب إطالة مكثنا بتوات أنّ كثيرا من الحجّاج نظرا لغلاء ثمن الذهب بتافلالت اختاروا شراءه بتوات حيث ثمنه رخيص، وكذلك الشَّعير و التَّمر، ثمَّ إنّه بهذه البلاد **مجمع** القوافل التجارية الواردة مِن **تمبكتو** ومن بلاد **أقادير** (أقدس) وبقيَّة نواحي السُّودان، وتوجد السلع المختلفة الأنواع الواردة من البلاد المذكورة بخلاف السلع الواردة من المغرب فإنَّها غالية الثَّمن كالخيل وثياب الملف والحرير ... الخ».



33 33

التعريف بكتاب :
"البسيط في أخبار تمنطيط"
لمحمد بن الحاج عبد الرحيم
من نسخة أصلية وجدتها بخزانة
العالم الفقيه الشيخ محمد بن الكبير
رئيس معهد أدرار سنة 1978
مارس 1978 ربيع الثاني 1393
وقد كنت نقلت منه بعض
الفقرات والمفيدة في التعريف به
بعض محاضرات إذ كان هذا التأليف
مما طاله الغموض وقد نسبه بعض

صورة عن الصَّفحة الأولى من النُّسخة المعتمدة

نماذج مِن التُّراث الأَصيل الأَندلسي والجزائري[1]

بناءً على ما تعهدتُ به لمجلَّة: (**الثَّقافة**)، من تخصيص بعض المقالات للتَّعريف ببعض نوادر المخطوطات الأثريَّة، وتراجم أصحابها، فإنَّني أقدِّم للقرَّاء هذه الدِّراسة، أتناول فيها التَّعريف بمخطوطَين قيِّمَين، لهما وزنهما في ميدان إحياء التُّراث العربي الإسلامي ببلاد المغرب العربي والأندلس، والكتابان اللَّذان سأقدِّمهما في هذا المقال، يرجع عهدهما إلى القرن الثَّامن الهجري، أحدهما بخطِّ مؤلِّفه، والثَّاني كتِب في عهد مؤلِّفه، وعليه تعاليق بخطِّ المؤلِّف، وكلاهما لهما وزنهما ومكانتهما في تاريخ الثَّقافة العربيَّة الإسلاميَّة العالميَّة.

وهذان التَّأليفان وإن كان مؤلِّفاهما حظيا بشهرة واهتمام من معاصريهم، فقد أسدل عليهما ستار[2] النِّسيان والإهمال، وبقيا مدَّة طويلة في قائمة التُّراث المفقود، ومن مِنَن الله أن اكتشفناهما في هذه السَّنوات ـ كما سنبيِّن ذلك في هذه الدِّراسة ـ

فالمخطوط الأوَّل كتِب سنة 761هـ بمدينة (المليلية) في (الأندلس)، وعليه تعاليق مؤلِّفه المتوفَّى سنة 777هـ.

أمَّا التَّأليف الثَّاني فقد كتِب سنة 682هـ، بخطِّ مؤلِّفه المتوفَّى سنة 708هـ.

---

(1) مجلَّة (**الثَّقافة**): عدد: 82، (ص: 57 ـ 64)، السنة الرابعة عشرة، شوال ـ ذو القعدة 1403هـ/ جويلية ـ أوت 1984م، والنسخة المعتمدة بها بعض التصحيحات بخطِّ يده (رحمه الله تعالى). (ع)

(2) في مجلة **الثقافة**: « شتار »، والتصويب بخط الشَّيخ من النسخة المعتمدة. (ع)

التَّعريف بالمخطوط الأوَّل ومؤلِّفه:

فهو كتاب: (**الفرائد المرويَّات في فوائد الثُّلاثيات**)، أي: ثلاثيات الإمام البخاري.

مؤلِّفه: العلاَّمة الأديب أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الحضرمي الأندلسي قاضي مدينة **المرية** في عهده والمتوفى سنة 777 هـ، أما التأليف فقد فرغ منه كاتبه سنة 761 هـ، كما ذكر ذلك في ختام المخطوط .

يحتوي هذا المخطوط على تسعين ورقة ـ أي: (180) صفحة ـ، طول كلِّ صفحة: (24) سم، وعرضها: (20) سم، عدد سطورها: (23)، وعدد مفرداتها: (12) في السَّطر.

ختم المطاف بهذا التأليف بـ (**الجزائر**)، وكلُّ ما كتِب عليه في آخره: اسم مالكه الذي أهداه سنة 1314هـ بمدينة (**الإسكندرية**) إلى بعض علماء (**المغرب**)، وهذا نصُّ هذه الزِّيادة: «هذا الكتاب قدَّمه صاحبه هديَّة لحضرة الشَّيخ العلاَّمة الفاضل اللَّوذعي والأديب الأريب سيِّدي يحيى بن ... (بياض بالأصل) المغربي محبَّة فيه، وابتغاء رضائه، ولعلَّه يحلُّ عند حضرة الأستاذ المشار إليه محلَّ القبول.

تحريرا يوم السَّبت 12رجب المبارك سنة 1314 هـ كاتبه الفقير محمَّد جابر الإسكندري، بـ (**محكمة الإسكندرية الأهلية**) » اهـ.

هذه هي الزِّيادة التي كتبها صاحبها بخطٍّ مشرقي واضح، بمداد أسود ناصع، بخلاف التَّأليف فإنَّه مكتوب بالصَّمغ، وكذلك التَّعاليق، ومازال لم يعرف عنه شيء، وكان هذا السُّؤال منِّي حوالي سنة سبعين من القرن الميلادي الجاري.

ولنواصل حديثنا عن أبي عبد الله الحضرمي الذي ذكر في (**فهرسته**) أنَّه كان يشغل خطَّة التَّوثيق بمدينة (المرية)، كما ذكر أنَّه كان يروي الحديث عن قريبه عبد المهيمن

الحضرمي، ولعبد المهيمن هذا، شهرة إذ له **(فهرسة)**، وكثيرٌ من الآثار يوجد بعضها بـ **(خزانة الأسكوريال)** في **(إسبانيا)**، كما اشتهر من بين تلامذته عبد الرَّحمن بن خلدون، وقد تولَّى كتابة السِّرِّ عند الملك أبي الحسن المريني، ورافقه في مسيرته إلى **(تونس)**، وفي **(تونس)** ـ حسب بعض الرِّوايات ـ وقعت بينه وبين أبي الحسن جفوة، فكسَّر قلمه الذي كان سببا في اتِّصاله بالملك المذكور، وآلى على نفسه ألاَّ يعود إلى كتابة الملوك، وأنشد هذَين البيتَين المشهورَين مِن نظمه، وهما:

أَبــت همَّتــي أن يــراني امــرؤ مدَى الدَّهر يوما لـه ذا خُنـوع

ومــــا ذاك إلاَّ لأنِّي اتَّقيــــت بعــزِّ القناعــة ذلَّ الخضــوع

وقيل: إنَّه بعد هذه الحادثة فارق ركاب الملك، وبقي بـ **(تونس)**، حيث توفي بها سنة 747هـ.

ولنواصل بقيَّة الحديث عن مترجمنا أبي عبد الله الحضرمي الذي سبق لنا أنَّه كان له اتِّصال بالشَّاعر ابن خميس التِّلمساني، ونقل المقرِّي عن ابن خاتمة أنَّه جمع **(ديوان شعره)** المعروف بـ: **(الدُّرِّ النَّفيس في شعر ابن خميس)** ».

ومن الصُّدف الغريبة أن جمعْنا بين أثرَيهما في هذه الدِّراسة، حيث اكتشفا في وقت واحد، واكتنِفا بالغموض، إذ اشتبه **أبو عبد الله الحضرمي** بقريبه **عبد المهيمن** عند بعض أكابر العلماء، أمثال **أحمد بابا التَّنبكتي**، كما سبق لنا الحديث في ذلك.

أمَّا الشَّاعر **ابن خميس التِّلمساني** المتوفَّى سنة 708هـ بـ **(الأندلس)**، صديق مترجمنا **أبي عبد الله الحضرمي**، فقد نال شهرة واعتنى بترجمته كبار العلماء المعاصرين له، ابتداءً من الرَّحَّالة العبدري صاحب **(الرِّحلة المغربيَّة)** الذي يعدُّ أوَّل مَن لفت انتباه القرَّاء إليه، ثمَّ خصَّصه الكاتب العالمي الشَّهير **لسان الدِّين ابن الخطيب السَّلماني الأندلسي**

بتراجم، فكتب عنه ونشر رسالة مِن رسائله في (**الإحاطة في أخبار غرناطة**)[1]، وفي (**عائد الصِّلة**)، كما ترجمه تراجم وافية أحمد المقرِّي التِّلمساني في تأليفَيه اللَّذَين يعدَّان موسوعَتين لتاريخ الأدب الأندلسي، وهما: (**أزهار الرِّياض**) و(**نفح الطِّيب**).

ومع هذه الحظوة والاعتناء عند القدامى والمتأخِّرين الذين اعتنوا بترجمته، بقي جانب من حياته محاطا بالغموض، ممَّا أدَّى إلى تشويه بعض الكتَّاب لترجمة حياته.

كان من جملة ما نشرَ من آثاره: (**رسالة**) كتبها **ابن خميس** إلى مشرف مدينة (**فاس**) أبي الفضل محمَّد بن يحيى بن عتيق العبدري، وذلك إثر رجوعه من مدينة (**فاس**)، حيث كان خصومه من الفقهاء يتربَّصون به الدَّوائر، ونصبوا له كمينا، إلاَّ أنَّه لمَّا مثل بين أيديهم، فاجأهم بأنَّه دافع عن آرائه بشجاعة وثبات، حسب اعتراف ابن هدية القرشي الذي له الفضل عند شرحه للدراسة المذكورة ومخالفته لآراء **ابن خميس** فاعترف له بالثَّبات، فلم يهن ولم يلن إلى أن لم يبق من قضاته في المجلس ـ مجلس المحاكمة ـ إلاَّ واحد، ورغم هذا فقد سجِّل في قائمة الزَّنادقة الذين تهدر دماؤُهم، وإثر ذلك غادر ابن خميس مدينة (**فاس**) تحت ستار الخفاء، راجعا إلى مدينة (**تلمسان**) حيث تبيَّن أنَّه كتب رسالتين: (**الأولى**) إلى مشرف (**فاس**)، و(**الثَّانية**) إلى قاضيها أبي غالب المغيلي.

فـ (**الرِّسالة الأولى**): هي التي نشرها لسان الدِّين ابن الخطيب السَّابق الذِّكر، وقد حظيت بشرح قيِّم لابن هديَّة القرشي (**قاضي تلمسان**)، وكان من معاصريه، إلاَّ أنَّ هذا (**الشَّرح**) وإن كان معروفا عند خاصَّة الخاصَّة، فقد بقي مجهولا وفي حكم المفقود.

أمَّا (**الرِّسالة الثَّانية**): التي كتبها ابن خميس بعد رجوعه من كمين فقهاء (**فاس**)

---

(1) في مجلة **الثقافة**: « الإماطة »، والتصويب بخط الشَّيخ من النسخة المعتمدة. (ع)

أيضا، فهي موجَّهة إلى صديقه (**قاضي فاس**) أبي غالب المغيلي، ولم يذكرها أو يشِر إليها أحدٌ فيما وصلنا، إلى أن اكتشِفت بخطِّ صاحبها ابن خميس، منذ حوالي (20) سنة تقريبا، ختِم بها المطاف بـ (**الجزائر**) لخبر يطول.

وهذه (**الرِّسالة**) هي موضوع حديثنا، [وهي] التي أشرنا إليها في عنوان الدِّراسة، وقد كتِبت سنة 682هـ ـ أي: قبل وفاة **ابن خميس** مُرسلها بـ: (26) سنة ـ وقد أخذنا منها صورة (**نقلية**) تثبت آخرُ صفحةٍ منها سُجِّل فيها تاريخ كتابتها كما سنتحدَّث عنها.

وقبل مواصلة الحديث عنها نرجع إلى (**الرِّسالة الأولى**) التي أثبتها **لسان الدِّين ابن الخطيب** في كتاب (**الإحاطة في أخبار غرناطة**) [1]، وهي التي شرحها (**قاضي تلمسان**) **ابن هدية القرشي**، وقد ذكرها أبو الحسن النباهي في (**قضاة الأندلس**) الذي نشره المستشرق الفرنسي **ليفي بروفنصال** (مطبعة دار الكتاب المصري، بـ (القاهرة) سنة 1948م).

وكان ضمن قُضاة الأندلس المترجَمين (**قاضي تلمسان**) **ابن هدية القرشي**، الذي قال في ترجمته: **محمَّد بن منصور ابن هدية القرشي**، وعدَّ مِن مآثره (**شرح رسالة ابن خميس**)، وفي ذلك قال: «كبير مِصره في عصره، نباهة ووجاهة، وقوة في الحقِّ وصرامة، وكان أثيرا عند السُّلطان، قلَّده مع قضائه كتابة سرِّه، وأنزله مِن بين خواصِّه، فوق منزلة وزرائه، فصار يشاوره في تدبير ملكه، قلَّ ما كان يجري شيء من أمور السَّلطنة إلاَّ من مشورته وبعد استطلاع نظره، وكان أصيل الرَّأي مصيب العقل، مذكِّرا سلطانه بالخير معينا عليه، كاتبا بليغا بنشره الرَّسائل الطَّويلة في المعاني الشاردة، ذا حظٍّ وافر من علم العربيَّة واللُّغة والتَّاريخ، شرح رسالة محمَّد بن خميس الحجري، المفتتَح أوَّلها بقوله:

---

(1) في مجلة **الثقافة**: « الإماطة »، والتصويب بخط الشَّيخ من النسخة المعتمدة.

عَجَبًا لها أَيذُوقُ طعمَ وِصالها مَن ليس يأمل أنْ يمرَّ بِبالها
وَأنا الفقير إلى تعلَّة ساعة منها وتمنعني زكاة جمالها

إلى آخر (**الرِّسالة**) مِن نظم ونثر، شرحا حسنا أتى فيها بفنون العلم وضروب الأدب، بما دلَّ على براعته، وكان جميل الأخلاق، جمَّ المشاركة، مفيدَ المجالسة... الخ».

وهذا الشَّرح كما سبق لنا ذكره بقِي مغمورا، إذ قلَّ مَن تعرَّض مِن مترجمي **ابن خميس** إلى محنته مع فقهاء (**فاس**)، والذين أصدروا حكمَهم عليه بالكفر والزَّندقة، ونفسُه **ابن الخطيب** لم يشر إلى ظروف كتابة هذه (**الرِّسالة**)، ولهذا كلُّ مَن حاول تحقيقَها التجأ إلى الافتراضات، مثل الأستاذ عبد الوهاب بن منصور في تأليفه: (**المنتخب النَّفيس من شعر ابن الخميس**)، والأستاذ عبد السَّلام مزيان، وغيرهما.

وقد صادف أنَّه لمَّا اكتشفت هذه (**الرِّسالة الثَّانية**) التي تبيِّن أنَّ ابن خميس أرسلها بعد رجوعه من محاكمة فقهاء (فاس) إلى (**تلمسان**)، وأرسل رسالة إلى مشرف مدينة (**فاس**) السَّابق الذِّكر، و(**الثَّانية**) المكتشفة أخيرا إلى صديقه قاضي مدينة (**فاس**) أبي غالب المغيلي، والتي كتب عليها ولدُه بخطِّه: «هذه (**الرِّسالة**) أرسلها **ابن خميس** بعد رجوعه إلى (تلمسان) سنة 682 إلى والدي[1] ».

وهذه (**الرِّسالة**) هي التي أردنا التَّعريف بها في هذه الدِّراسة صحبة التَّعريف بـ (**الفرائد المرويات**) لأبي عبد الله الحضرمي، وقد سبق أن أشرت إليها في مقال نشرَ بمجلَّة: (**الأصالة**)، لـ (وزارة الشُّؤون الدِّينيَّة)، بعددها المؤرَّخ في رمضان/ شوَّال 1397هـ الموافق لسبتمبر/ أكتوبر 1977م.

كما خصَّصتُها بدراسة في (الملتقى الثَّاني)، لـ (جمعية تاريخ حضارات البحر

---

(1) في مجلة **الثقافة**: «والده»، والتصويب بخط الشَّيخ من النسخة المعتمدة.

المتوسّط)، الذي انعقد بـ (جزيرة مالطة)، سنة 1975م، وقد ركّزت هاتين الدِّراستين ـ المنشورة في مجلَّة: **(الأصالة)**، والملقاة في **(مؤتمر مالطة)** ـ على شرح **ابن هدية القرشي** للرِّسالة المعروفة التي وجَّهها إلى مشرف مدينة **(فاس)**، إذ هذا **(الشَّرح)** هو الذي ألقى الأضواء على ترجمة حياة **ابن خميس** من بدايتها إلى نهايتها، لخبر يطول، خلاصته أنَّ **ابن خميس** كان متَّهما بانتصاره للفلاسفة، ولهذا حُكِمَ عليه بالزَّندقة والكفر، وعاش قبل مغادرته **(تلمسان)** للمرَّة الأخيرة عيشة التَّستُّر والمسكنة، وإنَّما غرضنا في هذه الدِّراسة التَّعريف بهذا المخطوط الذي لم يذكره أحد من مترجمي **ابن خميس**، وفي طليعتهم **لسان الدِّين ابن الخطيب**، وكذلك **(قاضي تلمسان) ابن هديَّة القرشي**، الذي استوعب تاريخ حياة **ابن خميس في (شرحه)** على **(رسالته الأولى)** السَّابقة الذِّكر، وقد أشار **ابن هديَّة** القرشي إلى أنَّ الدَّاعي إلى شرحها هو إجابة رغبة ملكه ـ **أبو تاشفين** الأوَّل ـ كما أشار أنَّه يقتصر في شرحه على التَّحليل اللُّغوي ولم يمنعه ما ذكره أنَّه كان يلمز المرَّة بعد المرَّة **ابن خميس**، كلَّما أثيرت قضيَّة الفلسفة، ولم يكتف بذلك فقد عقدَ فصلا في **(شرحه)** بيَّن فيه طوابق الفلاسفة في عهده، وحكم عليهم من جهته بالكفر، **وابن هديَّة** كانت له مكانة في بلاط ملوك بني زيان في **(تلمسان)**، فزيادة على ما ذكره **النباهي** في ترجمته من الوظائف السَّامية التي تولاَّها، فقد كان له رصيد شعبي، إذ هو من سلالة **عقبة بن نافع** (الفاتح العظيم)، فلنكتف بهذا القدر الذي ذكرنا فيه الخطوط العريضة ممَّا يتعلَّق بمخطوط **(الفرائد المرويات في فوائد الثُّلاثيات)** لـ: **أبي عبد الله الحضرمي**، والتَّعريف بصاحب المخطوط الثَّاني، وهو **(رسالة) ابن خميس** الثَّانية، التي كانت مجهولة تماما، لم يشر إليها أحدٌ من مترجمي **ابن خميس**، إلى أن اكتشفت أخيرا بخطِّ مؤلِّفها، أو بعبارة أصحّ مرسلها إلى صديقه قاضي مدينة (فاس) **أبي غالب المغيلي**، وقد أردنا تعريف القرَّاء بها كأثر من التُّراث الإسلامي المفقود، وإلاَّ فتحقيقها يحتاج إلى تأليف مستقلٍّ، والمخطوط كما سبقت لنا الإشارة إليه: يحتوي على: (46) صفحة، طول كلٍّ منها:

(19) سم، وعرضها: (14) سم، سطورها: (21)، كلمات السَّطر الواحد: (10)، تاريخ كتابتها سنة 682هـ، وهذا التَّاريخ هو الذي ذكره الكاتب الذي هو ـ كما عرَّفه بنفسه ـ ابن (**قاضي فاس**) **أبي غالب المغيلي**، حيث قال: «هذه (**الرِّسالة**) أرسلها ابن خميس بعد رجوعه إلى (**تلمسان**) سنة 682هـ إلى والدي[1] (رحمه الله)».

فممَّا ذكرناه في هذا البحث، والظُّروف التي كتِبت فيها (**الرِّسالة**) يتبيَّن لنا أنَّ ابن خميس الذي كان شبه مختف بـ (**تلمسان**) بعدما حوكم في (**فاس**)، لم يتصوَّر أن يلجأ إلى كاتب غيره يكتب له رسالة إلى صديقه (**قاضي فاس**)، الذي لاشكَّ أنّه كان يقاسمه رأيه العقائدي، وهذا ما جعلنا كذلك نعتقد أنَّ هذه (**الرِّسالة**) لم تغادر مكتبة (**قاضي فاس**) **أبي غالب المغيلي**، وذلك للظُّروف التي كان يجتازها ذلك المحيط، إذ (**الرِّسالة**) المرسَلة إلى **أبي غالب المغيلي** هي متَّفقة مع (**الرِّسالة الأولى**) المرسَلة إلى مشرف مدينة (فاس)، التي حلَّلها شارحها، وكل ما بين الرِّسالتين من خلاف، أنَّ الأولى تنقسم إلى نظم ونثر، والثَّانية كلُّها نثر، وقد كرر في الثانية ما ختم به الأولى وهو مخاطبته لفقهاء فاس الذين دبروا له مجلس القضاء الذي حكم عليه بالكفر حيث قال: «أقسم **أبو الفضل** بما له على أبي البركات مِن الفضل، ذلك العراقي الأرومة لا هذا الفاسي الجرثومة، وإن يك ذاك إسرائيلي الأصل، وهذا إسماعيلي الجنس، إن موطئ أبي غالبنا المذكور، أما يلينُ لضعفي قلب زمانِكم القاسي، ما لهذه الدِّمن، يا بني خضروات الدِّمن... إن مرَّ بكم الوليُّ حمَّقتموه، فإن زجركم العالم فجرتم عليه فسقتموه، وإذا نجم فيكم الحكيم غصصتم به فكفرتموه وزَندقتموه، كونوا فوضى فما لكم اليوم مِن سراة، واذهبوا من مراعيكم المستوبلة [كذا] حيث ما شئتم فقد أهملكم الرُّعاة، ضيَّعتم السُّنن والشَّرائع، وأظهرتم في بدعكم العجائب والبدائع، نفقتم النِّفاق، وأقمتم سوق

(1) في مجلة **الثقافة**: « والده »، والتصويب بخط الشَّيخ من النسخة المعتمدة.

الفسوق على ساق، استصغرتم الكبائر، وأبحتم الصَّغائر، أين غنيُّكم الشَّاكر، يتفقَّد فقيركم الصَّابر، أين عالمكم الماهر، يرشِد متعلِّمكم الجائر، مات العلم بموت العلماء، وحكمَ الجهلُ بقطع دابر الحكماء.

جدِّد لنا شريعتك، يا أفضل الشَّارعين، قم فينا بموعظتك يا أفصح التَّابعين، لا ـ والله ـ ما يوقظكم من هذا الزَّمن وعظ الحسن، ولا ينقذكم من فتن هذا إلاَّ سيف صاحبه أبي الحسن، والسَّلام»، وكلُّ ما وجدناه مكتوبا عليها هذه الجملة: رسالة عجيبة».

و(**الرِّسالة الثَّانية**) التي تحتاج إلى شرح أخصَّائيِّين، تمتاز عن الأولى أنَّ ابن خميس أشاد فيها بمذهبه، وهي في حاجة إلى تحقيق وتحليل تمسُّ إليها الحاجة في كلِّ مكان وزمان، إذ التَّاريخ يعيد نفسه، وهذا النَّوع من الخلافات المذهبيَّة التي اجتاحت البلاد الإسلاميَّة يتجدَّد المرَّة بعد المرَّة، وإن وجدناها تكتسي في كلِّ مرَّة أثوابا تختلف عن بعضها، حسب مؤثِّرات الأزمنة، فهدفها أو أهداف مستغلِّيها لا تختلف، إلاَّ المتخاصمون في هذه المعارك، واستغلال المنتصرين لهم ممَّن وصفهم ابن خلدون بقوله: «يتبعون كلَّ ناعق»، ولا شكَّ أنَّها تترك الآثار الحسنة والسَّيِّئة، أو على الأقلّ تترك لمن لم يحضرها الحكم عليها أو لها من دون تعصُّب، ومَن مِن المعاصرين النُّزهاء يجاري (**الموحِّدين**) في أحكامهم القاسية على (**المرابطين**) اللَّمتونيِّين بأنَّهم مجسِّمون، وأحكام (**العُبَيديِّين**) على (**المالكيِّين**)، وما إلى ذلك.

ولنختم هذه الدِّراسة بما كتبه أخيرا العلاَّمة الأستاذ محمَّد الغزالي في صميم ما ختمنا به هذه الدِّراسة، حيث نشر مقالا قيِّما في جريدة: (**العصر**)، لسان حال (وزارة الشُّؤون **الدِّينيَّة**)، بـ (**الجزائر**)، في عددها الأخير[1] تحت عنوان: (**متى تهدأ هذه الزَّوابع هل كان الأفغاني ومحمَّد عبده خارجين عن الإسلام ؟**).

---

(1) المؤرَّخ في: 5 جمادى الثَّانية 1404هـ/ الموافق لـ: 8 مارس 1984م.

ثمَّ ذكر **الغزالي** أنَّه كان المرَّة بعد المرَّة يتردَّد إلى مراجعة **(تفسير المنار)** لـ : **رشيد رضا** ـ تلميذ **محمَّد عبده** ـ وأشاد بقيمته، ثمَّ قال: «والشَّيخ **رشيد رضا** وأستاذه **محمَّد عبده** وزعيمه **جمال الدِّين الأفغاني**، أعمدة اليقظة الإسلاميَّة في العصر الحديث، ولكنَّهم ومَن فوقهم مِن المفكِّرين الإسلاميِّين، ما رزِقوا العِصمة ولا زعِمت لهم »، ثمَّ قال **محمَّد الغزالي**: «ومَن مِن أئمَّتنا القُدامى والمحدثين أصاب فلم يخطئ، ومشَى فلم يعثر ؟ وهل وظيفتنا أن نمضغَ الأخطاء، ونتبع العثرات، ونتعامى عن الحسنات، ونشتم القمر لأنَّه كثيرا ما يقع في المحاق ؟

ثمَّ قال: «قال لي صديق يعمل مفتِّشا للمواعظ والإرشاد بـ **(القاهرة)**: إنَّه ذهب لإلقاءِ **(محاضرة)** عن الإمام **أحمد بن حنبل**، بنادٍ بـ **(جماعة السُّنَّة)**، وبعد أن أتمَّ كلامَه، قام متحدِّثٌ آخر ليلقي (محاضرة)، موضوعها: **(الغزالي كافر)** ».

ثمَّ استطردَ **محمَّد الغزالي** حديثه، فقال: «ففزعتُ لشناعة التُّهمة إلى إمام ضخم من قادة الفكر الإسلامي، لقد كان **أبو حامد الغزالي** عالما أديبا فقيها أصوليًّا، ومربِّيا فيلسوفا، وهو أذكى مِن **أرسطو** و**أفلاطون** و**سقراط**، الذين تَشمخ بهم **(اليونان)**، وتعتزُّ بهم **(أوروبا)** ».

سُقنا هذه الفقرات من مقالِ الأستاذ **محمَّد الغزالي** للاعتبار والعِظة، ونحن بصدد نشر أثرٍ مِن آثار عالمٍ أديب، يعدُّ في طليعة كبار علماء عَهده، اعترف بقيمتِه الثَّقافية حتَّى مَن كانوا مِن أشدِّ خصومه، أمثال: الحاكم بأمره في عهده، **ابن هديَّة القرشي**، شارح **(رسالته)**، و**لسان الدِّين ابن الخطيب**، و**ابن خلدون**، والرَّحَّالة **العبدري**، الضَّنين بخلع الألقاب العلميَّة على معاصريه، وقد رضي بعيشة المسكنة في بلاده، وأبوابُ القصور مفتوحة لمن هم دونه، وممَّا زاد في مكانته هو اعتزازُه بالوفاء للمبدأ الذي اختاره، حتَّى في أحرج الأوقات، إذ لم يكن يجهل عاقبة أمره بعد مثوله أمام محكمة خصومه، إلاَّ أنَّه

أثبتَ أنَّه مِن الذين يفضِّلون قول الحكيم: «النَّار ولا العار »، فإن راجعنا قوائم أُباة الضَّيم في العالم، فإنَّنا إن لم نضَع **ابن خميس** في طليعتهم، فلا أقلَّ مِن أن نضعَه في مصافِّهم، وعارٌ على مدينة **(تلمسان)** أن لا تحتفظ مِن آثار **ابن خميس** إلاَّ باسمه الذي أطلقته على أحدِ شوارعها، ولو لم يترك مِن آثاره إلاَّ قصيدته الخالدة التي أحيا فيها معالمها، لكان ذلك شافِعا لاهتمامها بتاريخ حياتِه، ونشر بعضِ آثاره، وتخصيص ـ على الأقلِّ ـ أسبوع ثقافي لدراسة شخصيَّته وآثار عهدِه.

مقدِّمة تحقيق كتاب
(الدُّرة الأنيقة في شرح العقيقة)
لأبي راس المعسكري[1]

ترجمة سعيد المنداسي صاحب (منظومة العقيقة):

هو **أبو عثمان سعيد بن عبد الله المنداسي** ـ وبها اشتَهر ـ أصلا، التلمساني دارا، كان عالما أديبا وشاعرا فَحلا، وأكثر شعره المتداول عند الناس مِن النوع القَريب مِن الزَّجل ـ أي: بين اللغة الدَّارجة والفُصحى[2] ـ أمَّا شعره بالفصحى فإنَّ كلَّ ما تبقَّى منه قصيدة تحتوي على (32) بيتا، في مثالب حكَّامِ الأتراكِ بتلمسان وأعوانهم مِن رجالِ الدِّين، خصوصا مُفتيها.

ومنظومة (**العقيقة**) اشتهَرت في الأوساط الأدبية، وتبارى كثيرٌ مِن كبار الكتَّاب في شَرحها، منهم المؤرِّخ الحافِظ **محمد أبو راس النَّاصري الرَّاشدي**، الذي شرحه بعدَّة شروح، والأديب العالم الشَّيخ **مصطفى بن التهامي**، خليفة الأمير **عبد القادر**، وابن عمَّته المتوفَّى مهاجرا بدمشق سنة... [3].

---

(1) اعتمدنا في إثبات هذه المقالة على صورة من نُسخة بخطِّ الشَّيخ **المهدي** (رحمه الله تعالى)، عدد صفحاته: (22)، أفادنا بها الأستاذ الفاضل **محمد مفلاح** عِند زيارته لنا بِمكتب تحقيق التراث التابع لدار **عالم المعرفة**، بالجزائر، وعنوان المقالة مِن وضعنا. (ع)

(2) في **الأصل**: « والعربية »، ثمَّ صحَّحها الشَّيخ بقلمِه. (ع)

(3) بياض في الأصل، توفي بعد سنة 1088هـ. (ع)

عاش مترجمنا في أواخر القرن الحادي عشر، إذ التحق ببلاط ملك المغرب **محمد بن الشريف العلوي** المتوفَّى سنة 1075هـ.

أما (**العقيقة**) فإنه أتمها سنة 1088هـ ـ أي: في عهدِ الملك مولاي **إسماعيل العلوي** ـ إذ قال في خِتامها:

عام فحش أمن الطـيّ اَبْرَزْتْهَـا فاز مَن بها في بيت السرُور يخلُو

فحش: (ف): 80، (ح):8، (ش): 1000.

غادر مترجمنا **تلمسان** لما تفاقم الخلاف بين قومه (**سويد**) والأتراك، إذ ثارت قبيلة **سويد** العتيدة على الأتراك إلى أن فضَّلوا الجلاءَ على الاستِسلام، وجلوا بالفعل إلى الصحراء، وقد كان شاعر القبيلة **ابن السويكت** وغيره مِن شعراء الملحون سجَّلوا كثيرا مِن هذه المعارك التي كتبَ لها الخلود، ومازال الشُّعراءُ والمدَّاحون ينشدونها في التَّجمُّعات الشَّعبية.

التحقَ مُترجمنا ببلاط الملك **محمد بن الشريف** ومدحَه بعِدَّة قصائد، وأثابَه على ما ذكر صاحب (**الاستقصاء**) بهديَّة سَنية، وفي ذلك يقولُ في ترجمة المذكور: « وكان سَخيًّا جِدًّا، حتى إنه أعطى للأديب الشَّهير المتقدِّم في صِناعة الشِّعر المعرب والملحون **أبا عثمان سعيدا المنداسي** صاحب القصيدة (**العقيقية**) وغيرها نَحوا مِن خمسة وعشرين رطلا مِن خالص الذَّهب جائزة على بعضِ أمداحِه فيه » [1].

قضى مترجمنا ما يقرُب مِن عشر سنواتٍ في القصور الملكية العلوية بالمغرب، حتى قيل إنه هو الذي تسبَّب وأشار على الملك مُلاي [2] **إسماعيل** لمحاربة الأتراك، وبالفعل

---

(1) **الاستقصاء** (4/ 15)، نشر المطبعة البهية المصرية، 1312هـ.

(2) كذا في الأصل، والصَّواب: « مولاي ».(ع)

وصل مولاي **إسماعيل** سنة 1090 إلى **الجزائر** بِدَعوى محاربة **إسبان وهران**، وقد وقَعت معركةً بينَه وبين الأتراك في **جديوية** ـ أي: بين **غيليزان ووادي أرهيو** (مقرّ قبيلة **سويد**) ـ فهُزم الملك شرّ هزيمة، وخذَله أنصاره لخبر يطول.

وعلى كلِّ حال توتَّرت العلائق بين مترجمنا والملك **إسماعيل** الذي قيل إنه تتلمذَ في شبابه للمترجم عندما كان ملحقا ببلاط أخيه الملك **محمد بن الشريف**، وبالفعل نجِدُ المترجم في بعض قصائده التي وجَّهها يقول:

عَشـر اسْـنِينْ انْتَبّعَـكْ وانْـتَ يْشِـيرْ　　　صَبْتَكْ ما تَفْقَهْ امْعَ الجلاَّس امْقَـالْ
واليوم اتْوَلِّيـتْ وانـا صرت احْقِـيرْ　　　وين امْثَـالِي عنـدكم حتـى نُجْهَـال
خَلِّيناكْ ابْخِيرْ يـا مَـن كـان اعْشِـيرْ　　　واسْلَامي عن من اجْفَانِي جَفْو امْلَالْ

تندم ولا يندم عليَّ مازَالْ

من هذه الأبيات تبيَّن أنه تعرَّف بإسماعيل في عهد أخيه **محمد بن الشريف**، **إذ** وصفه بأنه كان «يْشِيرْ»، ويشير لا زالت تُطلقُ عِندَنا على الصَّبيِّ الصَّغير.

ونَستفيد كذلك مِن قصائد المترجم الذي لا شكَّ أنه بلغ منزلةً يُغبط عليها في بلاط الملك **محمد بن الشريف**، الذي أهدى له نحوا مِن خمسة وعشرين رطلا مِن خالص الذَّهب جائزةً له على بعضِ أمداحِه فيه، ساءت أَحواله في عهد **إسماعيل** حتى صار يشكو مِن الفَقر والإهمال:

لابَس ثوب الْخميل ما لبسُـه بقَّـال　　　وارضاكم من صفوة ما ينسَب لي
لا همَّـة لا جـاه لارفْعَـة لا مـال　　　ميــت وانَّــاجيّ في الــدنيا مجــلي

... الخ.

ولهذا فارقَ البلاط وأَقسمَ بِجميع الأَيمانِ أنه لا يعود، وكان يصرِّحُ في قَصائده الكثيرة أنَّ سببَ إهماله الوشاة الذين اصطفاهم وقرَّبهم الملك **إسماعيل**:

ماشْ اتْلُومُوني إذا طَفْحَتْ الأُرْذَالْ وَاتَّقَـوى نَّمامكـم بشـتَّام أصـلي
رِيتْ ابْيـادَقْ عنـدكم نحَّـاوا افْيـال صـفرتكم زُورْ وانكَرْهـا فَـيْلي
وابقـى عقـلي في مسـايكم جـوَّال وانْسال من النـاس مـن هـو حَـوْلي

ثم يذكر ما يبرِّر مغادرتَه للبلاد، لأنَّ الملوك لا تؤمن غوائلهم:

ليل اجفـاكم تـمّ بَطـوال ويْكـمال والسُّلطان إذا اجْفَى الأَوكارْ اخْلي

ومع هذا لم يخف على الملك أنَّه لم يكُن مِن نوع ...[1] ويلفِت نظر الملك بأنه لم يكُن مِن المقرَّبين له والمتزلِّفين على نَيلِ الوظيف ومُزاحمة الأَسلفل.

ما دوَّرتْ اقيادة ولا زاحَمتْ اسْفال

إلى أن يقول:

عهدي عهد وجوزتي للناس اجْمال وحْجاب امن الشك للجار المَبلي

ولهذا فإِنَّه عزمَ على مُغادرةِ المملكة.

لا ولِّيت لاوطـانكُم وانـا مَعـلالْ غير ان كان تـردّني التربـة وأجـلي

وبالفعل ردَّته التُّربة، وكتبت له الوفاة بسجلماسة كما نبيِّن ذلك، خِلاف ما ادَّعاه المرحُوم الشَّيخ **بخوشه** ناشر **(ديوانه)**.

فإِنَّه ذكَر أنه رجَع إلى **تلمسان** وتوفي بها، وليست هذه الغلطة الوحيدة للأستاذ

---

(1) بياضٌ في الأصل. (ع)

الناشر، بل هناك غلطة أخرى لا مبرِّر لها، كقوله: إنَّ صاحب **(الاستقصا)** ذكر أن الملك مولاي **إسماعيل** هو الذي أعطَى للمترجم « الخمسة وعشرين رطلا مِن الذهب جائزة على بعض أمداحه فيه».

وكلامُ صاحبِ **(الاستقصا)** صريحٌ بأن الملك **محمد بن الشريف** المتوفَّى سنة 1075 هو الذي أهدَى للشاعر ما نسبه إلى أخيه مولاي اسماعيل، أما مقرّ الوفاة فقد ذكَره المؤرِّخ **أبو راس الناصري** في شَرحٍ مِن شُروحِه على **(العقيقة)**، سماه: **(الآداب الرَّقيقة المستودع لشرح العقيقة)**، قال **أبو راس** عن المترجم: « توفي بوسط القرن الثاني عشر، ودفن بسجلماسة، فهو مناداسي نِجارا، وتلمساني منشأً ودارا، وسجلماسي إقبارا».

أمَّا **(العقيقة)** فإِنَّها كما قال في وصفها شارحها **أبو راس**، والتي هي موضوع تقديمنا [1]، قال بعد أن تحدَّث عن الناظم: « فلقَد قلَّد جيدَ الحضرة النَّبوية فخرا وأمداحا، وأدارَ على المسامع كؤوسا وأقداحا، مما يطرب الأطباع[2] ويذهب بها كلَّ مذهب، ويستوجِبُ أن يكتبَ بِذَوبِ الذَّهب، لقد أبدع في ترتيب قوافيها أول وثاني وثالث، فجاءت أَشهَى ألذّ من نغمات المثاني والمثالث».

وحقيقة إن هذه المنظومة التي هي مِن قسم الأمداح النبوية، تعرَّض فيها بالأُسلوب السَّهل الممتَنع لذكر شمائل النَّبي ﷺ وترجمة حياته وما لاقته [3] دعوته مِن تعنُّتِ المشركين، وكيف كلِّلت أعماله بالنَّجاح والنَّصر، وقَد لاقت هذه المنظومة شُهرةً ولا زال حفَّاظها يعدُّون بالمآت، حتى إنَّ الكثير مِنهم يملونَها مِن حفظِهم.

---

(1) مِن كلامه يظهر أن هذا المقال كتبه الشَّيخ ليكون مقدِّمةً لنشر كتاب: **(الدُّرَّة الأنيقة في شرح العقيقة)** لأبي راس المعسكري، والله تعالى أعلم. (ع)

(2) كذا، ولعلَّ الصَّواب: «الطِّباع»، أو «الأسماع»، والله أعلم. (ع)

(3) في **الأصل**: «وما لاقاته». (ع)

[التعريف بكتاب: الدرَّة الأنيقة وبشارحها الشَّيخ أبي راس]:

وكان مِن جملةِ مَن اهتمَّ بشَرحها المؤرِّخ الأَديب **محمَّد بن أَحمد أَبو راس النَّاصِري**، وقد شَرحَها بسبعة شروح، أهمُّها شرحه المسمَّى: **(الدُّرة الأَنيقة في شرح العقيقة)**.

قال في مُستهلِّه يصِفُ المنظومة: « وهي وإن كانت مِن الشِّعر الملحون، فقد احتوَت على غرائب وعَجائب مِن اللغة والبلاغة واللحون، حتى انقادَت تمائم القصائد إلى سِحرها، وصارت واسطةُ عِقدِ نَحرها »، إلى أن يقول في وصفِ الشِّعر الملحون: « وما في الملحون مِن باس، فإنه في هذا العصر ساق الكثير من الناس ».

واستدلَّ الشارحُ على أنَّ مِن جملة أنصار الشِّعر الملحون المؤرِّخ **ابن خلدون**، فقال: « وقد عابَ **ابنُ خلدون** على كثير مِن مؤرِّخي إفريقية المستعجمة، حيثُ تَركوا روايةَ أَشعارهم لما دخلها مِن الَّلحن والعجمة، فكان من ذلك تَضييعُ أنسابهم وأيامهم، وطمس أخبارهم وأعلامهم ... الخ »، وإنَّ هذا النوع الذي سمَّاه الشارح: **الشِّعر الملحون**، لم ينقصه إلا عدم مُراعاة القواعد النحوية أو تركيب الجمل، وإلا فكلُّ مُفرداتِه عربية، مع تحريفٍ قليلٍ جِدًّا.

وقبل أن نتحدَّثَ عَن **(شرح العقيقة)** نذكُر ترجمةً مُوجزة لصاحبه المؤرِّخ **أبي راس**:

فهو **محمد** ـ الملقَّب **أبو راس** ـ بن أحمد بن عبد القادر بن ناصر، هكذا نقلتُه مِن خطِّه، ولِدَ بقريةٍ بين **جبل كرسوط** و**هَوْنَتْ**، بالرَّاشدية، المعروفة الآن بأَرض **غريس (أم عسكر)**، ولد سنة 1165هـ، وكان أبوه مِن معلِّمي القرآن.

انتقل به وبأَخيه وأمِّه إلى **متيجة** فماتَت والدته هناك، ثمَّ رجع أبوه إلى **مجاجة** بضواحي **الأصنام** يعلِّم القرآن، إلى أن أدركَه المنون فدُفِن بقرية **أم الدروع**، بمقبرة الشَّيخ أحمد بن عبد الله، ـ لا زال صريحه مشهورا هناك ـ ولما سمع أخوه الأكبر السيد

ابن عمرو لحقَ بهما ورجع به وبأخيه إلى البلاد، فتعلَّم القرآنَ على عادة أهل البلاد، ونشأ فقيرا يلبسُ المرقَّعات ويمشي حفيان، إلَّا أنَّ مخايل الذَّكاء والنَّجابة كانت تظهر عليه في صِباه، فحفظ القرآن وأَتقنَ القراءات، وقصد **مدرسة مازونة** الفقهية، فبقيَ بها نحو الثلاث سنوات، ثم رجع إلى **أم عسكر** حيث كان قاضي قُضاتها **محمد بن علي بن سحنون** الذي حضَر دروسَه قبلَ سفره إلى **مازونة**، عيَّنه قاضيا ببعض أكوار المدينة، وتزوَّج هناك، وستر خيمته ـ على حدِّ تعبيره ـ ثمَّ رجع إلى **أم عسكر** فانتصبَ للتَّدريس حتى صار يحضر حلقاته سبعمائة طالب، إلَّا أنه كان يجهل اللغةَ وقواعدها، ولما كان مِن جملة تلامذتِه بعض مُواطنيه المتخرِّجين من **الأزهر**، اتفَّق معهم على أن يعلِّموه العربية، وقد تعلَّمها بالفعل، وصار يؤلِّف في النَّحو والبلاغة، إلا أنَّ أسلوبه ـ خصوصًا في النَّظم ـ بقيَ مُهلهلا.

رحل **أبو راس** في رحلتَه الأولى إلى المشرق سنة 1204، فزار **الجزائر** ثمَّ **قسنطينة** ثمَّ **تونس** ثمَّ **مصر** ثمَّ **الحجاز**، ولقي جلَّ علماء البلاد التي زارها، وتبادلَ معهم الإِجازات والتَّقاريظ، وعندَ رجوعه مِن رحلته هذه، صادف فتحَ **وهران** على يدِ الباي **محمد بن عثمان الكردي** سنة 1206، فشاركَ المهنِّئين بقصيدتِه السِّينية المشهورة، وقَد شرحَها بِعدَّة شروح، وسمَّى شرحَها: **(عجائب الأسفار)**، وهو مِن أهمِّ تآليفه، كما أنه دوَّن رحلتَه الأولى والثانية التي كانت سنة 1226 في مجلَّد، وقد ألَّف ما يَزيدُ عن المائة تأليف، إلا أنَّ أهم تأليفه **(رحلته)** و**(تاريخه)** الذَين لقيا اهتماما كبيرا من معاصريه، ثمَّ مِن كبار المستشرقين الذين تَرجموا كثيرا مِن الفصول مِنهما إلى الفرنسية، ونَشروها في تآليفَ خاصَّة، وفي بعضِ المجلَّات، كـ : **(المجلة الإفريقية)**، و**(المجلة الأسبوعية)**، المشهورتَين.

عيِّن **أبو راس** بعدَ فتح **وهران** مفتيا وقاضيا بـ : **أم عسكر**، ثمَّ عُزل سنة 1611

فتفرَّغ للتَّدريس والتأليف، ثمَّ رحلَ إلى **الجزائر** مرَّة ثانية، فـ : **المغرب،** فلَقيه الملك **سليمان العلوي** فأَكرم نُزله، وعرضَ عليه الإِقامةَ بـ : **المغرب،** فاعتذرَ له ـ لكثرة عياله ـ ثمَّ رجعَ إلى **أم عسكر** سنة 1217، وفي الفترة التي زار فيها **المغرب** كان مِن جملة ما قدَّمه للملك مِن الهدايا شرحه على **(العقيقة)**، ولا شكَّ أنه ألَّفه مدَّة عزلِه مِن الوظيف، حيث نَجِدُه يقول في خِتامه: « هنا انتهى بنا القول فيما قصدناه مِن المرام الذي طلبناه، والحمدُ لله الذي هدانا لهذا وما كنَّا لِنهتدي لولا أَن هَدانا الله، قد أتينا بما وَعدنا، فإن كنتُ قصَّرتُ عن نهاية أو بلوغ غاية ببذر العلم والدِّراية فهذه طاقة المجتهِد، ولا تجودُ نفسٌ إلَّا بما تجِد، مع أنَّ القلبَ شغيل والذِّهنَ كليل، والزَّمان ذو اعتلال، وضعف أحوال، ولو لم يكُن إلَّا سكنى حاضرية كبادية، فناهيك مِن معذرة بادية، لا سيما مَن اشتدَّ فيها عُسره، ولم يُساعِده دهره، فكيف يرتفع ذِهنه إلى تصنيف، أو يمتدُّ أمله إلى وضع تأليف».

وفي ذلك يقول: « ثم وفدتُ على السلطان **سليمان** فأَهديتُ له نسخة مِن الاك[1]... العقيقة فأجازني إجازة سنية، وأتحفني تحفة مَرضية...» اهـ.

ثمَّ يختمُ حديثه بالشَّكوى مِن مُعاصريه، فيقول: «إنَّ الناس داءٌ عضال لا يتخلصُّ منهم على كل حال، سهامهم مسمومة، وخلق أكثرهم مذمومة، لا ينظرون بِعين الإنصاف، ولا يملُّون مِن الانتقاص والخِلاف، يسقون مِن أفواههم العسل، وفي قلوبهم السم الزعاف ...».

كان **أبو راس** حرَّ الفكر، سلفيًّا بأتمِّ معنى الكلمة، يفكِّر كثيرا على أصحاب الأحوال، ثمَّ إن كثيرا مِن الأُسر أمكنها أَن تحصلَ أَو ترِثَ شهادات شرفِ النَّسب، إذ كان كثيرٌ مِن الأَعيان يلجَئون إلى هذه الشَّهادات تقية، حيث إنَّ الأتراك كانوا يعظِّمون

(1) كذا في **الأصل**، ولم نهتد إلى قراءة هذه الكلمة. (ع)

الأَشراف ويحترمونهم، ولا يكلِّفونهم بالتكاليف المخزنية التي كان يخضعُ لها بقية السكَّان، كـ : الحِراسة، وإيواء الجنود وتموينهم، إلا أن جلَّهم صاروا يتطاولون بهذه الشَّهادات، ويفرضون سَيطرتَهم على ضِعافِ السكَّان، ويُلزِمونَهم بِالخفارة التي كانت مِن جملة ما اعترفَ لهم بها الأتراك، فألَّف **أبو راس** كتابَه المشهور: (**مروج الذَّهب**)، ونفَى الشَّرفَ عن هذه الأُسر، بل نفى عنها حتى الأَصل العربي، ورجَّع كلَّ فرقةٍ إلى أصلِها البربري، فقامَت ضجَّة حولَ تأليفه، حتى قيل إنه أُخِذ منه وأُحرِق، لخبر يطول.

وبعدَ سنواتٍ قليلة ـ أي: بعد رجوعه مِن رحلته المغربية ـ ثارَ أحدُ مقدِّمي **الطريقة الدرقاوية** على الأتراك، وهو الشَّيخ **عبد القادر بن الشريف**، وكانت المعركة بينَه وبين باي **أم عسكر** بـ: **فرطاسة**، المعروفة الآن بـ: **وادي الأبطال**، فلَم ينج **الباي** منها بمفرده إلَّا بمعجزة، وحاصر الثوَّارُ **وهران** أياما، واحتلُّوا **تلمسان**، وخُطب على منابرها للثَّائر.

استرجع الأتراكُ نفوذَهم بعد جهود، وكانت الحرب بينهم وبين الثوَّار سِجالا، إذ شملت معظَم جهات القُطر، وكان مِن جملة ضحاياها **باي قسنطينة عثمان** وإخوته الذين تَداولوا على ولاية **وهران**، ولحقت شظايا هذه الحرب التي بقيت منذ اندلاعها سنة 1120 إلى أَن دالت دولة الأتراك بالجزائر، وقد وصف **أبو راس** ما لحِقه بسببها، فقال في (**رحلته**): « ثمَّ عمَّتنا فتنة **درقاوة**، وأنا لم نكن فيها كما قال الشَّيخ **عامر الشَّعبي** لـ : **الحجَّاج**: وقد خبطتنا فتنة لم نكن فيها أتقياء بررة، ولا أقوياء فجرة،... فاتَّصلت علينا صَراصر النكبات والبليات، مِن الخوف والجوع والروع الذي في الفؤاد مودوع، فطرحت الكتب بمتروك مكان، واستمرَّ عليها النسيان، حتى نسجت عليها عناكب الهجران، وقيل لنا: حق لك أن تبكي على العلم، والجوامع التي كانت مُترعة بذوي النَّجابة والفهم ...».

وقد خصَّ هذه الثورة بكتاب قيِّم سمَّاه: (**درء الشقاوة في فتنة درقاوة**)، واشتبهَ على بعضِ الكتَّاب بداية نكبة المؤلِّف التي ظنُّوا أنها كانت بعدَ ثورة **درقاوة**، وقد صرَّح هو نفسُه في شرحه على (**الدُّرة الأنيقة**) الذي ألَّفه قبل رحلته إلى **المغرب**، وقال يصِف حالتَه إذ ذاك، فقال: «لا سيما مَن اشتدَّ فيها عسره، ولم يُساعِده دهره، فكيف يرتفع ذهنه إلى تصنيف ... الخ»، فالنكبةُ التي بدأ يشكو منها **أبو راس** كانت إثر عزله مِن وظائفه ـ أي: قبل ثورة **درقاوة** بِسنين ـ وثورة **درقاوة** كانت الثَّانية، وقد نقد تأليفَه: (**الدُّرة الأنيقة في شرح العقيقة**)، عِدَّة علماء، منهم أستاذه في اللغة وتلميذه في الفقه الشيخ **عبد القادر بن السَّنوسي الراشدي الدحاوي** الذي قال عنه **أبو راس** في (**رحلته**): « ومما مدح به (رحمه الله) كتابنا المسمَّى: (**الدرة الأنيقة في شرح العقيقة**):

لله درك في نظم العقيق بما	أبرزت مِن درر حارت له النظما
ما أحسن الدُّر والعقيق إذ نظما	في سلك حسن يفيد الحسن للعظما
وليس مستغربا لطيفة منكم	فكم لكم مِن مزايا أعجزت علما

كما قرَّظه **السَّنوسي بن عبد القادر** (مفتي وهران وقاضيها)[1] حوالي 1237، فقال:

يا درَّة جذبت من خالص الدُّرر	ونظمت بعقيق أشهى في النَّظر
أذهلت طرًّا عقولَ الناس إذ نظروا	إليك في جيد ذات الخال والحوَر
لولاك ما طمحت نفس إلى حسن	ولا بدا حسن تلك الخدود الغُرر
فخرت إذ سبكتك راحة شرفت	يد الإمام أبي راس على بصري يعمُّ
أدامه الله للأنام معجزة	فضله أهل البدو والحضرِ

(1) السَّنوسي هذا كان تلميذا لـ : **محيي الدين** والد **عبد القادر**، وقد خاطبه لما كان في سجن **وهران** صحبةَ ولده بقصيدته الشَّهيرة التي قال فيها: « عوِّل على الصَّبر لا ».

و**أبو راس** شخصية لامِعة اعترف بفضله وقيمته معاصروه مِن علماء المشرق والمغرب، ومدحوه بقصائد رائعة، وقرضوا تآليفَه، ولا زال كثير مِن المستشرقين يهتمُّون بآثاره إلى زماننا هذا، ومن هؤلاء: المستشرق الرُّوسي **كراتشوفسكي**، فإنه خصَّص لرحلتِه فصلا حلَّلها في تأليفه: (**تاريخ الأدب الجغرافي العربي**) [1]، وقال عنه: « يعدُّ مِن أنشط كتَّاب المغرب في ذلك الوقت، وأحفلهم إنتاجا، ويبلغ مجموع تَصانيفه في مختلف العلوم مائة وأربعين مصنفا ... وقد تجوَّل كثيرا، ويبدُو أنه وُجِدت تحت تصرُّفه معطيات وافرة، مكَّنته مِن تقديمِ معلوماتٍ جغرافية قيِّمة ...الخ ».

وتأليفه هذا مفيدٌ جِدا، فهو علاوة على قيمته الأدبية يَستطردُ استِطرادات مُفيدة في الأدب والتاريخ، فقَد بحثَ في أصلِ النَّاظم، هل هو منداسي أو سويدي ؟ وإنَّما نُسِب إلى **منداس** لإِقامة أُسرته بها، ثمَّ استطردَ في الحديث عن الشَّاعر **المغراوي**، وقبيلة **مغراوة**، وأكثر الأمراء الذين ظهروا منها، وقصيدة **المغراوي** التي ذكرها عندما قال في خِتام قصيدته:

ما ضمَّت مثلها اَخْزانة مَغراوي

فهل قَصد تفضيلَ قصيدته على قصائد الشاعر الشعبي الشهير **أبي فارس عبد العزيز المغراوي**، أو قصدَ بالفعل خزائن ملوك **مغراوة** ؟ وعلى كلِّ حال تعرَّض الشَّارحُ إلى التَّعريف بالشَّاعر المغراوي، واستدلَّ بأبياتٍ مِن قصيدته التي رثَى بها الملِك **أحمد المنصور الذهبي**، وتغيُّر أحوال المملكة بعدَ وفاتِه، والأبيات التي ذكَرها هي هذه:

ذا الزَّمان ارْمَاني قوسه ابْسَهْمْ غَصَّاب ما اخْطَـانِي صَـادَفْ قَلْبِـي اولَوْحُـه
بعـد مـا مكَّنِّـي جـاني بْسـيفْ غَـلَّابْ هَـــدنِي واهْـــزَمْ ديـــواني اوجَـــيْحُ

(1) **تاريخ الأدب العربي**: نشر الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، ج/ 2، ص: 668.

لاشْ ساكت يا من فَارَقْت جَمعْ   هاتْ راسَكْ لِيَّ واجِي النُّوحُ
الاحْبَابْ عام شَيْبَ مات الذهبي اخيار الاتْرَاب   ما أبقى للسعدية باش يَرْجحُو

[شيب]: 1012هـ.

قال **أبو راس** في شَرحها: «وأشار بقوله: (**واهزم ديواني اوجيحو**)، إلى أولاد السلطان المذكور، كـ: زيدان، ومحمد، والشيخ، والحران، وغيرهم، فإنَّ المُلك ضعُف في أيامهم مع عظمة أيام أبيهم، لاتِّصال الفِتن بينهم، حتى كان ذلك سبب استيلاء الخراب على أكثر **مراكش**، ودخلت النَّصارى في أيامهم أكثر مدن السَّواحل، مثل: العرائش وغيرها... الخ».

وتأييد **أبي راس** أصحاب هذه النظرية ـ أي: عدم كفاءة أبناء **المنصور الذهبي** الذين كان مِن جملتهِم **أحمد ابن القاضي ابن أبي محلي** الثَّائر الشَّهير، وأن الخلاف بينهم هو الذي جرَّ البلاءَ على البلادِ وسهَّل على الاسبانيِّين والبُرتغاليِّين احتلالَ **العرائش** وغيرها، ليس محلّ اتِّفاق بين المؤرِّخين.

وعلى كلِّ حالٍ كان مِن جملة الشُّروح التي خصَّها **أبو راس** لـ: (**العقيقة**)، زيادة على (**الدُّرَّة الأنيقة**) الذي كان هو الأول:

1) **طراز شرح المرداسي لقصيدة المنداسي.**

2) **فتح الإله في شرح عقيقة ابن عبد الله.**

3) **الحلَّة السَّعيدية في شرح القصيدة السَّعيدية.**

4) **الجمان في شرح قصيدة أبي عثمان.**

5) **نزهة الحبيب شرح نظم الأديب الحسيب الجامع بين المدح والنَّسيب.**

6) **الآداب الرَّقيقة المستودع لشرح العقيقة.**

مات **أبو راس** حوالي سنة 1638م ودفن بـ : **معسكر**، في مدرسته.

لنرجع إلى الحديث عَن المخطوطة التي اعتَمدنا عليها، فإنها نسِخت سنة 1275، نسخَها العلاَّمة الأديب **محمَّد الرواز** (مفتي مدينة سيدي أبي بلعباس)، الذي قال في تعليقه ما يلي: « قلتُ وأنا عبيد الله الطالب للسلوك والجواز، **محمد الروَّاز**، المفتي الحالي بمدينة **سيدي أبي العباس**، وخطيب جامعشها الأعظم مشن غير التباس: لما كنتُ في حالة الاغتراب، وعنفوان الشباب، بالمدينة المستغانمية الباهية، دفع الله عنها وسائر مدن الإسلام كل بلية، نسختُ باليد الفانية، هذا الشَّرح اللطيف مِن نسخة عتيقة واهية، ولم أظفَر على غيرها بعد شِدَّة التفحُّص في البحث عليها، وحيثُ إنَّ في هذه ما فيها مِن البياضِ والنقصان، التزمتُ إن سمحَ الدَّهرُ بما عزمتُ مِن التَّفسُّح في هذا البستان بِتَحقيق النَّظر والإمعان، وزيادة بعض اللطائف وأشياءَ أخرى تعدُّ من التحائف، ولكن هيهات لراكبِ الأتان أن يلحقَ الفرسان في ميادن هذا الشأن، ومع ذلك فالأعمالُ بالنِّيات، ولكلِّ قاصد ما يجني مِن الثَّمرات، فلم أتفرَّغ مِن أشغالِ الزَّمان، وهي متعدِّدة كثيرة متنوِّعة الألوان، إلى أن تيسَّر بحمدِ الله شيء... [1] من الاستمتاع، لفراغ بعضِ الأوقات للمتاع ومن غير نزاع، وذلك في عامِنا هذا المعتبر، الذي هو من أوائل سنين الثَّالث والعشرين من القرن الرابع عشر، فشرعتُ في تقييد ما نوَيتُ بهامش الشَّرح وفوق بعضِ السُّطور، كما تيسَّر للمختلس الأمور، والله العليم بذاتِ الصُّدور».

كتبَ النَّاسخُ كما ذكر بعضَ التَّعاليق على الهامش وبين السُّطور، شرحَ فيها بعضَ مفردات لغويَّة، [ثمَّ] إنَّني لم أُثبِتها لأنَّني وجدتُ الشَّرحَ الأصلي يُغني عنها.

«المطلوب مِن النَّاظر الأَديب أن يغضَّ الطَّرفَ عن العيب، ويصلح المعيب، لكن مِن غير ريب، وصلَّى الله على سيِّدنا ومَولانا محمَّد الحبيب، وآله وأصحابه ما دامت

---

(1) فراغ بقدر كلمة. (ع)

الشمس تطلع وتغيب، واليقين في القليب، ولله درُّ **ابن الفارض**:

تَبالَـــهَ قَـــومي إذ رأَوني متـــيَّما   وقالوا بِمَن هذا الفتى مسَّه الخبـلُ
وماذا عسى عنِّي يُقالُ سِوى غـدا   بِنُعمٍ له شُغلٌ، نعَـم لي بهـا شُـغلُ»

اهـ. كلام المعلِّق [1].

...قيل إنَّهم توصَّلوا إلى إحراق تآليفه، ولم يكتفُوا بذلك بل وتسبَّبوا له في العزل مِن الفَتوى، والقضاء الذانِ تولَّاهما بعد فتح وهران سنة 1206هـ، وقد رأينا أنَّ كثيرا مِن الكتُب المتداولة الآن في النَّسب، كـ: تأليف **علي بن فرحون** المسمَّى: **كتاب الاعتبار وجواهر الاختبار في التَّعريف بآل النبي المختار**، وتأليف **العشماوي**، و**التحقيق في النَّسب الوثيق**، لـ : **محمَّد بن أحمد بن عبد الله الإسكندري**، هذه الكتب مشهورة، واعتمدها كثير مِن المؤرِّخين كمصادر، ومنهم صاحب: **تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر**، مع أنَّها مملوءة بالتَّزوير والتَّدليس، كما ظهرت طائفة مِن المزوِّرين ادَّعوا معرفة الأَنساب وفرَّقوا على الهوَى عقودا مزوَّرة متناقِضة، هي منتشِرة شرقا وغَربا.

وأخيرا إنَّ المقصود مِن هذه التَّراجم قيم أصحابها، وذكر أنسابهم، بقَطع النَّظر عن مذاهبهم، ثمَّ إنِّي تعرَّضتُ لتراجم بعض علماء ثبتَ عِندنا أنَّهم مِن أصلٍ جزائري، هاجرَ سلفهُم إلى المشرق والمغرب، كبقايا أسرة **المقري** الذين هاجروا إلى المغرب، وأسرة **محمد الأمير الكبير المصري**، وغيرهما.

---

(1) يلي هذه الصَّفحة كلام لا يستقيم سياقه مع ما سبق، مع أنَّ تَرقيم الصَّفحات موافق . (ع)

1

ترجمة سعيد المنداسي مؤلف [illegible] منظومة العقيقة

هو أبو عثمان سعيد بن عبد الله المنداسي (وبها اشتهر) أصلا، التلمساني دارا، كان عالما أديبا وشاعرا فحلا. وأكثر شعره المتداول عند الناس من النوع الغريب من الزجل أي بين اللغة الدارجة و~~العربية~~ الفصحى أما شعره بالفصحى فإن كل ما نعرف منه قصيدة تحتوي على ٣٢ بيتا في مثالب حكام الأتراك بتلمسان وأعوانهم من رجال الدين [illegible]

ومنظومة العقيقة اشتهرت في الأوساط الأدبية وتبارى كثير من كبار الكتاب في شرحها منهم المؤرخ الحافظ محمد أبو راس الناصري الراشدي الذي شرحها بعدة شروح والأديب العالم الشيخ مصطفى بن التهامي خليفة الأمير عبد القادر وابن عمته المتوفى مهاجرا بدمشق سنة

فقد عاش منذ منتصف أواخر القرن الحادي عشر ~~ثم منظومته هو سنة 1088~~ إذ التحق بسلطان ملك المغرب محمد بن الشريف العلوي [illegible] المتوفى سنة 1075

1

صورة عن الصفحة الأولى من النسخة المعتمدة

كتاب: جليس الزائر وأنيس السائر[1]

أظنُّ أنَّ مؤلِّفَه هو الشَّيخ **محمد**، المشهور بـ : **ابن سيدي سعيد**، هكذا كان يكتب اسمَه، وقد كان مِن أفاضل علماء أواخر القرن الثَّالث عشر الهجري، وقد ورث خزانةَ جدِّه سيدي **سعيد قدُّورة** المتوفَّى سنة 1064هـ، وحافظ عليها.

وقد كان الشَّيخُ **محمد** هذا موظَّفًا بِبعضِ الإِدارات بالعاصمة، وقد بِيعَت خزانةُ الأسرة في الثَّلاثينات بـ: **البليدة**، اشتراها على مالِكيها الشَّيخُ **محمَّد بشير الرَّابحي** (الإمام الحالي بالقليعة). وقد استعار مِن هذه المكتبة الشَّيخُ **عبد الحي الكتاني** عِدَّة مخطوطاتٍ لما زار **الجزائر** حوالي سنة 1920، ولم يستَرجِعها أَصحابُها إلَّا بعد تداخل الولاية العامَّة.

وكان معظم ما استعارَه الشَّيخ **عبد الحي** الكتاني تآليف أحمد بابا التنبكتي، وبخطِّه، وكتب اطَّلعتُ على بعضِها لما كان الشَّيخُ الرابحي مفتيًا بـ : مليانة، في الخمسينات.

وقد منَّ الله عليَّ بِشراءِ ما تبقَّى مِن هذه الخزانة سنة 1968[2] بواسِطة المرحوم الشَّيخ بابا عمر.

المهدي البوعبدلي

---

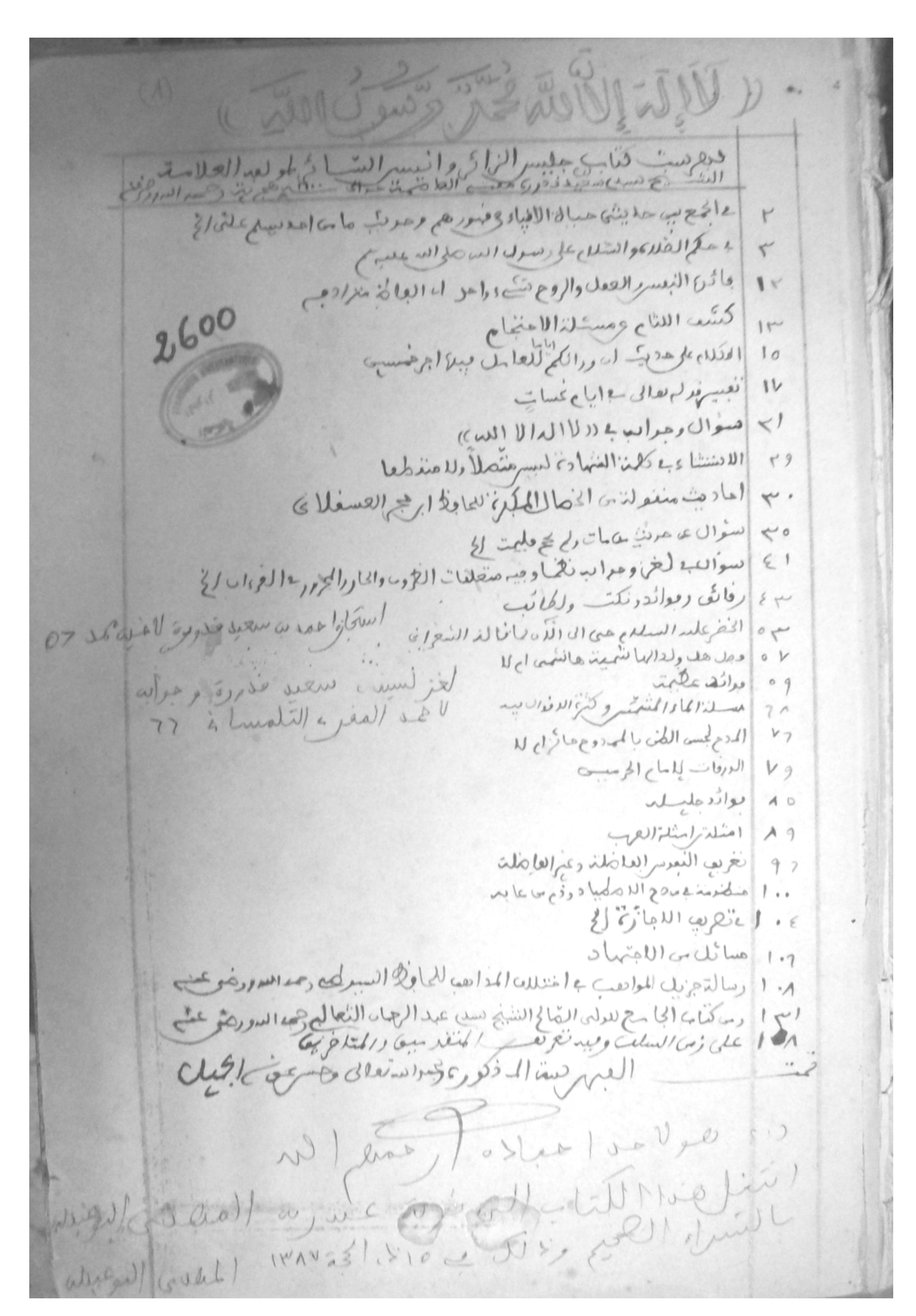
(1) اعتمدنا على ورقة مستقلَّة بخطِّ الشَّيخ **المهدي** (رحمه الله تعالى) تقع في صفحتَين (2)، موجودة ضمن مخطوط: **جليس الزائر**، الموجود بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم: 2600. (ع)

(2) في (ق 1 و) من مخطوط: **جليس الزائر**، الموجود بالمكتبة الوطنية الجزائرية، وبخطِّ الشَّيخ **المهدي** (رحمه الله تعالى): « انتقلَ هذا الكتاب إلى نوبة عبد ربِّه المهدي البوعبدلي بالشِّراء الصَّحيح، وذلك في 15 ذي الحجة 1387 »، ثمَّ أهدى هذه النُّسخة الشَّيخ **المهدي** لمصلحة المخطوطات بالمكتبة الوطنية الجزائرية. (ع)

كتاب جليس الزائر وأنيس السائر

الظن ان مؤلفه هو الشيخ محمد المشهور
بابه سيدي سعيد هكذا كان يكتب اسمه
وقد كان من افاضل علماء اواخر القرن الثالث
عشر الهجري وقد ورث خزانة جده سيدي
سعيد قدورة المتوفى سنة 1064هـ
وحافظ عليها وقد كان الشيخ محمد هذا موظفا
بعض الادارات بالعاصمة وقد بيعت
خزانة الاسرة في الثلاثينات بالبليدة اشتراها
على ما كتبها الشيخ محمد بن بشير الرابحي
الامام الحالي بالقليعة وقد استعار من هذه المكتبة
الشيخ عبد الحي الكتاني عدة مخطوطات لما زار
الجزائر حوالي سنة 1920 ولم يسترجعها اصحابها
الا بعد تدخل الولاية العامة وكان معظم ما

صورة عن الصَّفحة الأولى من النسخة المعتمدة



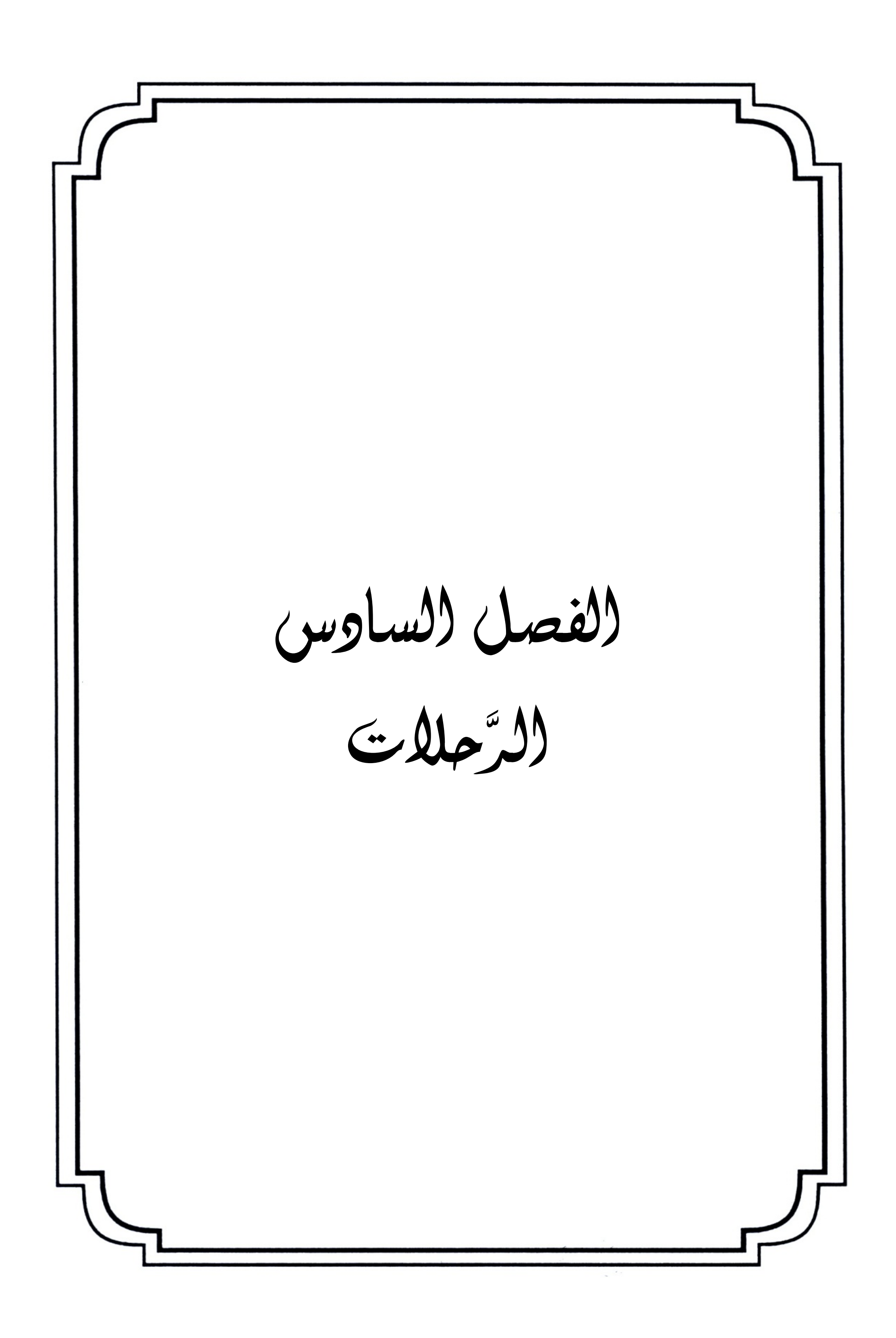
لا إله إلا الله محمد رسول الله

فهرست كتاب جليس الزائر وانيس السائر

كشف اللثام ومسئلة الاحتجاج	١٣
تفسير قوله تعالى في ايام نحسات	١٧
سؤال وجواب في «لا اله الا الله»	٢١
احاديث منقولة من الخصال المكفرة للحافظ ابن حجر العسقلاني	٣٠
رقائق وفوائد ونكت ولطائف	٤٣
فوائد علمية	٥٩
الورقات للإمام الجويني	٧٩
فوائد جليلة	٨٥
امثلة من امثلة العرب	٨٩
تعريف الاجازة الخ	١٠٤
مسائل من الاجتهاد	١٠٦

صورة عن الصفحة الأولى من مخطوط: جليس الزائر

فهرس المحتويات



الفصل السادس

الرَّحلات



محتويات هذا الفصل

يحتوي هذا (**الفصل**) على ما يلي:

رحلات داخل الوطن:

1) رِحلتي مع الأستاذ الشيخ سيدي عبد الحميد بن باديس.
2) جولة وفد وزارة الأوقاف إلى بجاية ثمَّ سطيف فالبرج يومَي 22 و23 أكتوبر 1968م.
3) في برج بوعريريج.

رحلات خارج الوطن:

4) رسالة من مدينة فاس (المغرب) إلى الأستاذ محمود بوزوزو.
5) رسالتان مِن ألكانت (**إسبانيا**).
6) رحلة وفد المجلس الإسلامي الأَعلى بوزارة الأوقاف إلى فرنسا.
7) رسالة مِن باريس.
8) الكلمة التي ألقاها الشَّيخ المهدي البوعبدلي في (مجمع البحوث الإسلامية). باسم الجزائر: كلمة الجزائر.
9) رسالة من القاهرة.
10) علائق ليبيا بالجزائر عبر التَّاريخ.
11) رسالة من طرابلس (ليبيا).
12) رحلتنا إلى الاتحاد السوفياتي ويوغسلافيا.

13) تقرير عَن مؤتمر الأديان في الاتحاد السوفيتي.

14) رسالة من الاتحاد السُّوفياتي.

15) رحلتي إلى الهند (1975م).

16) انطباعات عن ملتقى الدِّراسات العربية والإسلامية بمركز تكوين الدُّعاة بجامعة بومباي (ربيع الثاني 1395 ـ 1975).

17) الخطاب الذي ألقي في الملتقى للدراسات الإسلامية والعربية بقاعة دربار فندق (تاج محل) بومباي (الهند).

18) انطباعات حول المؤتمر الإسلامي العالمي للسُّنة النَّبويَّة الذي انعقد بالباكستان في شهر ربيع الأول 1396 (مارس 1976).

19) رسالة من بشاور (باكستان).

20) رسالة إلى الأستاذ أحمد إسماعيل (مدير الملتقيات والبحوث الإسلامية).

21) رحلتي إلى الحجِّ (1403هـ/ 1983م).

22) رسالة من الرِّباط (المغرب).

رحلتي مع الأُستاذِ الشَّيخ
سيِّدي عبد الحميد بن باديس[1]

أَتَتني رسالة مِن **الجزائر** يوم الثلاثاء بقلم السيد **محمد بن الصادق**[2] يخبرني فيها بِقدوم الأستاذ للعمالة الوهرانية، وقال لي إنهم حين يصِلون للأصنام يبعثون لي (رسالة برقية)[3] لأنتظِرهُم بغليزان.

أَتَتني رسالة مِن **مليانة** يوم الخميس مِن الشَّهر المذكور، فذهبتُ للغد، ونزلت بمستغانم حيث أدَّيتُ صلاة الجمعة، ومن ثمَّ ذهبتُ لغليزان، فاجتمعتُ بأَفاضِل منها وتذاكرنا على قدومِ الأستاذ، بِتنا ليلتَين في انتِظاره، وصباح الأحد 21 جوان نزل بغليزان صُحبة تلميذيه السيِّدَيْن: **الفُضَيْل**، و**محمَّد بن الصادق**.

ذهبنا لدُكَّان السيد **بن منصور**[4] فتركتهم هناك، وذهبت للقاضي فأخبرني أنه على علم بـ: (رسالة برقية)، فتناولنا الفطور عند الشيخ **القاضي** السيد **أبو عبد الله** ودعا

---

(1) اعتمدنا في نشرها على نسخة خطية كتب الشَّيخُ **المهدي** في مقدِّمتها بقلمٍ مُغاير: «سجَّلتُ هذه المذكِّرات وأنا تلميذ بجامع الزَّيتونة، وتاريخها (يونيو) 1931م».(ع)

(2) محمد الصادق هذا هو محمد بن أحمد جلولي المدني، إمام خطيب بجامع ضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي، كان من تلامذة الوالد، وقد رافق أخي الأكبر محمد (رحمهم الله) إلى القروِّيين، وقد توفي سنة 1983.

(3) أي: تليغراف. (ع)

(4) ابن منصور هم إخوة تلمسانيون كانوا تجارا بغليزان، والمعنيُّ هنا هو مصطفى بن منصور المكنى مرابط، توفي بعد الاستقلال.

بعض أعيان البلد، وللعشيّ ذهبنا للتفسح وزيارة المسجد، فوجدنا هذا لأخير مغلوقا (كذا)، ومن بعد صلاة المغرب ذهبنا للسيد بن منصور، اجتمعنا بأفاضل البلد من جملتهم أبناء الحاج **جَلُّول**، ومن ثَمَّ أتانا الشيخ **القاضي**[1] فتناولنا عنده العشاء، وبعد تناولنا العشاء ذهب معنا في سيارته للفندق فودَّعنا.

ولما دخلنا [سلَّم] لنا أصحاب الفندق رسالة من عند كلاَّل السيد الحاج **المنوَّر**[2] (الترجمان الشرعي)، يخبرنا فيها أن الجالية الإباضية تدعو الشيخ عندها للاجتماع صباح غدٍ على الساعة السادسة، فذهبنا صباحًا عندهم فوجدتهم بمحل السيد **سليمان الجعدي** التاجر الشَّهير في انتظارنا كبيرُهم وصغيرهم، ومن جملتهم صاحب **(جريدة المغربي)** بالجزائر، ففطرنا عندهم وشربنا بعض المشروبات الباردة، ثم قام فقيههم فرحَّب بالشيخ وشكر أعماله، فقام الشيخ بعد ذلك وخطب خطابا بليغا، ومِن عندهم ذهبنا للفندق فأتانا السيد **[ملار]**[3] محمد ودعانا للفطور، ومن عنده ذهبنا لمستغانم بسيارة (**بن دمرد**)، فوصلنا لمستغانم على الساعة الخامسة، وكنا لم نُعلِم أحدا بقدومنا، فنزلنا بفندق(روش)، تركْنا الأستاذَ هناك وخرجنا، فلقِينا صديقنا السيد **(الجيلالي تادلاوتي)** فأمرنا (كذا) أن يهيئ لنا العشاء، فبعدما تناولنا العشاء عندهم خرجنا نتفسح في المدينة، لقينا السيد (**مصطفى بن حلوش**) وبعض رفقائه، دعوْنا لتناول معهم (كذا) بعض المشروبات ثم ذهبنا لمحلاته (كذا).

---

(1) القاضي هو الشيخ أبو عبد الله بوخلوة، كان قاضيا بغليزان، وله مكانة، واشتهر بثروته الطائلة، التي مكنته من إيواء الضيوف، وإعانة المشاريع الخيرية، وأنجب أبناء تخرجوا من كليات الطب والصيدلة.

(2) الحاج المنور كلاَّل كان ترجمانا شرعيا متخرجا من المدرسة الثعالبية بالجزائر، وتولى الترجمة بقنصلية فرنسا في جدة، وله إطلاع واسع وثقافة عربية متينة.

(3) كلمة غير واضحة. (ع)

أما الأستاذ فذهب إلى الفندق الذي أنزلناه فيه، والطالبان ذهبا مع السيد مصطفى، والكاتب ذهب مع السيد **الجيلاني تادلاوتي**.

وفي الصباح تناولنا الفطور عند السيد **مصطفى**، وفي العشاء كذلك عنده، وحضر معنا السيد (**أحمد بن كريتلي**) والشيخ العلـ ...[1]، والشيخ المفتي وغيرهم من أعيان البلدة، وبعد تناول العشاء خطب الشيخ خطابا بليغا يحث الناس فيه على الاتحاد.

وللغداء يوم الأربعاء دعانا السيد الحاج **الأعرج** للفطور، ودعا بعض الأعيان، وعنده رأيت أبا السيد (**زرُّوق**) الذي كان معنا بتونس، وبعد تناولنا الفطور ذهبنا للفندق.

وعلى الساعة الرابعة أتتنا سيارة من عند أبناء الشيخ **بن تكوك** فيها ترجمانهم ومقدِّمهم السيد (**عبد الله بن عمر**) فدعونا للذهاب عندهم، فخرجنا على الساعة الخامسة من مستغانم، مصحوبين بالترجمان، فوصلنا الزاوية على الساعة السادسة، فوجدنا السيد الحاج **مصطفى بن الشيخ** في انتظارنا، فأدخلونا [لمحلٍّ] خصوصي، وبعدما شربنا القهوة خرجنا لِضريح أبيهم وجدِّهم فزرناهما زيارة شرعية، وصلَّينا المغرب أمام الضَّريح، ثم رجعنا لمحلِّنا فتناولنا العشاء، ثم خرجنا للتفسح، وفي الصباح رجعنا لمستغانم فنزلنا بالفندق، وفي العشيِّ دُعينا عند الجالية الميزابية.

وفي ذلك اليوم دُعِيَ الأستاذ عند (**السُّوبْرِيفِي**)، وعند الساعة السادسة دُعينا عند الشيخ (العليوي) بمنزله الموجود على شاطئ البحر، وكانت القاعة ممتلئة بالضيوف.

وصباح يوم الجمعة تناولنا القهوة عند السيد الطاهر تادلاوتي، ثم أتَيْنا لـ: (**سانلو**)[1] بصحبة أخيه السيد الجيلاني بعربتهم الخصوصية، فوصلنا لـ: (**سانلو**) على

---

(1) كلمة غير واضحة. (ع).

الساعة السابعة، فتناولنا الفطور بمحلنا ثم ذهبنا لصلاة الجمعة، وبعدما أدَّينا الصلاة قرأ الشيخ درسًا بعد طلب مني، ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الذاريات: 55).

ومِن ثَمَّ ذهبنا إلى المرسى مع الأستاذ في سيارة السيد **الجيلاني** للمياه المعدنية، ثمَّ رجعنا، وفي تلك العشيَّة اجتمعت سكان القرية والنواحي من أعيانٍ وغيرهم عندنا...[2] افترق حتى نصف الليل، وصباح يوم السبت ودَّع الأستاذ والدي والجماعة، وذهبنا لوهران بسيارة (**بن دمراد**)، فوجدنا أعيان وهران في انتظارنا، من جملتهم الشيخ المفتي والشيخ **الطيب** المدرِّس، والسيد **بن سعد** الصيدلي، وبعض التُّجار، فأركبونا سيارةً وبعثوا معنا السيد (**بن سعد**) للنزل (**رويال**)، ووعدونا أنهم يأتونا على الساعة الثانية عشر، فعندما وصلنا للفندق أتوا للشيخ برسائل من جملتها واحدة من عند والده يدعوه فيها بالدُّخول للجزائر صباح يوم الاثنين، فلما خرجت الجماعة من عندنا أمرني الشيخ أن أُخبِرَ الجماعة، فتركْنا الشيخَ بالمحلِّ وخرجنا، فاجتمعتُ ببعض الجماعة فأخبرناهم، وعند الساعة الحادية عشر ونصف أتتنا سيارة، فذهبنا لمحلِّ السيد الحاج **الصادق** أخا الشيخ **الطيب**، فوجدنا جماعة من الأعيان، من جملتهم السيد **بن عودة باش تارزي كاهية** شيخ المدينة، والسيد **شرفاوي قدور**، والسيد **الأخضر بنان**، والشيخ المفتي، والشيخ **محمد بن الطاهر الأزهري**، والشيخ **النابلسي**، وغيرهم من الأعيان، وبعد تناولنا الفطور، ذهبنا للفندق، وعند الساعة السابعة أتتنا سيارة طلعنا (كذا) فيها لمركز الجمعية الدينية فوجدنا الناس في انتظارنا من أعيانٍ وغيرهم، لأن تلك البادية جعلها (كذا) النواب البلديون والتجار وغيرهم، فعندما دخلنا قام الشيخ **الطيب المهاجي**، خطب خطابًا بليغًا وأعرب فيه عن سرور جماعتهم

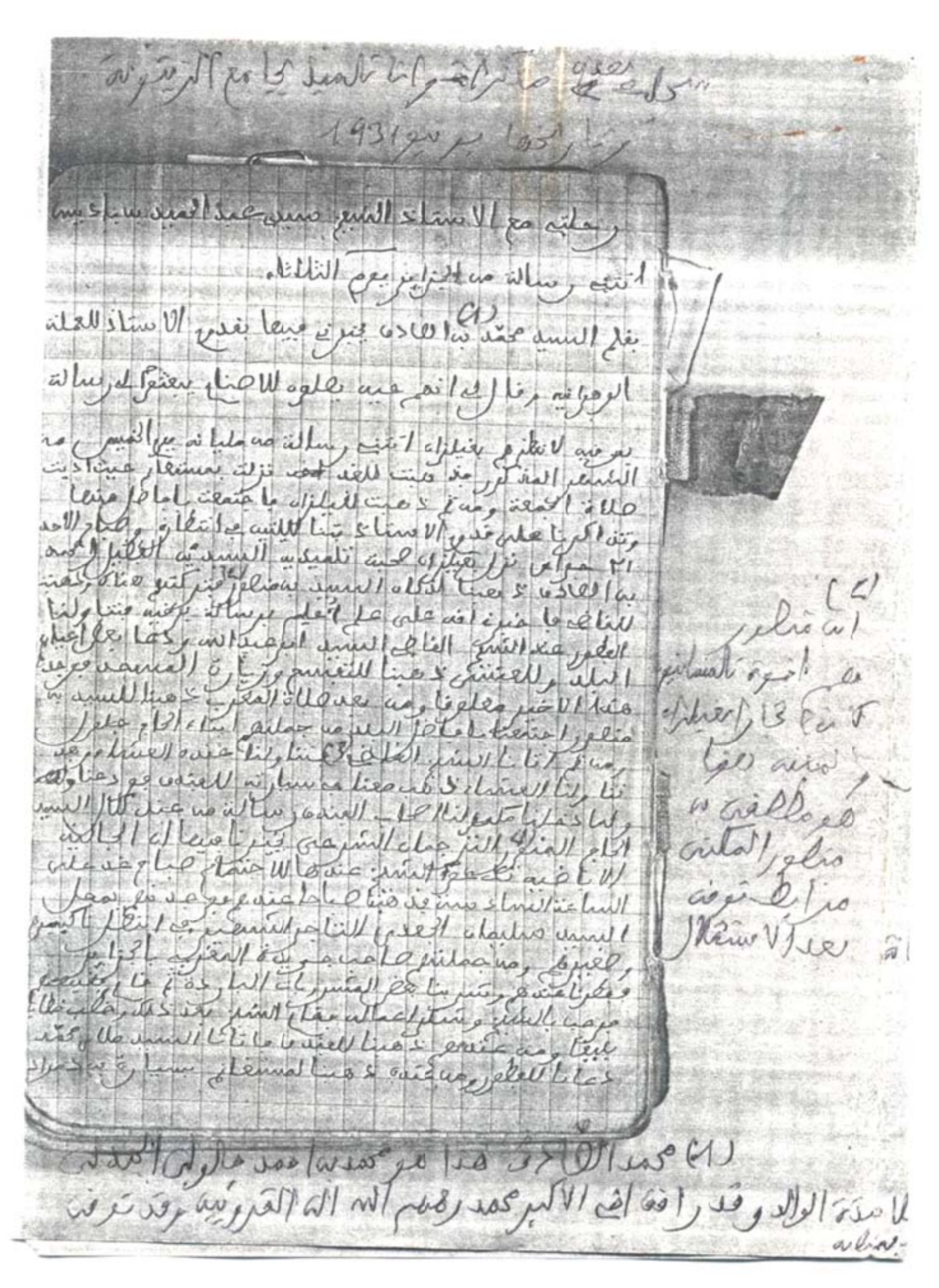
---

(1) الإِسم الذي أطلقه الفرنسيُّون على مدينة (بطِّيوة) (saint – leu). (ع)

(2) كلمة غير مقروءة. (ع)

بالضيف الكريم وطلب من الأستاذ أن يُقرئ درسًا، فشكره الأستاذ على خطابه وشرع يفسِّر في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ (سبأ: 46).

وما افترقنا حتى الساعة الثانية عشر، ذهبنا لمحلِّ الشيخ المفتي، وبعد تناولنا الفطور، قرأ الشيخ قوله ﷺ: « الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا مَن في الأرض يرحمكم مَن في السماء »، وحضر الناس كالعادة من علماء وأعيان وغيرهم، وفي العشِيّ ذهبنا زرنا المسجد و(**عيون الترك**) وغيرها من الآثارات القديمة، وعلى الساعة السادسة ذهبنا للشيخ المفتي، وبعد ذلك ذهبنا للمحطة، فركِبَ الأستاذ ورفيقاه على الساعة التاسعة ونصف.


رحلتي مع الاستاذ الشيخ سيدي عبد الحميد بن باديس

اتتني رسالة من الجزائر يوم الثلاثاء

بقلم السيد محمد بن الهادي يخبرني فيها بقدوم الاستاذ العلامة

صورة عن الصَّفحة الأولى من النُّسخة المعتمدة

جولة وفد وزارة الأوقاف
إلى بجاية ثمَّ سطيف فالبرج
يومَي 22 و23 أكتوبر 1968م[1]

يوم الثلاثاء: 22/ 10/ 68

خرجنا من العاصمة على السَّاعة الحادية عشر صباحًا فوصلنا **(بجاية)** حوالي السَّاعة الثَّالثة ونصف، فوجدنا في انتظارنا أعضاء الجمعيَّة الدِّينية، ورئيس المجلس الشَّعبي، فاتَّفقنا على أن يكون الاجتماع ـ نظراً لضيق الوقت ـ بالمسجد الجامع بين صلاة المغرب والعشاء.

وفي الوقت المحدود وجدنا المسجد مكتظًّا بالمؤمنين، وألقينا درسَين[2]، وكان اهتمام الحاضرين بدرس الضَّيف وتتبُّعه ملحوظًا، ثمَّ أقيمت لنا مأدبة شاي من طرف رئيس المجلس الشَّعبي، وبعدها عَشاء، والتحق بنا كثير من خيرة الشَّباب، وقضوا معنا سهرةً تبادلنا فيها الحديث عمَّا تهمُّ البلدة منَ النَّاحيتين الدِّينيَّة والاجتماعيَّة.

---

(1) اعتمدنا في إثباتها على نسخة خطيَّة تقع في أربع صفحات، وهي بخطِّ الشَّيخ **المهدي** (رحمه الله تعالى). (ع)

(2) انظر نصَّ الدَّرس الذي ألقاه في هذا **(الفصل)** من آثاره، وكان برفقته في هذه الزِّيارة الشَّيخ **عبد المصطفى الأزهري**، شيخ الحديث، وناظر **(دار العلوم الأمجدية)**، بمدينة **(كراتشي)** بـ **(باكستان)**. (ع)

وفي بكرة يوم الأربعاء تجوَّل بنا رئيس المجلس الشَّعبي، والكاتب العام للجمعيَّة الدِّينيَّة، [في] معالم البلدة السِّياحيَّة، وودَّعونا في طريقنا إلى (**سطيف**).

وصل الوفد إلى (**سطيف**) على الحادية عشر من يوم الأربعاء: 23/ 10/ 68م، فأمَّمنا المسجد حيث وجدنا في انتظارنا عِلاوة على موظِّفي المسجد وأعضاء الجمعيَّة الدِّينيَّة، المفتِّش الجِهوي الأخ النُّعَيمي، ونائبه بـ (**سطيف**).

استدعينا من طرف شيخ البلدة بدار البلدية، واتَّفقنا على الاجتماع بـ (**قاعة** الأفراح على الخامسة مساء، وبعد تناول طعام الغذاء الذي أعدَّه أعضاء الجمعيَّة بدار أحد الفضلاء الأعيان، ذهبنا إلى قاعة الأفراح فوجدنا عدد الحاضرين كثيراً، فقدَّم الأخ النُّعيمي الضَّيف الكريم، فكان لحديثه البليغ تأثيرٌ حسنٌ، ثمَّ ودَّعنا الجماعة وذهبنا إلى (**البرج**)، فكان وصولنا إليه على السَّابعة ونصف.

برج بوعرريج:

كنَّا عندما وصلنا إلى (بجاية) اتَّصلنا بنائب عامل (**البرج**)، وأخبرناه أنَّنا نزورهم عشيَّة الأربعاء على الخامسة، وتركنا لهم خيار المحلّ، ووقت الاجتماع، كما أخبرنا عامل (**سطيف**) وطلبنا منه تبليغ الخبر إلى الجمعيَّة الدِّينيَّة بأنَّنا سنزورهم يوم الأربعاء عند منتصف النَّهار، والأحسن أن يكون الاجتماع بين الظُّهر والعصر، إلاَّ أنَّنا عند وصولنا إليهم أخبرونا أنَّه لا يُمكن الاجتماع إلاَّ بعد الخامسة، فأخبرنا جماعة (**البرج**) على أنَّ الموعد سيتأخَّر إلى حوالي السَّابعة ونصف.

وجدنا قاعة الأفراح بـ (**البرج**) مكتظَّة حقيقة بالخلائق، والكثير ممَّن حضروا بعد لم يجدوا مقاعد فبقوا طيلة مدَّة الاجتماع وقوفًا، وبعد خطاب التَّرحيب من طرف الإمام تحدَّثتُ مع الجماعة، وعرَّفتهم بالضَّيف الكريم، وبالأسباب الدَّاعية إلى إقامة المهرجان

الألفي لـ (**جامع مروان**)[1]، ثمَّ أحيلت الكلمة إلى الضَّيف المرافق لنا، فتكلَّم على عادته، وكان في جميع أحاديثه موفَّقًا.

امتاز اجتماع (**البرج**) بحضور جميع السُّلطات، مِن نائب عامل، وشيخ بلدة، وممثِّل الحزب.

وبعد الاجتماع دعانا نائب العامل إلى محلِّه، فأقام لنا حفلة شاي، وهو رجلٌ تظهر عليه مكارم الأخلاق والتَّربية السَّامية، ثمَّ تناولنا العَشاء بدار أحد الفضلاء، ورافقنا إلى النَّزل الذي أعِدَّ لمبيتنا الكاتبُ العام بإدارة نائب العامل.

وودَّعنا البلدة وأهلها الكِرام الأباة. اهـ.

في برج بوعريريج[2]

نصُّ الخطاب الذي ألقاه الأستاذ **المهدي بوعبدلي** (عضو المجلس الإسلامي الأعلى)[3].

الحمد لله والصَّلاة والسَّلام على رسول الله.

---

(1) انظر: (**سجل**) الذِّكرى الألفية لمسجد أبي عبد الملك مروان البوني، عنَّابة سنة 1388هـ/ 1968م، تسجيل وإعداد: المفتشيَّة الجهويَّة الثَّانية للأوقاف بـ (**باتنة**)، وقد شارك في هذا المهرجان كوكبة من العلماء من داخل الوطن وخارجه، نذكر منهم الشَّيخ **نعيم النُّعيمي**، والشَّيخ **زهير الزَّاهري**، والشَّيخ **بهجة الأثري**، والدُّكتور **محمَّد البهي**، وغيرهم. (ع)

(2) انظر: (**سجلّ**) الذِّكرى الألفية لمسجد أبي عبد الملك مروان البوني، عنَّابة سنة 1388هـ/ 1968م، تسجيل وإعداد: المفتشيَّة الجهويَّة الثَّانية للأوقاف بـ (**باتنة**)، ص: 106 ـ 112، أفادنا مشكورا بنسخة مِن هذا (**السِّجل**) الشَّيخ الفاضل **يحيى بدر الدِّين صاري**. (ع)

(3) محاضرة ألقاها في مدينة البرج، وكان برفقة الشَّيخ **عبد المصطفى الأزهري**، شيخ الحديث وناظر دار العلوم الأمجدية بمدينة كراتشي بباكستان. (ع)

حضرات الإخوة الكرام، والسَّادة الأفاضل:

أحيِّيكم تحيَّةً وِدادية أخويَّة، وأبلِّغ إليكم تحيَّات إخوانكم الذين أوفدونا إليكم، وهم أعضاء الشُّعوب الإسلامية، وممثِّلوها لهذا المهرجان الذي أقيم في الجزائر، وهم ضيوفنا الكرام.

كما أحيِّيكم باسم أخينا وزير الأوقاف، الذي كان من المتسبِّبين في هذا المهرجان.

وبحمد الله إنِّني بنتيجته المطلوبة وإن كنَّا نعتذر لكم كذلك عن تأخيرنا، وعلى الخلل الذي وقع.

لربما لأنَّ الوقت ضيِّق، وهذا المهرجان نفسه أقيم بهذه الأيَّام، لفرصة اغتنمها، حضرة الأخ الوزير ومعه الحكومة ورئيسها، ومجلس الثورة، لأنَّهم كلّهم صادقوا وأيَّدوا هذا المهرجان الذي وقع في بلادنا لأوَّل مرَّة بعد استقلالها، فاجتمع علينا ضيوف كرام من مختلف البلاد الإسلامية.

لماذا جاء هؤلاء النَّاس؟

فإنَّهم جاءوا ليشاهدوا معنا مهرجانًا أقيم بتكريم المسجد وبيت الله، وإحياء ذكرى مسجدٍ مرَّت عليه ألف سنة، وإن كان عندنا مساجد مرَّت عليها كذلك ألف سنة، أسرا في [أرض] الجزائر، هي كثيرة والحمد لله.

وما هو الدَّاعي إلى مجيء هؤلاء الرِّجال؟

فإنَّ المساجد بحمد الله كثيرة في بلاد الإسلام، وفي كلِّ مرَّة يُقام تدشينٌ، واحتفالٌ بتدشينِ ومرورِ عشرة قرون، أو (12) قرن، أو (13) قرن، ومرورُها على كثير من مساجد الإسلام في الشَّرق وفي الغرب كثيرٌ.

وإنَّكم تعرفون أنَّ المسجد إذا أقيم له هذا الاحتفال فإنَّه قليلٌ في حقِّه، لأنَّه لا كما يراه الكثير، هو عبارة عن [مكان] لأداء الواجبات الدِّينية، من صلواتٍ، وقراءةٍ للقرآن والأذكار.

فالمسجد عندنا معاشر المسلمين هو معقل الإسلام، فَفي المسجد كان الرَّسول ﷺ يجتمع مع أصحابه ويتشاورون في جميع أمور المسلمين، في أمور دينهم ودنياهم، وفيه تعقد ألوية الحرب ضدَّ المشركين، ومنه كانت تنطلق الجنود للفتوحات، وفيه كان يتعلَّم النَّاس أمور دينهم ودنياهم، وإليه يقصد طلاَّب العلم وفودًا ليتفقَّهوا في دينهم.

وكان مسجد النَّبيِّ ﷺ هو المثل الأعلى لا مِن حيث الهندسة والشَّكل، أو الفنِّ المعماري، وإنَّما منَ النَّاحية الرُّوحية، أي: منه انبثقت تعاليم الإسلام في الدُّنيا كلِّها.

ثمَّ انتقل مسجده ﷺ إلى هذه الرُّبوع بعد الفتح، وكان أوَّل مسجد أسَّسه سيِّدنا عقبة بن نافع في القيروان، وكان المسجد يؤدِّي مهمَّته، فكانت تقصده الوفود، وكان يقصده علماء الإسلام، وفي المسجد كذلك كانت تؤلَّف التَّآليف، فهذا الإمام **مالك** (رضي الله تعالى عنه) ألَّف (**الموطَّأ**) بمسجد النَّبيِّ ﷺ ومنه كانت التَّعاليم القيِّمة التي بقيت ما بقيت الأيَّام واللَّيالي، فهذا الإمام مالك (رضي الله تعالى عنه) عندما يجلس بمجلسٍ، أو في درسه في مسجد النَّبيِّ ﷺ يقول للنَّاس: «كلُّكم رادٌّ ومردودٌ عليه، إلاَّ صاحب هذا القبر»، ويقول مرَّة أخرى: «فإنْ وجدتم كلامي موافقاً لصاحب هذا القبر، فاعملوا به، وإلاَّ فاضربوا به عرض الحائط».

هكذا علَّم النَّاس، ومنذ قرون، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ (الحشر: 7).

وهذه هي مهمَّة المسجد في صدر الإسلام، وبقيَ المسجد يؤدِّي هذه المهمَّة، وينشر

العلم، وليست العلوم الدِّينيَّة فقط، وحتَّى العلوم الأجنبيَّة التي لم يغفل عنها المسلمون الأوائل بعد الفتوحات وبعد توسُّعهم، فإنَّهم ترجموا كثيراً من الكتب من لغاتٍ مختلفة عن الأمم الرَّاقية في جميع الفنون، سواء كانت في الفنِّ المعماري، أو كانت مثلا في الفلسفة وغيرها.

وفي المساجد كانت تكتب هذه التَّآليف، وتنسخ، وتترجم، إلى أن أتى القرن الرَّابع والخامس، فعزَّز المسجدَ المدرسةُ، وكانت أوَّل مدرسة من هذا النَّوع، حسبما يذهب إليه كثيرٌ من المؤلِّفين، هي المدرسة النِّظاميَّة بـ (**بغداد**)، التي كان من جملة مشايخها الأستاذ **الغزالي**.

فالمسجد قد أدَّى مهمَّته في صدر الإسلام على أحسن وجه وأكمله، حيث أخرج لنا الأبطال، وأخرج لنا العلماء، وأخرج لنا المؤلِّفين.

ولا نُطيل عليكم بالحديث لأنَّ الوقت ضيِّقٌ، ولا نتكلَّم عن تاريخ المسلمين لأنَّه طويلٌ جدّاً، وإنَّما نكتفي هنا في بلادنا، وفي وقتٍ ربَّما بلغ الانحطاط فيه أشدَّه وغايته، وهو وقت احتلال **الجزائر**، احتلال **فرنسا** للجزائر، فالأمير **عبد القادر** (رحمه الله) الذي قاوم هذا الاحتلال سبعة عشر سنة هو خرِّيج مسجد بسيط، قُربَ (**حمَّام بوحْنيفية**) الذي تسمعون به، فإنَّ جدَّه الشَّيخ **مصطفى بن مختار** أسَّس مسجداً بسيطاً، وقد وصفه المؤرِّخ الشَّهير **أبو راس النَّاصري** فقال: «هو عبارة عن (**قُـرْبي**)»، وكان أوَّل ما تلقَّى فيه معلوماته، وكان أصحابه كذلك، وخلفاؤه وأنصاره هم الذين كذلك تعلَّموا بمثل تلك المساجد، سواء بالمسجد الذي تعلَّم به الأمير **عبد القادر**، أو المساجد التي كانت قريبة منه وفي مستواه.

إنَّ الأمير عبد القادر لم يكن له عهد بالجيش النِّظامي، وأصحابه [كذلك]، فإنَّ الجيش النِّظامي الذي كان هنا في البلاد [كان في يد الدَّولة التركيَّة التي كانت تحكم هنا

في البلاد] مدَّة ثلاثة قرون، فذلك الجيش البسيط الذي كوَّنه الأمير **عبد القادر**، وكان رجاله وقادته من أولئك المتخرِّجين من المساجد، وقفوا أمام جيش عالمي يعرف بطشه وقوَّته وبأسه جميع سكَّان أوروبا، إذا كان الجيش الفرنسي متفوِّقاً على جميع الجيوش في أوروبا يومذاك، وهؤلاء الضُّباط الذين خاضوا معارك، والذين احتلُّوا الجزائر، كان الكثير منهم متمرِّنين على خوض المعارك، فكانوا مع نابليون في (**روسيا**)، وكانوا مع نابليون في (**إسبانيا**) وغيرها، ولكنَّهم هُزموا شرَّ هزيمة في وقائع كثيرة، ومن جملتها ثلاثة وقائع في الحرب الطَّويلة التي كانت الجزائر مسرحاً لها.

فوقعة (**مزغران**) التي هُزم فيها الجنرال (**اترزيل**)، ومات فيها نحو: (300) ثلاثمائة، وفقدوا كلَّ العتاد والسِّلاح.

وواقعة أخرى وقعت قبل تسليم الأمير عبد القادر [نفسه] بسنة، أي: سنة 1847م ـ في (**سيدي إبراهيم**)، قرب الحدود المغربية، تلك المعركة التي مات فيها الجنرال (**دومانطنياك**)، وكانت الرُّؤوس التي تقطَّعت في تلك المعركة (300) ثلاثمائة.

وكذلك[1]، ولم يخن الأميرَ عبد القادر أحدٌ مِن أَصحابِه، بل وقفوا معه، وبقوا إلى أنْ قاسموه شرَّ الهزيمة.

فالمسجد كوَّن الأمير عبد القادر، وبقيَ سبعة عشر سنة وهو يقاوم، ولَمَّا وقع بين يدي العدوِّ رجع إلى تربيَّته الأولى، فعندما وصل إلى فرنسا جمع أبناءه وأبناء المجاهدين الذين هاجروا معه، وصار يعلِّمهم القرآن على الألواح، وعلى الحصير، كما تلقَّى هو أوَّل معلوماته عندما نشأ في بلدته الصَّغيرة.

---

(1) لم يذكر الوقعة الثالثة، ولعلَّه لم يستحضرها، ويظهر أنَّه كان يعتمد على حافظته في سرد هذه الحقائق. (ع)

وبقيَ الأمير عبد القادر يطوي صفحة الجهاد الأصغر، ويذهب إلى الجهاد الأكبر، وبقيَ ينشر العلم وينشر الدِّين، وينشر التَّعاليم الإسلامية.

هذه هي الطَّريقة التي تبعها [في] منفاه عندما كان في (دمشق)، فكتب الكتب، وكان ينفق الأموال الطَّائلة على تصحيح الكتب وإحياء التُّراث، ومن جملة ما صحَّح وما سعى في نشره آنذاك (**الفتوحات المكيَّة**) للشَّيخ محيي الدِّين بن عربي ـ دفين دمشق ـ والذي اختار الدَّفن بجواره.

هذه هي التَّربية التي نحن مدينون لها، وهي التي كان عاش لها الصَّحابة رضوان الله تعالى عنهم، أولئك الذين وصفهم النَّبيُّ ﷺ بقوله: «أصحابي كالنُّجوم، بأيِّهم اقتديتم اهتديتم»، لأنَّ الإسلام لم ينتشر في بلادنا أو في بلاد الإسلام كلِّها بالأقوال الكثيرة، أو بالخُطب الرَّنَّانة البليغة، أو بالدِّعاية والتَّلفزة، وإنَّما بفضل رجاله وسيرهم، فإنَّهم كانوا المثل الأعلى، كانوا متَّصفين بالنَّزاهة وبالصَّبر وبالطَّهارة والاعتزاز بالقوميَّة.

فهؤلاء النَّاس الذين تكوَّنوا في بلاد قاحلة، وفي بلاد لم تكن تعرف للحضارة معنًى، فإنَّهم هزموا دولا كثيرة عرفها التَّاريخ، وسجَّل لها التَّاريخ قروناً كثيرة.

وبلادنا هذه نعرفها، ولكن ربَّما كثيرٌ منَّا يتجاهلها، فإنَّها قامت بقسط وافر في نشر الحضارة، وفي المساهمة في بعث ونشر العلم والثَّقافة، ولعبت دوراً عظيماً، فتكوَّنت دولٌ هنا في بلادنا، وبالقرب منكم تكوَّنت دولة بني عُبَيد، التي تكوَّنت قرب (**سطيف**) في جبال (**بابور**)، وهي دولة الفاطميِّين، ومن هذه القرية البسيطة في جبال (**بابور**) ذهبوا واحتلُّوا (**القيروان**)، واحتلُّوا (**مصر**) من بعد ذلك، وتركوا خلفاءهم هنا، وعمَّالهم (**بنو زيري**)، و(بنو حمَّاد) الذين أسَّسوا هذه العاصمة القريبة منكم، العاصمة العظيمة،

وهي: (**قلعة بني حمَّاد**)، وأسَّسوا (**بجاية**)، وأسَّسوا (**أشير**)، وأسَّسوا كذلك حتَّى (**الجزائر**) نفسها، وحتَّى (**مليانة**).

هذه القبيلة، وهذه المملكة التي تكوَّنت هنا بالقرب منكم، وكوَّنت القلعة : (قلعة بني حمَّاد) ملأت الدُّنيا بذكرها، فإنَّ الكتب التي ما زالت موجودة إلى الآن في خزائن العالم، والتي ترجمت إلى عدَّة لغات، كُتِبتْ هنا.

وهذه (**المسيلة**) المحمَّديَّة التي كانت كذلك من أعظم البلدان، وقد اشتهر منها رجال علماء فطاحل، هي قريبة منكم، ما بالعهد مِن قِدَم، فدولة (**الموحِّدين**) كذلك تكوَّنت هنا، وأنشأت بالقرب منَّا، فإنَّها بـ (**الملالة**) قرب (**بجاية**)، وإنَّكم تعلمون مَنْ هو المهدي بن تومرت، ودولة الموحِّدين التي احتلَّت جميع الشَّمال الإفريقي، واحتلَّت حتَّى (**إسبانيا**)، وما زالت آثار تلك الدَّولة خالدة قائمة تشهد لماضينا الحضاري، وتتحدَّى كلَّ مَن سوَّلت له نفسه أن ينتقص من هذه الحضارة، وبـ (**جامع إشبيليا**) جرارده (كذا) المشهورة عند المؤرِّخين، هي من آثار الدَّولة الموحِّديَّة، ومنارة الكُتبيِّين كذلك بـ (**مراكش**)، ومنارة حسن بـ (**الرِّباط**)، هذه كلُّها من آثار الموحِّدين.

أمَّا الكتب، أمَّا التَّآليف في جميع الميادين، سواء في الفقه أو الحديث، أو في الدِّين أو في الآداب، فخزائن الدُّنيا كلُّها مملوءة بها، وإخواننا الشَّرقيُّون يعرفون الكثير عن هذا.

جاء إخواننا هنا لمشاركتنا، ولا أريد أن أطيل عليكم، فإنَّهم لَمَّا جاءوا للاحتفال ولمشاركتنا في هذا المعنى السَّامي، وهو الاحتفال بمرور ألف سنة على المسجد، اقتضى الحال أن نجدِّد عهد السَّلف الصَّالح، إذ كان العلماء رُسل خيرٍ، ولو كانت تقع الخلافات ما بين الملوك فإنَّهم كانوا عندما يفدون إلى بلد من البلدان يتَّصلون بإخوانهم، ويتَّصلون بالمسجد، والمسلم حيثما ذهب فإنَّ البلاد بلاده، فلا يشعر بالغربة التي يشعر بها غيره، فإنَّ هؤلاء الإخوان الذين وردوا علينا، وجاءونا في هذه المناسبة من (**تركيا**)

كمفتي (**استنبول**)، ومفتي (**أنقرة**)، ومن (**الباكستان**) كأخينا هذا العالم الفاضل، ناشر العلم وناشر الدِّين في بلاده مع إخوانه، وكذلك إخوان جاءونا من (**يوغوسلافيا**)، وإخوان جاءونا من (**مصر**)، ومن شرق (**الأردن**)، وإخوان من أقصى الشَّرق، وإخوان من (**أندونسيا**)، وإخوان من (**إفريقيا الجنوبية**)، كلُّ هؤلاء إخوان لنا في الدِّين، وقد صدَّقوا ما قاله الرَّسول ﷺ في الحديث القدسي: «مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم، كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضوٌ، تداعى له سائر الجسد بالسَّهر والحمَّى »، وإنَّكم بهذه القريَّة القريبة، بهذه البلاد العظيمة، فكذلك حتَّى في وقت الانحطاط، كانت تكوَّنت دولة عظيمة في هذه النَّواحي، وهي: دولة المقراني.

فإنَّ دولة المقراني التي كانت بـ (**مجَّانة**)، والتي بقيت نحو (3) ثلاثة قرون، في العهد التركي، وفي العهد الإسباني، كانت كذلك كثيرة البأس، ومن هنا كذلك كانت الانتفاضة التي وقعت في سنة (71) واحد وسبعين، وكان سببها المقراني أحد أحفاد أولئك الأمراء الذين لعبوا دوراً عظيماً في تاريخ البلاد.

اسمحوا لي، إنَّني لا أريد أن أخاطبكم عن تاريخ هذه البلاد، لأنَّكم أعرف به منِّي، وإنَّما أريد أن أغتنم هذه الفرصة لإطلاع أخينا وضيفنا الكريم[1] بأنَّنا وحيثما ذهبنا في الوطن الجزائري نجد جبهات كثيرة لها صلة وثيقة بالتَّاريخ الإسلامي العالمي، ولأنَّنا ساهمنا بقسط وافر في بناء الحضارة الإسلامية عبر عصور التَّاريخ.

فالدَّولة الفاطمية التي تكوَّنت هنا في جبل (**بابور**)، والدّولة الموحِّديَّة التي تكوَّنت إذ كانت أوَّل ملاقاة بين المهدي بن تومرت وتلميذه وخليفته من بعده ومكوِّن الدَّولة بعده عبد المومن بن علي في هذه النَّاحية بملالة قرب (**بجاية**) بنحو عشر كيلومترات.

---

(1) المقصود به الشَّيخ **عبد المصطفى الأزهري** من دولة باكستان، الذي رافقه إلى مدينة **البرج**. (ع)

وكان المقراني كذلك هنا، في هذه النَّاحية، وكلُّها خاضعة إلى نفوذه، وبقيَ ما يقرب من(3) ثلاثة قرون رئيسًا لهذه النَّواحي، وكان مركزا أصليًا في **(مجانة)**، ثمَّ بـ **(قلعة بني عبَّاس)**، ثمَّ... الخ، ثمَّ وقعت الثَّورة، ثمَّ كانت هذه العاصمة العالمية التي لا زال المؤرِّخون يذكرونها، ولا يزال كثير من علماء الآثار من مختلف البلدان حتَّى البلدان الأجنبيَّة يزورون معالمها، ويذكرونها في كتبهم، ويخصِّصون لها الكتب، ويخصِّصون لرجالها التَّراجم الطَّويلة.

أيُّها السَّادة، ماذا أقصد من كلامي هذا؟

واسمحوا لي إذ أنَّني أريد أن أحيل الكلمة ـ فإنَّنا عندنا مناسبات كثيرة نجتمع فيها ـ إلى الأخ هذا، وإنَّما نريد أن نتناصح كما قال الله تعالى: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥٥﴾ (الذاريات: 55).

إنَّني أسوق لكم كلمة لأحد الإخوان الباكستانيِّين، أو الهنديِّين، وهو الشَّاعر محمَّد إقبال.

الشَّاعر **محمَّد إقبال** كتب مِن أَربعين سنة رسالةً لأَحدِ أَصدقائِه، وهو: **محمَّد علي خباح** (رئيس الحكومة) عندما تولَّى الرِّئاسة، ماذا يقول له؟

يقول له: «إنَّني قرأتُ كثيراً، وتجوَّلتُ كثيراً، وجرَّبتُ، واطَّلعتُ في أبحاثٍ، فوجدتُ أنَّ المسلمين عندما تفترق بهم الطُّرُق، وعندما يضيِّعون الوصف، أو تبلغ بهم مثلا الحالات النَّفسية التي توقع لهم نكسات في تاريخهم، يرجعون إلى القرآن، ويرجعون إلى الدِّين، وهو الذي ينجيهم من الورطة التي تورَّطوا فيها».

هذه كلمات قالها إنسانٌ حكيمٌ، ونحن بحمد الله قالها لنا النَّبيُّ ﷺ في حياته، فإنَّه عندما ذاق المسلمون الذين دخلوا في دين الله حلاوةَ الإيمان، ورأوا وسمعوا من

النَّبيِّ ﷺ آخر آية نزلت، وهي قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ (المائدة: 3)، فعند ذلك خشيَ أولئك النَّاس، وقالوا: إنَّ النَّبيَّ ﷺ قد انتهت مهمَّته، وأدَّى أمانته، لكنَّنا نخشى أن يتنكَّر المسلمون للإسلام، لكنَّ النَّبيَّ ﷺ أطلعه الله سبحانه وتعالى، [فخطب] عليهم خطبته الشَّهيرة في حجَّة الوداع، وقال فيها: «إنَّ الشَّيطان أيس أن يُعبد في بلدكم هذا»، حقيقة إنَّ الشَّيطان أيس أن يُعبد في هذه الأرض أبداً، رغم مرور أربعة عشر قرناً من قوله ﷺ هذه الكلمة، فإنَّ المسلمين وإن كانت مرَّت عليهم أوقات خسروا بلدانهم، واحتلَّها الأجنبيُّ، ولكنَّ الإسلام لم يُمسَّ، ضَعُفَ المسلمون، والإسلام بقيَ كما هو، وبقيَ هو الحصن الذي يتحصَّن به المسلمون.

ولكن ماذا قال النَّبيُّ ﷺ؟ قال: «إنِّي تركتُ فيكم ما إنْ استعصمتم به، لن تضلُّوا أبداً، كتاب الله، وسنَّة رسول الله ﷺ»، فإنَّه أوصانا بأنَّنا إذا أردنا أنْ لا نضِلَّ، وأن ييأس الشَّيطانُ منَّا، أو أنْ يُعبد في أرضنا هذه، فينبغي لنا أن نتَّبع ديننا، ودينُنا بحمد الله تعرفون تعاليمه.

وهذا قصدنا في هذه الكلمات الوجيزة، وفي هذه الملاقاة القصيرة، التي تكلَّمنا فيها على محاسن الدِّين وتعاليمه، فإنَّكم بحمد الله كلّكم تعرفون الكثير منها، وتسمعون فيها الآيات القرآنية التي تُتلى عليكم، ودروس التَّفسير ودروس الحديث، وإنَّما نتناصح في الدِّين.

ينبغي علينا أن نتَّحد ونتضامن، ويكون استقلالنا كالإنسان الذي يترك له آباؤه ميراثًا، فإنَّه إن قام بذلك الميراث الذي تركه له سواء كان زراعة أو تجارة أو فلاحة أو غير ذلك، فإنَّه ينتفع به ويستغني عن المسألة، ويسرُّ أصدقاءه ويحبُّون له الخير، وإنْ لا

قدَّر الله كان سفيهًا وغير رشيد، فإنَّه يبدِّد تلك الثَّروة، ويبقى أضحوكة للنَّاس، ويبخس حياة أهله وحياة أحبابه، ويكون آباؤه عند ذاك تركوا الخلاء، فنحن كذلك.

إنَّ الاستقلال ليس هو الغاية لنفسها، [بل] ينبغي لنا أن نحافظ على هذا الاستقلال، بالاتحاد والتّضامن والتَّعاون على البرِّ والتَّقوى، وأن لا نتعاون على الإثم والعدوان.

واسمحوا لي أن أقدِّم الأخ الفاضل، وأكرِّر لكم من جديد عذري، لهذا الحفل، ولهذا التَّأخير الذي ما كنَّا نتوقَّعه، ونحن مشتاقون إلى زيارة هذه البلدة الجميلة التي تربطنا بها صِلات قويَّة.

والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

[رسالة من مدينة فاس (المغرب)
إلى الأستاذ محمود بوزوزو][1]

فاس في: 24 ذو القعدة 1365[2].

الحمد لله.

أخي العزيز سيِّدي **محمود** (حفظكم الله)، وبعد:

فإنَّنا ما زلنا بـ : **فاس**، وإقامتُنا فيها كانت ممتِعة، صادَفنا زيارة المِلك لِتَدشين بعضِ المدارس، وافتِتاح السَّنةِ الدِّراسيَّة بـ : **القرويِّين**، فأُقيمَت حَفلات لم يُسبَق لها نَظير، أَظنُّ أنَّني كنتُ ذكَرتُ لك أنَّه لحقَ بِنا هنا كثير مِن أَصدِقائِنا، وقضَوا مَعنا أَيَّاما، كالسَّيد **الصَّادق الزمِرلي** (صِهر طامزالي)، والشَّيخ **الهادي السَّنوسي**، وأمَّا الشَّيخ **محمَّد بن البجاوي** فإنَّه رافَقنا مِن **وجدة**، كنَّا عازِمين على السَّفر إلى **الرِّباط** فـ : **مراكش** و**طنجة**، إلَّا أنَّ ضيقَ الوَقتِ وعَدمَ تأهُّبِنا لمثلِ هذا السَّفرِ الطَّويلِ مَنعانا مِن مُواصَلة السَّفر، رغمَ إلحاح الشَّيخ سيدي **المختار**، ولهذا فإنَّنا سَنرجع ـ إن شاءَ الله ـ في الأُسبوع الجاري.

بلِّغ أَزكَى تحيَّاتي إلى الأَصدقاء، خُصوصًا الأخ السَّيد **هنِّي**، ودمتُم محفُوظين، والسَّلام.

مِن أخيك المهدي

---

(1) اعتمدنا في إدراج هذه الرِّسالة على بطاقة أصلية، وردت من طرف المرسل. (ع)

(2) الموافق لـ : 19 أكتوبر 1946م. (ع)

الحمد لله

CORRESPONDANCE ADRESSE

فاس ٢٤ ذ. القعدة ١٣٦٥

N'écrire que sur le côté réservé à la correspondance

أخي العزيز سيدي محمد حفظكم الله وبعد فإننا
مازلنا بعاصمة [illegible] وإقامتنا فيه كانت ممتعة جدا وزرنا
الملك لنتفسح بعض المدارس، وافتتاح السنة الدراسية
بالقرويين بإقامة حفلات لم يسبق لها نظير الحفاوة
كنت ذكرت لك أنه لحق بنا هنا كثير ممن [illegible]
معنا أياما كالسيد الهادي الزمرلي حفظه الله مزايا والشيخ
الهادي السنوسي وأما الشيخ محمد بن البجاوي فإنه رافقنا
من جدة كنا عازمين على السفر إلى الرباط ومراكش
لكن الآن ضيق الوقت وعدم [illegible] لمثل هذا السفر الطويل
منعنا من مواصلة السفر غير الحاج الشيخ سيدي المختار ولهذا
فإننا سنرجع إن شاء الله في الأسبوع الجاري [illegible]
[illegible]

صورة عن الرِّسالة



38 FEZ. — Médersa Bou-Anania, la Cour et le Minaret. — LL

[رسالتان مِن أَلكانت (إِسبانيا)]

الرِّسالة الأولى[1]:

الحمد لله، والصَّلاة والسَّلام على رسول الله.

أَلِكَانْت في: 8 شعبان، 15/ 1/ 62.

إلى الأخ الفاضِل، تحيَّةً وسلامًا، وبعد، فإني أكتب إليكم من (**أَلِكنْت**) حيث وصلتُها منتَصفِ نهارِ الأَمس، وإنَّني كنتُ قضيتُ أيَّامًا بـ: (**مدريد**)، زُرتُ خِلالها (**مكتبة الأسكوريال**) الشَّهيرة، المحتوية على ما يربو على الثلاثة ألف مجلَّد، مُعظمُه مِن التُّراثِ الأندلسي.

ولمَّا كان الوقتُ محدودًا، إذ كنتُ مع (قافلة السُّوَّاح) والأَجانب، والمكتبةُ لا تفتحُ أبوابها للقُرَّاء إلا ساعتيْن في النهار [من الحادية عشر صباحًا، إلى الواحدة]، فبقيْتُ بها، واطَّلَعتُ على نوادر المخطوطات، خصوصًا مخطوطات العلماء الأكابر، ومِن جملة ما عثرتُ عليه:

كتاب: (**الأنوار المُنْبلِجة في بَسط أسرار المنفرجة**)، تأليف **أبي العباس أحمد بن الشيخ الصالح أبي زيد عبد الرَّحمن النقاوسي** الأصل، البجائي، نُسِخَ سنة 944، وفيه ترجمة وافية للمؤلِّف الشَّيخ **أبي الفضل يوسف بن محمد يوسف**، المعروف بـ: **ابن النَّحوي**.

---

(1) اعتمدنا في إثباتها على نُسخة بخطِّ الشَّيخ **المهدي** تقع في صفحتَين، وقفنا عليها بمكتبة الشَّيخ **المهدي** بمدينة بطيوة. (ع)

كما عثرتُ على مجلَّد آخر للشيخ **أبي زكريا الأنصاري**، يُسمَّى كتاب: (**الأضواء المبهجة في إبراز دقائق المنفرِجة**)، تأليف زين الملَّة والدين، شيخ الإسلام **أبي يحي زكريا الأنصاري الشافعي**، وهو بخطِّ المؤلِّف (رحمه الله)، يقول في خاتمته: « تَمَّ الشرح بحمد الله وعونه في سلخ شهر رمضان سنة اثنين وثمانين وثمانمائة، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وكان الفراغ مِن كتابته في الثاني عشر من شهر شعبان المُكرَّم سنة أربع وثمانين وثمانمائة ».

كما وجدتُ مخطوطات أخرى قيمة، عليها خطوط بعض أكابر العلماء، كـ : **لسان الدِّين ابن الخطيب**، و**ابن مرزوق**، و**أحمد بن يحي الونشريسي**، وولده الشَّيخ **عبد الواحد**، وكتابٍ مِن نفائس الدنيا فيه إجازة عليها خطُّ العلامة **عبد المهيمن الحضرمي السَّبتي**، أحد مشايخ **ولي الدِّين ابن خلدون**، وكان هذا الأخير يُعجب به كثيرًا، وهو القائل:

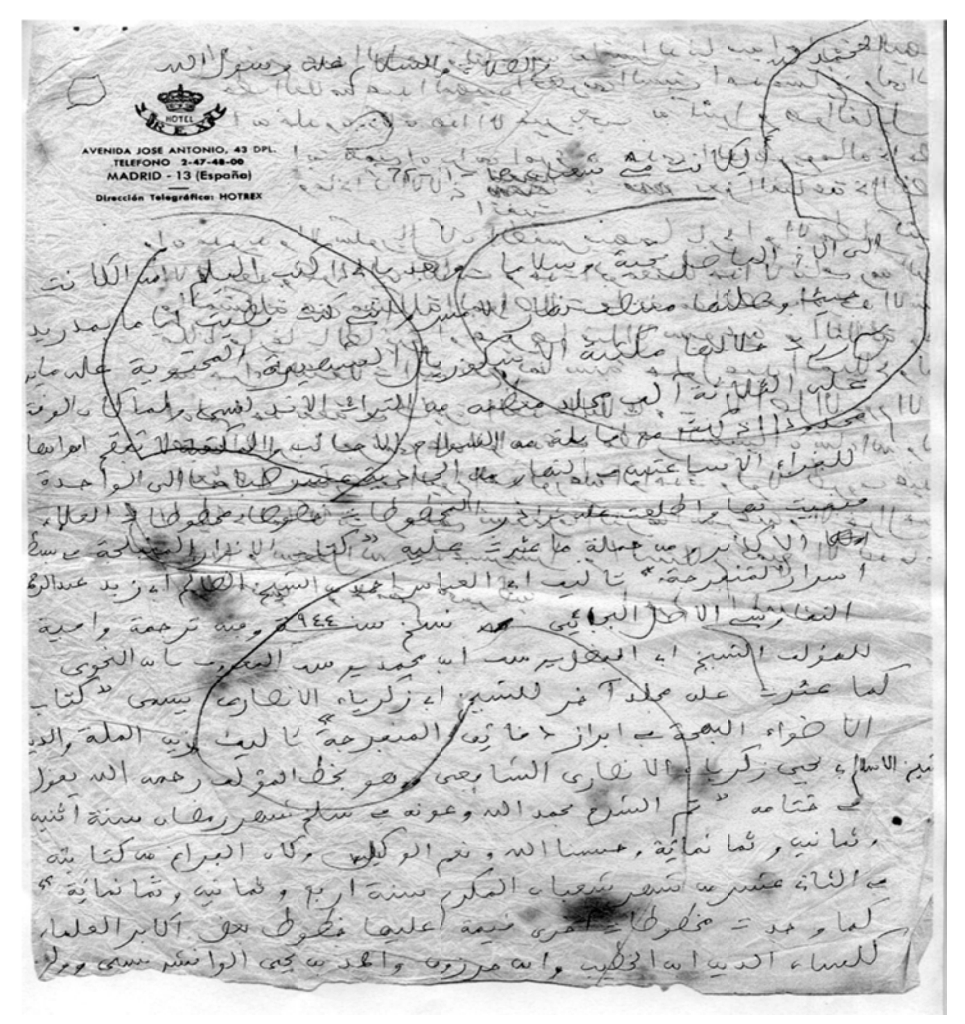
أَبَــتْ هِمَّتِــي أنْ يــرانِي امــرُؤٌ ... مَدَى الدهرِ يومًا لـه ذا خنـوع
ومــــا ذاك إلاَّ لأنِّي اتَّقَيْـــــتُ ... بِعِــزِّ القناعـــةِ ذُلَّ الخضـــوع

وإنَّ (**مدريد**) و(**الأسكوريال**) كان الطَّقسُ فيهما باردًا والأمطار كثيرة إلا بعد وصولي إلى (**ألِكَانْت**)، وجدتُ الجوَّ معتدِلاً جدًّا كأننا في زمن الربيع، والمشكلة مشكلة المواصلات، فإنه من الصعب أن يجد الإنسان مكانًا فارغًا بالطائرة أو غيرها قبل الأسبوعَين والثلاثة، وذلك من جرَّاء التنقُّلات التي تقَع بمناسبة حلول عيد الميلاد، ولهذا إن لم أجِد بُقعة في طائرة الغَد (الثلاثاء)، لا أصِلُ إلَّا يوم الأحد 21 مِن الجاري الفرنسي، على الواحِدة في مطار (**السِّينيا**) ـ إن شاء الله ـ.

ولهذا ابعثُوا لي سيارة في اليَومِ المذكورِ على الواحِدة، ولولا ظروف عيد الميلاد لما كانت رِحلتي تَستغرقُ أكثَر مِن أُسبوعَين، والأَحوالُ حسنَة جِدًّا، و﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ (الطلاق: 7).

والسَّلام لجميع الأصدقاءِ والمحبِّين، ودُمتم محفوظين.

أخوكم المهدي



HOTEL REX
AVENIDA JOSE ANTONIO, 43 DPL.
TELEFONO 2-47-48-00
MADRID - 13 (España)
Dirección Telegráfica: HOTREX

للمؤلف الشيخ أبي المظفر يوسف بن محمد بن يوسف المعروف بابن النحوي
لما عثرت على مجلد آخر للشيخ أبي زكرياء الأنصاري يسمى "كتاب
الأضواء البهجة في إبراز دقائق المنفرجة" لشيخ زين الملة والدين
شيخ الإسلام يحيى زكرياء الأنصاري الشافعي وهو بخط المؤلف رحمه الله يقول
في ختامه "تم الشرح بحمد الله وعونه في سلخ شهر رمضان سنة اثنين
وثمانين وثمانمائة، حسبنا الله ونعم الوكيل، وكان الفراغ من كتابته
في الثالث عشر من شهر شعبان المكرم سنة أربع وثمانين وثمانمائة"
لما وجدت مخطوطات أخرى قيمة عليها خطوط بعض أكابر العلماء

صورة عن الصَّفحة الأولى من النُّسخة المعتمدة

الرِّسالة الثَّانية [1]:

الحمد لله، والصَّلاةُ والسَّلامُ على رسولِ الله

أَلِكَانْت: في 8 شعبان، 15/ 1/ 1962.

حضرة الأَخ الفاضِل المحتَرِم سيِّدي الحاج **محمَّد بن الهاشمي** (حفظكم الله ورعاكم)، وبعد:

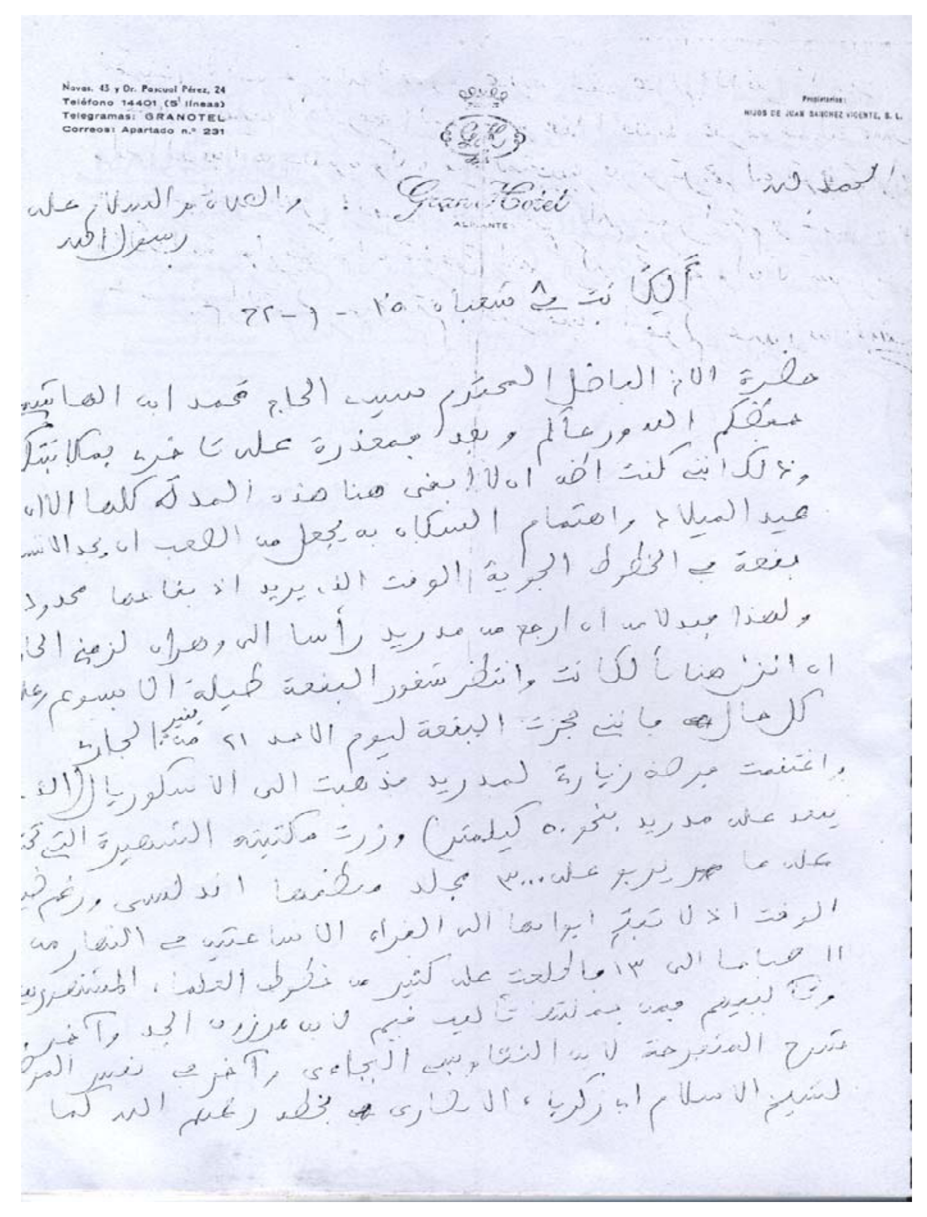
فمَعذرةً علَى تأخُّري بِمُكاتَبتك، وذلك أَنَّني كنتُ أظنُّ أن لا أَبقَى هنا هذِه المدَّة كلّها، إلَّا أنَّ عيدَ الميلادِ واهتمام السُّكانِ به، يجعلُ مِن الصَّعبِ أَن يجِدَ الإِنسانُ بقعةً في الخطوطِ الجويَّة في الوَقتِ الذي يُريد، إِذ بِقاعُها محدودة، ولهذا فَبدلًا مِن أَن أَرجع مِن **مدريد** رأسًا إِلى **وَهران**، لَزِمَني الحال أَن أَنزلَ هنا بـ : **أَلِكانْت**، وأَنتظِر شُغورَ البُقعةِ طيلةَ الأُسبوع، وعلى كلِّ حالٍ فإِنَّني حَجزتُ البُقعةَ ليومِ الأَحد 21 مِن يَناير الجاري، واغتنَمتُ فُرصةَ زِيارتي لـ : **مدريد**، فذَهبتُ إِلى **الأسكوريال** الذي يَبعدُ على **مَدريد** بنَحو 50 كيلومتر، وزرتُ مكتبتَه الشَّهيرة التي تحتَوي على ما يَربُو على 3000 مجلَّد، مُعظَمُها أَندلسي، ورَغمَ ضيقِ الوَقت، إِذ لا تَفتحُ أَبوابَها إِلى القرَّاءِ إلَّا ساعتَينِ في النَّهار، مِن 11 صَباحًا إِلى 13، فاطَّلعتُ على كثيرٍ مِن خُطوطِ العلماءِ المشهُورين وتآليفهم، فمِن جُملتِها تأليف قيِّمٌ لـ : **ابنِ مَرزوق** (الجدّ)، وآخَر شرح المُنفَرِجة لـ : **ابن النقاوسي البِجائي**، وآخَر في نفسِ الموضُوع لشَيخ الإِسلامِ **أَبي زكرياء الأَنصاري**، بخطِّه، (رحمهم الله)، كما أَمكنَني الاِطِّلاعُ علَى إِجازةٍ علَيها خطُّ عالمِ الدُّنيا الشَّيخ **عبد المهيمِن الحضرَمي السَّبتي**، وهذا الجهبذُ هو مِن جملة مَشايخ **ولي الدِّين ابن خلدون**، وكان مِن المعجَبِين بِه، وتَرجمَ له ترجمةً وافيةً في (**ديوان العِبَر**).

---

(1) اعتمدنا في إثباتها على نسخة مصوَّرة مِن مجموع: **تعريف الخلف بمآثر السَّلف**، للأستاذ هاشمي عبد الحفيظ ياسين. (ع)

أتمنَّى أَن تكونوا كلُّكم بِخَير، أَنتُم وجميع الأَصدقاءِ والطَّلبة، وأَرجُو أَن تبلِّغوا لهم أزكَى تحيَّاتي، وأَن لا تَنسَونا مِن دُعائِكم الصَّالح، ودُمتُم محفوظين.

أخوكم عبد ربه **المهدي**



Navas, 43 y Dr. Pascual Pérez, 24
Teléfono 14401 (5 líneas)
Telegramas: GRANOTEL
Correos: Apartado n.º 231

Propietarios: HIJOS DE JUAN SANCHEZ VICENTE, S. L.

Gran Hotel
ALICANTE

الحمد لله وحده [illegible] والصلاة والسلام على رسول الله

أليكانت في ٨ شعبان ... ٢٥-١-٧٢

حضرة الأخ الفاضل المحترم سيدي الحاج محمد ابن الهاشمي
حفظكم الله ورعاكم وبعد فمعذرة على تأخري بمكاتبتكم
وذلك أنني كنت [illegible] إلا بقيت هنا هذه المدة كلها إلا
عيد الميلاد واهتمام السكان به يجعل من الصعب أن يجد الإنسان
بقعة في الخطوط الجوية الوقت الذي يريد إذ بقاعها محدودة
ولهذا فبدلا من أن أرجع من مدريد رأسا إلى وهران لزمني
أن أنزل هنا أليكانت وانتظر شغور البقعة طيلة الأسبوع وعلى
كل حال فإنني حجزت البقعة ليوم الأحد ٢١ منه ينير الجاري
واغتنمت فرصة زيارتي لمدريد فذهبت إلى الاسكوريال الذي
يبعد على مدريد بنحو ٥٠ كيلومتر) وزرت مكتبته الشهيرة التي تحتوي
على ما [illegible] على ٣٠٠٠ مجلد مخطوطا أندلسيا ورغم ضيق
الوقت إذ لا تفتح أبوابها إلا [illegible] ساعتين في النهار من
١١ صباحا إلى ١٣ ما اطلعت على كثير من مخطوطات التلمسانيين والمشرقيين
[illegible] لبعضهم [illegible] لابن مرزوق الجد وآخر
شرح المنفرجة لابن النحوي [illegible] وآخر في تفسير
لشيخ الإسلام أبي زكريا [illegible] البخاري في مجلد رحمهم الله كما

صورة عن الصَّفحة الأولى مِن النُّسخة المعتمدة

رحلة وفد المجلس الإسلامي الأعلى
بوزارة الأوقاف إلى فرنسا[1]

الحمدُ لله، والصَّلاة والسَّلام على رَسولِ الله.

كان الوفدُ مركَّبا مِن السَّادة: **العبَّاس بن الشَّيخ الحسين** (رئيس الوفد)، و**محمَّد الشريف مقداد** (مدير الإدارة العامة بوزارة الأوقاف)، و**المهدي البوعبدلي** (العضو بالمجلس الإسلامي الأعلى).

خرَجنا مساء الجمعة ثاني رجب 1387 الموافق 6 أكتوبر 1967 مِن مطار **الدَّار البيضاء** بالعاصمة على الثالثة بعد الزَّوال، فوصلنا إلى مطار **أوربا** بعد ساعتَين، فوجدنا إخوانا مِن أعضاء ودادية الجزائريِّين في انتظارنا، وقادونا إلى النَّزل واستدعونا لتناول طعامِ العشاءِ فاعتذَرنا لهم، وفي الغد ـ أي: صباح السَّبت ـ اجتمعنا بهم في مقرِّ الوداديَّة، ثمَّ دُعينا بعدَ جلسة عمل لتناول طعام الفطور، وضربنا موعدا لاستئناف العمل صباح يوم الاثنين، وفي أثناء فترة[2] العُطلة اجتَمعنا ببعض المواطنين المهاجرين، منهم: السيِّد **أحمد حشلاف** المحامي السَّابق والمدير للقسم الشَّرقي بشركة **باتي ماركون**، فأقامَ لنا مأدبة بداره يوم الأحد، وذهب بنا إلى **(قصر فرصاي)**، فتجوَّلنا فيه وأمكننا الإطِّلاع على ما جمعَ فيه مِن لوحات الفنَّانين في عهد **لويس الرابع عشر** ومن بعده مِن الملوك، وما زال اهتمام القادة الفرنسيِّين بهذا القصر وبإِحياء آثاره وإِقامة المآدب لرؤساء

(1) اعتمدنا في إدراج هذه المقالة على نسخة خطيَّة تقع في أربع صفحات. (ع)

(2) في الأصل: « فطرة ».(ع)

دول الدنيا بِبَهوه العظيم، وقد اتُّخذ قصر **التريانو** (Trianon) الذي هو مِن مُلحقاتِه، **إذ** اتَّخذه **لويس** 14 لإِحدى محظوظاته، فقد هيئ هذا القصر نزلا لضيوفِ **فرنسا** الآن، أمَّا الحديقة المحاطة بِبحيرة القصر فهي تشغل مساحةً تربو على 6400 هكتار.

استأنفنا صباح يوم الاثنين جلسةَ العمل، وذلك بحضور الأخوين **محمود قنز** رئيس الودادية، وخليفته السيِّد **عبد الكريم**، واتَّفقنا على نقاط، منها المستَعجلة ومنها المؤجَّلة، **ثمَّ** تناولنا الفطور على مائدتهم، ويوم الثلاثاء دُعينا عند أحد المواطنين، وفي المساء أقام لنا مأدبة قهوة السَّفير الأخ السيِّد **رضا مالك**، ولقينا بِمَزيد مِن السُّرور والاحترام، وعاملنا مُعاملةَ التلميذ البارِّ لأساتِذته، وعرض علينا سيارة السِّفارة مدة إقامتنا، فأَخبَرناه بأنَّنا لا نكلِّفهم مشقَّة، **إذ** كان مُواطِننا **حسلاف** جعلَ سيارتَه تحت تصرُّفنا.

[وفي نفس] اليوم زارَنا المواطن السيد **أورابح الصَّادق** العضو بمجلس الدَّولة الفرنسي الدولي، والذي سبق له أن كان عامِلا بالأَصنام وكاتبا عاما بوزارة الداخليَّة الجزائريَّة بعد الاستقلال، ثمَّ دُعينا لمحلِّ المواطن السيِّد **صالح أرزور** في مَسكنه قرب **مطار أورلي**، وعند زوال يوم الجمعة 13 غادَرنا **باريس** في طريقنا إلى **ليون** معَ القطار السَّريع صُحبةَ الأخ **بابا علي** مكلَّف بالشُّؤون الثقافية في الودادية، وودَّعنا المواطن السيِّد **المداوي** مقاول في البناء، وعِند الخامسة وصلنا إلى (Lyon) التي تبعدُ عن **باريس** بخمسمائة كيلو، طَواها القطارُ السَّريع (Paris-Rome le Mistral) في أربع ساعات، فوَجدنا في انتِظارنا أعضاء الاتحادية، على رأسهم الأخ **علي جيلالي**، والسيِّد **الشريف** تاجر أَصله مِن **خنشلة**، وغيرهما، فذهبنا إلى القنصلية الجزائرية فلقينا المواطن السيِّد **خالد خوجة** القنصل العام ـ أَصله مِن **أقبو** ـ وبعدَ اتِّصالنا بالسَّفير السيِّد **رضا مالك** تليفونيا، **إذ** كنَّا على موعدٍ معه مِن **باريس** ووعدَنا بالمقابلة صباح يوم السَّبت ذهبنا لنزل (Pasteur).

وفي صباح يوم السَّبت اتَّصلت بالمواطن السيِّد **يخلف النجاري** بمحلِّه، وذهبنا جميعنا إلى الإخوة السَّادة **محمود وعمَّار الفرفاريَّين**، وهما مِن أنشط تجَّار البلدة، ومعظم تجارتهم في المواد الغذائية الجزائرية، ومجزرة يَبيعون فيها اللُّحوم والدَّجاج المذكاة، ثمَّ ذهبنا إلى مقرِّ المؤتمر الذي عقدَه فرع جمعية الوداد بين الجزائر وفرنسا بحضور السَّفير ومعظم القناصل بالضَّواحي، ومنهم ولد السيد **بوبكر بوعودية البِجائي** هو الآن قنصل بـ : (**ڤرونبل**)، ثمَّ تناولنا الفطور عند الأخ **يخلف**، وبعد رجوعنا مِن عنده اتَّصل بنا الأخ **محمود بوزوزو** وجاء خصِّيصا مِن **جنيف** زارنا للنَّزل صحبة أخ مِن **البيِّض** كان نائب قنصل بـ (**جنيف**)، وهو الآن بـ (**ليون**)، ثمَّ اجتمعنا بكثير مِن المواطنين مُعظمهم مِن **بني خلاد** ونواحي **ندرومة**، وهيَّئوا لنا سيارات أقلَّتنا إلى المحطَّة وودَّعناهم هناك وذهبنا في قطار رئيسي على 6:21 فَوصلنا على 11 ونزلنا بأوتيل (le Cambom).

وفي صباح يوم الأحد تجوَّلنا في البلدة، واجتمعنا بالسيِّد **بومدين بن عابد، إذ** وجدنا أخاه **سليمان** غائبا بـ (**باريس**)، كما اجتَمعنا بالمواطن السيد **السَّايح** وتَناولنا العشاء بمحلِّه وودَّعنا على مَوعد الملاقاةِ صباح اليوم الاثنين، وقَد أخبَرنا السيد **بومدين** أنَّ أحدَ إِخوته كان ينوي شِراءَ أرضٍ لاتِّخاذِها مَقبرة، وعندما سعَى في الإجراءاتِ أَجابته الإِدارةُ المحليَّة بأنَّها مستعِدَّة لتَخصيصِ قِطعة هِكتارَين مجَّانا قُربَ المقبرة الفرنسية، وبالفعل أَنجَزوا معَهم الوَعد، وخطَّطت المقبرة، والجالية الجزائريَّة هناك لا تتَجاوَز 500 عامل.

[رسالة مِن باريس][1]

الحمد لله، والصَّلاةُ والسَّلامُ على رسولِ الله.

(باريس): في 7 رجب، 11/ 10/ 1968.

حضرة الأخ الكريم سيِّدنا الحاج **محمَّد بن الهاشِمي**:

تحيَّاتي وأَشواقي إِليكم، وبعد:

فَمعذِرةً علَى تأخُّري بالكتابة، وصَلنا عشيَّةَ يومِ الجمعة إِلى **باريس** بعدَ مُغادَرتنا للعاصِمة بِنَحو السَّاعتَين، إِلَّا أَنَّنا مِن المطارِ إِلى النَّزلِ الذي أُعِدَّ لنا بَقينا ما يَزيدُ علَى السَّاعتَين، لِكَثرة السِّيارات، وعلى كلِّ حالٍ وَجدنا الإِخوانَ في انتِظارنا وغَمَرونا بكرمهِم ولُطفهِم، وأَمكننا الجمعُ بين قيامِنا بِمُهِمَّتنا والاطِّلاع والتَّفسُّح علَى عاصِمة الدُّنيا التي بهَرت منذُ قرونٍ الكتَّابَ والعلماء، وإِن تَتبعَ الزَّائر كلَّ ما يَستَحِقُّ الإِطِّلاع علَيه لَما وَسِعَته إِقامة السَّنة والسَّنتَين، إِلَّا أَنَّنا اغتَنمنا فُرصةَ عُطلة الأَحد، فَذهَبنا معَ بعضِ المواطنينَ إِلى **قَصر فرصاي** الشَّهير، الذي اشتَهر بِالملك لويس الرَّابع عشَر المتوفَّى حَوالي 1745م، والذي بقيَ في المملكةِ نَحو السَّبعين سنة، وهَذا القَصر مِن مَفاخِر الدُّنيا، إِذ جمعَ فيه مِئات الأَلواح الزَّيتية، لمشاهير الفنَّانين، وهي في مِساحةٍ تَربو علَى 2400 هكتار، ومن جملة لَواحقِه بُحَيرة تَحوطُ بها حديقة عَظيمة تَجدها مكتَظَّة بِسكَّانِ

---

[1] اعتمدنا في إثباتها على نسخة مصوَّرة مِن مجموع: **تعريف الخلف بمآثر السَّلف**، للأستاذ هاشمي عبد الحفيظ ياسين، وهي رسالة بعث بها الشَّيخ **المهدي** إلى الشَّيخ **محمد بن محمد الهاشمي الملياني** الحسني (إمام المسجد العتيق) بمدينة **شلف** منذ سنة 1956م. (ع)

باريس على اختِلافِ أَعمارِهم وطَبقاتِهم، وكان البارزيُّون يحيونَ ذِكرَى عُظمائِهم ويفتَخِرونَ بهذا القَصر الذي يُشخِّصُ بِجميع مَظاهِره زَمنَ هذا المَلِك الجبَّار، ولم يَمنع البارزيِّين الذينَ يَتغالَون في الاِفتِخار بأَنَّهم حطَّموا أَغلالَ العُبوديَّة، وضَربُوا مَثلاً للدُّنيا أنَّ انفِجارَهم ضِدَّ طُغيانِ الملوكِ علَّم سكَّانَ الدُّنيا الاِقتِداءَ بهِم.

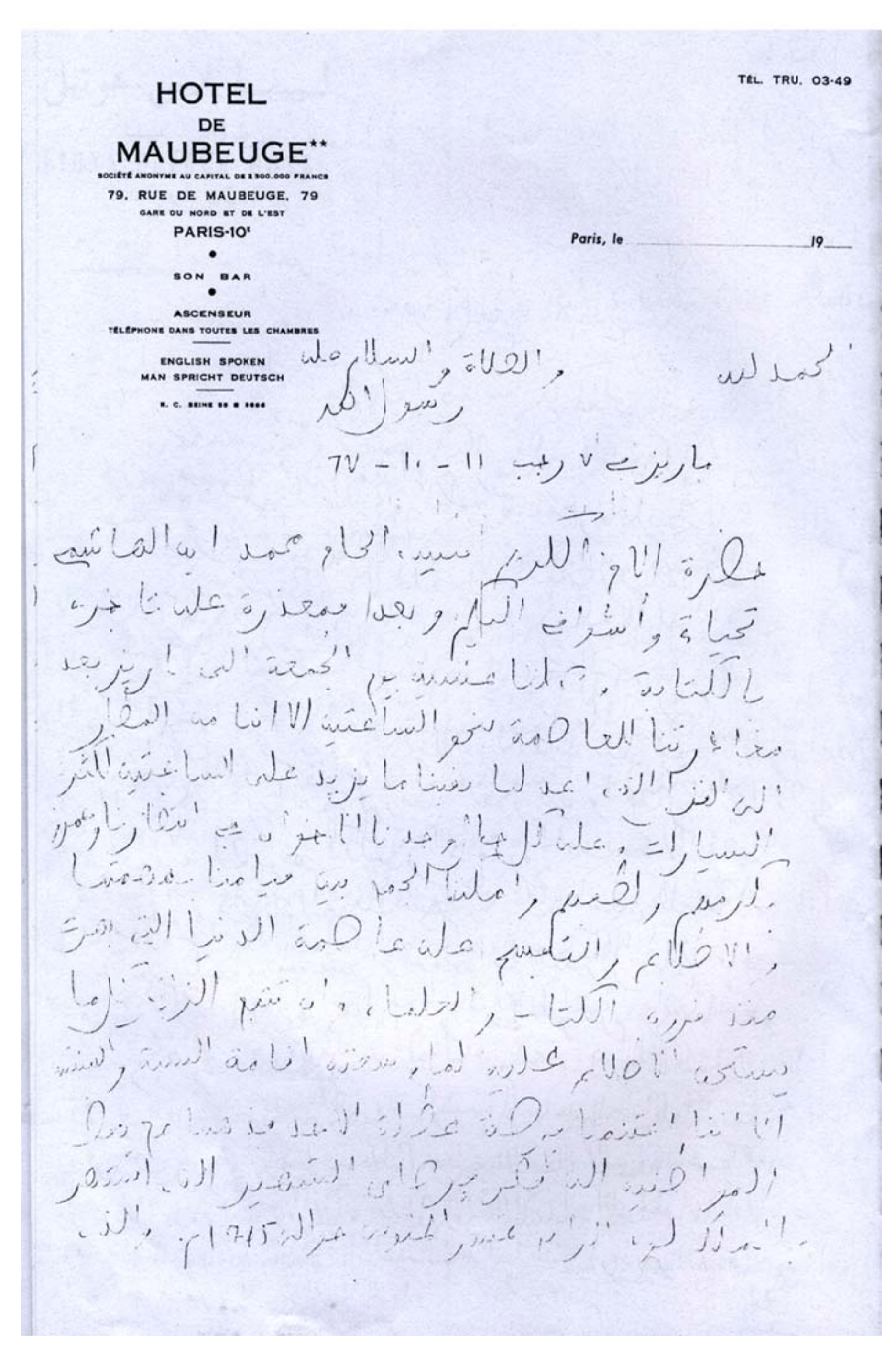
ما زالَ هذا الشَّعبُ وحكومتُه يَفتَخِرون بِعَهدِ هذا المَلِك، وجَمعوا كلَّ آثارِه، وآثارِ خُلفائِه بهذا القَصر، وهُم يُنفِقُون المَلايِير لِتَجديدِ بعضِ هذِه الآثار، ويُقيمونَ المآدِبَ الفاخِرة لرُؤَساء الدُّولِ فيه، واختاروا أَيضا قَصرا مِن مُلحقاتِه لِضُيوفهِم الكِبار، إِذ ميزة الجماعة هنا هيَ أنَّهم لا يُريدُون قَطعَ صِلتهم بِماضيهِم، ولا بِأَمجادِ سلَفِهم كَيفَما كانت أَفكارهم، فإِنَّهم يكتَفونَ بِجنسيَّتِهم.

أَمَّا بقية ما يُبهِر كلَّ سائح، فإِنَّها مَظاهر العظَمة والعلم، فتَجِدُ الآدابَ والأَخلاقَ والحزمَ والنَّشاط، وإِن اشتَهرت **باريس** وضُرِبَ بها المَثَل في حرِّية المرأَة مَثلا.

والخلاصةُ فلا يُمكِنك أَن تُشاهِدَ أَثرا لِذلك في المقاهي، ولا في الشَّوارع، بل وحتَّى في الِّلباس، فإِنَّك كأَنَّك في وَسطِ رُهبانٍ وراهِبات.

بلِّغوا تحيَّاتي للإِخوة السَّادة **عبد القادر**، و**أحمد**، وعبد القادر، كما أَرجُو أَن تبلِّغوا أَزكَى التَّحياتِ إِلى جَميع الأَصدِقاء، خُصوصًا الأَخ الشَّيخ الجيلاني وأعضاء المفتِشيَّة، وإِنَّنا سَنُغادِر **باريس** بعدَ يَومَين، ونَذهب إلى **ليون**، ثمَّ **مرسيليا** ثمَّ **العاصمة** ـ إِن شاءَ الله ـ ودمتُم محفُوظين.

المهدي



HOTEL
DE
MAUBEUGE**
SOCIÉTÉ ANONYME AU CAPITAL DE [illegible] FRANCS
79, RUE DE MAUBEUGE, 79
GARE DU NORD ET DE L'EST
PARIS-10e
SON BAR
ASCENSEUR
TÉLÉPHONE DANS TOUTES LES CHAMBRES
ENGLISH SPOKEN
MAN SPRICHT DEUTSCH
R. C. SEINE [illegible]

TÉL. TRU. 03-49

Paris, le ________ 19__

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

باريز ٧ رجب ١١ - ١٠ - ٦٧

حضرة الأخ الكريم سيدي الحاج محمد ابن الهاشمي
تحية وأشواق السلام وبعد، معذرة على تأخير
الكتابة، وصلنا عشية يوم الجمعة إلى باريز بعد
مغادرتنا العاصمة بنحو الساعتين إلا أننا من المطار
إلى الفندق الذي [illegible] أضعنا ما يزيد على الساعتين لكثرة
السيارات، على كل حال وجدنا الإخوان في انتظارنا وغمرونا
بكرمهم ولطفهم، وأملنا الكبير بربنا في أيامنا هذه هنا
والاطلاع والتحسس على عاصمة الدنيا التي اشتهرت
منذ قرون [illegible] الكتاب والعلماء، وأن تتبع [illegible]
[illegible] الأيام [illegible] إقامة السنة والسنة
إلا أننا [illegible] على [illegible] عن ذلك
الأمر [illegible] الشهير الذي اشتهر
[illegible] سنة ١٧١٥م والذي

صورة عن الصَّفحة الأولى من النُّسخة المعتمدة

الكلمة التي ألقاها الشَّيخ المهدي البوعبدلي
في (مجمع البحوث الإسلامية) باسم الجزائر

كلمة الجزائر(1)

صاحب الفضيلة الإمام الأكبر الدُّكتور: **محمَّد الفحَّام**، شيخ (الجامع الأزهر).

حضرات السَّادة العلماء، ممثِّلي الأقطار الإسلاميَّة:

أحيِّيكم تحيَّات الودِّ والتَّقدير باسم الوفد الجزائري، وباسم الأخ **العربي السَّعدوني** (وزير الأوقاف) الذي حمَّلني رسالةً لكم باسمِه وباسم (رئيس الجمهورية) الأخ **الهواري بومدين**، ولولا هذا لاكتفيتُ بالخطابِ القيِّم الذي ألقاه باسم (**الجزائر**) رفيقي الأخ **مالك بن نبي**، ذلك الخطاب الذي يعبِّر بإخلاص وصِدق عن شعور (**الجزائر**) نحو القضايا الإسلاميَّة بصِفة عامَّة، والفلسطينيَّة بصفة خاصَّة.

أَغتنِم هذه الفُرصةَ لأُساهِمَ الإِخوة السَّادة العلماء، الذين تداولوا الحديثَ مِن على هذِه المنصَّة، وإنَّني ركَّزتُ حديثي على جوانب مِن خطاب سماحة الأمين العام، الذي بيَّن فيه مَواقف بعض علماء السَّلف في الجهاد، أمثال **العزّ بن عبد السَّلام**، والإمام **أبي الحسن الشَّاذلي** عندما هاجم ملك فرنسا **لويس العاشر دمياطَ** و**المنصورة**، وإنَّني بناءً على وصيَّته سيكونُ حديثي مختصَرا.

(1) نشَرنا هذا النَّصَّ في كتابِنا: **الشَّيخ المهدي البوعبدلي، شهادات ووثائق** (ص: 197ـ 205)، منشورات المكتبة الوطنية الجزائرية، سنة 2008م. (ع)

وإنَّني أقتصر في حديثي على مَواقف بعضِ علماءِ بِلادنا ومُشاركتهم في الجهاد، في نفسِ الحملة الصَّليبيَّة التي قامَ بها ملك **فرنسا المذكور** بـ (**مصر**)، ثمَّ واصلَها بهُجوماتِه على (**تونس**) ومحاصرتها، استنجدَ ملك تونس **محمَّد المنتصر بالله الحفصي**، بـ (**أمير ونشريس) الجزائري**، فأرسلَ إليه جيشًا مُكوَّنا مِن طلبة العلم المتطوِّعين للجهاد، تحت قيادة ولدِه، وإمارة **ونشريس** هذه هي التي أقام فيها المؤرِّخ **عبد الرحمن بن خلدون** أربع سنواتٍ كَتَبَ فيها (**مقدِّمة) تاريخه**، ثم تجدَّد خطر الصَّليبيَّة بالنِّسبة للمغرب في أَبشَع وأَفظع صورةٍ في أوائل القَرنِ العاشر بعدَ سقوط **غرناطة** آخِر معقل للمسلمين في **الأندلس**، فَتساقَطت عَواصم المغرِب العربي، كـ : **وهران وبجاية** ثم **تونس** و**طرابلس**، وكانت هذِه الحربُ صليبيةً محَضة، ولو سمَّاها كثير مِن المؤرِّخين بالحربِ الإسبانية، حيث كانت **إسبانيا** هي التي تَبنَّتها، وكانت مركز انطلاقها، وإلَّا فهي صليبيَّة، إذ في سنة 924هـ أعلنَ (**البابا**) بِـ : (**روما**) الحربَ الصَّليبيَّة على بلادِ المغرب العربي، وأمَرَ ملوكَ **أوربا** بعقدِ مُهادنة لخمسِ سنواتٍ تمكِّنُهم مِن التفرُّغ لاحتِلال ما بقِيَ من بلادِ المغرب.

احتلَّ الصَّليبيُّون مُدنَ سواحل **المغرب** دونَ أن يلقوا مقاومةً تُذكر، خصُوصًا مِن السُّلطات، فعندئذٍ اجتمعَ علماءُ الدِّينِ واتَّفقوا على إحياء (**الرِّباطات**)، وقَد حفِظ لنا التَّاريخُ على عَرضِ حال لبعضِ هذه الاجتماعاتِ التي كان يحضُرها علاوةً على رجال الدِّين، رؤساءُ القبائل، وتعهُداتهم بإِمداد الرِّباطات بالأَموالِ والرِّجال، وبالفعل امتدَّت هذه الرِّباطات طِوالَ شَواطئ المغرب، ثمَّ اتَّصل بعضُ العلماءِ بـ (**عرُّوج**) وإِخوته الذين كانوا يُهيْمِنون على (**البحر الأبيض المتوسّط**)، وخِلافا لما يدَّعيه كثيرٌ مِن المؤرِّخين المستَشرقين بأنَّ **عرُّوج** وإخوتَه لم يحتلُّوا (**الجزائر**) تِلقائيا، ولهذا فإِن الجزائريِّين قابلوهُم مُقابلةَ إخوة مُسلمين جاؤوا لإِنقاذهم مِن الحملة الصَّليبيَّة.

كان سكَّان **الجزائر** يتوقَّعون الهجومَ الصَّليبي بعدَ سقوطِ (**غرناطة**)، حيثُ كان

الاتِّصالُ بينهم وبين الأندلسيِّين مُتواصِلاً، وقد اكتَشفَ منذُ سنواتٍ البحاثةُ المصري: **محمد عبد الله عنان** بـ : **خزانة البابا**، بـ (**روما**)، كتابا مُوجَّهًا مِن عالم جزائري (بعد سقوط **غرناطة** طبعًا) إلى الأندلسيِّين يحثُّهم فيه على الصَّبر وانتِظار الفرج، وفتاوى فيها رُخَص، نظرًا لما أكرهوهُم عليه مِن (**محاكم التفتيش**)، كما وقعَ الاتِّصال في هذِه الفترة بينَ علماء **الجزائر** والمغرب للتعاون في الجهاد وإحياء الرِّباطات وصدِّ غارات الصليبيِّين، خصوصًا بعدَما أعلنَ العالم الشَّهير **أحمد بن القاضي**، المعروف بـ : **ابن أبي معلى السجلماسي** الثَّورةَ على الملوكِ السَّعديِّين المتقاعِسين إثر احتِلال مدينة **العرائش**.

وهذا نموذج مِن رسائل هذا العالم أَرسلَها لكثير مِن العلماء خصُوصا الجزائريِّين منهم، يَصِف الظُّروفَ التي أدَّته إلى إعلانِ الثَّورة على ملوكِ بِلاده وندائِه للجِهاد، قال: « قلت: وهو أَشبهُ بِزمانِنا هذا منذُ سِنين، والأَمرُ قَد مرج، والحرجُ فيه عَن الحلِّ مِن كلِّ وجهٍ قَد خَرج، والأمةُ ما اتَّفقت على واحد، وكلُّ مَن تغلَّب على جِهة قليلةٍ مِنهم إنَّما يُبايِعه مَن لا بالَ له، أَو مُكرَه على بَيعتِه خَوفًا مِن ظلمِه، فساءَت حالُ الأمة، وعمَّت فيها البليَّة والغُمَّة، وفاضَ الكفرُ حتى أُخذت السَّواحل ولا مغيثَ لأَهلها، مع استِغاثَتِهِم لجميع القبائل، وعُطِّل فيها الأذان، وضُرِب النَّاقوس في مَساجدها، ونُصبت الصُّلبان وعبِدَت في محارب الله مِن دونه الأوثان، وكل عالم بزعمه أو صالح بوهمه أو أمير بدَعواه».

ثمَّ يوجِّه خِطابَه إلى المغاربة والجزائريِّين، فيقول: « إنه نزلَ بكم يا معشَر المسلمين خِزيٌ وذلٌّ وهوانٌ وخُسران، ومعرَّةٌ ومضرَّةٌ في المال والولدان، فما هذه الرَّقدة وقَد غَشيكم مِن عدوِّكم سَيل قُحاف[1] ووَيلٌ جاف، فلا النارَ تَخافون، ولا العارَ تتَّقون،

(1) سَيْل قُحافٌ وقُعافٌ وجُحاف: كَثِيرٌ يَذْهَب بكلّ شيء، واقْتَحَفَ سَيْلُه كلَّ شيء. انظر: **لسان العرب** مادة: [قحف]. (ع)

كأنِّي بِنسائِكم وأَبنائِكم خَدمًا ومَغنما للكفَّار والفجَّار، فَوا أسفا على ... [1] نيرانها خامِدة، كم لي أَضربُ في الحديدِ البارد، ومتى تَنفع الذكرَى في القلبِ الراقدِ والميتِ البائِد ..»، ويختِمُ نداءَه هذا بِقَصيدة طويلةٍ نقْتطِفُ منها هذه الأبيات:

فيا مَعشر الإِسلامِ هَل مِن مجاهِد يريدُ رضـاءَ الله أَو مِـن مُسَـاعدِ

ثم يذْكُر القبائل الموجَّه لها الخطاب واحدة، واحدة، ويختم قصيدته بقوله:

فَيا أَهلَ هذا الغـربِ عـارٌ عليكمُ تُـؤدُّون للكفَّـارِ جِزيـةَ رافـدِ

وأَمـوالكُم مَغنومـة وسـتُوركم مهتَّكـة وذُلُّكـمُ في تَزايـدِ

وأخيارکم أَشرارکُم ورؤُوسکم أکارعکم، سُحقًا لكُم مِن روافـدِ

وقد كان على رأسِ وفدِ **الجزائر** الذين اتَّصلوا بهذا العالم الثَّائر الشيخ **سعيد قدُّورة** صاحب (**شرح السُّلَّم**) المطبوع في **مصر**.

كان لهذا النِّداء والاتِّصالات أعظم فائِدة، وإن دام احتلال الصليبيِّين لبعضِ المدُنِ الجزائرية، كـ : **وهران**، ثلاثة قرون، إلَّا أنَّ الحربَ كانت مُتواصِلة، وكان الصليبيُّون محاصَرين، وقائمة المستشهدين خصُوصا مِن العلماءِ طويلة، وإنَّني أذكُر لكم مَعركةً واحدةً خسِرَ فيها الجيشُ الصَّليبي تِسعة آلاف أَسير وعَشرة آلاف قَتيل، دامَت ثلاثة أيام، وقد سجَّلها شاعرٌ شَعبي مِن علماءِ الدِّين، كان مِن قوادِ المجاهدين، وقد نشَرت الوثائق الإسبانية أَخيرا، فكانَت متَّفقة تَماما مع ما ذكَره هذا الشَّاعرُ المجاهِد المصلِح، الذي ما زال الجزائريُّون يحيون ذِكراه سنَويا، وينشدُون أشعارَه في الموالد[2].

وفي سنة 1206هـ كان **باي** الأيالة الوَهرانية **محمد بن عثمان الكردي** استعملَ النُّفوذَ الدِّيني لمحاربة الصَّليبيِّين، ودَعا لإِحياءِ الرِّباط، وجمعَ علماءَ القُطر، ورأَّس

---

(1) بياض بمقدار ثلاث كلمات. (ع)

(2) وهو الشاعر المشهور سيدي **لخضر بن خلوف** (رحمه الله تعالى). (ع)

عليهم أحد كبارِ علماءِ بلاطه، كان أزهريًّا وقاضيَ قضاتِه، ومنع التَّدريس في المنطقة التي كانت مِساحتها تبلغ ثلثَ مِساحة **الجزائر**، وأمرَ جميع المدرِّسين وطلبة القرآن بالالتِحاقِ بهذا الرِّباط، وكان مِن جُملة الوافِدينَ على هذا الرِّباط الشَّيخ **ابن أبي طالب**: مدير المدرسة الفقهية بـ : **مازونة**، تلك المدرسة التي تخرَّج منها الفَقيه **مصطفى الرَّماصي**، والشيخ **محمد بن علي السنوسي** (دفينُ ليبيا)، وكان عُمره يتَجاوزُ الثَّمانين، فجاءَ على رأسِ مائتَي طالبٍ ماشيًا، والمسافةُ بين **مازونة** والرِّباط مائتا كيلومتر، ومازونة هذه هي بلاد أسرة الشيخ **الأمير** دفين **مصر**، كما كان لهذا **الباي** اتِّصالٌ وثيقٌ بالشَّيخ **مُرتضى الزَّبيدي**، إذ كان يرسل له في كلِّ سنة إعانات يوزِّعها على فقراء الطلبة، وقد احتفظ لنا التاريخ ببعض الرسائل التي تُبودِلَت بينهما، وقد ختمَ الله لأَهلِ الرِّباطِ بالنَّصر، وأَمكَنهم مِن طَردِ الإِسبانيِّين الصليبيِّين مِن آخِر مَعقلٍ احتَفظوا به ثلاثةَ قُرون، ولم تمضِ على هذِه المدَّة إِلَّا أربعونَ سَنة حتى فوجِئَت **الجزائر** بالاحتِلال الفرنسي، فلم يلقَوا مُقاومةً تُذكر مِن السُّلطاتِ لأَسبابٍ لا يَسعها مجالُ هذا الحديثِ المحدُود، وإِنَّما نُسجِّل هنا مَوقفَ رجلٍ مِن رجالِ الدِّين بالجزائر، هو شَيخُ الإِسلام القاضي الحنَفي: **محمد بن محمود** المدعو بـ: **(ابن العنابي)**[1] نادَى بالجهادِ ورفَض الإستِسلام، فقَبضت عليه فرنسا ثمَّ أَبعدَته، فاختارَ الإِقامةَ بالإِسكندرية، حيثُ أسندَت له الفتوَى إلى أن توفي بها وتركَ آثارا هامَّة، مِنها: سندٌ مشهورٌ في الحديثِ الشَّريف، رواه عنه الشَّيخ **إبراهيم السقَّا**.

عندَما احتلَّ الفرنسيُّون **الجزائر** وانهارت الحكومة التُّركية، كان بعضُ مَن حضَر رباط **وهران** سنة 1206 بِقَيد الحياة، فعُقِد مؤتمرٌ مِن علماء الدِّين الذين وقَع اختيارهم

---

(1) هكذا ورد في نصِّ الخطاب المرقون بالآلة الكاتبة، ولابد من رابط بين الجملتين، مثل: « حيث نادى »، أو: « الذي نادى ... الخ ». (ع)

على أمثلِ شَخصية دينيَّة، فَبايَعوه، وهذا الشَّخصُ هو والد الأمير **عبد القادر** المشهور، وكان مُرابِطا في معهد والده يدرِّس العلم، وفي أوَّل مَعركة بينَه وبين الفرنسيِّين ظهرت بَسالةَ ولده الشَّاب **عبد القادر**، فلفتَ الأَنظارَ وكان عمره أربعة وعشرين سنة، فتخلَّى له والدُه عَن المملكة[1] لِكِبَر سِنِّه، فجُدِّدت البيعةُ لـ : **عبد القادر** بالمسجد الجامع في **أمِّ عسكر**، وكان الذي حرَّر عقدَها خاله الشَّيخ **ابن دوبة** خرِّيج **الأزهر**، وأحد كبار علماء **البِلاد**، وما زالت أُسرته تحتفِظ بإِجازاتِه الأَزهرية.

ومواقف الأمير **عبد القادر** معروفةٌ مشهورة، وأنا أستَميحكم العفوَ في ذِكر نبذةٍ مختَصرة مِن حَياتِه الدِّينية والعِلمية المتعلِّقة بِمَوضوع حَديثنا، فهو رجلُ عِلمٍ ودينٍ قبلَ كلِّ شيء، إنه عِندما بُويعَ بالمملكة اتَّخذَ مَثلَه الأَعلى سيرة الخلفاءِ الرَّاشدين تمامًا، وحافظَ عليها إلى أن لَقِيَ ربَّه، فكان يقودُ جيشَه ويتقدَّمُه في المعارك، ويؤمُّه في الصَّلاة، ويخصِّص له دروسًا في التَّفسير والحديثِ بعدَ صلاتَي الصُّبح والعِشاء، ويجلسُ في المسجدِ للقضاءِ بينَ المتخاصِمين، ولما عثَرنا على نُسخةٍ مِن (**صحيح البخاري**) في مجلَّد واحد كان يملكُها، كَتَبَ في آخرِها بخطِّه ما يلي: « ختمتُ **البخاري** أربع ختمات، بعضه روايةً وبعضه دِراية، وأنا الفقير إلى مَولاه كثير الذُّنوب والأَوزار، **عبد القادر بن محيي الدين بن مصطفى بن المختار، الرَّاشدي** أمير المجاهدين نصر الله به في الدُّنيا ودار القرار، شرعتُ في ابتداء الخامسة في 19 ذي الحجة 1251هـ، وأنا محاصِرٌ **تلمسان**، عجَّل الله بِفَتحِها وأعادَها دارَ إسلامٍ وإيمان، بِجاه النبيِّ وآله، و**البخاري** ورجاله، والسَّلام».

وما امتازت به حكومته أنه اختارَ وزراءه المعروفين إذ ذاك بالخلفاء، اختارَهم مِن أَهلِ العلمِ والوَرع، سبقَ لكثيرٍ مِنهم تولِّيه التَّدريس أَو القضاء في العَهدِ التُّركي، فَبقوا

---

(1) يقصِد الإمارة. (ع)

أَوفياء له 17 سنة، لم ينحرِف عنه واحدٌ فَضلا عَن خِيانتِه، رغمَ المغريات مِن طرفِ العدوِّ، وقَد جابَه بهم عدوًّا قويًّا، قادةُ جيشِه خاضُوا غمار الحروبِ معَ **نابليون الأول**، إلَّا أنَّ الهزائمَ التي كانوا يُلحِقونها بالفرنسيِّين، لا يَسعُنا الحديث عَنها، وإنَّما نَذكر واحدةً مِنها للعبرة، وقَعت سنةً قبلَ نهاية الحرب، وهذه المعركةُ مشهورةٌ عند الفرنسيِّين بـ: (**واقعة سيدي إبراهيم**)، خُصِّصت لها تآليف مِن قُواد الجيشِ الفرنسي، ومَوقِعُها قُرْبَ حدود **المغرب**، فَفي هذه المعركة أحصَوْا عددَ رؤوسِ القتلى في مدَّة يَومين، فكان ثلاث مائة رأس، ووقعَ بِقُربها مائتا جندي أَسرى، وكان على رأسِهم الكولونيل (Montagnac) الذي لقِيَ حَتفَه، وعلى رأسِ الجيشِ العربي الأمير **عبد القادر**، وخليفته قائد المنطِقة العالم الشَّهير **مصطفى بن التهامي** المتوفَّى بدمشق، وهؤلاء الأسرَى هم الذين اتَّهم الفرنسيُّون الأميرَ بأَنه قتلَهم وخالَفوا العهدَ علَيه، وقَبضُوه أَسيرًا سنَوات، إذ كان مِن الأَقدارِ أنه وقعَ في قَبضة الفرنسيِّين بَعد سنةٍ مِن تلك المعركة في ذلك المحلِّ، ومنه انتقلَ إلى **فرنسا**.

وبقي **الأميرُ** محافِظا على دينه، وفيًّا لنشأته الأولى، لم تُنسِه نشوة المُلكِ حياةَ البساطةِ التي تربَّى عليها في معهدِ والدِه وأسلافِه.

بل بمجرَّد ما طويت صَفحة الجهاد وهو ما زال في ريعان الشباب، ووقعَ في قَبضة الأَسر، جمعَ أبناءَه وأبناءَ رُفقائِه وصارَ يعلِّمهم القرآنَ على الأَلواح كما تعلَّم هو، ونظَّم دروسًا قامَ بها هو وابنُ عمَّتِه الشَّيخ **مصطفى بن التهامي**، وفي تلك الفَترة زارَه الجنرال (**دوماس**) الذي سبقَ أن عُيِّن عندَه سَفيرا في المدَّةِ التي تَصالحَ فيها مع الفرنسيِّين، فجرَّهم الحديثُ إلى السِّلاح، فقال له: «إنكم لم تَتركوا لنا يا **دوماس** إلَّا هذِه اللُّوَيْحَات»، ففهِمَ الجنرالُ مقصدَ **الأمير**، ودوَّن ذلك في (**مذكِّراته**)، وجدُّ **الأمير** هذا كان ممَّن روَى الحديثَ عَن الشَّيخ **مرتضى الزَّبيدي** أيضا، رواه عِندَ رجوعِه مِن الحجِّ

صُحبةَ زَميله الشَّيخ **محمد المنوَّر التلمساني** المتوفَّى بالقاهرة، وقد ذكَره الشيخ **مرتضى** في **(ألفية السَّند)** فقال:

العـــالم الفاقـــد للأَشـــباه	....
الجِهبِـذ البـارع في الفنـون	عالم قطر المغـرب الميمـون
لقيتُـــه بمصـــرَ لـــا وردا	أجازني، ونلتُ منـه المـدَدا

وقد توفي جدُّ **الأمير** المذكور الشيخ **مصطفى** بـ: **(برقة)**، وزارَه ولده **محيي الدين** صُحبةَ ولدِه الصغير **عبد القادر** قَبل مُبايعتِه بِنَحو السَّنتَين في طريقِ رجُوعِهما مِن الحجِّ ومَرَّا على **مصر**، واتَّصلا بعلماء **الأزهر**، وقَد وجدا **(الألفية)** ذكرها والده في رسالة بعثَها إلى أَخيه، عثَرنا عليها منذ سنتَين فقَط.

واسمَحوا لي، ولو لم أُنجِز وعدَ المحافَظة على الإِيجاز، إِنَّنا على ذِكر الشَّيخ **مرتضى** وعلاقته بعلماء **الجزائر** وأمَرائها، أَذكُر مِن بابِ التَّحدُّث بِنعم الله أنَّ **الأَزهر** كان له فضلٌ عظيمٌ على قُطرنا أيام محنتِه، فبِفَضل الجزائريِّين المتخرِّجين مِنه انتعشَت العلوم، وحافظَت على حَيَوِيَّتها، فكانَت المعاهِدُ التي أسَّسها الأَزهريُّون بالقُرى والمدُن والجِبال مَراكز إِشعاع ومَراكز انطلاق للثَّورات على الفرنسيِّين أيضا، كانت الثَّوراتُ بعدَ الاحتِلالِ كثيرة، مِنها القوية والضَّعيفة، وكلُّها كانت تحتَ قيادةِ رجالِ الدِّين.

وما دُمنا نتحدَّث عَن **الأزهر** وعلائِقه بالجزائر، أَذكُر أنَّ أعظمَ ثورةٍ وقَعت عِندنا هي ثورة 1871 المشهورة بثَورة القبائل، أي قطعة مِن كُتامة أنصار الفاطميِّين، وهذِه الثَّورةُ كانت قيادتها الرُّوحية تحتَ رياسةِ العالم الصَّالح الشَّيخ **محمد أمزيان بن الحدَّاد**، شيخ الطَّريقة الرَّحمانية الخلوتية، وشيخُ الطَّريقة الرَّحمانية هذه ومؤسِّسها بالجزائر هو الشَّيخ **امحمد بن عبد الرحمن الزواوي الأزهري** تلميذ الشيخ **الحفناوي**.

كان الشيخ **ابن الحدَّاد** عندَما أعلنَ ونادَى بالجهادِ في مجتَمع ضمَّ عَشرات الألوف مِن تَلامذتِه وأنصاره، اختارَ له تلامذتُه مَلجأً بعيدًا عن الخطَر، لشَيخوختِه ومَرضه، إذ كان عمرُه يربو على الثَّمانين سنَة، فرفضَ وأَبى إلَّا أن يُرافقَ المجاهِدين، وبالفعلِ بقِيَ معهُم إِلى أَن قاسَمهم مَرارةَ الهزيمةِ والاستِسلامِ بعدَ سنة، فقُدِّم محمولاً على الأكتافِ وقد سُجِن ومات في السِّجن (رحمه الله)، ولم يَسمح الفرنسيُّون بِنقل جثمانِه إلى مَسقط رأسِه، وما زال ضَريحُه بـ : **قَسنطينة**، وكانت آخِر ثورة بالجزائر أول الحرب العالمية الأولى، قام بها العالم الشَّيخ **عثمان الراشدي، أزهري** تلميذ تلامذة الشيخ **عليش**، إذ اطلعتُ على سندٍ له في الفقه المالكي يتَّصلُ بالإمام **مالك**، وقد حُكِم عليه بالإِعدام، ونُفِّذ فيه الحُكم هو وكثيرٌ مِن تلامذته وأقاربه، كان معهدُه قريبًا من معهد الأمير **عبد القادر**.

وقَبل الختام أذكُر لكم أنَّ مِن جملة مَن شارك في هذه الثَّورات ولفتَت الأنظار السَّيدة **فاطمة** الرَّحمانية الخلوتية، فإِنها كانت تقودُ الجيوشَ في بلادِ القبائل، وقَد قَبَض عليها الفرنسيُّون وسَجنوها مع إِخوتها، وسمَّاها كثيرٌ مِنهم بـ: **(نَبيَّة القبائل)**، وهنا ألفِتُ أنظارَكم إلى أنَّه في عهدِ هذه الثَّائرة ظهَر لأَوَّل مرَّة الفِدائيُّون الذين يُسمُّونَهم عِندَنا بـ: **(المسبلية)**، والمسبَّل هذا يُشترَط فيه أن يكونَ أَعزَب شابًّا يُقدِّمه أَهلُه إلى جماعة عَشيرته، فيتعهَّد بِطاعة الأَوامِر التي تُعطى له ولو كانَت انتِحارا، ويلقَى التَّبجيلَ والاِحترام، وإن نكَص ـ لا قدَّر الله ـ يَهجرُه أهلُه، وجميعُ السكَّان، فلا يكلِّمه أحد، ولا يتَعامل معَه، ولا يُعاشِرونَه، بل لا يَسعه إلا مُغادرة البلاد، ولا تُقبل تَوبته، وكثيرٌ مِن النَّاكصِين يلقونَ حتفَهم على أَيدي أُسرهِم.

كانت السَّيدة **فاطمة** قائدة الفِرقة مِن المسبَّلين، هاجَمت حِصنًا للقيادة الفرنسية بجبال القبائل، فاتَّخذوا سلاليم مِن الجِبال صعدوا عليها وصارُوا يتقاتَلون مع

الفرنسيِّين، وكلَّما سقط فِدائي إلَّا وخلف مَوضعه آخَر، وقد وصفَ بتدقيقٍ هذِه المعركة جنرال فرنسي.

هذه حقائق تاريخية لا مُبالغة فيها، اعترفَ بها حتى الفرنسيُّون، خُصوصًا في مذكِّراتِهم وتَقاريرهِم التي كانوا يُرسِلونَها لوزارة الحرب.

هذه نبذةٌ مختصَرةٌ ذكَرتُها، لم أُراعِ فيها النِّظامَ ولا التَّدقيق الذي تَتطلَّبه مِثل هذِه الأَبحاث، شجَّعني على إلقائِها ما سَمِعتُه مِن السَّادةِ الخطباء الذين تعرَّضوا لمواقِف رجالِ الدِّين مِن السَّلف، والمسؤولية الملقاة على عاتقِ الخلف منهم.

وكل ما نقتَرِحُه ـ إن سَمحتُم ـ هو أنَّ رجالَ الدِّين وعلماءَه الذين يتَّخذُهم الناس قُدوة، ينبغي لهم أن يفرِضوا احترامَهم بِحَسبِ سلُوكِهم، وأَن يَعملوا بها كان شِعارا لعلماءِ الحديثِ الذين لا تخلو وَصيةً مِن وَصاياهم في إجازاتِهم مِن هذِه العبارة: « اتركُوا اليأسَ مِمَّا في أيدي الناس تَعيشوا أعِزَّة »[1]، والثِّقة متى حَصلت في العالم جعلَت كلامَه مَقبولا وأمرَه مُطاعا، وإنَّني أختمُ كلامي ولا أعدُّ نفسي خَرجتُ عن الموضوع؛ إنَّني ـ وأَنا بِمطار الجزائر في طريق مَجيئي ـ أَطلعني صديقٌ على مَقالٍ صدرَ في مجلَّة **(باري ـ ماتش)** الأسبوعية بـ : **باريس،** لصاحبها (Raymond Tartier)، وهو وإن كان من أنصار الصَّهاينة، وقد خصَّص هذا المقال لحوادث الشَّرق الأوسط، فأشادَ بانتصارات الصَّهاينة، وقارنَ بين القوَّتين، إلا أنه لم يخفِ تخوُّفاته مِن المستقبل، ويرى أنَّ المصير المحتوم للصَّهاينة في البلاد الشَّرقية هو مَصير الصليبيِّين، حيث إنَّ العامل الاقتصادي مِن جهة، والطاقة البشرية للعرب مِن جهة أخرى، في غير صالحهم، ولهذا فإنَّني أردِّد

(1) كذا في الأصل المرقون، والصواب: « اجمعوا اليأس.. »، والعبارة أصلها حديث: « إذا قمتَ في صلاتك فصلِّ صلاة مودع، ولا تكلم بكلام تعتذر منه غدا، واجمع الإياس مما في أيدي الناس»، أخرجه **ابن ماجه** (2 / 542). (ع)

مع المتفائلين قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ (آل عمران: 139).



الشيخ المهدي رفقة الأستاذ مالك بن نبي بالقاهرة سنة 1967م



صورة جماعية للمشاركين في هذا



صورة مع رئيس مصر جمال عبد الناصر وشيخ الأزهر والأستاذ مالك بن نبي



[رسالة من القاهرة][1]

(القاهرة): في: 6/ 3/ ...

إِلى الأَخ الفاضل الشَّيخ سيدي الحاج **محمد بن الهاشمي**.

أسمَى تحيَّاتي وأَشواقي إِليكم، وبعد:

إنِّي بـ : **القاهرة** حيثُ عُيِّنتُ معَ الأخ الأستاذ **مالك بن نبي** للحضُور **في مؤتمر البحوث الإسلامية،** فارقتُ **الجزائر** والبردُ بلغَ مُنتهاه، وتلقَّتنا **القاهرة** بِحَرارة شَبِيهة بِحَرارة الصَّيفِ عِندَنا، إذ بلغت (36°)، إلَّا أنَّها لَطيفة مُنعِشَة، وقَد كان **المؤتَمر** محطَّ رحالِ كثيرٍ مِن علَماءِ الإِسلامِ ومُفكِّريه مِن مختلَفِ الأَجناسِ والأَديان، وبالأَخصِّ سكَّان أُوروبا منهم، وقد منَّ الله علينا بِزيارة مَعالم **القاهرة** التي لم تَفقد شَيئا مِن عظَمتِها، مِن مكارمِ أَخلاقِ أَهلِها ودَماثَتِهِم، وقَد اجتمعتُ بكثيرٍ مِن الإِخوَة الأَزهريِّين الذين تعرَّفنا بِهِم في **الأَصنام** وغَيرِها.

سلِّموا على الإِخوة ... والأَحمدَين، والأُستاذ الجيلالي الفارسي، وبقية الأَصدقاء، ودمتُم محفُوظين.

المهدي

---

(1) اعتمدنا في إثبات هذه الرِّسالة على نسخة مصوَّرة مِن مجموع: **تعريف الخلف بمآثر السَّلف،** للأستاذ هاشمي عبد الحفيظ ياسين، وهي رسالة بعث بها الشَّيخ **المهدي** إلى الشَّيخ **محمد بن محمد الهاشمي**. (ع)

علائق ليبيا بالجزائر عبر التَّاريخ[1]

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصَّلاة والسَّلام على رسول الله.

كنَّا في صباح يوم الأربعاء 10 من الجاري[2] بـ (**مطار إدريس**) في (**طرابلس**)، فاتَّصل بِنا مراسل (**وكالة الأنباء اللِّيبية**)، وكان مَوضوع حديثنا معَه (**علائق ليبيا بالجزائر**)، ولمَّا اطَّلعنا على ما نشَرته بعضُ الجرائد اللِّيبية، أَردنا أَن نوضِّح ونفصِّل ما أجملَه ذلك الحديث.

كانت علائق (**ليبيا**) بـ (**الجزائر**) من عهد (**بني خزرون**) المنتمين إلى قبيلة (مغراوة) الشَّهيرة بـ (**وادي شلف**) في (**الجزائر**)، حيثُ لعب أفرادُها أدوارا في تاريخ البلاد، إذ كانوا يتمتَّعون بشبه استقلالٍ داخلي قبلَ الفتح الإسلامي، ولمَّا فتِحت البلاد، كان رئيسهم الأمير **صولات أبي وزمار المغراوي**، قيل إنَّه وفدَ على الخليفة **عثمان بن عفان** (رضي الله عنه) وأَسلم على يدَيه، فعقَد له على قَومِه، وقيل إنَّه وقعَ أسيرا عندَ الفاتحين، ولمكانتِه في قومِه بعث مع الأَسرى إلى الخليفة **عثمان** فقصَّ عليه قِصَّتَه وأَسلمَ على يدَيه، والنَّتيجة واحدة، وهي اجتماع هذا الأَمير بالخليفة **عثمان**، وإسلامه واعترافه هو ومَن خلفه مِن أبنائه لـ: بني أميَّة بالولاء، فَظاهروا دعوتَهم بـ : (**الأندلس**) طيلةَ عهدِ خِلافاتِهم مع الفاطميِّين، وكانت الحربُ بينهُم سِجالا إِلى أَن انهزَموا في إِحدى المعارك

(1) اعتمدنا في إثباتها على مقالة مرقونة على الآلة الكاتبة، تقع في (5) صفحات. (ع)

(2) دامت هذه الرِّحلة مِن شهر شعبان 1387هـ/ نوفمبر 1967م، إلى شهر شوال 1387هـ/ جانفي 1968م. (ع)

الشَّهيرة بـ (**شلف**) سنة 369هـ، فهاجَروا البلادَ وكوَّنوا دولًا وإمارات بـ : **سجلماسة، والأندلس**، و**طرابلس الغرب**، وعُرِف مَن تولَّوا على **طرابلس** بـ (**بني خزرون**)، وهم الذين عِندما رجَعوا إلى مَوطنِهم الأَصلي (**شلف**) كوَّنوا دولةً في عهد (**الموحِّدين**) وبإِعانتِهم عرِفت بـ (**دولة بني منديل**)، وكانت قاعدتها (**مازونة**) ...

ثمَّ نجِد في أوائل القرن العاشر استوطنَ **الجزائر** أحدُ كبار العلماء، وهو الشَّيخ **محمَّد بن علي الخرُّوبي الطرابلسي**، كان أَخذ بـ (**مصراتة**) على والدِه وعلى العلاَّمة الشَّيخ **أحمد زرُّوق الفاسي**، فعيِّن إماما خطيبًا بالجامع الأعظم بالجزائر، ثمَّ عيَّنه **الباشا حسن خير الدِّين** في سفارة إلى **المغرب** مرَّتَين، فاتَّصلَ بعلماء المغرب، ووقَعت مجادلة علميَّة بينَه وبينَهم، أَنسَته مهمَّته الدِّبلوماسيَّة، وبِسَببِها لم يخل تأليف مغربي مِن تَرجمة **الخرُّوبي**.

كان **الخرُّوبي** شغوفًا باقتِناء الكتُب، وما زالت الخِزانة الجزائريَّة تحتفِظ له بِذَخيرة، وهي أَنَّه ملكَ نسخةً مِن (**صحيح البخاري**) في عِشرين مجلَّدا، كلُّ مجلَّدٍ يَشتمِل على ثمانين ورقة، كلُّها رِقُّ غزال كتِبت في الأندلس حوالي أوائل القرن السَّابع، فكتبَ في أوَّلها **الخرُّوبي** بخطِّه بعضَ الأَسانيد والسَّماعات، نقلَها مِن نسخةٍ عَتيقة أندلسيَّة، وتاريخُ هذِه الأسانيد والسَّماعات يَرجعُ إلى ما بين آخِر القرنِ الرَّابع والسَّادس، وكلُّها وقَعت بـ (**الأندلس**).

كما تركَ **الخرُّوبي** تآليف قيِّمة، منها: (**تفسير القرآن الكريم**)، و(**شرح عيوب النَّفس**) لشيخه زرُّوق، و(**شرح أصول الطَّريق**) لـ (**زرُّوق**) أيضا، و(**كتاب في الحِكَم**)، جارى فيه (**حِكَم**) **ابن عطاء الله**، وكلُّها قيِّمة.

امتاز عهد **الخرُّوبي** بالجزائر أنَّه وقعَت فيه أعظم معركة بين الجزائريِّين والصَّليبيِّين الأسبان، خسِر فيها الجيشُ الإِسباني عشرة آلاف قَتيل، وتسعة آلاف أَسير، ومِن جملة القتلَى قائدُ الجيش الشَّهير: **الكونت دالكوت**، صديق الملك **شارلكان**، والذي حضَر

معَه في احتِلال (**تونس**) و(**طرابلس**)، وهذه المعركة دامَت ثلاثة أيَّام، وكان مِن حظِّ التَّاريخ أن حضَرها أحدُ الشُّعراءِ المشهُورين، فسجَّلها بالشِّعر الشَّعبي، ولمَّاً نشرت تراجم الوثائق الإِسبانية إِلى الفرنسية، وجَدوها متَّفقة تَماما معَ ما سجَّله الشَّاعر الشَّعبي الشَّهير الشَّيخ **الأخضر بن خلوف**، الذي ما زالت أَمداحُه النَّبويَّة تُنشَد في الشَّمالِ الإفريقي، خصُوصا في **المغرب الأَقصى والجزائر**.

ثمَّ نجِدُ مِن جملة هذِه العلائق ما ذكَره الرَّحالون الجزائريُّون الذين كانوا يمرُّون على **ليبيا** في طَريقهِم إلى الحجِّ ذَهابًا وإِيابا، وعلائقِهم معَ أهلِ البلاد (كذا)، ومِن هؤلاء الشَّيخ **مصطفى بن المختار** (دفين برقة)، وهو جدُّ **الأمير عبد القادر**، وقَد زارَ ضريحَه الأَميرُ صُحبةَ والدِه الشَّيخ **محيي الدين** حوالي سنة 1245هـ في طريقِ رجُوعهما مِن حجِّ بيتِ الله، وذكَر الشَّيخُ **محيي الدِّين** في بعضِ رَسائلِه ما لقيَه مِن الاهتمام بِضَريح والدِه وإكرامِ السكَّان له، ثمَّ كان وُرود الإِمام الشَّهير باعث النَّهضة الإِسلامية الشيخ **محمَّد بن علي السَّنوسي الشَّلفي**، وحياة هذا الإمام مَشهورة وهي في حاجة إِلى تآليف، وإنَّما لا يفوتُنا بهذه المناسبة أَن نذكُر جَوانبَ منها لربما تكونُ مجهولة.

(أولا) نشأته وتتميم ترجمته:

فقَد عثَرنا بالجزائر على بعضِ آثار أساتذتِه الذين ذكَرهم في تآليفه، منهم أَولاد سيدي **أويس**، الأُستاذان **أبو عبد الله محمد بن العربي بن أويس**، وعمُّه **الطيب ابن أويس**، يقول فيهما الإِمام: « أخذتُ عنه ـ عَن الأول ـ (رحمه الله) ما قدر لي أخذُه مِن القرآن حال صِغري، وأخذتُ عنه جملةً صالحة من الشَّيخ خليل بشرح الشَّيخ **الخرشي** وغيره، ولم أحضُر على أحدٍ قَبلَه فيه، وسمعتُ منه من التَّفسير والفتاوى والأَحكام والنَّوازل والفرائض وغَيرها جُملًا صالحة، وكان (رحمه الله) يَودُّني كثيرا، ويؤثرني على غَيري لِوصلةٍ كانت بين أَسلافِنا عظيمة بِمَحبَّة جَسيمة، والحبُّ يتَوارَث... (الحديث)،

كما سمعتُ مِن شيخِه وعمِّه العلَّامة الفاضل، الهمام الكامل **أبي عبد الله** سيدي **الطيب ابن أويس** مثل ذلك، وسمعت منه حصَّة صالحةً مِن (**صحيح البخاري**) بلفظِه، وهو يَروي عَن جماعة وافِرة، مِن أجلِّهم والده المذكور».

ثمَّ يذكُر الأُستاذُ الإمام انتِقالَه إلى **مستغانم** بعدَ ذلك، وأساتِذته الذين أخذَ عنهم، ثمَّ **مازونة** وأساتِذته، خصُوصا الشيخ **محمد بن أبي طالب**، فتَتبَّعنا أَثرَه وعثَرنا على كثيرٍ مِن التآليف لهؤلاء الأَساتذة والرُّسومِ والآثار، كالكتابةِ بِخُطوطِهم وتَراجِم حَياتهم في مَيدانِ الجهاد، خصُوصا الشَّيخ **محمد بن أبي طالب المازوني** الذي كان أحد قادة الرِّباط بِوَهران، وحضُوره في آخِر معركة خرجَ بِسَببها الأسبان مِن **وَهران** بعدَ احتِلالها ما يُقارب مِن ثلاثة قُرون، وكان عُمره إذ ذاك يَربو على ثمانين سنة.

ثمَّ عثَرنا على نُسختَينِ هامَّتَين مِن الإجازتَين الَّلتَينِ أَجازَ بهما الأُستاذُ الإمامُ أحدَ مُواطنيه وتَلامذَتِه، أَرسلَه إلى **الجزائر** سنة 1267هـ لينشُر تَعاليمَ الطَّريقة السَّنوسية بِالجزائر، فَوصَل هذا الرَّسولُ وأَدَّى مهِمَّتَه، وتوفي هناك، وما زالَ ضَريحه مِن المزارات، ولِأَهمِّية هاتين الإجازتَين نَنقُل ملخَّصا منهما، فالأولى قال فيها (رحمه الله): « الحمد لله ربِّ العالمين بِجَميع محَامدِه كلِّها ما علِمتُ مِنها وما لم أَعلم، وصلَّى الله على حبِيبِه محمَّدٍ سيِّد المرسلينَ وآلِه وصحبِه وأَهلِ بَيته أَجمعين، وبعد، فقَد طلبَ مِنَّا جماعة جمَّة ذَوي علومٍ ومكارم تمة، مِن جُملتهم النَّاسكُ الأَبرُّ، الفاضِل الأَنوَر، السَّيد **يوسف ابن السَّنوسي الخطَّابي الحسَني الإدريسي** بعدَ أَن سَمِعوا علَينا جميعَ **كتابِ الأوَّليات** لشيخ شُيوخ مَشايخنا **القَلعي** المكتوب على أَوَّلِ ورقةٍ منه، أَن أُجِيزَ لهم فيما سمِعوا وفي جميع ما لي وعنِّي ممَّا لم يَسمعوا، فأَجَبتُهم لمرادِهم ذلك، قضاءً لما يجِبُ مِن حقِّ وِدادِهم، وإِن لم أَكن أَهلا لذلك، فقلتُ مُستَعينا بِالله، ومُستمِدًّا مِن فَضله التَّوفيقَ في جميع المسالك: أَجزتُ لهم (أَدام الله فَضلهم) جميعَ ما يجوزُ لي وعنِّي رِوايته، وما تحقَّق لديَّ بِفَضلِ الله

تعالى إتقانه ودِرايته، مِن جميع شُيوخِنا، مِن مَقروءٍ ومَسموع، مِن شُروحٍ ومتُون، على ما هوَ مُقرَّرٌ لدَيهم في فَهارسنا الواصِلة إليهم، جعَلهم الله هادِين مَهديِّين، دالِّين علَى الخير وبه عامِلين، سائِلا مِن إحسانهم أن لا يَنسَوني مِن صالح دَعواتهم، وناجح رَغباتهم، وأَن يسيل علَينا رِضاه الجميل، وسِترَه الجميل، وتتابع سابغ نِعمه بِمنِّه وغامر كَرمِه.

حرِّر ذلك في سابع جمادى الأولى مِن سنة 1267، قالَه وكتَبه الحقير الدَّنيُّ، عجلا خجلا، العبد الفقير إلى الله الغني، **محمَّد بن علي بن السَّنوسي**، الخطَّابي الحسني الإدريسي، عامَله الله بِوافر إحسانه، وأَجزل له جميل امتِنانِه، بِمنِّه ويُمنه، آمين».

ثمَّ ختَمه بخاتمِه، وكتب السَّندَ والإجازةَ الثَّانية، قال فيها بعدَ الحمدلة والتَّصلية علَى النَّبيِّ ﷺ، ما يلي: «وبعد، فإنَّ العلومَ وإِن تَفاوتَت أَقدارُها، وعظُمت لدَى النُّفوسِ أخطارُها، فِعلمُ الحديثِ مِن بَينها هو الحقيق بأَن يشمَّر له ساق الجدِّ والعناية، إذ هو المحتاجُ إلى اتِّفاق الرِّواية قبل الدِّراية، وقَد بذلَ السَّلفُ الصَّالح هِممَهم العلِيَّة في ذلك، حتى تميَّزت الأحاديث الصَّحيحة مِن الضَّعيفة، ووجَّهوا أَفكارَهم السَّديدة إلى استِنباطِ الأَحكامِ منها، فَبلغوا بذلك المراتبَ الشَّريفة، ثمَّ تقاصَرت الهِممُ عمَّا سِوى التَّقليد عَنهم في الأَحكام، والجري على محجَّتهم في الأَسانيد المضبُوطة الإحكام، فكانَ لذلك الإسنادُ مِن سنَّة الدِّين، والرَّغبةُ في تَحصليه مِن صفاتِ الجهابِذة المتَّقين، كيفَ لا، وقَد قالَ رسولُ الله ﷺ: ينقلُ هذا العلمَ مِن كلِّ خلفٍ عُدوله... (الحديث)، وقال ﷺ في (حديث الجسَّاسة)، وهو على المنبَر: حدَّثني **تميم الدَّاري** هذا، وكفَى بهذا أَصلا في سَنِّه الإسناد في القَديم والحديث، وإنَّه لما سَمع علَينا وحضَر لدَينا الكتبَ العشرة لِلأئِمَّة الهداةِ البَررة، التي علَيها مَدار الإسلام، وأَساس مَباني الأَحكام، جميع مسانيد الأربعة الأئمة حماة الدِّين وقادة الأمة: **موطأ** الإمام مالك، بروايتي يحيى بن يحيى الليثي ومحمَّد بن الحسن الشَّيباني البزَّاز، ومسنَد **الإمام أَبي حنيفة النُّعمان** بِجَمع الإمام

الخوارزمي وروايته، و**مسنَد الشَّافعي** بجمع **الأمير سنجر الجاولي**، ورواية الإمام **الرَّبيع** بواسطة الإِمام **الأصم**، و**مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني**، و**السُّنن الأربعة**، للترمذي، والنَّسائي، وأبي داوود، وابن ماجه، جمع بررة جهابذة مهرة، أماثل أمجاد، نَحارير نقَّاد، طلبوا مِنَا ما جَرت به العادة، وسلكَت سَبِيله قاطبة أماثل السَّادة، مِن صَريح الإجازة في ذلك والإذن فيه وفيما لم يسمعوه مما هنالك فأجزنا كلا بما يليق به وما هو الأحق به وكان قد حضر معهم جميع ما ذكر على الوصف اللائق الأبر زكي في هذا المعنى زرعه وطاب أصله وفرعه السابق جواد فضله في ميدان الفضائل المتصف بمكارم الأخلاق وحسن الشمائل طراز عصابة الأتقياء وارث سني الفضائل وسري الفواصل على أسلافه الأولياء ، خلاصة إخوان الصفا من أهل الوفا وصفوة الأماثل من خاصة أهل البيت الشرفاء السيد يوسف بن السيد العربي بن السيد السنوسي الشريف الخطابي الحسني الإدريسي ، وقد طلب مني خلل، فأذكر ما جرت به العادة بين أهل العلم والإفادة من سؤال الإجازة فأسعفته بمراده وإن لم أكن ممن أردت ذلك وحازه لقناعته مني بالصون مع فقد المهني ورضاه مني بالبلالة إذ لم أتضلع من المورد العذب الأهنى حرصا على بقاء سلسلة الإسناد وحفظا لنظامها المتصل، وأجزته بجميع ما يجوز لي وعني روايته ويتحقق لي إن شاء الله درايته ورعايته من كل مقروء ومسموع ومجاز من أي من كان وبأي طريق سانح العمل به وجاز، وأخبرته أني أخذت ولله الحمد على جملة من الشيوخ أرباب التحقيق والإسناد والرسوخ من مغاربة ومشارقة مما استقصيناه في كتابنا الشموس الشارقة ... الخ ».

ولنرجع إلى علائق **ليبيا** بالجزائر، فنَجِدُها في عهدِ **عزَّت باشا** والي **طرابلس** حوالي سنة 1265هـ، كان الدَّفتر دار **أَحمد بن حمدان بن عثمان خوجة الجزائري** باتِّفاقٍ معَ الوالي وبعضِ أَعيانِ **طرابلس**، آووا **محمد بن عبد الله** بطَل **ثورة الزَّعاطشة** التي كانت

أوَّل ثورة في **الجزائر** على الِاحتلالِ الفرنسي بعدَ انتهاءِ ثورة **الأَمير**، كما سعَت هذه الجماعة بِنشر الكتابِ الشَّهير: (**المرآة**)، الذي أَلَّفه والدُ الدَّفتر دار المذكور السيد **حمدان بن عثمان خوجة**، الذي كانت له مَواقف إثر الاحتلال، وكان السَّببُ في إِرسالِ لجنة برلمانية مِن **باريس** إلى **الجزائر** لتَبحثَ عمَّا ارتكَبه جيشُ الِاحتلالِ وقادتُه مِن سَفكِ دِماءٍ بَريئة، وهَدمِ مَساجد وقُصور، وبيَّن دَوس الضُّباط الفرنسيين المعاهدةَ بأَرجُلِهم ، وكان **حمدان بن عثمان** هذا في العهدِ التُّركي خزنداراً، وعلى جانبٍ عظيمٍ مِن الثَّقافةِ الفرنسية، وقَد سبقَ له الجولان في **أُوربا**، ومعرفة كثير مِن رِجالها، ممَّا ساعدَه على الاتِّصالِ بنُخبة مِن الصَّحافيِّين بـ : **باريس**، وكبار العلماء، فنَشرت له صُحفُ **باريس** حملتَه، ولما جاءت البِعثةُ البرلمانية هيَّأَ لها تقريرا هامًّا، وهو المشهور بكتاب: (**المرآة**)، حرَّره سنة 1833م، ولعبَ أَدوارا في تاريخ **الجزائر**، ثمَّ هاجَر إلى **اسطنبول** ومات بها، وكان ولده بـ : **طرابلس** هو الذي سعَى في ترجمة كتاب والده، وساعدَه إخوانه اللِّيبيُّون و(والي طرابلس) لنَشر الكتابِ وإِرسالِه إِلى **الجزائر** خُفيَة، وقَد ذكَر ذلك القنصل الفرنسي الكاتب الشَّهير: **فيرو**، في تأليفه: (**تاريخ ليبيا**)، دوَّن فيه مذكِّراته عندَما كان قنصلا في **طرابلس**.

أمَّا السَّنوسية فإِنَّنا نجِد كذلك الجنرال الفرنسي **ميني** كتبَ فصُولا عَن نَشاطِ السَّنوسية في الحربِ العالميَّة الأولى بصَحراء الجزائر، عِندما كان هو كولونيلا هناك، وذلك في عهدِ المنعم سيِّدي **أحمد الشَّريف السَّنوسي**، وكيف قتِل الرَّاهب المشهور: الأب **دو فوكو** (دفين تمنراست).

وإِنِّي أعتذِر على هذا الإيجاز، وأَختمُ حديثي هذا بأَنَّ صلةَ الشَّعب اللِّيبي وسُمعةَ المواطِن فَخر العالم الإِسلامي الإمام سيِّدي **محمَّد بن علي السَّنوسي** وطَريقتَه السَّلفية صِلةٌ وثيقةٌ عَريقة، وزادَت هذِه الصِّلةَ قوَّةً ومتانةً حربُ التَّحرير، التي ختمَ الله بها

النَّصرَ المبِين والاستِقلالَ للجَزائر، فالجزائريُّون ممتنُّون لليبيا حكومةً وشعبا بما لقَوه مِن تأيِيدٍ ومُشاركة إيجابيَّة في جميع مَيادين وأَطوار الكفاح، وهم يكِنُّون للشَّعبِ اللِّيبي الكريم، ولملِكه سليل البطولة والمجدِ الحبَّ العَميق، وأُمنيتُهم أَن تَزدَاد هذِه الرَّوابطُ متانةً وأخوَّة، حتَّى يحقِّق الله آمالَ الأُممِ الإسلاميَّة في ظلِّ كتابِ الله وسنَّة رسول الله ﷺ والعُروبة الخالدة.

حرِّرت بـ (**البيضاء**) في: 12 شعبان 1387هـ[1].

المهدي البوعبدلي

(عضو المجلس الإسلامي الأعلى بالجزائر)

ملاحظة:

1) توفي الشَّيخ **الخرُّوبي** حوالي سنة 965هـ، ودفِن بـ (**الجزائر**).

2) دفِن الشَّيخ **الأخضر بن خلوف** شَرقَي (**مستغانم**) بنحو (50) كيلومتر.

---

(1) الموافق لـ: 14 نوفمبر 1967م. (ع)

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

* علائق ليبيا بالجزائر عبر التاريخ *

كنا فى صباح يوم الاربعاء ١٠ من الجارى بمطار ادريس فى طرابلس فاتصل
بنا مراسل وكالة الانباء الليبية وكان موضوع حديثنا معه علائق ليبيا بالجزائر
ولما أطلعنا على ما نشرته بعض الجرائد اليومية أردنا أن نوضح ونفصل ما أجمله
ذلك الحديث كانت علائق ليبيا بالجزائر من عهد بنى خزرون المنتمين الى
قبيلة مغراوة الشهيرة بوادى شلف فى الجزائر حيث لعب أفرادها أدوارا فى
تاريخ البلاد اذ كانوا يتمتعون بشبه استقلال داخلى قبل الفتح الاسلامى
ولما فتحت البلاد ، كان رئيسهم الامير صولات أبى وزمار المغراوى قيل أنه وفد
على الخليفه عثمان بن عفان واسلم على يديه فعقد له على قومه وقيل أنه وقع
أسيرا عند الفاتحين ولمكانته من قومه بعث مع الاسرى الى الخليفة عثمان
قصة عليه وأسلم والنتيجة واحدة وهى اجتماع هذا الامير بالخليفة عثمان واسلامه
واعترافه هو ومن خلفه من أبنائه لبنى أمية بالولاء ، فظاهروا دعوتهم بالاندلس
طيلة عهد خلافاتهم مع الفاطميين وكانت الحرب بينهم سجالا الى أن انهزموا
فى أحدى المعارك الشهيرة بشلف سنة ٣٦٩ هـ فهاجروا البلاد وكونوا دولا ،
وامارات بسجلماسة والاندلس وطرابلس الغرب وعرف من تولوا على طرابلس
ببنى خزرون وهم الذين عند ما رجعوا الى موطنهم الاصلى شلف كونوا دولة
فى عهد الموحدين وباعانتهم عرفت بدولة بنى منديل وكانت قاعدتها مازونة ...
ثم نجد فى أوائل القرن العاشر استوطن الجزائر أحد كبار العلماء وهو الشيخ
محمد بن على الخروبى الطرابلسى كان أخذ بمصراته على والده وعلى العلامة
الشيخ احمد زروق الفاسى فعين اماما خطيبا بالجامع الاعظم فى الجزائر ثم عينه
الباشا حسن خير الدين فى سفاره الى المغرب مرتين فاتصل بعلماء المغرب
ووقعت مجادلة علمية بينه وبينهم انسته مهمته الدبلوماسيته وبسببها لم يخل
تأليف مغربى من ترجمة الخروبى كان الخروبى شغوفا باقتناء الكتب وما زالت
الخزانة الجزائرية تحتفظ له بذخيرة وهى أنه آن ملك نسخه من صحيح البخارى
فى عشرين مجلدا كل مجلد يشتمل على ثمانين ورقة كلها رق غزال كتبت فى الاندلس
حوالى أوائل القرن السابع فكتب فى أولها الخروبى بخطه بعض الاسانيد وسماعات
نقلها من نسخة عتيقة أندلسية وتاريخ هذه الاسانيد والسماعات يرجع الى مابين آواخر
القرن الرابع والسادس وكلها وقعت بالاندلس كما ترك الخروبى تآليف قيمة منها
تفسير القرآن وشرح عيوب النفس لشيخه زروق وشرح اصول الطريقة لزروق
ايضا وكتاب فى الحكم جارى فيه حكم ابى عطاء الله وكلها قيمة ، امتاز عهد

صورة عن الصَّفحة الأولى مِن النُّسخة المعتمدة

[رسالة مِن طرابلس (ليبيا)][1]

الحمدُ لله، والصَّلاةُ والسَّلامُ على رَسولِ الله.

(**طرابلس**): في 18 شوال 1387[2].

حضرة الأخ الكريم سيِّدي الحاج **محمَّد بن الهاشمي**.

تحياتي الودادية، وأشواقي إليكم جميعًا، وبعد:

فَمعذِرةً عَن عَدمِ مُكاتَبتي لكُم منذُ وُصولنا، وذلك لكثرةِ الأَعمالِ ومُواصَلةِ السَّير، وقَد لحِقَتنا زَوابعُ الجزائر مِن أَمطارٍ وثلُوج، حتَّى إنَّ **الجبلَ الأَخضَر** لم يَعرِف سكَّانُه الثَّلجَ، ولم يَنزل إلَّا [المرَّتَين] والثلاثة في القَرن، وإنَّنا قضَينا أُسبوعَنا الأَوَّل في **البَيضاء** (العاصِمة العِلمية)، حيثُ تُوجَد الجامِعة الإِسلامية [المحتَوية] على كلِّياتِ الشَّريعة وأُصولِ الدِّينِ والُّلغة، ومَعهدا، وهذا الأَخيرُ وحدَه فيه فَخرٌ للبِلاد، إذ به تَلامذة مِن جميع أَقطارِ الدُّنيا: أَتراك، وصينيُّون وكُوريُّون، ويُوغوسلافيُّون، وأَفارِقة.

وأَساتِذةُ الكلِّية مُعظَمُهم مِن خيارِ علماءِ **مصر**، إذ جلُّهم دكاتِرَة ومؤلِّفون، وهُناك مَعهدٌ للمُقرئين، والرُّوحُ الدِّينية سائِدة، وعلماءُ الدِّينِ يتَمتَّعونَ بِالمكانةِ المرمُوقة والنُّفوذ الحقيقي، أَمَّا كَرمُهم فَلا يُمكِنُ استِقصاؤُه.

---

(1) اعتمدنا في إثباتها على نسخة مصوَّرة مِن مجموع: **تعريف الخلف بمآثر السَّلف**، للأستاذ هاشمي عبد الحفيظ ياسين، وهي رسالة بعث بها الشَّيخ **المهدي** إلى الشَّيخ **محمد بن محمد الهاشمي**. (ع)

(2) الموافق لـ: 18 جانفي 1968م. (ع)

والبَيضاءُ هي التي سكنَها الإمامُ **محمَّد بن علي السَّنوسي**، وأَسَّس فيها أُولى زَواياه، وما زالَت البَلدةُ تَحتفِظُ بِمَسكنِ الإمامِ الذي ملأَ الدُّنيا، وهو عبارة عن [مَغارة] مَنحوتة في جَبلٍ صَخريٍّ كانَ يَسكنها بِأَهلِه، وعِندَما يأتيه طلَبَتُه يجعلُ حائِلا يَستُر بِه حَريمَه، ويتَصدَّى لِدُروسِه، كما ما زالَت البلدةُ تَحتفِظُ بِضَريح الصَّحابي الجليل **رويفع** حاملُ رايةِ الرَّسول ﷺ، كان أمير **بَرقة**، وتوفي بالبلدة.

ثمَّ زُرنا **جغبوب**، وهي مدينة أَثَرِيَّة تبعدُ عَن **البيضاءِ** بنَحو 600 كيلومتر، وهي قَريبة بِبَعضِ خُطواتٍ علَى الحدودِ المِصريَّة، وبها المعهد الرَّئيسي الذي أَسَّسه المنعم السَّنوسي واختارَها للسُّكنَى، وما زالَ المسجِدُ الذي بَناه ومعَهده الأوَّل وضَريحه، وقد أُسِّست بِه مَعاهِد دينيَّة يعلِّم بها علماء أَزهَريُّون، وقَد زُرنا مكتَبَةَ المعهَدِ الأثَريَّة، وبها عِدَّة مخطوطاتٍ كانَ يَملِكُها الإمام، كتَبها علماءُ جَزائريُّون.

والبلدةُ ومُنشآتها كلُّها مِن آثارِ **السَّنوسي**.

ثمَّ زُرنا في طَريقِ رُجوعِنا **طبرق** و**درنة**، وشاهدنا مطارات العلم والعلَمَين التي دارَت بها المعارك الطَّاحِنة بين المِحوَر والحلفاء، وما زالت آثار هذه المعارك تَتجلَّى في أَشلاء الدَّبابات والطَّائرات، ومَقابر الموتَى.

وفي **دَرنة** زُرنا رَوضةَ الشُّهداءِ الذينَ يَربُو عَددُهم علَى السَّبعين، مِنهم الصَّحابي الجليل **زهير بن قيس الأنصاري**، استَشهدوا أَثناءَ مَعركةٍ في عَهدِ الفُتوحاتِ سنة 74 بالبَيضاء.

لحقَ بنا داعيةٌ إِسلاميٌّ شَهير، وهو صيني الأَصل، ويَسكُن الآن **ماليزيا**، وهو مِن أعضاءِ جَمعيةٍ إِسلامية تُبشِّر بِالدِّين الإِسلامي، وقَد نجَحت، حتَّى إنَّ كثيرا ممَّن أَسلَموا علَى أَيديهم هُم يُزاوِلُونَ تَعليمَهم بِالجامِعة الإِسلامية في **البَيضاء**، وقَد كان استُدعِيَ إِلى **باريس** لإِلقاءِ مُحاضراتٍ تبيِّنُ حالةَ المسلمينَ ونَشر الدَّعوة الإِسلامية في تِلك الرُّبوع.

فارَقنا **البيضاء** مُودَّعينَ مِن طَرَفِ فَضيلة الشَّيخ مُدير الجامِعة وصَحبِه الكِرام، فوَصَلنا مَدينةَ **طرابلس**، ولَقيَنا مُضيفونا بِكلِّ تَقدير وتَبجِيل، معَهم سفَيرُنا الفاضِل، وإِنَّنا سنُقيم هنا أُسبوعا آخَرا، إِذ جَدولُ أَعمالِنا عامِر، وسنَرجع بِحَولِ الله حَوالي 24 مِن الجاري.

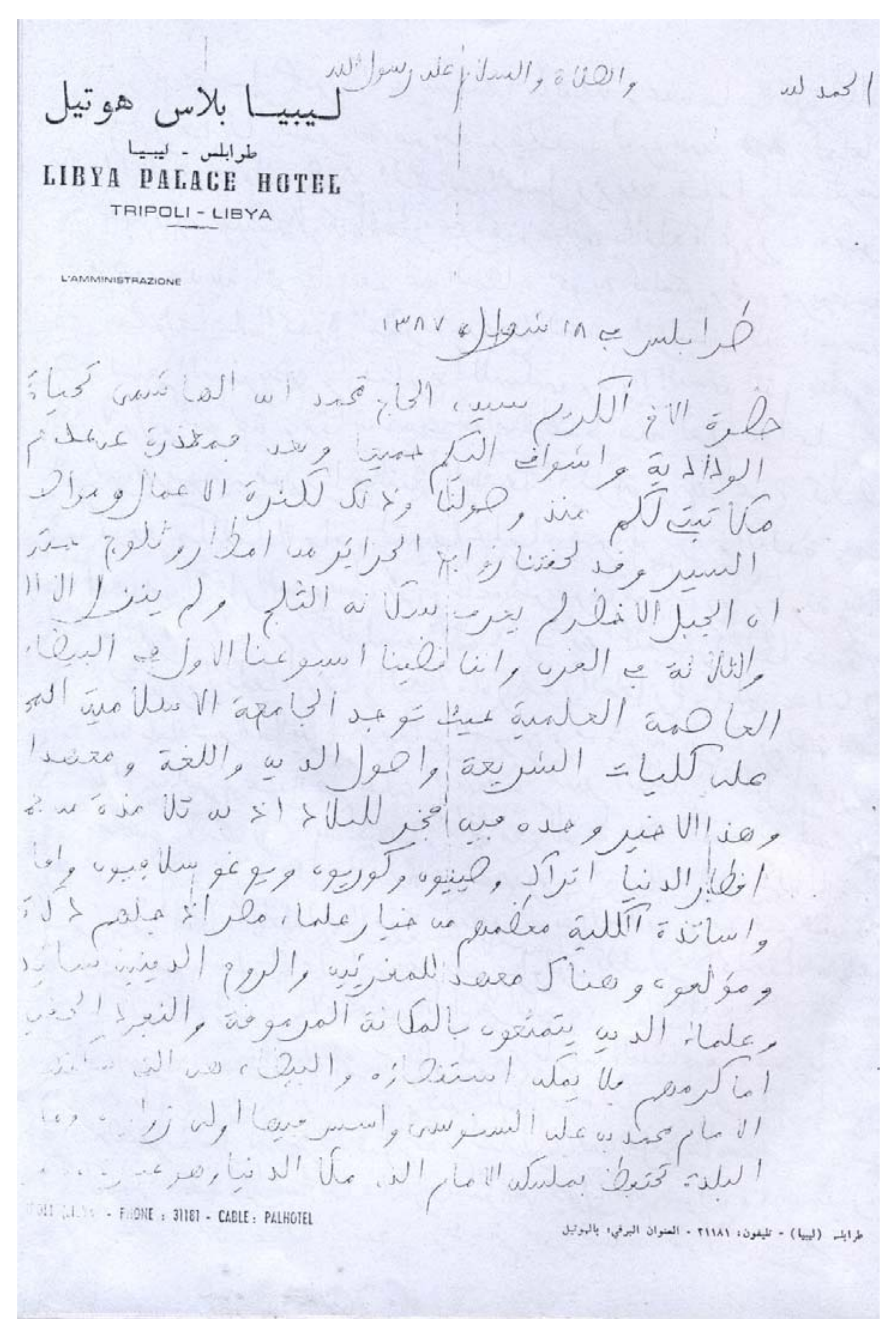
وبلِّغوا تحيَّاتي إِلى الجميع، ودُمتُم محفُوظين.

أخوكم المهدي

إلحاق:

يبلغ لكم التَّحيات رفيقي الشَّيخ **نعيم**، وقَد أَنسَته الرِّحلة وما يشاهده فيها مِن آثار ...[1].

(1) مقدار سطر لم نتمكَّن مِن قِراءتِه. (ع)



الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

ليبيا بلاس هوتيل

طرابلس - ليبيا

LIBYA PALACE HOTEL

TRIPOLI - LIBYA

L'AMMINISTRAZIONE

طرابلس في ١٨ شوال ١٣٨٧

حضرة الأخ الكريم سيدي الحاج محمد بن الهاشمي تحية
الودادة والأشواق لكم جميعا وبعد فمعذرة عن عدم
مكاتبتي لكم منذ وصولنا وذلك لكثرة الأعمال ومواصلة
السير وقد لحقتنا زوابع الجزائر من أمطار وثلوج حتى
أن الجبل الأخضر لم يخرج بعد من الثلج ولم ينزل إلا
الثلاثة في الغرب وإننا قضينا أسبوعنا الأول في البيضاء
العاصمة العلمية حيث توجد الجامعة الإسلامية [illegible]
على كليات الشريعة وأصول الدين واللغة ومعهدا
وهذا الأخير وحده فيه أكثر [illegible] إذ به تلامذة من [illegible]
أقطار الدنيا أتراك وصينيون وكوريون [illegible] [illegible]
وأساتذة الكلية معظمهم من خيار علماء [illegible] [illegible]
ومؤلفون وهناك معهد للمغاربة والروح الدينية سائدة
وعلماء الدين يتمتعون بالمكانة المرموقة والنفوذ [illegible]
أما كرمهم فلا يمكن استقصاؤه والبيضاء هي التي [illegible]
الإمام محمد بن علي السنوسي وأسس فيها أول زاوية [illegible]
البلدة تحتفظ بمسكن الإمام الذي ملأ الدنيا [illegible]

[illegible] - PHONE : 31181 - CABLE : PALHOTEL

طرابلس (ليبيا) - تليفون: ٣١١٨١ - العنوان البرقي: بالهوتيل

صورة عن الصَّفحة الأولى من النُّسخة المعتمدة



صورتان بمحافظة غريان (ليبيا) رفقة الشَّيخ نعيم النعيمي والشَّيخ حسن الجرجاني وجماعة
من أهل ليبيا الشَّقيقة (1387هـ/ 1968م)



رِحلتُنا إِلى الاتحاد السُّوفياتي ويوغُسلافيا[1]

(مِن يَوم الخميس 3 يوليو 1969 إِلى يوم الجمعة 1969/7/25م)

[**الخميس** 3/ 7/ 1969م]:

خَرجنا مِن **مطار الدار البيضاء (الجزائر)**، صباح يوم الخميس 3/ 7/ 69، على متنِ طائرة كرافيل تابعة للشَّركة الجزائرية للطيَران (Air Algérie)، فَوصَلنا بعد ساعتَين إلى **مطار أورلي** بـ : **باريس،** وكان في انتظارِنا أحدُ المستَخدَمين بالسَّفارة الجزائرية، فأقلَّنا إلى البلَد، حيث تأخَّر مَوعِد السَّفر إلى **موسكو** إلى بعدَ العصر، فمَررنا على محلِّ المواطِن السَّيد: **أحمد حشلاف،** حيثُ تَناولنا الفطورَ على مائِدتِه، وفي المساء تجوَّلنا على بعضِ معالم البلدة، وذَهبنا إِلى **مطار البورجي،** وعلى 6.30 أقلَّتنا طائرة (10u Tu) إلى **موسكو،** فوَصلنا بعدَ ثلاثِ ساعات، وكانت السَّاعة 11.30 ـ أي: متأخِّرة على توقيت **باريس** بساعتَين، وبثلاث ساعات على توقيت **قرينيتش** ـ لم نجِد أي واحدٍ في انتِظارنا، إذ لم يبلغ الخبَرَ لا لأعضاء **المؤتمر** ولا للسَّفارة، فتكلَّمنا تيليفونيا مع السَّفير، فجاءَنا إلى المطار ورافَقناه لمنزِله حيثُ قضَينا اللَّيلَ عِندَه، وفي الصَّباح اتَّصل بالخارجية التي أَخبَرت **المؤتمر** فأَرسلُوا لنا سِيارتَين.

---

(1) اعتمدنا في إدراج هذه الرِّحلة على نسخة خطيَّة تقع في (52) صفحة، موجودة ضمن كراسٍ (ص: 73 ـ 125) بخطِّ الشَّيخ **المهدي** (رحمه الله تعالى). (ع)

الجمعة: 4/ 7/ 1969:

ذهَبنا فيهما[1] إلى ملتقَى **المؤتمر** بدير شهير (Tagorsk) في ضَواحي العاصمة، وبمجرَّد وصُولنا للدِّير تلقَّانا عَميدُه بِلباسِه التَّقليدي، وميزةُ القسِّيسينَ الأرتُدوكسيِّين هنا أنَّهم يُطلِقون لِحاهُم، ومؤَخَّر شَعر الرَّأس، ويَبلغُ طول الَّلحية 30 ص[2]، ويجعلون فَوق غِطاء رؤُوسهِم رِداءً أسود أَو أبيض، وعليه صَليبٌ مُطعَّمٌ بِالصّدف أَو المرجان.

وبعدَ أن أَدخلَنا العميدُ إِلى قاعة الضُّيوفِ لحِقَ بِنا مترَجمان، أَحدهُما للغةِ العربية، وهوَ مسلمٌ مِن **طاقشند**، يشتَغِل بِمُديرية الدِّيانة، وهو السَّيد **يوسف خان شاكر**، إذ لازَمنا طولَ أيامِ إِقامتِنا بالاتحاد السُّوفياتي، والآخَر يحسِنُ الفرنسية، وهو نفسُه قسِّيس، ثمَّ جاءَ لتَحيَّتنا سَماحة **مفتي طاقشند** الشَّيخ **ضياء الدين بابا خان**، وطلبَ مِنَّا التَّهيُّؤ لصَلاةِ الظُّهر جماعة، فَرافقَنا بعدَما توَضَّأنا في البيتِ الذي كنَّا فيه إلى قاعةٍ خصِّصت للصَّلاة، وبِمحلِّ الصَّلاةِ وجَدنا كثيرا مِن الضُّيوفِ المسلمين الذين جاءوا تَلبيةً لحضُور **المؤتمر**، إذ في الحقيقة أنَّ (**مؤتمر الأديان**) كان خاصًّا بأديانِ الاتحاد السُّوفياتي.

ومِن جُملةِ مَن اتَّصلنا بهِم، وَفد **الأُردنّ** الذي كان يَرأسُه وزير الأَوقاف السَّيد **عبد الله غوشة**، ووَفد **سوريا** الذي كان يَرأَسُه وزير الأوقاف بها، وسماحة مفتي سوريا الأُستاذ **أحمد كفتارو**، والأستاذ **عبد الله قنون ممثِّل المغرب**، وكثير مِن المؤتَمرينَ المسلمين بالاتحاد السُّوفياتي، ومعظَهم بِلباسِهِم التَّقليدي، العمامة علَى شكلِ الدرَة المغربية، والعمامة الصَّفراء على طريق [3] **الجزائر** و**تونس**، وأَمَّنا الشَّيخُ المفتي **ضياء الدِّين**، وجَمعنا الظُّهرَين جمع تَقديم، ثمَّ ذَهبنا إلى مطعم **الدِّير**، وهو أنيقٌ نَظيف، كلُّ مائدةٍ

---

(1) أي: على متنِ السِّيارتَين. (ع)

(2) أي: 30 سم. (ع)

(3) كذا، والمقصود: « على طريقة الجزائريِّين والتونسيِّين ». (ع)

حَولها أَربع كَراسي، فَتناولنا الفطورَ رُفقةَ العميد والمترجِم بِاللُّغة الفرنسية، والقائِمون بِالخِدمة في المطعم هُم تلامذة **الدِّير**، وكان الفطور شِبه شَعبيا، يتركَّب مِن سَمكٍ **مجفَّف** (Saumon)، وخضروات وزبد وخُبز حِنطة وسيقلا [1]، والمشروبات مياه مَعدنية، وعصير الفَواكه، ثمَّ حبّ الملوك والشَّاي الأَحمر، وبعدَ الفطور رجَعنا إِلى القاعةِ التي قابَلونا فيها، ثمَّ رافَقنا دليلٌ إِلى زِيارةِ **متحف الدِّير**، وهو يضمُّ **مجموعةً** هامةً مِن الآثار الفنِّية الرَّائعة، فيها تاريخ الدِّير وتطوُّره منذُ إِنشائِه في القَرنِ الرَّابع عشَر المسيحي، وصوَر لرؤَساءِ الدِّير والمخطوطات النَّادِرة، والدِّير هذا له مكانة عَظيمة في **الاتحاد** السُّوفياتي، وهو مَركز الرِّياسة الدِّينية **للبِلاد**، ومقر الباطرياك الصَّيفي (Alexi) ... الخ، وبعدَ ذلك ذَهبنا للحضُور في آخِر جَلسةٍ للمؤتَمر، إِذ كان شُرع فيه يوم الأربعاء 6 من الجاري، فوَجدنا القاعةَ مكتظَّة بالمؤتَمرين، ومُعظمُهم بِلباسِهم التَّقليدي، وَجدنا البوذيِّين، والأرتدوكسيِّين الُّلبنانيِّين، وكان رئيس الجلسة هو **باطرياس لنينقراد،** وحديثُه بالفرنسية، فَرحَّب بِنا، وطلَبوا مِن الأَخ الوَزير **السَّعدوني** إِلقاءَ كلمات، حيثُ لم تُتَح له الفُرصة في الحضور، فأَلقَى خِطابا قيِّما تعرَّض فيه بِإسهابٍ لقضيَّة **فلسطين والفيتنام،** ثمَّ تَداولَ على المِنصَّة مقرِّرو الِّلجانِ حيثُ قدَّموا اقتِراحاتِهم التي عُرضَت على المؤتَمرينَ للتَّصويت، والتَّصويتُ يقعُ بِرفع الأَيدي على المصادَقة، ولا يُشارك في التَّصويتِ إِلَّا الأعضاء، وبعدَ الانتِهاءِ وقَبل ارتفاع الجلسة، صَعد على المِنصَّة الرَّئيس ـ أي: **أسقف لنينقراد** ـ فختَم الجلسةَ بالدُّعاءِ للجَميع، ودَعا الله بنَصر العدالةِ والسِّلمِ في العالم، ثمَّ خرَجنا ولحقَ بِنا الرَّئيس بِدُعائِنا للحضُور في مأدبة العَشاء التي أَقامَها بالدِّير علَى شَرفِ المؤتَمرين، وحضَرها نائب رئيس المجلس الدِّيني بالاتحاد السُّوفياتي، وكان الحاضِرون في المأدبة كلُّهم عَرب، والذي تولَّى التَّرجمةَ مِن الرُّوسية للعَربية أحدُ المطارنة

(1) كذا، ولم نتبيَّن معناها. (ع)

اللبنانيِّين، وهو دُرزي يدعَى بـ : **الحوراني**، ثمَّ تَولَّى التَّرجمةَ مِن الرُّوسية للعربية أيضا دليلنا السَّيد **يوسف شاكر خان**، كما شاركَ رئيسَ الأَساقِفة السَّيدُ وزير أوقاف **سوريا** الذي لم يسبق له الحديث حَسبَما ذكَره، وختمَ دور الخطَب نائب مدير المجلس الدِّيني، واجتمعَ بِنا علَى حِدَة ، وقدَّم لنا اعتِذاراتِه حيثُ لم يكُن لهم عِلم، وطلبَ مِنَّا عُذره حيثُ أَنزلَنا فِي فندق (staukimo) إلى أن تبدَّ لنا بعد يومَين أو ثلاثة، وبالفِعل ذَهبنا صُحبةَ الدَّليل يوسف إلى النَّزل، وفيه 975 بَيتا، ومعظم المؤتَمرين نازِلون به، اللهمَّ إلَّا الوُزراء، فقَد خصَّصوا لهم محلَّات أرفع، كـ : أُوتيل (Moskova)، و(**روسيا**)، ثمَّ ذَهبنا إِلى السَّفارة فَنقلنا حَقائبنا إِلى النَّزل (zagousk)، كانت تسمَّى قبل (Sergeuev) تَبعدُ عن **موسكو** بـ : (74كـ)، وهي توجَد فِي الطريق المؤَدِّية مِن **موسكو** إلى (Tarosfaf)، بينها وبين **موسكو** (260كـ)، وفِي هذا الطريق توجَد عِدَّة آثار هامَّة، أسِّست هذِه المدينة فِي القَرن الرابع عشَر، حيثُ كان يوجَد أَقدم دير يسمَّى: (La laure de S^{te} zrinité, et le S^{te} serge)، أسِّست سنة 1337م، وابتداءً مِن مُنتصف القَرن (14) وتَداخل هذا الدِّير ـ بِحكمِ مَوقعِه كَحِصن ـ فِي سياسة الدَّولة، وبينَ سنتَي 1540و 1550 كان البِناءُ خشَبيًّا، وإِثر غَزو التَّتار وحرقِهم للدِّير الخشبي أُعيدَ بِناؤه، وحصِّنَ بِسُور طُولُه (5) مِترات[1].

وفِي القرن السَّابع عشَر زيدَ فِي طُوله إِلى ما بين (8) و(15) متر، وفِي سنتَي 1607 ـ 1609 حاصَر هذا الحِصن (sapega) و(lirowski) 16 شَهرا، وكان عَدد الجنودِ المحاصِرين يَبلغُ (30) ألف البولونيون [2]، وبعد الحصار ـ أي: 16 شهرا ـ أمكنَ للبولونيِّين احتِلاله، وما زالت آثارُ الحريقِ بالدِّير.

---

(1) أي: أمتار. (ع)

(2) كذا، ولعلَّه أراد أن يكتب: « مِن البولونيِّين ». (ع)

وبين القَرن (14) و(17) كان هذا الدِّير مَركزا عِلميًّا عَظيما، فيه كانت تُنسخُ الكُتب والّلوحات لِأَشهَر الفنَّانين، كالنَّقشِ على الفضِّيَّات والعاج، كما ما زال يشمل عدَّة كنائس:

- (La S^{te} zrinité): 1422 ـ 1423.
- وكنيسة (De la descente du S^{t} esprit): 1476 ـ 1477.
- و(Cathédrale de l'assouption): 1585 ـ 1559.

وفي سنة 1920 أُسِّس داخل **الدِّير المتحفُ الوَطني**، جمع فيه كثير مِن الآثار التي يَرجع عهدُها إلى القُرون (12) و(19)، وكثير مِن لوحات الفنَّانين لـ: (18).

عددُ سكَّانها الآن: (100000).

قال صاحب (Le Figaro) في آخِر مَقالِه المنشور (ص: 85):

«Le monastère de Zagorsk est un véritable festival de splendeurs d'antan, ou les miliciens cotoient les papes noirs et barbus à l'ombre des plus belles coupoles de la vielle Russie, les temps ont changé, tout change, la russie des bolchéviques a pris conscience de son passé». **Robert lacontre**.

السبت: 5/ 7:

تجوَّلنا صَباحَ اليومِ في المدينة، وعلى [السَّاعة]: 2 ذَهبنا إلى **نزل روسيا**، حيث أَعدَّ لنا الباترياك **أَليكسي** مأدبة فطُور تجلَّت فيها الرَّفاهيةُ والكَرم، وكانَت أَصناف المأكُولات، كـ : الكافيار، والصُّومون، وعصير الفَواكه كثيرة، حتى إنَّ أصنافَ المأكولاتِ وَحدَها كانَت تزيدُ على (20) صِنفًا، وقَد خُصَّت مائدة للمُسلمين خالية مِن الخمر، وفي انتِهاءِ المأدبة طلبَ مِن وَزيرنا الكلَام، فأَلقى خِطابا قيِّما استَحسنَه جلُّ المدعوِّين، وكان عَددهم يَربو على (500).

الأَحد: 6/ 7:

زُرنا صَباحَ هذا اليوم المعرض الدولي الدَّائِم، ويشتَمِل على ثَمانية أَجنحة، وزيارةُ كلِّ جَناح تَستَغرِق على الأَقل (3) ساعات، وقَد اقتَصرنا على زِيارة جَناح روَّاد الفضاء، وكانت الدَّليلة اختِصاصية في ذلك الفنِّ، وهي تتكلَّم عِدَّة لُغات، منها الفرنسية، وأَطلَعتنا بِتفصيلٍ وتَدقيقٍ علَى الآلاتِ والاِختِراعاتِ وتَطوُّرِها منذ اكتشفت للمرَّةِ الأُولى، وتطوَّرت إِلى ما آلت إِليه، سَنة فسَنة.

ثمَّ زُرنا مَعرض الفَرو وحَيواناته، وكيفية تَربيتها، ثمَّ جَناح الثَّقافة، وفي جُملة ما يحتَوي عليه المقعَد الخشَبي لـ: **لنين**، وقبَّعته، وعَصاه، في آخِر حَياتِه، ثمَّ ذهَبنا لتناوُلِ الفُطور بـ (**أوتيل موسكوفا**) عِند رئيس مجلس الأَديان، وكانت المأدبة أَضخَم وأكثَر أُبَّهة مِن مأدبة الباطريارك، وتَناولَ الخطاب وزيرا **الأردن** و**سوريا**، ورَئيس مجلس الأديان الذي نوَّه بِالمؤتمر، وشكرَ المؤتَمرين على تَلبيتِهِم الدَّعوة، وأَشار علَيهِم بأَنَّه لا ينبغي للدِّين أَن يقفَ مَوقفًا سلبِيًّا مِن مَشاكل الحياة، بل عليه أَن يُساهِمَ في إِثباتِ وجُودِه.

الاثنين: 7/ 7:

زُرنا صباحَ اليومِ مَعرضَ **معركة نابُليون** معَ الرُّوس، المشهورة بـ : معركة بورودينو (La bataille de borodino)، وفيه صورة الفنَّان الفرنسي (Roubo)، الذي سجَّل فيها معركة **نابليون** التي وقعَت سنة 1812، وكان طول هذِه اللوحة 115 متر، وعلوُّها 13، وأَمكَن للعلمِ الحديثِ أَن يمثِّلَها للنظَّار في إِطارها الطَّبيعي، صوَّرها الفنَّان المذكُور ما بين سنتَي (1910) و (1912)، وهو وإن كان مِن أَصلٍ فرنسي أَرادَ أن يخلِّد هذا الأَثر لاعتِرافه بِالجميل للدَّولةِ التي آوته، وليُبرهنَ لـ : **روسيا** أَنَّه مُواطِن، حتى لا يخامِرها شكٌّ في إِخلاصِه.

وفي مَساء هذا اليومِ نُقلَ وَزيرنا إِلى نزلِ (Moskova).

وذَهبنا مَساءً إِلى زيارةِ مدير مجلس الأديان، فلَقينا علَى عادةِ البِلاد علَى بابِ مَدخَل الإِدارة التي هي شبه وِزارة، وكان بِجانبِه نائبُه، وبعدَ تَبادل التَّحيات وإحضار القَهوة التُّركية والشَّاي والحلويات، توجَّه إِلى الوَزير بِخطابٍ هامٍّ، وكان المَترجِمُ هو السَّيد **يوسف خان،** فقال: « سيِّدي الوزير، إِنَّني سُرِرتُ جِدًّا علَى تَلبِيتكم لدَعوتِنا وحضُوركم في بِلادنا على رَأسِ وفدٍ هامٍّ مِن وِزارتِكُم، وسُرورنا كان أَعظم حَيث إنَّ سِيادتكم مَع وَفدِكم كان هو أَول وَفدٍ دينيٍّ زارَ هذِه البِلاد، ومجيئكم على رأسِ هذا الوَفد دليلٌ على أنَّ الشَّعبَ الجزائري المسلم يهتمُّ بالعلائق الأخوية.

إنَّ مُشاركَتكم وحَديثكم في هذا المؤتمر أَضفَى عليه وَقارا زائدا، وكساه مَهابة، وتلك الأَفكار التي أَبدَيتُموها سَواء في **المؤتمر** أَو في حفلة الباترياك، نُشارِككم فيها ونقدِّرها حقَّ قَدرِها.

إنَّ جميعَ سكَّان الاتحاد السُّوفياتي يقدِّرون الجهودَ التي بذَلها الشَّعبُ الجزائري في سبِيل استِقلاله ورفع مستَوى البلادِ وازدِهاره.

إنَّ الصَّداقةَ بينَ الشَّعبَين صَداقةٌ مَتينة تؤذنُ بالتَّعاونِ والاتِّحاد، حتَّى تَتغلَّب علَى المشاكل والوقُوف في وَجه الإِمبريالية.

كما أنَّ لنا وجهة نظَر وأَهداف واحدة فيما يخصُّ قَضايا **الفيتنام** والشَّرق الأَوسط، وضِدّ بقايا الاستِعمار بإِفريقيا.

نحنُ لا نَشكُّ أنَّ هذِه العلائقَ الطَّيبة التي بدأتُم بها بِسَبب زيارتكم تعزِّز الصَّداقة، وتَسعى في تَبادل العلائق بينَ البلَدين، وأَنا أشكُر حَضرتكم علَى مَوقِفكم في **المؤتمر،** حيثُ بيَّنتم مُعاضدةَ المسلمين الجزائريِّين لبقيَّةِ الأَديانِ في سبِيل السِّلم العالمي، ونحنُ

متأكِّدون بأنَّ هذا **المؤتمر** سيُساهِم في تَوطيد السِّلم، ويكُونُ له شأن.

علَينا وعلَى الأَديانِ المختلِفة أَن نكرِّر هذِه الاجتماعات في سبِيل المصالح العامَّة، لأنَّ الدِّينَ لا يَنبغي له أن يغفلَ أو يتركَ تَداخُله في المسائل الدُّنيويَّة.

إن الدِّينَ الإِسلامي مُنتشِرٌ عِندنا في الاتحاد السُّوفياتي، منتشِرٌ بِصفة مَلموسة، وإِنَّ مُعتَنقيه عِندَنا مُتعاوِنون معَ الدَّولة في الوُصول إِلى السِّلم، وإِنَّكم سمِعتُم خِطابَ حَضرة المفتي **ضياء الدِّين بابا خان**، وإِنِّي أتمنَّى أَن تَسعَوا مِن جِهتِكُم في تمتينِ هذِه الرَّوابط بين مُسلمي بِلادنا.

ومؤتمرُ هذِه المرَّة أَظهرَ لنا النَّتائجَ المرجوَّة، وعملٌ كهذا يحتاجُ إلى التَّشجيع والاِهتمام، وإِنَّنا سنَستَمِرُّ في هذا السَّبيل، وبهذِه المناسبة أقدِّم جميعَ الأَماني للشَّعبِ الجزائري والحكومة، متَمنِّين لهم النَّجاح، وأكرِّر لكُم أنَّنا نُقدِّر هذِه الزِّيارة إلينا، ومُشاركتكم في هذا المؤتمر.

أمَّا فيما يتعلَّق بِدَعوتِكم لنا ـ أي: في الزِّيارة إلى الجزائر ـ فإِنَّني أَشكُركم علَيها، وسأَغتنِم أوَّلَ فُرصة لإِجابة دَعوتكم، معَ لفتِ النَّظر أنَّ أَعمالنا ليسَت متَّصلة بالدِّين مُباشَرة، وإنَّما هي في الوقُوف على تَطبِيق قَوانين الدَّولة في فَصل الدِّينِ عن الدَّولة، واحتِرامِ حرِّية الفِكر.

إنَّ أهمَّ ما في هذِه المؤتمرات هو تَطبيق التَّقارير وإِخراجها مِن حَيز الأَقوال إِلى الأَعمال.

وإِنَّ السِّلمَ لن يتَحقَّق بِالحديثِ فقَط، إنه يتوقَّف علَى العَمل ، وإِنَّ التَّقارير مَهما بلَغت مِن الموضُوعية والبَلاغة، فإِنَّها لابدَّ أَن تتوقَّف علَى التَّنفيذ، إِنَّنا سنُخصِّص لهذا المؤتمر سجِلًّا خاصًّا ننشرُ فيه جميعَ أَعمال المؤتمر، بِلُغاتٍ متعدِّدة، ونُوزِّعه، وعِندَنا **مجلَّة في طاشكنت** تصدِرُها **إِدارة الشُّؤون الدِّينية**، سَتتكلَّف بِنَشر أَعمالِ هذا **المؤتمر** ».

ثمَّ بيَّن مُهِمَّةَ **مدير مجلس الشُّؤون الدِّينية**، فقال: « إنَّ **مديريةَ الشُّؤون الدِّينية** تابِعة رأسًا لرِئاسة الوزارة، ومهِمَّتها رِعاية قَوانين الدَّولة وحمايتها، ومِن جُملة القَوانين الِّلينينية حُرِّية الأَديان، وإِنَّنا نُراعي حمايةَ هذِه المساجد والكنائس والبِيَع، حتَّى تقومَ بأَعمالها، ولا تداخل لأَيِّ أَحدٍ في نُظمِها الدَّاخِلية.

إنَّ **مديرية المجلس للشؤون الدِّينية** هي التي تقرِّر القَوانين الخاصَّة بالدِّين، وعندَما يُصادَقُ عليها يقدِّمها لرئاسة الدَّولة، وكذلك مِن مهمَّتِه تَقديم المساعدَة لتَسهيلِ الرَّوابِط معَ العالم الخارجي، ويشتَمِل علَى أَقسام:

- قسم للكَنيسة الأرتدكسية، والكاثوليك، والبوذيِّين.
- وقسم لرجال القانون.
- وقسم كبير للاتِّصالات الخارجية، ويَرأسه النائب ـ أي: نائبه الذي كان بِجانبه، وسبق أَن اجتَمعنا بِه في مأدبة الدِّير ـ.

وفي كلِّ جمهورية يوجَد مَن يمثِّل **مديرية المجلس الديني**، يوجَد نحو 300 **ممثِّل** للمجلس الدِّيني في جميع بلاد **الاتحاد السوفياتي**، وهم مَسؤولون أمام **المديرية**، وعِندَنا هُنا نحو (70) مُوظَّفا، وفي العلاقات الخارجية نحو (7) موظَّفين.

والمنظَّمات الدِّينية غَيورة على شؤُونها الدَّاخلية، فهي لا تَرضى علَى مَن يتداخَل في قَضاياها ـ قالها بِابتسامة ـ إِلَّا أنَّ هناك قَوانين للدَّولة تحتِّم علَينا مُراعاتها وتَنفيذُها، كما أنَّ للمديرية الحقَّ في منعِ تدخُّل بعضِ السُّلطاتِ المحلِّيَّة في الشُّؤونِ الدِّينية، وتَداخلنا نحنُ هوَ لحمايةِ القانونِ الذي يمنَع هذه السُّلطات ـ أي: المحلية ـ من التداخل في القَضايا الدِّينية.

إِنَّ مَوارد المنظَّمات الدِّينية على طريق مؤَيِّديها، ولهذا نحنُ لا نقدِّر الإِعانات المادية، إِلَّا أنَّ هناك بعضَ الإِعانات، كـ : تَذهيبِ بعضِ القباب مثلا ».

وقَد اطَّلعنا ونحنُ هناك على مقالٍ نُشر في جريدة (**الفيقارو**) عَن مُراسلِها (robert lacontre)، تحت عنوان:

(Quand la Russie athée restaure ses vieilles égalises)

«Le budget total avoisiné par an 40 millions de roubles - 220 millions de D.A ou F.F - de Rostov à Samarcant, de pakov à kiji, et ses églises de bois, des minarets de l'islam aux origines byzantins, plus de 20000 spécialistes travaillent avec la lenteur des temps, pour rénover tous ces trésors, il ya plus de 40 ateliers spécialisés dans toute l'union soviétique».

[ثمَّ قال]: « والمنظَّمات الدِّينية تَطبعُ المجلَّات والمنشُورات الدِّينية، و**البطريكية** لها (13) وَرشة معمَل للشَّمع وصُنع الصّلبان.

علاقاتُنا معَهم حَسنة، فالاحتِرامُ مُتبادل، والتأْييدُ مُنقَسم، كلٌّ مِنَّا ومِنهم يؤَيِّد الآخَر، وقَد لاحظتُم كيفَ أنَّ رِجالَ الأَديانِ يُدافِعونَ عن السِّلم.

وتكريما للخَدماتِ الكبِيرة قَد منَحت الحكومةُ للشَّخصياتِ الدِّينية أَوسِمة، ومنذُ سنة منَحت الدَّولةُ للمفتي **ضياء الدِّين باباخان** نيشانا له أهمية في الاتحاد السُّوفياتي ».

وختَم حَديثَه بِقَوله: « أَشكُركم علَى زِيارتِكم هذِه، كَما أَشكُركم علَى دَعوتِكم لي، وأَعتقِد أنَّ زيارتي لبَلَدِكُم تشرِّفُني، وسأَغتنِم أَوَّلَ فُرصة لتَحقيق هذِه الأُمنية، وأَتمنَّى أَن تَنجَحوا في أَعمالِكُم ».

يوم الثلاثاء: 8/ 7:

زُرنا صباحَ هذا اليوم بعض أَسواق المدينة، ومنها المكاتب الخاصَّة لبيع الكُتب باللُّغاتِ الأَجنبِية، وبعدَ تَناول الفطور ذَهبنا للمطار حيثُ كان في انتِظارنا نائب مدير الأديان، وأَقلَّتنا الطَّائرة صُحبة الوَفد اللُّبناني ومُفتي الدِّيار السُّورية الشَّيخ ... [1] إلى

(1) فراغ في الأصل، والمراد به الشَّيخ **كفتارو** كما سبق ذكره. (ع)

أرمينيا فوَصلناها بعدَ ثلاثِ ساعات، فَوجَدنا في انتِظارنا الباطرياك مُحاطًا بأَكابر مُعينيه وبوزير الأَديان، وكان برُفقَتِنا بعض القسِّيسين الأَرمينيِّين، فَقادونا لأَعظمِ نَزلٍ بِالبلدَة (Erevan)، فَنزلنا بِنزَل **أرمينيا** حيثُ حُجِزَت لنا الشُّقَق.

الأربعاء: 9/ 7:

وفي صَباح يومِ الأَربعاء ذَهبنا إِلى المتحف المسمَّى: (Materradaran)، وهذا المتحَف له شُهرة عالمية، إذ يضمُّ ما يَربو علَى العَشرة آلاف مخطوط، بينَ كتبٍ ووَثائق ونقوشٍ يَرجع عَهدُها ابتِداءً مِن القَرن الرابع بعدَ المسيح، وهذِه الكتُب مُعظَمُها [منسوخة] على الرَّقِّ ثمَّ الكاغد، وهي في مختلفِ الفنون، ففيها ترجمة الأناجيل، ثمَّ ترجمة كتب الفلسفة والآداب اليونانية والرُّومانية، وفيها كتُب الطِّبِّ ودَواوين الشِّعر، ثمَّ بعدَ زيارةِ المتحف زُرنا المعرض الدَّائم الذي فيه جميع ما تُنتِجُه البلادُ مِن المعادِن، والفِلاحة، والمعامل، وتربية المواشي، ومِن أهمِّ ما تُنتِجُه البلاد المرمَر الوَردي، وكذلك نوع من الحجارة (Tuff) وردية، وغالب مَساكن (Erevan) مَبنية بها، ثمَّ ذَهبنا إِلى الدِّير حيثُ كان في انتِظارنا الباطرياك، إِذ كان سبب زيارتنا لـ : **(إرفان)**، استجابة لِدَعوته، والدِّيرُ عبارة عن قَصر محاطٍ بالحدائق الغنَّاء، ويضمُّ الكنيسةَ الشَّهيرةَ التي يَرجعُ عهدُها إِلى القرنِ الرَّابع المسيحي، إِذ **أرمينيا** مِن أَعرقِ البُلدانِ في الحضارة، فكانَت أوَّل دولة عُرفَت بها هي دولة (Ouratrou) بين 880 و 610 قبل المسيح، وكانت العاصِمة إِذ ذاك (Touchpa)، وهي (van)الحالية، ثمَّ انقَرضَت هذِه الدَّولة، وأغارَت عليها دولٌ، كـ : أليكسندَر الماكدُراني، و(poupée) الرومي، وساسانِيي الفُرس، والخلفاء العَرب، والبيزنطيِّين، ثمَّ السَّلجوقيِّين.

وفي سنة 301 بعد المسيح كان مَلكها (Tiridate) الثالث الذي اعتنقَ المسيحيةَ وفَرضَها علَى شَعبِه، فكانَت **أَرمينيا** هي أَوَّل دولةٍ اعتَنقَت المسيحية واتَّخذَتها الدِّينَ الرَّسمي للدَّولة.

وفي سنة 396 اخترَع (Mosropoté Machtor) الأَرميني الحروفَ الهِجائية التي مكَّنت للبِلادِ أَن تُترجِمَ الإِنجيلَ وغَيرَه مِن الكتُبِ التَّاريخية والأَدبِيَّة بِاللغةِ القَومية منها تآليف

(Aristote et autres Zénion, Eusèbe de cesarey Platon)

وبين القرون 16 و18 تقاسَمها الأَتراكُ والفُرس.

زُرنا هذِه الكَنيسة الأَثرية [1] ومَتحفها القيِّم الغَني بِالمجَوهَراتِ التي كان يهديها الملوكُ والقَياصِرة لِلكَنيسة، كما وَجدنا كثيرا مِن لَوحاتِ الفنَّانين المشهورين، ونقُود ذَهبِيَّة عبَّاسية وغَيرها، ثمَّ اطَّلعنا في دَهاليز الكَنيسة على مَعبدٍ للفُرس (عبَّاد النَّار)، عُثِر علَيه أَخيرا، وهوَ عبارة عَن تنُّور توقَد فيه النَّار، ومحاطٌ بِحائطٍ حجَري يَقف حَولَه المتعبِّدون.

وفي المساءِ أَقامَ لنا الباطرياك حَفلةً مُوسيقيةً دينية بِنفسِ قَصر الدِّير، وتَلاها عَشاء شَرفي لا يختلِفُ كثيرا عَن الغَذاء، إِذ مُعظم المأكولاتِ شرقية، كـ : البُوراك بِاللَّحم وبالجبن، والقَطايف بالجبن، ثمَّ انصَرفنا مِن القَصر مُودَّعين بِالحفاوَةِ التي لقَونا بها إِلى **نزل أرمينيا في ساحة لينين.**

الخميس: 10/ 7/ 1969:

ذَهبنا صَباح اليوم صُحبةَ الباطرياك الذي جاءَنا إِلى النَّزل إِلى زِيارة رئيسِ الجمهورية الأَرمينية، حيثُ كان وقَع الاتِّفاق عِندَما تَناولنا الفطورَ لأَوَّلِ مرَّة بِقصرِ

---

(1) (Etchinatging): العاصمة القَديمة لأرمينيا، ومركز الكنيسة الأرمينية والقريقورية، حيث مقر الكاطوليكو (catholico) بُنيت هذِه الكَنيسة سنة 303 في عَهدِ الأسقُف الأَرميني (gregorie)، كما تُوجَد بالمدينة عِدَّة مناشير الكنيسة (gaiané) (630)، (Rijiciné) (618).

الباطرياك بِحضُور وَزير الأَديان الأَرميني معَنا، وكان سَبقَ أَن اتَّصلنا بِوَزير الأَديانِ بِالمطار يومَ وصُولنا إِلى (Erevan)، ومِن ضِمنِ الكلامِ المتبادَلِ بينَه وبينَ وَزيرنا حيثُ أَخبَرنا أَنَّ رُفقاءَنا الُّلبنانيِّين خُصوصًا المطارنة سيَنزلون بالدِّير، ونحنُ نَذهب إِلى الأُوتيل، فأَجابَه الوَزير بأَنَّ عِندنا قاعِدة، وهي أَنَّ الضَّيفَ في يَد المُضيف، فأَجابَه بأَنَّ مِن تَقاليد **أَرمينيا** في هذا الباب [أن] يبقى [الضَّيف] سبعة أيام لا يُسأَل أَثناءها عَن أيِّ شيء ـ أي: عن سببِ زيارته، ومدَّة إِقامتِه ـ ولا مِن أيِّ مَوضع جاء، وبعدَ السَّبعة أَيام فقَط يُسأَل، وهذا نِهاية في الكَرم عِندَهم، ويفتَخِرون في كلِّ مُناسبة بأَنَّ تَقاليدهم في الكَرم شرقية.

بِمجرَّد وصولنا إِلى مَدخلِ القَصر وجَدنا في انتِظارِنا نائب رئيس الجمهورية، حيثُ إِنَّ الرَّئيس متغيِّب في **موسكو**، ومِن جُملة تَقاليد الاتحاد السُّوفياتي أَنَّ كلَّ رئيسٍ لدُولِ الاتحاد ـ وهي (15) ـ يتولَّى مَهام نيابة الرِّياسة بِالحكومة المركزية شَهرا في السَّنة، والكاتبة العامة للحزبِ الشُّيوعي، قابلَنا نائب الرَّئيس بالتَّرحيب، ووزير الأديان بالبشاشة، وأَمامه مائدة مُستَطيلة علَيها أَطباق مِن فَواكه البِلاد، كـ : المشمش المنعدم النَّظير، إِذ لا نَظير له في الحلاوة، والكرز، وبعدَما رحَّب بِنا ونوَّه بِمؤتَمر الأَديان الذي يُرجَى منه الخير، والذي يدلُّ علَى أَنَّ هذا العُنصرَ الهامّ مِن الممثِّلين للسُّلطاتِ الرُّوحية ينبغي لهم أَيضا أَن يُشارِكوا مُشاركةً فعَّالةً في العَملِ الصَّالح للإِنسانية، ثمَّ تكلَّم بِتَفصيلٍ عَن أَرمينيا ومأساتها عَبر التَّاريخ، ومكانة القسِّيس الباطرياك في البِلاد، وأنه نال منذُ مدَّةٍ قَريبة أَعظم نيشان تَقديرا لنشاطِه في الميدان الإِنساني، ثمَّ قامَ أَحدُ المترجِمين فتَرجمَ خِطابَه بِلسانٍ عَربيٍّ فَصيح، وبعدَه قامَ وَزيرنا، وأَجابَه بخِطابٍ قيِّمٍ، ذكَر فيه الدَّاعي إِلى مُشاركة **الجزائر** في هذا **المؤتمر**، ومكانة الصَّداقة التي تَربط بينَ بلدَينا، وشكَر غبطة البطرياك علَى نَشاطه في هذا المؤتمر، إِذ بلَغنا أَنَّه تولَّى رياسةَ كثير مِن الجلَسات.

والمترجِمُ هذا أَرميني أُستاذٌ للآدابِ الشَّرقية، ومنها العربية بِكلية الاستِشراق بـ: (**إيرفين**)، وهو متَخرِّجٌ مِن كلِّية بغداد، ويُشرِف علَى الإِذاعة العَربية الموجَّهة مرَّتَين في الأُسبوع إِلى الشَّرقِ العَربي.

ثمَّ تقدَّم المطران اللبناني، فارتجَلَ أَبياتا، قال فيها:

أَرمينيــــا ردِّي لِيَ فُـــــؤادي	حتـــى يعـــودَ حنينُـــه لـــبلادِي
أَنسَــيتني أَهــلي وأَصــحابي الأُلى	يُضــنيهِمُ هَجـري وطـولُ بعــادي
ردِّي فُــؤادي فــالجوَى يشــتدُّ بي	لمرابـــع الآبـــاءِ والأَجـــدادِ
أرمينيــا بلــد التَّحــرُّرِ والفِــدا	مَهــد الجهــادِ ومَــوطن الأَمجــادِ
كَــم شــنَّع المســتَعمِرون بأَهلِهــا	كــم علَّقــوا مِــنهم عــلَى الأَعــوادِ
كَــم ذبَــح الأَتــراكُ مِــن أَبنائِهــا	مأســاتُها بِغنًــى عَــن التّعــدادِ
أرمينيــا مَهــا يَطُــل عَنــكِ النَّــوى	فَهـواكِ سَـوفَ يظـلُّ مِـلءَ فُـؤادي

استهلَّ خِطابَه بِقَوله: «نحن نرحِّب بالضُّيوفِ أَمثالكم، وإِن كانت مِساحة بِلادنا صَغيرة، فإِنَّ بِلادَنا تتَّسِعُ لملايين الضُّيوف، إنَّ إيمانِنا بالغَد هو الذي حافظَ لنا على بِلادِنا».

وبعدما ودَّعنا الرِّياسة والبطرياك ذَهبنا في قافِلة مِن السِّيارات التي أُعِدَّت لنا منذُ وصُولنا صُحبةَ أَعوانِ الباطرياك، وفيهم الكثير مِمَّن يحسِنُ العربية والفرنسية، ذَهبنا إلى بُحيرة (Sevan) التي تبعدُ من (إيرفين) بنحو 75 كيلومتر، وبحيرة **سيفان** شَهيرة، وهي في مَنطقةٍ جَبليَّةٍ يَبلغُ ارتفاعُها 2000 متر، وطول البُحيرة 75 كـ، وعرضها 25، وعُمقها 90 متر، تجوَّلنا داخلَ البُحيرة علَى زَورَقٍ بُخاري معدّ للسُّواح، وأَقلَّنا إِلى ضِفَّة حيثُ تُوجد بِناءات، وبقَايا كنيسة أَثَرية، ونَزل ومَطعم فَخم اختِصاصي في سمَك (truites)، ويُقال إنَّ هذِه البُحيرة يُوجَد فيها جميع أَنواع هذا السَّمك الذي كان

القياصِرة يحرِّمون اصطياده للشَّعب، إذ هو خاصٌّ بهم وبِجواسسهم، وبعدَ تَناول الفطور ذَهبنا إِلى أُوتيل يبعُد عَن المطعَم بِنَحو 10 كيلومتر، يبلُغ ارتفاعُه 6175 متر على سَطح البَحر، وتَحوط بِه غابات جميلة، فَتناولنا فيه بعضَ المشروبات، خصُوصًا القَهوة التُّركية، ورجَعنا إِلى البلدةِ فَقضَينا ليلتَنا بِالنَّزل.

الجمعة: 11/ 7:

في هذا الصَّباح ذَهبنا إِلى ديرٍ يبعُد عَن البلدةِ بِنَحو 40 كـ ، بِقريةٍ كان رِباطا للنُّسَّاك، يَزورهُم أهلُ البِلادِ ويقدِّمونَ لهم الأَطعِمة، ولا يقبلُون زِيارةَ النِّساء، وذَهبنا إِلى الكنيسةِ فتَجوَّلنا فيها، ومُعظمُ مَبانيها مَنحوتة في صَخرةٍ جَبليَّة، وبهذِه الكنيسة شاهَدنا القُربان الذي هو مِن بَقايا الجاهِليةِ والعُهودِ القَديمة، حيث أَتت عائلة بِخَروفٍ وأَسالوا دمَه بِقَطع إِحدَى أُذنَيه، ودَهنوا بِذلك الدَّم السَّائل الصَّبِي البالغ نَحو 8 سنَواتٍ علَى شكلِ صَليب ـ أي: لطَّخوا جبِينَه ووَجنتَيه ـ وفي طَريقِ رجُوعِنا مرَرنا علَى حديقة الحيوانات، وزُرنا نَصب الأُم المدافِعة الذي كان نصب تذكاري لـ : **ستالين،** وبعدَ الحكم بانحِرافِه أُزيل وعُوِّض بِصورةِ هذِه الأُم التي لها قصصٌ في تاريخ البلاد.

ثمَّ تَناولنا الفطور في نَزلٍ مَوقعُه مُطِلٌّ علَى جانبٍ هامٍّ مِن البلدة، خصُوصًا الحي الجامِعي، وكنَّا قبل زيارة الكنيسة زُرنا تمثال الضَّحايا الذي أُقيمَ سنة 1965 بِمُناسبة الاحتفال بذكرى مُرور خمسين سنة على مَذبح الأَرمنيِّين في الحربِ العالمية الأُولى مِن الأَتراك، وبقُربِه تمثالٌ فيه شُعلة دائِمة لضحايا الحرب العالمية الأولى.

كلُّ كنيسة أَرمينية تُبنى علَى شكلِ صَليب، ويَظهر أنَّ كثيرا مِن هذا النَّوع مِن الكنائس بُنيت قَبل ظُهور الدِّيانة المسيحية، وكانت تحملُ صُور آلِهة بُدِّلت بعد المسيحية بِالصَّليب، والكنيسة التالية المنحوتة في الصَّخر هي الأولى في نوعها، ويوجَد مثلها في **الحبشة والهند،** إلَّا أنَّ هذِه أَقدمها بِكثير بتاريخ بنائها.

وكنيسة ثانية منحوتة أيضا إلَّا أنها خاصَّة بالملوك، وعليها شارتهم الممثَّلة في صورة الأَسد والكَبش، وفيها قبُور بعض الملوك.

يوم السبت: 12/ 7/ 1969:

تجوَّلنا صباحَ اليَومِ في أَسواقِ البَلدة، فاشتَرينا بعضَ الأُسطوانات والحقائب، وعند الواحدة ذهَبنا إلى مقرِّ الباطرياك (catholico) حيثُ تَناولنا الفطور على مائِدته، وكان وزير الأَديانِ حاضِرا معَنا، وبعدَ الفَراغ مِن الفطور استهلَّ الباطرياك الخِطابة، فقال: « إنَّ الإِنسانَ لتأخُذه العبرة عِند الملاقاة الأُولى معَ الأصدقاء، وتتكرَّر هذِه العبرة عندَ الوَداع »، وكرَّر لنا عِبارات الوُدِّ والإخلاصِ والمحبَّة والتَّمنيات، ثمَّ تَلاه مفتي سوريا الشَّيخ **أحمد كفتارو**، ثم الدكتور **القصَّار اللبناني**، وهو رجلٌ فاضِلٌ تولَّى عِدَّة سِنين السَّفارة لبِلاده في تُركيا والفُرس، وهو مِن الأَعضاءِ البارزين في **المجمَع العِلمي** و**الرَّابِطة الإِسلامية**، ثمَّ ختمَ دور الخطُب وزير الأَديانِ الأَرميني، وكان سبقَ لنا يوم الأَربعاء، وعند تناول الفطور على مائدة الباطرياك، ذلك الفطور الذي تكلَّم فيه الباطرياك، ثمَّ الدكتور **القصَّار**، ثم وزير الدِّيانات، والذي أول ما استهلَّ خطابه ذكر قاعدة البلد في إِكرامِ الضَّيف، وكَونه يبقَى أُسبوعًا قَبل أَن يُسأَل عَن سَببِ مجِيئه ... ثم قال: « إِنَّكم تَعرفون **أرمينيا** حسب التاريخ منذ مائة سنة، يُمكِنكم الآن أَن تَروا الفارق، فإِنَّه رغمَ عَبقرية شَعبِنا إِلَّا أنَّ اتِّحادَنا مع السُّوفييت هو الذي مكَّننا مِن هذا التَّطوُّر، وإِنَّنا مُستَبشِرونَ حيثُ نكسِبُ الأَصدِقاء، لأنَّ شَعبَنا في حاجةٍ إلى أَصدِقاء يُسانِدونه، إِذ هو ضَعيف، ونحنُ يسرُّنا اليَومَ أَن نَستقبِلَ أَصدقاءَنا مِن المنطقةِ الجنوبِيَّة، وإِنَّ الصَّداقة لم نقصد تَرديد مَعناها (كذا)، بل ينبغي تحقيقها وتَطبيقُ مَدلولها، واليوم الذي تجتاز فيه الأمة العربية أياما حَرِجة ينبغي لها أَن تَتأكَّد بأنَّ لها صديقًا وفيًّا في الشَّعبِ الأَرميني والاتحاد السُّوفياتي، وكان سبقَ لي أَن شكَرتكُم على هذِه الزِّيارة التي

شرَّفتُم بها بِلادَنا، واليوم أكرِّر لكُم ذلك، وأُخبِركُم أنَّ أيامَ استِقلال الأُمم العَربية كانَت أيامًا عَزيزة علَينا، ونتمنَّى أَن نُشرِكَ في هذِه الأَفراح استِقلال **فلسطين**.

ثمَّ تكلَّم الأُستاذ **أحمد كفتارو** (مفتي الدِّيار السُّورية)، فقال: « إنَّه لمن العناية الرَّبانية أن يلقَى العَرب صَديقا في ظروفِه الحرِجة، ذلك الصَّديقُ هو الاتحاد السُّوفياتي، هذا الصَّديق هو الذي وَجدنا فيه أَحسن مُعين، لا في الميادين الاقتصادية والإِنسانية، بل حتَّى في الدِّين، وذلك بأنَّ هذا المؤتمر الذي حضَرنا فيه تجلَّى فيه روح التَّعاون والتَّوادُد بينَ المؤتَمرينَ المختلفي الأَجناسِ والأَديان، فنحنُ نَشكر الاتحاد السُّوفياتي في تَسهيلِه هذِه المهمَّة، وكان مِن عِنايةِ الأَقدار أَن أَكرمنا بِدَعوةِ البطريك، وزُرنا هذِه البِلاد العَظيمة والعَريقة في الحضارة والتَّمدُّن ».

ثمَّ تكلَّم الأستاذ **القَصَّار** بخطابٍ بَليغ خنقَته أَثناءَه العبَرات عِندما تكلَّم علَى **فلسطين** ومأساتها، وختم دور الخطب الأخ **الوزير**، فشكَر غِبطة الباطرياك على حُسنِ ضِيافتِه وإِكرامِه، ثمَّ ختمَ الحفلُ بتَقديمِ الهدايا الرَّمزية مِن الباطرياك إِلى الضُّيوف، وقضَينا نَحو السَّاعتَين بِحَديقةِ القَصر إِلى أَن حانَ وقتُ السَّفر، فودَّعنا الباطرياك وامتَطينا السِّيارات إِلى المطارِ لمواصَلةِ السَّفر إِلى **طاقشند**، فَرافقَنا إِلى المطار وزيرُ الأَديان، وكبارُ الأَساقِفة، وسمَحوا لنا بِالدُّخولِ إِلى المطارِ بِسياراتِنا، وفسحَ لنا المسافِرونَ الطَّريقَ لِلصُّعودِ علَى مَتن طائرة (**إيلوشين**)، وبمجرَّدِ وصُولنا بحر قَزوين دَخلنا منطقة آسيا.

غادرنا مَطار (**إيرفن**) على 7.30 مساء، وبعد ساعة ـ أي: على 7.30 ـ وَصلنا بحر **قزوين** (**باكو**) عاصمة جمهورية **أزربيجان**، ثمَّ تابعنا السَّفر إِلى **تركستان**، فَوصَلنا عاصِمتَها على 10.10، فنَزلنا بِالمطارِ حيثُ بقينا نِصف ساعة، ثمَّ استأَنفنا السَّير علَى 10.30، وعلَى 11.10 مَررنا علَى **بخارى**، ثمَّ وَصلنا **طاقشند** على 16، فتلقَّانا في

مطارِها وفدٌ هامٌّ مِن رجالِ الدِّين، وعلَى رأسِهِم سَماحة المفتي **ضياء الدِّين بابا خان،** وقادُونا إلى النَّزل الذي أعِدَّ لنا.

وفي صَباح الغَدِ تَناولنا فطور الصَّباح بِالنَّزل، ثمَّ ذَهبنا إِلى المطار حيثُ أُعِدَّت لنا طائرة خاصَّة لزِيارة **سمرقند،** فوَصلنا بعدَ ساعة، وبها تلقَّانا رجال الدِّين، وأَقلَّتنا السِّيارات الرَّسمية، ولِأَوَّل مرَّة شاهَدنا شُرطَةَ (الموطار) علَى رأسِ القافِلة، فزُرنا ضَريحَ الإِمامِ **أَبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري** [1]، وتلَونا الفاتحة، ثمَّ أدَّينا تحيَّةَ المسجد، ثمَّ أقيمت لنا مأدبة شاي على العادة بِبراح الضَّريح تحتَ ظِلال شجر الدلب، والضَّريحُ بمسجده ... [2] بالمحاذاة له يشغل مساحة نحو الألف متر مربَّع، مسوَّرة ومحاطة بِساقية جارية على حافَّتَيها أَشجار الوَرد، والمأدبة هي عادة السماط القَديمة بِالمغربِ العَربي، أَي كلَّما وقَع اجتماع إِلا ويُسقَى الضُّيوف المشروبات، وتقدِّم لهم أَنواع مِن المأكولاتِ الخفيفة، كـ : الحليب، والفَواكه، وقَد حضَر معَنا جميعُ المرافِقين، حتَّى سائِقي الطائرة، ثمَّ ذهَبنا للمَسجد الجامع بـ : **سمرقند،** فتلقَّانا أَكثر المصلِّين هناك بالتَّرحيبِ والتَّقدير، فوَجدناهم مهيِّئين مائدةً في ساحتِه على مختلفِ الأَنواع مِن الفواكه والمشروبات، وبعدَها صلينا معَهم الظُّهرَ جماعة، وبعدَ الِانتهاءِ مِن صلاةِ الظُّهرِ قامَ سماحة المفتي فتكلَّم للحاضِرين الذين كان المسجِدُ غاصًّا بهِم، ومُعظمهُم بِلباسِهِم التَّقليدي، مِن عمائم أَو على الأَقل القلنسوة الخضراء المطروزَة، فرحَّب بالضُّيوفِ وعرَّفَ بهِم، ثمَّ تَلاه الأَخ الوزير **العربي السَّعدوني** ، فاستهلَّ خِطابَه بالبَسملة والتَّصلية، ثمَّ قال: « إنه سعيد جِدًّا حيثُ اجتمعَ مع إِخوانِه المسلمين بهذا البيت المقدَّس ، فبِلادٌ تضمُّ رُفاةَ أَعظمِ إِمامٍ خدمَ الدِّينَ الإِسلامي، وملأَ ذِكره بِلاد العالمِ الإِسلامي، ألا وهو

---

(1) وهو على مَسافة 60 كيلومتر مِن **سمرقند،** بقرية كانت تدعى: **خزنتك،** لم يبقَ لها أثرٌ اليوم.

(2) مقدار ثلاث كلمات لم نتمكّن من قراءتها. (ع)

الإِمامُ **أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري** جامع (**الصَّحيح**) الذي هو دعامة لحفظ الدِّين الإِسلامي، إذ قال ﷺ في خُطبة حجَّة الوَداع: «إِنِّي تركتُ فيكم ما إِن استَعصَمتم به لَن تَضِلُّوا أَبدا، كتاب الله، وسنَّة رسوله ﷺ [1]»، وبفَضل هذا الدِّين جمعَ الله بينَنا في هذا البيتِ الطَّاهر، إِنَّ إِخوانكم المسلمين الحاضِرين معَنا، وهُم مِن **بلغاريا**، و**السنغال**، و**أندنوسيا**، و**الهند**، و**لبنان**، و**أَمريكا**، أدَّوا معكم صلاةَ الظُّهر، أَدَّينا هذِه الصَّلاة ولا فَرق بينَ المذاهبِ التي نَنتسِب لها، إِذ هدَفُنا ـ بِحَمدِ الله ـ واحِد، وهو التَّوجُّه إِلى الله والعمل بما جاءَ بِه القرآن في سلُوكِنا العامِّ والخاصِّ، إِذ هذِه الوِحدة في الاتِّجاه والهدَف والمعتقَد هي سِرُّ نَجاح ديننا، وقد صدقَ النبيُّ ﷺ في قوله: «إِنَّما المؤمِنون في تَوادِّهم وتَراحمِهم كمَثلِ الجسَدِ الواحد [2]»، وإِذا تفرَّقت أَوطاننا أَو وجدت عَراقيل عَبر التَّاريخ عزلت بَعضنا عَن بَعض، فإِنَّ الظُّروفَ الحاضِرة والتَّقدُّمَ العِلمي سهَّل علَينا الاِجتماع، فَنحن اليوم نكُون أمَّةً واحِدة، فَينبغي لنا أَن نَتَّحِدَ ونَتضامَن ونَتعاوَن ».

ثمَّ شكَر سَماحةَ المفتي الذي كانَ سَببا في هذِه الزِّيارة، وتولَّى ترجمة الخطاب إِلى الأزبكية، فكان التأَثُّر عميقًا عِندَ الحاضِرين الذين بالَغوا في إِكرام الوفُود.

وبعدَ تَناولِ الفطورِ الذي أعدَّ في أَفخمِ نَزل، وأَخذِ راحة بِه، ذَهبنا إِلى المعالم الأَثرية خصُوصا **سمرقند** القَديمةِ التي لم تبقَ إِلَّا مقبَرتها ونصب أَحد أَعلامِها.

و**سمرقند** هذه يبلغ ارتفاعها 722م، ومناخُها حارٌّ يبلغ (37°) صَيفا، وفي الشِّتاء (25°) تحتَ الصِّفر، وسكَّانها الآن 300000 نسَمة، وهي وإِن كانت مَعروفة قَبل الميلاد بِنَحو 3000 سَنة، فقَد فَتحها المسلمونَ وطبَعوها بِطابع الإِسلام، وساهَمت في نَشر الثَّقافة الإِسلامية، إِذ كانت مِن أَعظمِ مَراكز الإِشعاع، وقَد غَزاها **جِنكيز خان**

---

(1) أخرجه **الحاكم** (319) وغيره، انظر: **صحيح الجامع الصَّغير** (2937)، و(3232). (ع)

(2) أخرجه مسلم (2586) وغيره. (ع)

المغُولي ثمَّ هدَمها وهاجَرها سكَّانُها، ثمَّ جاءَ **تَيمور لنك** واتَّخذَها عاصمةً لجميع مَملكته التي كانَت تَشملُ إِذ ذاك **أَرمينيا، وجورجيا**، و**إِيران**، و**أفغانستان**، وقِسما كبِيرا مِن **الهند وتركيا** و**اصطرخان**، و**منغوليا**، وعندَما ماتَ أولغ بك في شاه رخ ملك **هراة وتيمور** وخلفَه أبناؤه، وكان حفيده لغبك فلكيا شَهيرا 1468 بنَى مَرصدًا فاشتَغل هو وتلامذته (20)، وتآمَر علَيه، فقتل سنة 1448، وكان شرع في تأليف قيِّم درس فيه النُّجومَ دِراسةً عِلمية، وكان الفَضلُ لتِلميذِه **علي منبجي** الذي احتفَظ بهذا التأليف ونشَره بِتركيا، إِذ توفي حَوالي سنة 1474 باسطنبول، وحكومة الاتحاد السُّوفياتي الآن عازِمة على بِناء المرصَد حسب المرصَد القَديم، وفي مَوضعه، وقَد اتَّخذوا متحفًا جَعلوا فيه تمثالا لـ : **أولع بك**، وصُورًا زَيتية لـ : **الخوارزمي** (780 ـ 855)، و**البيروني** (973 ـ 1048)، و**أبو علي ابن سينا** (980 ـ 1037)، و**عمر الخيام** (1040 ـ 1123).

وقَد كان الفضل لاكتشافِ آثارِ المرصد الفَلكي للعالم الأَثري الرُّوسي **فاتكين** سنة 1934، وقد أَوصى الأثريُّ هذا بدفنِه قُربَ هذا المحلِّ، أَما تأليف **أولغ بك** فتُوجَد مِنه نُسخة بِمتحفِ **لندن**.

كما زُرنا المعالم الأَثرية الكثيرة بـ : سمرقند، خصُوصا المسجد الجامع، والضريح الذي كان بناه سنة 1403لتَخليد حفيده **محمَّد سلطان**، ولما مات **تيمور** دفَنوه به، وأَصبحَ يُدعَى بـ : **مقبَرة تيمور**، وتُوجد كلمات مكتوبة بِالعَربية كان تفوَّه بها قَبلَ مَوته، وهي: الحكيمُ هوَ مَن يتَخلَّصُ مِن الدُّنيا قبلَ أن تَتخلَّصَ مِنه.

وعلَيه كذلك كتابة عمود نَسبِه، وبِقُربِه ضَريحُ أُستاذِه السَّيد بركة، وكذلك قبُور بَعضِ أَولادِه وأَحفادِه، ومنهم: **أولغ بك** ، كما زُرنا قَبرَ الصَّحابي الشَّهير **قُثم بن عباس** أَخا السَّيد **عبد الله بن عباس**، وبعد هذه الزِّيارة ذَهبنا إِلى المطار وأَقلَّتنا الطائِرةُ إلى **طاقشند**.

الاثنين: 14/ 7/ 1969:

وفي صباحِ يوم الاثنين زُرنا بعضَ الآثارِ بـ : طاقشند، ومِنها المعرض الدَّائم [1]، ثمَّ ذهَبنا إِلى مديرية الدِّيانة بِآسيا الوُسطى بـ : **كازخستان**، التي يرأسها سماحة مضيِّفنا الشَّيخ المفتي **ضياء الدِّين بابا خان**، والإِدارةُ هي عبارة عَن مَدرسةٍ قَديمة على شكلِ مَدارس المغربِ العربي، إذ تَشتملُ على بُيوتٍ لسُكنَى الطَّلبة، ومَسجد، وقاعة، وبقيَّة المرافق، وقَد بُنيت هذِه المدرسة منذُ حوالي 3 قرون، وكانَت مَعهدا دينيًّا، ولما نُقِلَ المعهدُ الدِّيني لـ : بُخارى، حوِّلت هذِه المدرسة إِلى إِدارة، والنِّظامُ الدِّيني الإِسلامي في الاتحاد السُّوفياتي يقسِّم هذِه الإِدارات بِكامل بلاد الاتحاد السُّوفياتي ابتداءً مِن سنة 1941 إلى أَربع إِدارات:

الأولى: الإِدارة الدِّينية للمسلمين السُّنيِّين السَّاكِنين بِروسيا الأُوروبوية وسبِيريا، ومَركزُها (**أوفا**) في الباشفيري.

ونفوذُ هذِه الإِدارة يمتدُّ إِلى الجمهورياتِ الإِسلامية بـ : طاطرستان، وباشفيري، والجاليات الإِسلامية الطَّطارية، بـ : سبيريا، وروسيا الشَّرقية، والُّلغةُ الرَّسميةُ للإِدارة هي لغة التَّتار بفزان.

الثانية: الإِدارة الدِّينية للمسلمين السُّنيِّين بآسيا الوسطى و**قازخستان**، ومَركزُها **طاقشند** بـ : **أوزبكستان**، وهذِه الإدارة ـ وهي أهمُّ الإِدارات الأُخرى ـ تَشمل نفوذها الجمهوريات الخمس بِآسيا الوُسطى، ولغتُها الرَّسمبة الأزبكية .

---

(1) كما زُرنا الحديقةَ العُموميةَ الموجُودة في وَسطِ البَلدة، وبها تمثالُ أوَّلِ رئيسٍ لجمهوريتها، ولم تَستقِل الجمهورية وتَلحق بالاتحاد السُّوفياتي إلَّا سنة 1924، ومعَه تماثيل لبعضِ قوَّادِ الحرب، كَما اطَّلعنا في المعرضِ علَى أهمِّ المنتُوجات، ومِنها صِناعةُ الحرير التي ما زالَ السكَّانُ يحتَفِظون بلباسِه، وكذلك أَنواعُ الغَنمِ التي يُصنَع مِن صوفها **زَرابي بُخارى**.

الثالثة: الإدارة الدِّينية للمسلمين بِالقوقاز والشَّمالي وداغِستان، ومَركزُها بـ : برينافست، بجمهورية الدَّاغِستان، ونفوذُها يشملُ المناطقَ الجبلية لشَمال القوقاز، ولجمهوريات نشتشنو ـ انقيش، وغراتشاي تشركس، ولغتُها الرَّسمية العَربية.

الرابعة: الإدارة الدِّينية للمسلمين السُّنيِّين والشِّيعة، وَمركزُها بـ : **باكو، عاصمة الأذربيجان،** هذِه الإدارة ممتزجة، فَرئيسها شيعي، ونفوذُه يَشملُ جميعَ الشِّيعة بالاتحاد السُّوفياتي، ونائبُ رئيسِها سُنِّي، ويشملُ نفُوذه الجاليات السُّنية القُوقازية بـ : أذربيجدان (georgie) و**أرمينيا**.

أمَّا بقيةُ الأَقلياتِ المنسُوبة للإِسلام، كـ: الإسماعليِّين، والبهائيِّين، والغُلاة، واليَزيديِّين، فإِنَّهم ليسَت لهم إدارات.

ثمَّ إنَّ كلَّ إدارة ينتَخبها الأَئِمَّة والأَعيان تحتَ رياسة مفتي أَو شيخ إِسلام بِالنِّسبة للشِّيعة، وهي تابِعة كما ذكَرنا قبلُ لمدير المجالس الدِّينية بـ : **موسكو**، وينوبُ عَنه في كلِّ جمهورية وَزير الأَديان، وقيل إِنَّ هذِه الإِدارة العامة بـ : موسكو أُنشِئَت سنة 1944.

وعندَ أذانِ الظُّهرِ بالمسجدِ الجامع المحاذي للإِدارة، أَدَّينا صلاةَ الظُّهرَ والمصلُّون مِثل مَن صلَّينا معَهم بـ : **سمرقند**، فالشُّيوخُ مُعظمهُم مُلتَحون ومعمَّمون، والباقونَ علَى رؤُوسهِم قلنسوة محلِّية، وبعدَ الفَراغ مِن صَلاةِ الفَريضة والنَّافلة، تقدَّم المفتي ضياء الدِّين بابا خان فرحَّب بِالضُّيوف، وقدَّمهم للمُصلِّين، وكانت الخطبةُ بالُّلغةِ الأُزبكية، ثمَّ رجَعنا للإِدارة حيثُ أُقيمت مأدبة فطور حضَرها زِيادةً على الوفُود الإِسلامية مُدير الشُّؤون الدِّينية للجَمهورية وممثِّلو الإِذاعة والصَّحافة المحلِّيَّة، وكانَت مأدبة فاخِرة مِن كلِّ وجهة، فأَوانيها مِن أعلَى طِراز، وكذلك المآكل، وأثاث القاعة رَفيعٌ جِدًّا.

وبعدَ تَناولِ الفطور استهلَّ دور الخطُب سَماحة المفتي بِخطابٍ بَليغ، وأَبدَى فيه تأَسُّفَه على تَوديع ضُيوفه، فشكَر الوفدَين الجزائري والُّلبناني علَى تَلبيتِهم للدَّعوةِ

وحضُورهِم في المؤتَمر المقامِ في **موسكو**، وضَرب مثلاً للصَّحابي الذي سأَلَ النَّبيَّ ﷺ عَن أَعمالِ البرِّ، فأَجابه ﷺ بقوله: «تَقولُ العدل، وتُعطي الفَضل، وتُطعم الطَّعام، وتفشي السَّلام»[1]، والرَّحمة عند الرَّسولِ ليست نافِلة مِن نَوافل البرِّ، بل واجِب، ومِن ذلك قَوله: « إِن كنتُم تحبُّون رَحمتي فارحَموا خلقي»[2] (حديث قدسي)، وإِنَّ زِيارتكم هذِه مِن أَعمالِ البرِّ.

ولسماحتِه خطب بليغة مؤَثِّرة، ثمَّ طلبَ الوزير بِصفته رَئيسا للوَفدِ مِن الأُستاذ رفيق القَصَّار رئيس الوفد اللبناني أن يتَولَّى الإِجابةَ باسمِ الضُّيوف، فأَلقى خِطابًا علَى عادتِه آيةً في البلاغة، ومِن جملة ما قالَه: « إِنَّ الدِّينَ الإِسلامي ما زالت منائره مُرتفِعة في هذِه البلاد، وهذا دليلٌ على أنَّ الدِّينَ كان متمَكِّنا في نفُوسِكم، واليوم يَدعُوكم أَن تلتفُّوا حَول سَماحة المفتي **ضياء الدِّين بابا خان**، وتُعينوه في مهمَّتِه حتَّى تذَلِّلوا جميعَ الصُّعوبات، إِذ هو يمثِّل في نَظرِنا فَيضا مِن الفَضل والورَع والتَّقوى، وقَد لَمسنا منذُ اللَّحظةِ الأُولى مِقدار فَضلِه وعِلمه ونشاطِه، لقَد زُرنا بِمَعيَّةِ سَماحتِه مدينة **سمرقند**، وشاهَدنا تلك الآثار التي أخذَت بمَجامع قلُوبنا، فقَد كانت تلك الآثار الرائِعة الخالِدة دَليلا قَويًّا خالِدا علَى أنَّ الدِّينَ الإِسلامي كان له سُلطان في هذِه البلاد.

لقَد أَتاحت لنا هذه الزِّيارة أيضا الاطِّلاع علَى نَهضةِ البِلادِ الاقتصادية، فإِنَّنا عندما زُرنا صَباحَ اليومِ مَعرضَ البَلدةِ شاهَدنا مَنتوجاتِ واختِراعاتِ هذِه المدينة الطَّيبة، كما دلَّت علَى النَّهضةِ المباركة التي ظهَرت وانتشَرت.

أيها السَّادة الأَجِلَّاء:

في طَريقنا إِلى بلَدِكم مَررنا على جمهورية **أرمينيا**، وقَد شاهَدنا بعضَ الكنائس،

---

(1) **ابن خزيمة** (2503) مرسلا، وأيضا **الطبراني في الكبير** (422)، وغيرهما. (ع)

(2) أخرجه **ابن عساكر** (48/ 51)، و**الديلمي** (8103)، وغيرهما.(ع)

ومعرضَ تِلك البلدة، ومَعالمها الأَثرية بِدَعوة مِن غبطة الكاطوليكوس الباترياك.

لقَد شاهَدنا هُناك آثارا رائِعة، وعِندما وَصلنا لـ : سمرقند وشاهَدنا الآثار التي بها يُمكن أَن نصرِّح لكم: إِنكم بصِفتِكم أحفادا لأُولئك الأَجداد العِظام، ينبغي لكُم أَن تُتابِعوا النَّهضة، وتُحافِظوا علَى تعاليم دينكم، لتَبلغوا ما تَصبو إِليه نفوسكُم، ولتَتحقَّقوا أنَّ الدِّينَ الإِسلامي دينٌ اجتماعيٌّ مُتطوِّر، يَصلحُ لكلِّ زمانٍ ومكان، إِنَّ الذين يقُولونَ بأنَّ دينَ الإِسلامِ لا يُسايِر النَّهضة، أَو يَمنعُ مُعتَنقيه مِنها، وكان سببًا في تأخُّر المسلمين، كاذِبون، فعلَينا أَن نُماشي الزَّمان، ونُحافِظ على أُصول الدِّين، ونُطهِّره مِن الرَّواسبِ والبِدَع والخرافات التي أَثقلَته، فعلَينا وعلَيكم أَن نَستمِدَّ مِن جَوهره وتَعاليمه ما يَصلح لنا في الدَّارَين.

ثمَّ ختَم خِطابَه القيِّم بِقَوله: «إِنَّ الاتحاد السُّوفياتي هو ولا شكَّ دولة تعرف ما بين الدِّين والسِّياسة، وقَد كان مقامنا في هذِه الرِّحلة في جميع البلاد التي حلَلنا بها مقاما طيِّبا أَنسانا الأَهلَ والأَصحاب، إِنَّ النَّهضةَ التي شاهَدنا آثارها جليَّة بأَعيُننا ستَبقى انطباعاتها محفوظةً في ذاكِرتنا ...».

ثمَّ تقدَّم كثيرٌ مِن الصَّحافيِّين ومُمثِّلي الإِذاعة، فَطلبوا مِن الوزير أَن يتكرَّم بِتَصريح عمَّا شاهَده الوَفدُ في طاشقَند وسَمرقَند، لِتذاع بـ : **راديو طاقشند**، فأَجابَهم الأَخُ الوَزير بقَوله: « في الواقع إنَّ زيارتي لـ : **سمرقند**، في هذِه المرَّة لا يُمكننا أَن نحدِّد بِكيفية صَريحة كلَّ الإِنطباعات أَو كلَّ الأَفكار التي أَوحَت بها هذِه الزِّيارة، إنَّ الزَّائرَ لهذا البلَدِ العَريقِ في المجدِ والحضارةِ المحلية في أخلاق أهلها يمكن أن تربط حاضِرها بماضيها.

ونحنُ كعَربٍ عِندَما نزورُ مثل هذِه الأَماكِن التَّاريخية والمنجَزات الهامَّة سَواء في مَيدانِ التَّصنيع نَشعُر بهذا الأَثر الذي وَرِثناه عَن أَسلافِنا، وإِنَّنا مُلتزِمون أَمامَ التَّاريخ علَى الحِفاظِ بهذا التُّراثِ وصِيانتِه.

وإنَّني أتوجَّه باسمي الخاصِّ، وباسمِ الوفُود المرافِقة لي، إلى حكومة **أُوزبكستان،** وحكومة الاتحاد السُّوفياتي بصِفة عامَّة، وإلى سَماحة المفتي **ضياء الدِّين بابا خان** بِصفة خاصَّة، بِشكرنا الخالِص على دَعوتهِم لنا، وعلى الحفاوَة التي لقَيناها حيثُما حلَلنا في هذِه الأَرضِ المباركة التي ما زالَت تَحتفِظ بأَضرِحَة رِجالٍ لهم مكانة في كاملِ البِلادِ الإِسلامي، وذلك كالصَّحابي الجليل **قُثم بن عباس** الذي قال فيه ﷺ: «لَقُثم ابن عباس أشبه النَّاس فيَّ خَلْقًا وخُلُقاً»، والإِمام الحافظ **أَبي عبد الله محمَّد بن إسماعيل الجعفي البخاري** صاحب **(الجامع الصحيح)** الذي هو أصحُّ كتابٍ بعدَ كتابِ الله.

كما مكَّنتنا هذِه الزِّيارة بِالاجتماع والتَّعارُف مع إِخوانِنا سكَّان هذِه النَّاحية، والغنية بِآثارها الإِسلامية الدالة على أن الإسلام ترك حينها أجل آثار حضارية، وما زال يؤدي مهمته في صالح التَّعاون البشَري.

وفي الختامِ أُكرِّر شُكري، وأُوجِّه تحياتي الزَّكية باسمي وباسمِ الوفدِ إلى سكَّانِ **طاقشند** و**سمرقند** على ما أَبدَوه مِن حَفاوة بِنا، كما نَشكر **إذاعة طاقشقند** وصَحافتها على اهتمامِها بالاتِّصال بِنا، وتَمكيننا مِن الاِتِّصال على طريقها بإِخوانِنا سكَّان هذِه النَّاحية، وجميع سكَّان الاتحاد السُّوفياتي.

وبعد تَناول القَهوة التُّركية والشَّاي وزَّع سماحةُ المفتي على الضُّيوفِ الهدايا التَّقليدية، وهي عبارة عَن قَفاطين محلِّية مِن نَوع الحرير الخامِّ، والقرمسودَ، ومجمُوعات صُوَر الآثار الإسلامية بِالاتحاد السُّوفياتي، ومصاحف مَطبوعة بـ : **طاشقند،** ثمَّ أَقلَّتنا السِّيارات إلى النَّزل علَى أَملِ الِّلقاءِ على 6.30 بالنَّزل، وفي الوقتِ المحدودِ لحِقَ بنا مُضيفونا، وحضَرنا مأدبة أُقيمَت لنا بالنَّزل، حضَرها معَنا بقيةُ الوفودِ الأُخرَى التي افتَرقنا معَها بـ : **موسكو،** حيثُ لم يَذهبوا معَنا إلى **أرمينيا،** وبعدَ تَناول العشاء تقدَّم سماحةُ المفتي لإِعطاءِ الوفود هَدايا مثلَ التي قدَّمها لنا في مَركز الإِدارة الدِّينية، وأَلقَى

خِطابًا قيِّما، ودَّعنا فيه، ثمَّ أَجابَه الوَزير، ثمَّ الأستاذ الهندوسي، ثمَّ **قاضي داكار** أَلقَى قَصيدةً قيِّمة، ثمَّ الأَمريكي **القياني**.

وإثر المأدبة أقلَّتنا السِّيارات إِلى المطار، وكانت الحرارةُ بلغَت رَقمَها القياسي في ذلك اليوم: (40) فَوق الصِّفر، وطالَ وقوف الطَّائرة، فكانَ مُعظم المسافِرين يتصبَّبون عَرقًا، ومُعظمُهم مِن السُّواح الأَجانِب.

وعلَى العاشِرة حلَّقت الطَّائِرة إِيلوشين عنانَ السَّماء، فَوصلنا **مَطار موسكو** بَعد خمسِ ساعات، وقَد وَجدنا في انتِظارنا نائب مُدير المجلس للدِّيانات، وممثِّل الباطرياك، وشَخصياتٍ أُخرى، وكان المفتي **ضياء الدِّين بابا خان** مُرافِقًا لنا، فذَهبوا بِنا إِلى أَفخَم نَزل.

الثلاثاء: 15/ 7:

وفي صَباح هذا اليوم تجوَّلنا في البلاد، وزُرنا بعضَ المكتباتِ الاختِصاصية في بَيع الكتُب بِاللغات الأَرمينية، ثمَّ أُقيمت لَنا مأدبة غذاء خاصَّة بِالنَّزل، حضَرها معَنا ممثِّل السَّفير الجزائري بـ: **موسكو**، السَّيد **آيت شعلال**، والمفتي **ضياء الدِّين**، ومدير مجلس الأديان ونائبه، وكان الحديثُ ودِّيًا، ويظهَر مِن المدير أنَّه [كان] يريدُ أَن يطَّلِعَ عَن انطباعاتِ الوَفدِ عَن هذِه الزِّيارة.

وفي المساء زارَنا الأخ **عمر أوصديق** السَّفير الجزائري للنَّزل، وتحدَّثنا كثيرًا عن زِيارتنا لـ: **أَرمينيا** و**أوزبكستان**.

الأربعاء: 16/ 7/ 1969:

وفي صباحِ هذا اليوم ذَهبنا بكرةً إِلى المطار، حيثُ أَقلَّتنا طائرة مِن نوع Tou 104 إلى **لنينقراد**، وكانت المسافةُ بينَها وبينَ **موسكو** (800كـ)، فَقطعناها في ساعة، ووَجدنا في

انتِظارنا بالمطار رئيس المجلس الدِّيني لـ : **لنينقراد**، الأستاذ **زفرين ظريف** ونائبه **ولي بن بدر الدِّين**، ثمَّ فضيلة الإمام **فيض الرَّحمن بن أَحمد بن عبد الستَّار** (إمام مسجد لنينقراد)، وكان سبقَ لنا التَّعرُّف بهم في **مؤتمر موسكو**، وكانَ رَفيقنا في هذِه الجولة السَّيد **يوسف شاكر خان**، وكان سماحة المفتي **ضياء الدِّين بابا خان**، وفضيلة الإمام **زينة الله ابن يعقوب** (إمام مسجد موسكو)، وبعض الموظَّفين السَّامين بالإدارة الدِّينية رافَقونا إلى المطار لقينا مضيفونا وأعدوا لنا سيارتَين رَسميتَين، إحداهُما مِن نَوع تشاياكا، وطلَبوا مِنَّا الذَّهابَ إلى النَّزل، ونَظرا لِضيقِ الوَقتِ طلَبنا مِنهم إعفاءَنا مِن ذلك، والذَّهاب طُولا إلى المتحَف، وهو القَصر الصَّيفي للقَياصِرة، ويُسمَّى عِندَهم بـ : قصر (l'Heritage)، فلقيناه غاصًّا بِالسُّواح والزُّوار علَى مختلف طَبقاتِهم، إِذ يَزوره يَوميًّا عِشرونَ أَلف شخص، مُعظمُهم سُواحٌ مِن خارج الاتحاد السُّوفياتي.

وبعدَ فَراغِنا مِن زيارةِ المتحفِ ذَهبنا إلى النَّزل حَيثُ أُعِدَّت لنا مأدبة غِذاء، وكانت الأَطعِمة لا تَختلِف علَى الفناء خضر، خصوصا الطماطم والخيار والكافيار، وأنواع السَّمك، والجبن، وشيش كباب، وبعدَ استراحة قَليلة بِالنَّزل ذَهبنا للتَّجوُّل علَى مَعالم البلادِ وهي كثيرة، وكانت الدَّليلةُ مُهندِسة جيولوجية سبقَ لها أَن اشتَغلَت نَحو السَّنتَين في **الجزائر**، وهي تترجم الرُّوسية إلى الفرنسية، فَبدأنا بـ : **ساحة قصر الشياء**، التي تعتبر الساحة الرئيسية للبلدة، ورأَينا كثيرا مِن المعالم، كـ : الكنيسة الأرتدوكسية، ويُوجَد بالبلدة (13) كنيسة أرتدوكسية، وواحِدة كاثوليكية، وبيعة، ومَسجِد.

ثمَّ زُرنا الملعَب الرِّياضِي الكبِير الذي يَسعُ مائةَ ألف متفرِّج، وهو بِضَواحي البَلدة، وهُناك مَلاعب أُخرى ذات خَمسين ألف مَقعد.

ثمَّ ذهَبنا إلى المسجِد الجامع، وهوَ مسجدٌ فَخم، وقبَّته شَبيهةٌ بِقُبة ضَريح **تيمور لنك** بـ : **سمرقند**، فَصلَّينا بِه الظُّهرَين، وطلبَ مِنَّا قِراءة ثُمنٍ مِن القُرآن.

ثمَّ ذَهبنا إِلى إِدارةِ الشُّؤون الِّدينية، وهي قُربَ المسجِد، وتَشملُ مكاتبَ الإِدارة ومَسكنَ الإمام، وللإِمامِ سيارة خاصَّة وسائِقُها مُوظَّف يَتقاضَى مرتَّبه مِن إِدارة الشُّؤونِ الدِّينية، وفي إِدارة الشُّؤون قدَّموا لنا على العادة بعض المشروبات والفَواكه، وعِندَهم نَوعٌ مِن (fraise) لا نَضيرَ له، يبلغ وزن الواحدة منه مائة غرام، وكذلك التفاح والإِجاص، ثمَّ وزَّع علَينا رئيسُ الإِدارة الدِّينية بعض تحفٍ وهَدايا تَقليديَّة، مُعتذِرا لنا بأَنَّ خبَرَ زيارتنا لهم لم يأتِهم إِلَّا في آخِر الوَقت، وقَد شكَرهُم الأَخُ الوَزير، ووَعدَهم بإِرسالِ زَربيَّة جَزائرية للمَسجد، إِذ جلُّ فِراشِه مِن زَرابي السُّواح المسلِمين.

وبعدَ إِنهاء التَّجوُّل رجَعنا إِلى النَّزلِ فَتناوَلنا طعامَ العَشاء، وكان الصَّحنُ الممتاز هو الدَّجاج المشوي على الحطَب، وبعدَ ذلك ذَهبنا إِلى المطار فَوجَدنا مَوعِدَ الطَّائرة تأَخَّر بِنَحو ساعتَين، فاغتنَم مُضيفونا هذِه الفُرصة لزِيارةِ الموضِع الذي وَصلَ إِليه جَيش المِحوَر في الحربِ العالمية الثَّانية، وبعث **هتلر** إِنذاره الشَّهير، وكان وَجَّه دعوةً لإِقامةِ مأدبة في الَّليلةِ المُقبلة بِبَعضِ فَنادق المدينة، احتِفاءً باحتِلالِه **لنينقراد**، إِلَّا أنَّ المعركةَ الحاسِمةَ كانت في صالح الاتحاد السُّوفياتي، فأُقيمَ نَصبٌ بهذا المحلِّ الذي يَبعدُ بِنَحو (7كـ) على **لنينقراد**، وحَولَ النَّصبِ الرَّمزي تُوجَد مُصفَّحتانِ روسيتانِ شاركتا في تلك المعركة، ثمَّ ذَهبنا إِلى **نَزل روسيا** الشَّهير فأَخذنا بعضَ المشروبات، ورجَعنا إِلى المطار حيثُ امتطَينا الطَّائرة التي أقلَّتنا إلى **موسكو**، والليل بـ : **لينينقراد** قَصيرٌ جِدًّا، حيثُ بين مَغيبِ الشَّفق وطلُوع الفَجر ساعة ونِصف.

الخميس: 17/ 7/ 1969:

غادرنا النَّزلَ بكرةً يومَ الخميس، وكان بِرُفقة سَفيرنا الأَخ **عمر أوصديق** كثيرٌ من الأَصدقاءِ في انتِظارنا بِالمطارِ لتَوديعنا، منهم الأُستاذ ضياء الدِّين بابا خان، وكبار مُوظِّفي الإِدارة الدِّينية، ونائب مدير مجلس الأَديان، فودَّعَنا الجميعُ تَوديعًا حارًّا،

وامتَطينا الطَّائرةَ إلى بلغراد، فَوصَلناها بعدَ ساعتَين ونِصف، ووقَفت بِنا نَحو النِّصف ساعَة بـ : **مَطار كياف**، فَوجدنا في انتِظارنا بـ : بلغراد أَعضاءَ سفارتِنا، وممثِّل وَزير الأَديان، والأَخ **حمدي** (مفتي بلغراد) الذي كان سبقت له زيارة **الجزائر** صُحبةَ الرَّئيسِ الحاج **سُليمان كامورة**، وبعدَ استِراحةٍ قَليلة بدارِ الضِّيافة بِمَركز الإِدارة الإِسلامية بـ : يُوغسلافيا أُقيمَت لنا مأدبة فطور في أَعظمِ نَزلٍ بِالبلدة، ثمَّ رجَعنا إِلى المطار لنُواصِل الرِّحلةَ إِلى (Sarajevo) عاصِمة بوسنة (**البوسنة والهرسك**) (Bosnie Herzégovine).

فَوصَلناها بعدَ نصفِ ساعة، حيثُ وجَدنا بِالمطار زَعيم الطَّائفة الإِسلامية الأُستاذ الحاج **سليمان كمورة**، ومعَه وفدٌ مِن كبارِ علماءِ البلدة، ورافَقنا مِن بلغراد الأَخَوان: الأستاذ **حمدي** (مفتي بلقراد)، والسيد **بومدين كبير** (نائب السفير الجزائري)، إذ كان السَّفيرُ غائبا في عاصمة **الجزائر**، وبعدَ استِراحة في بَهو المطار وشُربِ القَهوةِ التُّركية، ذَهبنا إِلى النَّزلِ الذي أُعِدَّ لنا، وهو **نزل أوروبا**، أضخَم نَزلٍ بِالبلدَة، قضَينا تِلك الَّليلة بِالنَّزل، وفي صباحِ الغَد ـ أَي: يوم الجمعة ـ.

الجمعة: 18/ 7/ 1969:

ذهَبنا إِلى إِدارة ـ زَعيمِ الطَّائفةِ الإِسلامية مُضيِّفنا الأُستاذ ـ (**كامورة**) الموجُودة في **جامع السُّلطان**، حيث توجَد المكتبة الشَّهيرة بـ : **مكتبة الباي الغازي حسرف**، الذي كان حاكما على **البوسنة والهرسك** مِن سنة 1521 إلى 1541، ويُعرف عَهدُ الباي الغازي حسرف بالعهدِ الذَّهبي، إِذ في عهدِه بُنيت مُعظَم مَساجِد ومَدارِس وحمَّامات والسُّوق المشهورة الآن بـ : برسْتان، زُرنا مُضيِّفنا في هذِه الإِدارة، وكان المضيف محفُوفًا بأَعضاء **المجلس الإِسلامي**، الذين هُم خيرة علماء البلاد، ثمَّ جاءَ قيِّمُ المكتبة، وهو علَى جانبٍ عظيمٍ مِن الاطِّلاع والثَّقافة، خُصوصًا العَربية، إِذ أتمَّ دِراستَه بِالأَزهر، فأَطلَعنا علَى الجزءِ الأَوَّلِ مِن (**فهرسة المخطوطات**)، حيث كانَت هذِه المخطوطات مجهولة حتى

عِند المعنيِّين بها، مثل المستشرق الأَلماني **بروكلمان**، وغيره، كما أَطلَعنا علَى بعضِ المخطوطاتِ النَّادِرة بِالمكتبةِ يَرجِعُ عهدُ بَعضِها إِلى أَوائل القَرنِ السَّادس الهِجري.

وبعدَ ذلك دَخلنا إِلى المسجِد الملاصِق للمكتبة، فأَدَّينا صَلاةَ الجمعة، وكان الخطيبُ فَصيحا يَقِظا، فأَلقى خُطبتَه المِنبريَّة بِالُّلغةِ العَربية، وكان مَوضوعُها الاتحاد والتَّضامُن بينَ الشُّعوبِ الإِسلامية، ثمَّ رحَّب بِنا أَجملَ تَرحيبٍ، ونوَّه بِزيارتنا لهم، ثمَّ تَرجَم تِلك الخطبةَ بِلغة البلاد ـ أي: البوسنية ـ وبعدَ الصَّلاةِ تقدَّم المصلُّون جَماعات جماعات، فسلَّموا علَينا، وطلَبوا أَن يَسمعُوا كلماتٍ مِن الأَخ الوَزير، فأَجابَهم لِرَغبتِهم، وأَلقَى كلماتٍ حيَّى فيها باسمِ الوَفد وباسمِ البلادِ السُّكانَ المسلمين، وفي المسجِد لاحَظنا حضُورَ بعضِ النِّسوةِ على العادةِ الخاصَّة لهنَّ، كما لاحَظنا أَنَّ أفرادَ الهيئةِ الدِّينية جاعِلين علَى طَرابِشهم العمامة الطَّويلة البَيضاء، مثل عَمائم أَهل العلمِ مِن العِراقيِّين والسُّوريِّين، أَمَّا الحجَّاج فَيجعلونَ على الطَّربوش العادي عمامة صَفراء، شَبيهة تَماما بِالعمائم في بعضِ المُدُنِ الجزائرية، كـ: المدية، وتلمسان، والذي لاحَظناه أَيضا أَنَّ الحاسِري الرَّأس يجعلُون عندَ الصَّلاةِ قُلنسوة أَو مَناديل.

وفي المساء تجوَّلنا في البِلاد ـ الحي الإسلامي ـ ثمَّ ذهبنا إِلى (Ilirza) التي تَبعُد عَن المدينة بِنَحو 12ك، وهي مَركزٌ سِياحي قَديم، فيها مِياهٌ مَعدنية وآثارٌ قديمةٌ مِن عَهدِ الرُّومان، يَقصدها السُّواحُ والمرضَى مِن جَميع الجِهات، تُعالج فيها أَمراضُ الأَعصابِ والأَمراضُ الجلدية، والمرَّارة، كما تُوجدُ فيها غابات جَميلة، وعيونٌ دافِقة، مِنها عيونُ **وادي بوسنة** النَّابعة مِن الجبل، ذلك الوادي الذي يشقُّ البلدةَ ويمرُّ على **بلغراد**، وماءُ الوادي عَذبٌ بارد، وقَد اتَّخذوا منه بُحيرات صَغيرة يربُّون فيها السَّمك الجيِّد، ثمَّ رجَعنا إِلى المدينة فأَدَّينا صلاةَ المغرب في جامع **الباي الغازي حسرف**، التي بَناها الباي المذكُور سنة 1530، وهذا المسجِدُ يعدُّ أَعظم مَسجدٍ في البلقان، وهو يَمتازُ بقُبَّتِه العَديمة النَّظير، إِذ يَبلغُ علوُّها (26) متر، وقَد أُصيب المسجِدُ بِحَريق سنة 1879 أَثَر

في كثير مِن نقوشه والزليج، إلَّا أنَّ البنيان بقيَ محفوظا، وقَد جدَّد نَقشَه وزليجَه بعض الفنَّانين الألمانيِّين مِن مَدينة (munich) سنة 1886، كما ما زال المسجِدُ يحتفِظُ بِشِبه مَرصدٍ فَلكي تُعرفُ بِه الأَوقات، ومَدرسة قرآنية، وفي جانبٍ مِنه يُوجَد **ضَريح الباي حسرف**.

وبعدَ صلاةِ المغرِبِ ذَهبنا إلى الإدارةِ الدِّينية ـ وهي مَركز رابِطة العلماء ـ فَتناوَلنا بها بعضَ المشروبات، وهذِه الإدارات التَّابِعة للمساجِد تَمتازُ بالنَّظافةِ التَّامةِ، وبالتَّأثيثِ العَصري، واحترام الزَّرابي فلا يَدوسُها الزُّوارُ بِنعالِهِم.

وللغَد أي:

السَّبت: 19/ 7/ 69:

ذهَبنا صباحًا لمقرِّ الحكومة، فتلقَّانا وزيرُ التَّربية، وبَقينا عِندَه نَحو السَّاعة، وكان مِن جُملة الحاضِرين ممثِّل الحِزب، وعلَى العادةِ كانَت كؤوس الشَّاي وأَباريق القَهوة التُّركية والمشروبات تَدور علَى الضُّيوف، وأَحاديث الوُدِّ تَتبادل بِغاية البَساطةِ وعَدمِ التَّكلُّف، ثمَّ ذَهبنا إلى (**توزلا**) التي تَبعُد عَن البِلاد بِنحو 130 كيلومتر، وعِند حدود المنطقة تلقَّانا وفدٌ مِن أَعيانِ الجِهة، وعلَى رأسِهِم **مفتي توزلا**، الذي يَشغل منصب ناظِر الدِّيانة بِتلك النَّاحية، وهذا المنصبُ مِثل منصب المفتِّش الجِهَوي بِوزارة الأَوقافِ عِندَنا، ومِن أَعضاءِ الوَفدِ علماء كِبار أَعضاء المجالِس الدِّينية، يَشغلُون مَناصب سامية في العَدالة والمُحاماة، وكانُوا هيَّئوا لنا حَفلَ استِقبال بـ :أُوتيل تجلَّى فيه الكَرم الحاتمي، وحضَّروا لَنا أَنواعَ المأكولاتِ المحلِّية والمشرُوبات، ثمَّ تابَعنا السَّيرَ إلى البلَدية، فتلقَّانا رؤَساؤُها بِالاِحترامِ والتَّقدير، وقدَّموا لنا المشروبات، وبهذِه البلَدية مَعامل كبِيرة، جلُّ عُمَّالها مِن المسلمين، أَلقَى رئيسُ البلَدية خِطابًا رحَّب فيه بالوَفد، وبيَّن لنا حالةَ المنطِقة الاِقتِصادية.

وختم خِطابَه بِقَوله: « إنه رغم وجُود فَصل الدِّينِ عَن الدَّولة فإِنَّ علائِقَهم بالأَديان بِصفةٍ عامَّة وبالمسلمين بِصفةٍ خاصَّة حسنة، وبِالأَخصِّ علائِقهم معَ زَعيم الطَّائفة الإِسلامية رئيس العلماء، وأَمنيتُه هي أن تتقوَّى هذِه العلائق علَى مرِّ الأَيام ».

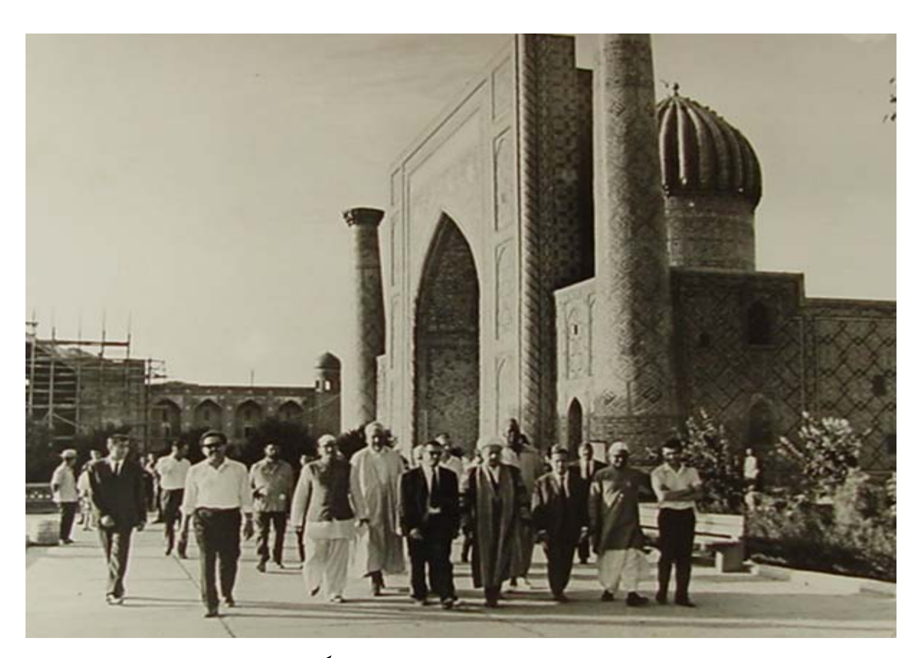
ثمَّ كرَّر سُرورَه، وحمَّل الوَفدَ أُمنياته للشَّعبِ الجزائري البطَل، الذي يَرجو له حَياةَ الاِزدهار والرَّفاهية، ثمَّ أجابه الأخ **الوزير**.

وبعدَ وصُولنا إِلى **توزلا** تلقَّانا عامِلُها بِما جَرت به عادة الحكَّام، تَقديم مشروبات، خِطاب تَرحيبٍ وإِعجابٍ ببطولة الجزائريِّين.

ثمَّ ذَهبنا إِلى **المسجد الجامع** حيثُ وَجدنا المفتي وأَعضاء المجلس الدِّيني، وبعد تَناوُلِ المشروبات والاطلاع على بَعضِ الآثار، منها عقدٌ حسنٌ لبعضِ الضِّياع علَى المسجد، كتبت في القرنِ الثَّاني عشَر، ذهبنا إِلى أَعظمِ **نَزلٍ** في البلدة، حيثُ أُقيمَت لنا مأدبة فطُور حضَرها علاوةً على مُضيِّفينا عامِل البلدَةِ وبعض كبارِ المسؤولين، وبعدَ تَناول الفطور ودَّعنا العامِلَ ورُفقاءَه واستَرحنا في النَّزل.

وفي المساءِ ذَهبنا إِلى قَريةٍ قَريبة حيثُ يوجدُ العمالُ المسلِمون.

صورة عن الصَّفحة الأولى مِن الرِّحلة



صورة في مدينة سمرقند رفقة الوزير السيد السعدوني ، والشَّيخ عبد المجيد الشريف (الكاتب العام)، والسيد باوريكشخان بابا خانوف وأعضاء الوفد اللبناني



صورة للوفد أمام ضريح الإمام البخاري (رحمه الله تعالى)



صورة للوفد في زيارة بسمرقند



صورة عن مؤتمر الأديان بمدينة موسكو



صورة أمام ضريح قثم بن العباس (رضي الله عنهما)



تقرير عن مؤتمر الأَديان
في الاتحاد السوفيتي[1]

تلبيةً للدَّعوة التي تلقَّينا مِن الاتحاد السوفيتي للمشاركة في مؤتمر الأديان بالاتحاد السوفيتي الذي انعقد في مدينة (زاقورسك)، ابتداءً من اليوم الثاني إلى الرابع من شهر جويلية 1969م، سافر السَّيد (وزير الأوقاف) العربي سَعدوني في اليوم الثالث من شهر جويلية على رأس وفدٍ يضمُّ أربعةَ أشخاص إلى الاتحاد السوفيتي.

وإثر وصول الوفد إلى موسكو انتقل إلى مدينة (زاقورسك)، حيثُ عقد المؤتمر، وأمام الكنيسة كان في استِقبالنا مدير المعهد، حيث جرَت محادثة ودِّية قَصيرة، ألَحَّ فيها مبعوثُ المؤتمر على السيد الوزير أن يلقي كلمةً قبلَ مناقشة اللوائح، وأمام ممثِّلي (44) دولة ألقى الوزيرُ الكلمةَ التالية:

قداسة الباطريارخ، سادتي المؤتمرين، أيها السادة:

إنه لشرفٌ عظيمٌ لي أن آخذَ الكلمةَ في هذا المؤتمر التاريخي العظيم، أمام هذا الجمع الذي يضمُّ خيرةَ رجال الأديانِ مِن مختلف أنحاء العالم، جاءوا إلى هذا البلد الصديق، تحدوهم رغبةٌ شَريفة، ويدفعُهم غرضٌ نبيلٌ، لكي يقدِّموا للإنسانية عملا نبِيلا، ويساهموا بآرائهم في الدِّفاع عن السِّلمِ العالمي، ويجنِّبوا كوارثَ الموت والدَّمار.

---

(1) اعتمدنا في إثبات هذه المقالة على نسخة مرقونة تقع في: (9) صفحات، وقفنا عليها بمكتبة الشَّيخ **المهدي** بمدينة بطيوة. (ع)

إنه لشرفٌ عظيم أن تُشارك الثورةُ الجزائرية في هذا الّلقاء الذي نرجو منه خيرا عظيما، وننتظِر مِن ورائِه تغيُّرا واقعيا في العلاقات الإِنسانية، وتعبيرا صادقا عن إرادة الخير والتعايش بين الشُّعوب، في جوٍّ تسودُه الأخوةُ والمحبَّة، بدل الكَراهية والبغضاء.

لقد ظلَّ رجالُ الدِّين يعيشون قَضايا محلية محدودة، ويعكفون على دراسة جُزيئياتٍ بعيدة كلَّ البُعدِ عن حياةِ العصر الحديثِ ومَشاكلِه، ولقد أظهرتُم بهذا المؤتمر أن رجلَ الدِّين لا يقلُّ إدراكا ووَعيا وشعورا بالمسؤولية التي يفرِضُها عليه واجِبه نَحو المجتمع الإِنساني.

إن الجزائر التي عاشَت سبع سنواتٍ ونِصف مِن الحربِ الضَّاربة، حرب بين قِوَى الشَّرِّ وأنصارِ الخير، لَتدرِك أشد الإدراك، وتؤمن كلَّ الإيمان بأنه في إمكان الشعوب المكافِحة أن تحوِّل تقدُّمَ العلمِ والحضارة إلى خِدمة الإِنسانِ وسَعادتِه، وما هذا المؤتمر إلا بادرة مِن البوادر الرَّامية إلى هذا الغرضِ النَّبيل.

وإِذ نُشارِكُ شعوبَ الاتحاد السوفيتي هذه الرَّغبة الصادقة، فإننا نلحُّ كلَّ الإِلحاح على أن تكونُ قرارات المؤتمر وتَوصياته مثلا حيًّا في دُنيا الواقع، وأن لا تظلَّ التَّوصيات مجرَّد قرارات محفوظة في السِّجلَّات.

أيها السادة.

إِننا نقدِّر الدَّوافع السَّامية والشُّعور الصادق الذي دَعاكُم إلى عَقد هذا المؤتمر، نقدِّر شعورَكم بالمأساة التي يَعيشُها الإنسانُ كإِنسانٍ في عصر العلمِ والمعرفة، لقد قهر الإِنسانُ عالم الطبيعة، وسخَّرها لفائدتِه بشكلٍ أضافَ إلى قُدرةِ الإنسان مَفخرةً عظيمة لم تتحقَّق في تاريخ الإِنسان، وبعدَ أيامٍ قلائلَ سيَصِلُ الإِنسانُ إلى القَمر، ويكتشِف عالما جديدا كان حُلما مِن الأحلام، ومع هذا التقدُّم العِلمي والحضاري بقيَ الجانِبُ الرُّوحي معطَّلا، يَشمل عجزَ الإِنسان وعجزَ العلمِ معا في التغلُّبِ على دوافع الشَّر،

وغَرائز الأنانية والحِقد، والتسلُّط على الضعيف، وعلى مقرُبةٍ مِن هذا المكان تسخَّر الاِكتِشافاتُ العِلميةُ والاختِراعاتُ الجهنَّميةُ لإبادةِ الإنسان، لإبادةِ الحياة في هذِه الأرض التي ضمَّت الأنبياءَ والرُّسل، وعرفت في مَبادئهِم معنَى الحرية والكَرامة والعدالة، في أرضِ فلسطين العربية شعبٌ شرِّد مِن أرضِه ظلما وعُدوانا، ويُعاني كلّ لحظةٍ مِن الظُّلمِ والقتلِ والإبادة، أبشَع ما عرفَه التاريخُ في عهدِ النَّازية الأَلمانية، واحتِقارها لِكرامة الإنسان، مقدَّسات المسلمين، ومقدَّسات المسيحيِّين على السَّواء، وقد شجَّعتهم الإمبريالية في التَّمادي على جَرائمهِم وطُغيانهم وإِصرارهِم على جرِّ العالم إلى حربٍ عالمية ثالِثة، وفي الفيتنام حربٌ ضارية، سخَّرت لها الإمبريالية الأمريكية كلَّ وسائل الإبادة والفناء، وليس لهذا الشَّعبِ العظيمِ ذَنبٌ سِوَى أنه يريدُ حياةً حرَّةً كريمة، ويدافعُ عَن استقلالِه بِشَجاعة لا نَظيرَ لها، وفي جنوبِ إِفريقيا وروديسيا، وموزمبيق وغيرها، أمثلة ناطِقة لِاستِغلالِ الإنسانِ للإِنسان.

فماذا فعلَ رجالُ الأَديانِ أمامَ هذا التَّحدِّي لإرادةِ الخير والسِّلم، إنَّ هذا السؤالَ الذي نَطرحُه أمامَ قَداستِكم ... [1] الغاية والهدف من هذا المؤتمر، وأنتُم تُدركون أكثَر مِن غَيركم رأيَ الأديانِ في هذا الموضوع، وعليكُم أن تمثِّلوا رأيَ الأديانِ أصدقَ تَمثيل، فالظُّلمُ هو الظلم، والاِستِعمارُ هو الاستعمار، سَواء كان في فلسطين أو روديسيا أو جنوب إفريقيا، هو عارُ الإِنسانية العاجِزة عَن فَهمِ فلسفة الخير والأخوَّة، والحقُّ هو المثلُ الأَعلى للإِنسانية الفاضِلة، وعِندَما نَتجاهلُ ارتكابَ الظلمِ والجبروتِ في أيِّ مكانٍ مِن الأرض، فإِنَّما نُساهِمُ بهذا التَّجاهُلِ في اتِّساع رُقعة الظلم والتسلُّط.

أيها السَّادة:

إن هذا المؤتمر يعدُّ تحوُّلا عَظيما في عَلاقاتِ المجتمع العالمي نَحو بِناءِ مَصير أَفضَل،

---

(1) بياض في الأصل بهذا الموضع. (ع)

ولأَولِ مرَّة في تاريخ الأديان تلتقي رِسالاتُ السَّماء حولَ مائدةِ الأخوَّة والوِئام، والشُّعور بأنَّه قد حانَ الوقتُ لنَجعلَ مِن وحدةِ الأديانِ السَّماوية طَريقًا ومَنفذا لِنشر العدالة والتَّعايُشِ السِّلمي بينَ شعوبِ العالم، وليس هذا عمَلا مُستَحيلا، متى تَضافَرت الجهود، وتمسَّك المؤمنون بروح الرِّسالة، ولا أريدُ الإطالةَ عليكم، وأحسِبُني[1] في هذه الكلمة المتواضِعة أن أشكرَ قَداسةَ الباطريارخ، والسيدَ وزير الأديان في الاتحاد السوفياتي، حيثُ أَتاحا لنا الفُرصةَ لنعبِّر على رأيِ الشَّعبِ الجزائري والثورة الجزائرية في هذا الِّلقاءِ التَّاريخي.

وختاما أتمنَّى لمؤتمركم كلَّ التوفيق والنَّجاح، والسَّلام عليكُم.

وقبل أن يدخلَ الوفدُ الجزائري إلى قاعةِ الِاجتماعاتِ غادَر الوَفدُ اليَهوديُّ القاعة، وقَد استفسَرنا مُرافِقَ الوَفدِ: هل هُناك سببٌ آخَر لخروجِ الوَفدِ اليَهوديِّ مِن القاعَة؟ فاكتفَى بابتسامَة، كانَت أبلغ مِن الإفصاح، والمعلومُ أنَّ هناك وفودٌ عربيةٌ على رأسِها وُزراء، كالأردن وسوريا، وقَد شاركوا في المؤتَمر مِن البِداية، وقَد كان لخِطابِ الوزير صَداه في أَوساطِ المؤتمر، فَزيادةً عَن الإشادةِ التي أَبداها وزيرُ الأديانِ السُّوفيتي، حيثُ قال: « إنَّ حضُوركم قَد أعطَى للمؤتمر حيَويةً كبيرة، وأثَّر على نتائج المؤتمر »، طالبَ الكثيرُ مِن المناقِشين للوائح تَغيير بعضِ الفقَرات الخاصَّة بِقَضية الشَّرقِ الأَوسَط، وقَد كانت الاقتراحاتُ مُستمدَّة مِن فَحوَى خِطابِ الوزير.

وبعد مناقشةِ اللوائح والمصادقة عليها، رجعَ الوفدُ إلى موسكو، حيث أقامَ في اليوم التالي قَداسة الباطريارخ مأدبة غداءٍ على شَرفِ الوفودِ المشارِكة في المؤتمر، وأثناءَ تَناول الطَّعام ألقَى قداسة الباطريارخ كلمةً شكرَ فيها الضُّيوف، وتمنَّى لهم إقامةً سعيدة في الاتحاد السوفياتي، وقد طلبَ الباطريارخ والسيد وزير الأديان مِن الوَزير الجزائري أن

---

(1) كذا، ولعلَّ الصَّواب: « وحَسبي »، والله أعلم. (ع)

يردَّ بِكلمة نيابةً عَن المؤتمر، فارتَجَلَ كلمةً شكَر باسمِ الوفودِ قداسةَ الباطريارخ ووزير الأديان على الجهود الجبَّارة التي يَبذلونَها مِن أجلِ إنجاح المؤتمر، وعدَّد النتائجَ الإيجابية التي حقَّقها المؤتمر في سبيلِ خِدمة السِّلم العالمي، وقد ساءَ الوزير الأردني والسوري بالخصوص أن تحظى الجزائر بهذه المكانة، فَحاولوا أن يلقوا كلماتٍ في هذه المناسبة، ولكن وزير الأديان في الاتحاد السوفيتي اقتصَر على كلمةِ الوزير الجزائري.

وفي اليومِ الثاني مِن انتهاءِ المؤتمر أقامَ وزيرُ الأديانِ في الاتحاد السُّوفيتي مأدبةَ غداء أيضا على شَرفِ الوفودِ المشاركةِ في المؤتمر و ألقى بهذه المناسبة كلمةً ذكَّر فيها الضُّيوفَ بما قالَه قَداسة الباطريارخ، وفي اليوم السَّابع أقامَ وزيرُ الأديانِ في الاتحاد السُّوفياتي حفلةَ شاي على شرفِ الوَفدِ الجزائري في مكتَبِه، وقَد قال في هذه المناسَبة: « نَظرا لِانتهاءِ المؤتمر، وليس فقَط لِنجاح الأَديانِ في مجالِ السِّلمِ العالمي، لأنه قضية تهمُّ الإِنسانيةَ كلّها، ونحنُ مَسرورون جِدًّا بإِسهامِ الجزائر في هذا العمَلِ الذي مِن شأنِه أن يتركَ آثارًا خالِدةً على مرِّ الأَجيال.

وبهذِه المناسبة وجَّه الوزيرُ الجزائريُّ الدعوةَ إلى وَزيرِ الأَديانِ في الاتحاد السوفياتي لزيارةِ الجزائر، تَعزيزًا لِرَوابِط الأخوَّة والصَّداقة القائِمةِ بينَ الجزائر والاتحاد السوفياتي، كما جدَّد شُكرَه للحكومة السُّوفياتية التي أتاحَت للوَفدِ الجزائري فُرصةً للمشاركة في هذا المؤتمر، والاطِّلاع علَى المعالم التاريخية، والإِنجازاتِ التي حقَّقها الاتحاد السُّوفياتي في المجالاتِ المختلفة.

وقد ردَّ الوزيرُ السوفياتي بما يلي: «لنا كامِلَ السُّرورِ، لأنكم لبَّيتُم الدَّعوةَ وزُرتُم الاتحاد السوفياتي على رأسِ وفدٍ مِن رِجالِ الدِّين الإِسلامي، وسُرورُنا أَعظم لأنَّ سِيادتكم والوفد الذي ترأسُونَه هو أوَّلُ وفدٍ مِن رجالِ الدِّين يَزورُ روسيا، وهذا دليلٌ... [1] مسلمي

(1) بياض في الأصل، ولعلَّ الصَّواب: « من مسلمي ».(ع)

الجزائر في تقوية الصَّداقة معَ مُسلمي الاتحاد السوفياتي، وإشراككُم في المؤتمر قَد أعطى للمؤتمر روحًا قويةً ورفعَ مَنزلتَه، والأفكار التي عبَّرتُم عَنها في الخطابِ الذي ألقَيتُموه أمامَ قَداسة الباطريارخ نحنُ نُشارككُم تلك الأَفكار، والشَّعبُ السوفيتي يقدِّر كلَّ التَّقدير جهودَ الشَّعبِ الجزائري في التقدُّمِ والتطوُّر، ويسرُّنا عِندَما نرَى الجزائر تخطو بِحَماسٍ في طريق التقدُّمِ والاِزدهار ... إنَّ الصداقةَ بين شَعبَينا قائِمةٌ على أساسِ التَّعاوُنِ بينَ الطرفَينِ في سبِيل الكِفاح ضدَّ الإمبريالية العالمية، وقَد أظهَرت أنَّ وجهةَ نَظرنا واحِدة، والموقفَ واحدٌ بِالنِّسبة لجميع المشاكل الدَّولية، وخاصةً مُشكِلة الشَّرقِ الأَوسَط، والكفاح ضدَّ الاستِعمار في القارة الإفريقية، وصيانة السَّلام في أوربا، وأنا أشكُر سِيادتكُم على هذا التَّقدير لأَعمالِ المؤتمر، ولقد كان فِعلا مُهمًّا، لأنه عبَّر على وجهة نظَر رجالِ الدِّينِ في الاتحاد السُّوفياتي والعالم ».

وقَد ردَّ عليه السيد الوزير بِقَوله: « إنَّ الجزائر شعبٌ مُسلمٌ يسعُ كلَّ الحركاتِ الدِّينية التي تعملُ على رَفع مُستَوى الإنسانِ في كافَّة المجالات، ولعلَّكم لاحَظتُم ما يجري في الجزائر، فهي تَسعَى جاهِدةً للتقدُّمِ وتكوينِ الإطاراتِ الكافية بِمُعاوَنة الأَصدِقاء، وفي مقدِّمتهِم الاتحاد السُّوفياتي، ودينُنا يحثُّنا على العلمِ و المعرفَة، ونحنُ نؤيِّد العامِلين في مَجال التقدُّمِ والاِزدهار، ونحنُ سُعداء إذ نَرى هذِه العِنايةَ والاِهتمامَ بِالمسلمين في الاتحاد السُّوفيتي، الذين يكوِّنون عُنصرا إيجابيا في الدَّولة.

إنَّ العقيدة الإسلامية تجعلُ مِن الإنسانِ عَونًا علَى السِّلم، ووَسيلةً تدفعُ الحربَ والخرابَ عَن البشَرية، وحسن النِّية الذي ظهرَ في نصُوصِ القَرارات يدلُّنا على أنَّ تَنفيذَها سَيتحقَّقُ لا مَحالة.

وقَد كان قَداسة الباطريارخ في جمهورية أرمينيا قَد وجَّه الدعوةَ إلى الوفودِ العربية لزيارةِ **أرمينيا**، والإِطلاع على مَعالمها التاريخية، وقد سبقَ أن وجَّه سماحة المفتي العام

لمسلمي الاتحاد السوفيتي الدعوةَ لزيارة المسلمين في جمهورية **أوزباكستان**.

وفي اليوم الثاني مِن شَهر جويلية سافَرت الوفودُ العربية إلى أويقان عاصمة الجمهورية، وقَد أسندَت رئاسةُ الوفودِ إلى السيد وزير الأوقاف الجزائري، وفي مطار أويقان كان الباطريارخ وجمعٌ مِن القساوسة في انتِظار الوفُود، وبعدَ التحية انتقلَت الوفودُ إلى مقرِّ الإقامة.

وفي الصباح أقام الباطريارخ مأدبة غذاء فاخرة على شرَفِ الوفود، حضَرها وزيرُ الأديانِ في جمهورية أرمينيا، وبعدَ زيارةِ المكتبة العامة التي تضمُّ الآلاف مخطوط [1] (عربي وأرميني، وغيرها)، وزيارةِ مقبرةِ الشُّهداء، وبعضِ الآثارِ الأرمينية الشَّهيرة، والمعرضِ الدَّائم، استقبلَ رئيسُ الجمهورية ووزيرُ الأديانِ الوفودَ العربيةَ في قَصر رِئاسة الجمهورية، حيثُ تَبادلَ السيدُ رئيس الجمهورية والسيدُ وزيرُ الأَوقافِ الجزائري مختلفَ الأَحاديث عَن البلدانِ العَربية، وقَد لاحَظنا مدَى قوَّة الشُّعور الأَرميني بِقَضايا الأمةِ العربية، إلى درَجة يَشعُر الإنسانُ معَها وكأنه في بلدٍ عَربي، والأَرمينيُّون يذكُرون جيِّدا الظُّروفَ القاسية التي أَجبَرتهم على الهِجرة مِن بلَدهِم وما لاقَوه مِن حَفاوةٍ وإكرامٍ في البلادِ العربية، ويُلاحِظُ الزائرُ لأرمينيا أنَّ القوميةَ الأرمينية والِاعتزازَ بالنِّضال الأَرميني يلعبُ دَورا بارِزا في شعُور المسؤولين الأمن، إلى دَرجة أنَّ أحاديثَهم لا تَخلو مِن الإِشارة إلى الحروبِ التي خاضُوها، ويعبِّرون عَن العلاقة مع الاتحاد السوفيتي بِعلاقةِ الصَّداقة والتَّعاون، وكأنَّهم لا يمثِّلون جُزءا مِن الاتحاد السُّوفيتي.

وإثر انتهاء زيارة أرمينيا توجَّهت الوفودُ العربية إلى جمهورية أوزباكستان، الجمهورية التي بِها أَعظم الآثارِ الإسلامية، وتمثِّل نِسبة المسلمين فيها مِن ستِّين في المائة إلى سَبعين في المائة.

---

(1) كذا، ولعلَّ الصواب: «الآلاف من المخطوطات»، والله أعلم. (ع)

وفي مَطارِ طشقند كان سَماحة المفتي العام **ضياء الدين بابا خان** وأعضاء المجلس الإسلامي في انتِظار الطائرة، وبعدَ أن نزلَت الطائرةُ إلى أرضِ المطار خرجَت الوفود، حيثُ كانت السِّياراتُ في انتِظارها لنَقلِها إلى النَّزل.

وفي الصَّباح استقلَّت الوفودُ طائرةً خاصَّة إلى سَمرقند، مَدينة الإمامِ **محمد بن إسماعيل البخاري** و**قثم ابن العباس** (رضي الله عنهم)، وضَريح **تَيمور لنك** صاحب الفتوحات الشَّهيرة، وقَد زارت الوفودُ ضَريحَ الإمامِ **البخاري** الذي يرَى فيه المسلمونَ هناك أَعظم عالم ومحدِّث خرجَ مِن بلَدِه **بخارى** مجاهِدا مُناضِلا في سَبيل العِلم والمعرفة.

وبعدَ أن قضَى في الأَماكن المقدَّسة سَنواتٍ طَويلة يجمعُ الأَحاديثَ ويَرويها، فضَّل أن يرجعَ إلى آسيا الوُسطى ليعلِّمَ بني وطنِه دينَهم، واختارَ في أوَّل الأَمر بلدَه بخارى، ولكنَّ الدَّسائِسَ بينَه وبين أَمير **بخارى** صوَّرته بأنَّه رجلٌ خَطير على العرَب، فطُردَ مِن **بُخارى**، وقضَى بقيةَ عُمرِه يدرِّسُ في **سَمرقند**، وقَد ساءَت حالته في الأَخير إلى حدّ أنه قال: « اللهمَّ إنِّي ضِقتُ ذرعًا بهذه الأرض، فاقبِضني إِليك »، فكانَت وفاتُه في اليومِ التَّالي [1].

ثمَّ ضريح **قثم ابن العباس** الذي يمثِّل مُعجزةَ الفنِّ الإسلامي مِن النُّقوشِ الفنية الرَّائعة، والقِباب ذات المنعرَجاتِ التي تُشعِرُ الإنسانَ بالرَّهبة والخشُوع من ومثلَما يعتزُّ المسلمونَ بعلمِ البخاري ووَرعِه يَعتزُّون بِعظمة تَيمورلنك، وما حقَّقه للإِسلام مِن فتُوحات، والمآثر التَّاريخية التي تركَها تشهدُ بتلك العَظمة، فالجامعُ الكبير الذي يعدُّ مِن أَعظمِ آثارِ سمرقند، ويقال إنَّه بناه بعدَ أن رجعَ مِن حُروبه في الهِند، لا يزالُ شاهِدا على تلك العظَمة.

---

(1) انظر قصَّة محنة الإمام **البخاري**، وسبب خروجه من بخارى، وخبر وفاته في: **سير أعلام النبلاء** (12/ 463 ـ 467) للإمام الذَّهبي. (ع)

إنَّ صحنَ الجامع وحدَه يتَّسعُ لعشرِ آلاف مُصلٍّ، وفي جِوار الجامع مَدرسة لا تَزالُ غُرفُها وقاعات المحاضرات وسكن الطَّلبةِ مِن أَروَع ما يُشاهِده الزَّائر.

وبعدَ جَولةٍ قَصيرة في هذِه الآثار الإِسلامية ذَهبنا إلى أحدِ الجوامع حيثُ أدَّينا الصلاة هناك، وألقَى السيدُ الوزيرُ كلمةً في المصلِّين لاحَظنا أنَّ عدَدا كبيرا غلبَه البكاء، وفي المساءِ رجَعنا إلى العاصِمة طشقند صُحبةَ المفتي العام وبعضِ أعضاءِ المجلسِ الإِسلامي الذين رافَقونا في الرِّحلة إلى سَمرقند.

حالة المسلمين في الاتحاد السُّوفيتي

رَغم قِصر المدَّة التي قضيناها في جمهورية أوزباكستان بين المسلمين الذين بذلُوا كلَّ جُهدٍ للتَّعبير على مشاعر الأخوَّة والمحبَّة بين المسلمين، حيث اكتظَّت الجموعُ الغفيرة أمام المسجدِ الذي أدَّينا فيه الصلاة، وهي تصفِّقُ وتهتف، وكذلك أمام مقرِّ الإِدارة الدِّينية لمسلمي آسيا الوسطى في مدينة طشقند، حيث لم تَستطع السِّيارات التي تركبها الوفودُ أن تَسير في الشارع إلَّا بصعوبة، ورَغم مظاهر الرِّضى والشُّعور بالمواطنة في إطارِ النِّظامِ الشُّيوعي للدولة السوفياتية، فإنَّ هناك شُعورا غامِضا وعاطفةً مكبوتةً لم تجِد الطريقَ للتَّعبير على ما يشعُر بِه المسلمُ نحو أخيه المسلم، ونحوَ هذا النَّمط مِن الحياة الاِجتماعية التي يكتنِفُها سورٌ مِن الاِحتِراز والكِتمان، يشعر الزَّائرُ معه بأنَّ مشاعِرَ الفردِ تعيش فيما يسبه [1] الإِقامة الجبرية، ويكادُ ما يعرفُه المسلمون هناك عَن المسلمين في الخارج يُحصَر في الكتُبِ التَّاريخية والآثار الإسلامية، فهُم لا يتحدَّثون عَن العالم الإِسلامي في الوقتِ الحاضرِ، ويجهلونَ كلَّ التَّطوُّرات التي تجري في العالم الخارجي، وعلماءُ المسلمين هناك لا يتعرَّضون إلى علاقةِ المسلمين بالدَّولة وحريةِ مُمارسةِ الشَّعائر الدِّينية، وإذا طُرح سؤالٌ في هذا الموضوع تلمسُ في الجوابِ نَوعًا مِن التَّخلُّصِ وعَدمِ الخوضِ في ذِكر الجزئيات، كقَولِهم: « إنَّ المسلمين كغَيرهم مِن رِجالِ الأديان الأُخرى، وليسَت لنا مَشاكل معَ الدَّولة ».

وقد لاحَظنا أن هناك فَرقًا بين حالة المسلمين وحالة رجال الكنيسة في أرمينيا مثلا،

(1) كذا، ولعلَّ الصواب: « تعيش فيما يشبه »، والله أعلم. (ع)

فَفي أرمينيا يسكنُ الباطريارخ في قَصرٍ عَظيم تحفُّه الحدائق والأَزهار، ويتخلَّل هذِه الحدائق ممرَّات منظَّمة تكوِّنُ مدينةً صغيرة، ويتمتَّع الباطريارخ بمكانةٍ اجتماعيةٍ لدَى المسؤولين في الدَّولة، وفي اجتماعِنا معَ رئيس الجمهورية لاحَظنا أنَّ الباطريارخ يجلِسُ إلى جانبِ رئيس الدَّولة، بينَما يجلسُ وزيرُ الدِّيانة في مكانٍ بينَ الضُّيوف، ويخاطِبون الباطريارخ بكلِّ إجلالٍ واحترام، وما تَحويه الكنيسةُ مِن الأثاثِ والفُرش والأواني والآثار شيءٌ يفوقُ التصوُّر، وعلى الرَّغمِ مِن أنَّ المفتي العام له مكانة اجتماعية هامة لدَى المسؤولين في الدَّولة، فإِنَّ مقرَّ الإدارة الدِّينية لمسلمي آسيا الوُسطى وجمهورية كازاخستان بَسيط، وما يتَقاضاه رِجالُ الدِّينِ يؤخذُ مِن تبرُّعاتِ المسلمين في الأَعيادِ الدِّينية، والمسلمونَ يجمَعونَ التَّبرعات لبناءِ المساجدِ وتأثيثها ودَفع أُجورِ الموظَّفين في الإدارةِ الدِّينية في يومِ عيد الفِطر وعيدِ الأضحَى والمولدِ النَّبوي، وليس للمسلمين مَدارسَ دينية لتعليمِ الدِّين وحِفظِ القرآن، وكلُّ ما تقدِّمُه الدولةُ لبناءِ المساجد وتَحسينها هو بعضُ موادِّ البناء، كالإِسمنت والآجُر، ويلتجِأ المسلمون لتعلُّم مبادئ الدين والقرآن إلى وسائلِهم الخاصة، كأن يعلِّم الواحد ابنَه في منزلِه، وقَد يجتَمعُ جماعةٌ فَينفقون على مَن يحفَظ القرآنَ ليعلِّم أولادَهم في منزلِه خارجَ أوقاتِ الدِّراسة في المدارس الحكُومية، وفي الاتحاد السوفيتي كلِّه مدرسة دينية واحدة في بُخارى، وبعدَ أن يتمَّ الطفلُ المرحلةَ الابتدائية، وهي مرحلةٌ إجبارية، يُرسِلونَه إلى بخارى ليُواصِلَ تَعليمه الدِّيني، والمدرسةُ لا تحوي إلا خمسين طالبا في الوقتِ الحالي، وفي السَّنواتِ الأَخيرة أَرسلُوا بعضَ خرِّيجي هذِه المدارس إلى الأزهر والقرويِّين والجامِعة الإسلامية في ليبيا، وأغلبُ مَن يحسِنون العربية هم مِن خرِّيجي هذه المدارس، ولَمَّا سأَلنا طالبًا ما زال يدرسُ في الأَزهر: « لماذا لا تُرسِلونَ إلى البلادِ الإِسلامية عَددا كبيرًا للدِّراسة؟ »، ابتسمَ قائِلا: « لو عرفتُم كيفَ تحصَّلتُ على مِنحة للأَزهر لَمَا طَرحتُم هذا السؤال، لقَد زارَنا أستاذٌ أزهري، ورافقتُه خِلالَ زيارته للآثار الإِسلامية هنا، وأبدَيتُ له رغبتي في

الدِّراسة، فلما رجعَ إلى القاهرة سعَى لدَى الحكومة المِصرية لتخصِّصَ لي منحة »، وواضحٌ مِن هذا القول أنَّ الحكومةَ السوفيتية لا تُعطي مِنحةً لمن يريدُ أن يذهبَ لدراسةِ الدِّين في الخارج، ولكِنَّها لا تُمانع إذا ما خصَّصت دولة إسلامية مِنَحا لطلبةٍ مُسلمين، فلذلك فَهم يودُّون لو تخصِّص الحكومات الإسلامية مِنَحا لطلبةٍ مُسلمين، وتوجِّه الدَّعوة إلى الحكومة السوفيتية لِتُساعِدهم على الفِرار إلى الخارج، ولدَى المسلمين في طشقند شَخصيات عِلمية في مختلفِ العلوم، ويحتلُّون مَراكزَ هامَّة في الجامعة والحكومة والحزب.

والملاحَظُ أنَّ جمهوريات الاتحاد السوفيتي تُدرِّس كلَّ الموادِّ في المدارس الابتدائية والثانوية باللغة القَومية، وتدرِّس اللغة الروسية كلغة فقَط، ويشعُر المواطنون في كلٍّ مِن طشقند وأرمينيا بأنَّ النُّفوذَ الروسي قد حلَّ محلّ النُّفوذِ القَيصري، وإن كانوا لا يجرؤون على التَّصريح بهذا الرأي صراحة، ولهذا نُلاحِظُ أن التشبُّثَ بالآثار التاريخية والاعتِزاز بالكفاح ضِدَّ القياصرة يشكِّلُ ردَّ فعلٍ إزاء تصرُّف رجلِ الدِّينِ الروسي.

وقد لَمسنا خِلالَ هذِه الزِّيارة أنَّ المسلمين يرغبونَ كثيرا في مثلِ هذِه الزِّيارات التي مكَّنتهم مِن مَعرفة ما يجري في العالم الإسلامي وأَعطتهُم اعتبارا ومكانةً لدَى الحكومة السُّوفيتية، بعدَ أن ظلُّوا زمَنا طويلا مَنسيِّين لا يَعرِفون مِن أحوالِ العالم الخارجي قليلا ولا كثيرا.

ولما رجَعنا مِن جمهورية أوزباكستان أتيحَ لنا أن نَزورَ مدينة لينين غراد ذات المواقف البطولية الرَّائعة، والتي انهزمَ على أبوابِها أسطول هتلر الذي قرَّر قبل الهزيمة بِيومَين أن يحتفِلَ في الغدِ باحتِلال لينين غراد، وقَد وجَّه الدعوةَ لهذا الاحتفال.

ويقول السُّوفييت: إن بطاقات الدعوة لا تَزالُ محَفوظة حتى اليوم، ولينين غراد أجملُ مدينة يَزورُها الزائر للإتحاد السوفيتي، فالجسورُ التي تتخلَّل المدينة، والحدائق

الغنَّاء، والتماثيل العظيمة في الساحات العامة، وقصرُ (أرم طاج) أعظم ما شيَّده القَياصرة، وفي مَدخَلِ هذا القَصر يجِدُ الزائر نفسَه في سوقٍ عالمية يلتقي فيها الجِنسُ البشَري مِن كلِّ أَنحاءِ العالم.

في يوغوسلافيا

غادرنا **موسكو** في اليوم السَّابع عشر، وبعدَ ثلاثِ ساعاتٍ وصَلنا مَطارَ بلغراد، حيثُ كان في انتِظارنا وزير الأديان وأعضاء السَّفارة الجزائرية وإمام جامع بلغراد، وبعد استِراحةٍ قصيرة توجَّهنا إلى مقرِّ رئيس العلماء حيثُ قضَينا فترةَ استِراحة، ثمَّ سافَرنا إلى جمهورية **البوسنة والهرسك،** وقد كان في استِقبالنا رئيس العلماء ورئيس المجلس الإِسلامي والسَّيد وزير الأديان وشَخصيات أُخرى.

ومَهما حاوَلنا أن نجسِّد الحفاوةَ والإكرامَ الذي قابلَنا به علماءُ الإسلامِ والشَّعبُ اليوغوسلافي في مدينة سراييفو والمدن القريبة منها، فإِنَّ الإنسان يَعجِز عَن تصوير هذه المشاعر وهذه العواطف الإسلامية الفيَّاضة، ولقَد شعَرنا بهذا الفرقِ الشَّاسع بين الشعب اليوغوسلافي والشعب السوفيتي إزاء الثورة الجزائرية والشعب الجزائري، وأثناء تأدية الصَّلاة في أحدِ جوامع سراييفو ذات الواحد والسَّبعين مَسجدا كاد المصلُّون أن يُعانِقوا أَعضاءَ الوَفدِ واحدا واحِدا، وكلَّما مرَرنا بِشارع كانَت الأعيُن تُراقبنا وتُرافِقُنا، ولما زُرنا مدينةَ توزلا ذات المياه المعدنية الشَّهيرة، وجَدنا شعبًا مُسلما لا يزال متَمسِّكا بِدينه وعاداتِه وتَقاليده، وصادفَ أن حضَرنا احتِفالا ببِناءِ مسجدٍ، وأثناءَ مُرورنا إلى الجامع كان سكَّانُ القرية نِساءً ورجالا وأطفالا ينثُرون الوردَ على رؤوسِ أعضاءِ الوَفد، وقد اكتظَّت ساحة الجامع بأَهالي القرية، وفي استِراحة قَصيرة كانت أكوابُ الشَّاي والقهوة وابتسامات الفرَح على وجوه الأهالي، وكأنَّهم في عيدٍ وطَني.

وفي الصَّباح زُرنا قريةً أخرَى، حيثُ حضَرنا إقامةَ احتِفالٍ بالمولد النبوي، وهي عادةٌ يُقيمها المسلمون اليوغوسلافيون في كلِّ يومِ أحَدٍ بجامعٍ مِن الجوامع، وبعدَ قراءةِ آياتٍ مِن القرآنِ الكريم، وسردِ قِصَّة المولد النَّبوي، يوزَّع العصيرُ على الحاضرين، ويحضُر الاحتِفالَ كلُّ الأهالي، صغيرا وكبيرا، حتى الأطفال، ويخصَّص في هذه المهرجاناتِ يومٌ للرِّجال ويومٌ للنِّساء.

وأثناء عَودَتنا إلى مدينة سراييفو مرَرنا بقريةٍ للعمَّال، وقَد بنَوا مَسجِدا جديدا ألقَى الوزيرُ كلمةً هنَّأَ فيها الأهالي بإقامة هذا المسجد، وبلَّغهم عواطِفَ إخوانهم المسلمين بالجزائر، فبلغَ مِن تأثُّر العمَّال بهذه الكلِمة أن طلَبوا مِن السيد الوزير أن يقبلَ تَسمية المسجد باسمِه، وقَد أطلقوا عليه فِعلا اسم: (العربي سعدوني).

وقد كان الوزيرُ قرَّر أن نبقى في جمهورية البوسنة والهرسك يومَين فقَط، ولكن رئيس العلماء ورئيس المجلس الإسلامي أصرُّوا على أن يمدِّد الوزيرُ في هذه الزِّيارة خمسةَ أيامٍ على الأقلّ، وأن هذه المدة قصيرة وغير كافية لزيارة كلِّ المدُن التي يوجَد بها مسلمون، والذين هم في شَوقٍ عَظيمٍ إلى زيارة المسلمين لبِلادهِم، وقَد لَمسنا فِعلا قوَّةَ شعور المسلمين ورَغبتهم في الإطلاع على أحوال المسلمين خارج يوغوسلافيا، ولولا الإطالة في شرح حياةِ المسلمين بيوغوسلافيا لذكَرنا أمثِلةً كثيرة، ولكِنَّنا اقتَصرنا على بعضِ الحقائق المشاهَدة، ونلخِّصُها فيما يلي:

1) يشعُر اليوغوسلافيون بحبٍّ عظيم للثورة الجزائرية، وكلَّما ذكِر اسمُ الثورة أمام الأهالي تعالَت الهتافات، ودوَّى التصفيقُ بحياة الثَّورة الجزائرية.

2) يذكُر المسلمون اليوغوسلافيون للرَّئيس **هواري بومدين** الإعانة التي قدَّمها إلى جامع مدينة بلغراد، ويرَون فيها عُربونًا صادِقًا على شُعور الرئيس نحوَ المسلمين اليوغوسلافيِّين.

3) يرَى علماءُ الإسلامِ في يوغوسلافيا أنَّ الوفدَ الجزائري كان الوفد الوحيد الذي اهتمَّ بحالةِ المسلمين، وله رَغبةٌ صادِقةٌ في التعرُّفِ على أحوالِهم وظروفهِم الخاصَّة، وقد لاحَظوا أنَّ الوفودَ التي كانت تَزورهُم مِن البلدان الإِسلامية كانَت زيارتُها شَكلية، لا ترى في مُسلمي يوغوسلافيا أكثَر مِن كَونهِم جُزءا مِن الآثار التي خلَّفها الأَتراك.

4) يَبذلُ علماءُ المسلمين في يوغوسلافيا نَشاطا كبيرا في بثِّ الرُّوح الإسلامية لدَى الشَّباب اليوغوسلافي، فَفي يومِ كلِّ جمعة تُلقى محاضرة في جامع سليمان القانوني، يحضُرها الشَّبابُ الجامعي مِن الجِنسَين، ويلقي المحاضَرات أَساتِذة مِن علماءِ الإِسلام وأَساتِذة الجامِعة بـ: سراييفو.

5) يُمارسُ المسلمون في يوغوسلافيا شَعائرهم الدِّينية في المساجد بصورةٍ أَفضل مِن مُسلمي الاتحاد السُّوفيتي، وقَد اعترفَت لهم الحكومة اليوغوسلافية بِوجُود القومية الإِسلامية، ولذلك فقَد لاحَظنا أنَّ الأستاذَ في الجامِعة والمسؤول في الحزبِ أو الحكومة يشعُر بالقَومية الإِسلامية، ويقدِّم للمسلمين خدَماتٍ كُبرى، إلى حدِّ أنَّ أحدَ المسئولين في رابطة علماء المسلمين يقول: « إنَّنا نعلِّق أملا كبيرا على المثقَّف في الجامِعة والحزب أكثر مِن رجالِ الدِّين أنفسهم في الدعوة إلى الإِسلام »، وعلاقة [1] المجلس الإسلامي في مدينة سراييفو دكتور في الحقوق وهو أستاذ في الجامعة.

6) ينوي المسلمون في يوغوسلافيا بناء ناد إسلامي، وقد ضَبطوا التكاليفَ المادية لبناءِ مركز بِمَبلغ ألف[2] دولار، وهم يعلِّقون أملا كبيرا على الجزائر لكَي تتولَّى بِناءَ هذا المركز، وثِقَتهم في الثورة الجزائرية تشكِّل اعتِقادا لا حدَّ له.

---

(1) كذا، ولعلَّ الصَّواب: « ورئيس المجلس ... الخ »، والله أعلم. (ع)

(2) كذا، ولعله يوجد ثمة سقط.

تقرير عن :

مؤتمر الأديان في الاتحاد السوفياتي

تلبية للدعوة التي تلقينا من الاتحاد السوفياتي للمشاركة في مؤتمر الأديان بالاتحاد السوفياتي الذي انعقد في مدينة " زاقورسك " ابتداء من اليوم الثاني الى الرابع من شهر جويلية 1969. سافر السيد وزير الأوقاف العربي سعدوني في اليوم الثالث من شهر جويلية على رأس وفد يضم أربعة أشخاص، الى الاتحاد السوفياتي .

واثر وصول الوفد الى موسكو انتقل الى مدينة " زاقورسك " حيث عقد المؤتمر، وأمام الكنيسة كان في استقبالنا مدير المعهد حيث جرت محادثة ودية قصيرة، ألح فيها مبعوث المؤتمر على السيد الوزير أن يلقي كلمة قبل مناقشة اللوائح ، والمصادقة عليها . وأمام ممثلي 44 دولة ألقى الوزير الكلمة التالية :

قداسة البطريارخ ، سادتي المؤتمرين، أيها السادة :

انه لشرف عظيم لي أن آخذ الكلمة في هذا المؤتمر التاريخي العظيم، أمام هذا الجمع الذي يضم خيرة رجال الأديان من مختلف أنحاء العالم، جاءوا الى هذا البلد الصديق، تحدوهم رغبة شريفة، ويدفعهم غرض نبيل لكي يقدموا للانسانية عملا نبيلا، ويساهموا بآرائهم في الدفاع عن السلم العالمي ، ويجنبوا الانسانية كوارث الموت والدمار .

انه لشرف عظيم أن تشارك الثورة الجزائرية في هذا اللقاء الذي نرجو منه خيرا عظيما ، وننتظر من ورائه تغيرا واقعيا في العلاقات الانسانية، وتعبيرا صادقا عن ارادة الخير والتعايش بين الشعوب في جو تسوده الأخوة والمحبة، بدل الكراهية والبغضاء .

لقد ظل رجال الدين يعيشون قضايا محلية محدودة، ويعكفون على دراسة جزئيات بعيدة كل البعد عن حياة العصر الحديث ومشاكله ، ولقد أظهرتم بهذا المؤتمر أن رجل الدين لا يقل ادراكا ووعيا ، وشعورا بالمسؤولية التي يفرضها عليه واجبه نحو المجتمع الانساني .

ان الجزائر التي عاشت سبع سنوات ونصف من الحرب الضارية، حرب بين قوى الشر، وأنصار الخير لتدرك أشد الادراك ، وتؤمن كل الايمان بأنه في امكان الشعوب المكافحة أن تحول تقدم العلم والحضارة الى خدمة الانسان وسعادته ، وما هذا المؤتمر، الا بادرة من البوادر الرامية الى هذا الغرض النبيل ، واذ تشارك شعوب الاتحاد السوفياتي هذه الرغبة الصادقة، فاننا نلح كل الالحاح على أن تكون قرارات المؤتمر وتوصياته مثلا حيا في دنيا الواقع، وأن لا تظل التوصيات مجرد قرارات محفوظة في السجلات .

.../ قداسة

.../...

صورة عَن الصُّفحة الأولى مِن النُّسخة المعتمَدة

[رسالة مِن الاتحاد السُّوفياتي][1]

الحمد لله، والصَّلاةُ والسَّلام على رسولِ الله.

(إيرفن): 12/ 7/ 69.

الأَخ الفاضل سيِّدي الحاج محمَّد.

تحيةً وسلاما، وبَعد:

فإِنَّنا بِمدينة **(إيرفن)** عاصمة **أَرمينيا** التي تَبعدُ بِنَحو (2000كـ) على **(موسكو)**، وَصلنا إِليها بعدَ ما قَضينا (6) أيام في **موسكو**، وكنَّا محلَّ احتِرامٍ وتَبجِيل، واجتَمعنا بِكثيرٍ مِن الأَصدِقاء، يُمثِّلونَ (44) دَولة.

أَمَّا **(إيرفن)** هاتِه، فَهي مدينةٌ جَميلةٌ جِدًّا، وعَريقة في المجد، فَفي السَّنةِ الماضية احتفلوا بِمُرور 4750 سنة على تأسيسِها، ولها مكتبة تضمُّ ما يَربو علَى (10) ألف مخطوط، يَرجعُ تاريخ بَعضِها إِلى القرنِ الرَّابع، وأَهلُها كُرماء، لهم دَماثةُ أَخلاقٍ وطَبائع شَرقيَّة، فَنفس رَئيس الجمهورية الذي زُرناه وَجَدنا مائِدتَه في مكتَبِه الخاصِّ مَملوءةً بِفَواكه البِلادِ والقَهوة التُّركية، ومُعظم مآكلهم شَرقيَّة، وتحمِلُ أسماءً شَرقيَّة، وعِندَ مُقابَلتِنا للرَّئيسِ كان معَنا أَحدُ الأُدباءِ الُّلبنانيِّين، فارتَجلَ قصيدةً، قال مِن ضِمنِها:

---

(1) اعتمدنا في إثباتها على نسخة مصوَّرة مِن مجموع: **تعريف الخلف بمآثر السَّلف**، للأستاذ هاشمي عبد الحفيظ ياسين، وهي رسالة بعث بها الشَّيخ **المهدي** إلى الشَّيخ **محمد بن محمد الهاشمي**. (ع)

أرمينبـــــا ردِّي لي فُـــــؤادي حتَّـــى يعـــودَ حَنينـــه لـــبلادي
أَنسَـــيتِني أَهـــلي وأَصـــحابي الأُلى يضـــنيهمُ هَجـري وطُـول بِعـادي

...الخ

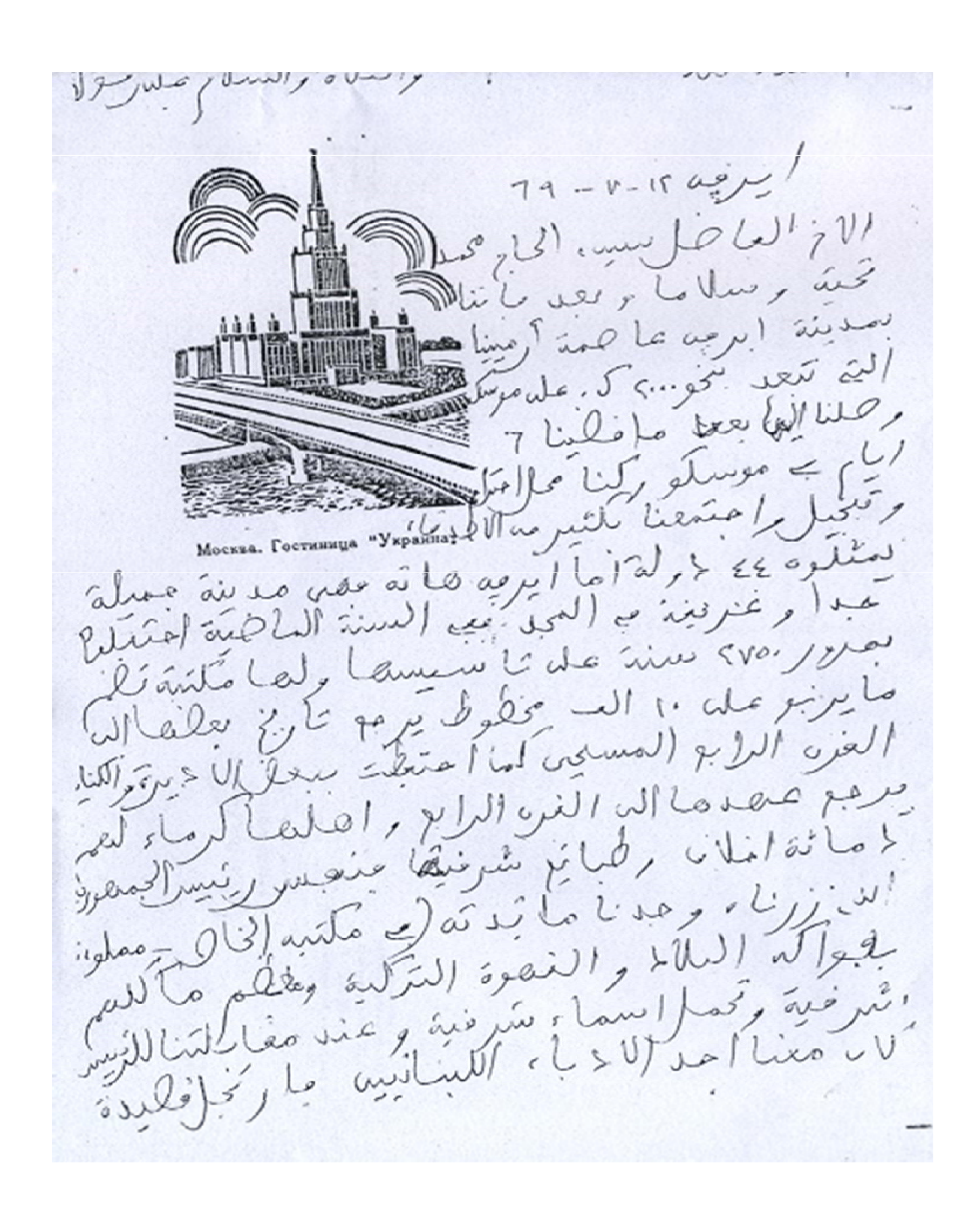
الحاصلُ أَنَّني لا يُمكِنُ لي في هذِه العُجالةِ أَن أَصِفَ لكُم البِلادَ ومَعالمها ومَوقِعَها الجميل، إِذ هي مُرتفعةٌ ومُحاطةٌ بِجبالٍ يَبلغُ علوُّها 5000 متر، وماؤُها مُثلج، ولها مِياهٌ عَذبةٌ عَزيزة، وطابعُ أَهلِها الكَرم، ومَوائِدهم كَموائِد أَلف ليلة ولَيلة، وإِنَّني تأَسَّفتُ كثيرًا حيثُ إنَّ الأخَ الشَّيخ الجيلاني لم يُرافِقنا في مثل هذه الأسفار التي لا يَسمحُ بها الزَّمانُ كثيرا، ولَو أنفقَ الأموالَ الطَّائلة، خصوصًا وأنَّ وفدَنا يضمُّ جماعةً مُنسَجِمةً علَى جانبٍ عَظيمٍ مِن التَّربيةِ والأَخلاق.

ومِن جُملةِ معالمِ البِلاد ـ أَي: **أرمينبا** ـ بُحيرتُها التي هي في مَوقعٍ علوُّه 2000 متر، وطولُها (75كـ)، وعَرضُها (25كـ)، وعُمقُها (90م)، وبِقُربها نَزلٌ ارتفاعُه (2150م)، وبها عيون مَعدنية يَقصدُها سواحُ العالم.

إِنَّنا سنُغادِرُ البلدةَ إلى **طاشقند** و**سمرقند**، حيثُ يوجَد ضَريحا الإِمامِ **البخاري** و**تيمور لنك**، وبعدَ قَضاءِ يَومَينِ بهما سَنرجعُ إلى **موسكو**، ثمَّ نَذهبُ إلى **يوغوسلافيا**، فَنقضي نَحو الأسبوع إجابةً لدَعوةِ رَئيسِ الجالية الإِسلامية الذي زارَنا في **ذِكرَى أَبي مَروان**، فالبِلادُ وإِن كان طَقسُها حارًّا في هذا الفَصلِ إِلَّا أَنَّنا لا نَشعُر بِالحرارةِ لجوِّها الصَّافي ونَسيمِ جِبالها التي ما زالت مكسوَّة بالثُّلوج، خصُوصًا **جبلَ أرزات**، الذي يَبعدُ على **(إيرفن)** بِنَحو (30كـ)، إذ هو في **تركيا** التي تَبعدُ عنَّا بِنَحو (20كـ).

أَتَمَنَّى أَن تجِدكم رِسالتي على أَحسَنِ حال، وبلِّغوا تَحيَّاتي إِلى الإِخوة المشايخ، و**عبد القادر سعيدي**، وأَحمد، و**عبد القادر**، وجميع روَّاد المسجد، أَعانكم الله.

المهدي


والصلاة والسلام على رسول الله

ايرفان ١٢-٧-٦٩

الاخ الفاضل سيدي الحاج محمد
تحية وسلاما وبعد فانا
بمدينة ايرفان عاصمة ارمينيا
التي تبعد بنحو ٢٠٠٠ ك. عن موسكو
وصلنا اليها بعد ما قضينا ٦
ايام في موسكو ركبنا محل احتفال
وتجول واجتمعنا بكثير من الادباء
يمثلون ٤٤ دولة اما ايرفان هاته فهي مدينة جميلة
جدا وعريقة في المجد ففي السنة الماضية احتفلت
بمرور ٢٧٥٠ سنة على تاسيسها ولها مكتبة تضم
ما يزيد على ١٠ الف مخطوط يرجع تاريخ بعضها الى
القرن الرابع المسيحي كما احتفظت بعض الاديرة والكنائس
يرجع عهدها الى القرن الرابع، واهلها كرماء لهم
دماثة اخلاق، وطبائع شرقية فنفس رئيس الجمهورية
الذي زرناه وجدنا مائدته في مكتبه الخاص مملوءة
بجواهر الحلاوة والقهوة التركية وعلمنا ان كلهم
شرقية وتحمل اسماء شرقية وعند مغادرتنا للرئيس
كان معنا احد الادباء اللبنانيين فارتجل قصيدة

صورة عن الصَّفحة الأولى مِن النُّسخة المعتمدة

رحلتي إلى الهند[1]

غادرتُ مطارَ **الجزائر** صباح يوم الثُّلاثاء: (15/ 4/ 75) إلى مطار **روما**، فقَضينا النَّهار كلَّه بِمطارها، وفي السَّاعة التاسِعة ليلا وصلَت طائرة شركة K.L.M الهولندية، تأخَّرت عَن موعدِ وصُولها بنَحو ساعة التي أقلَّتنا إلى **كراتشي** وهي طائرة من نوع (**بوينق**) وربانها ومستخدموه يلوح عليهم النَّشاط وأدب اللّياقة، وكان طريقها على **صراجيـفـو** ثمَّ **أنقرة فطهران**، ولكنَّها ذهبت رأسا إلى **كراتشي**، فوصَلناها على السَّابعة صباحا ـ أي: بعد طلوع الشَّمس بنحو الساعة ـ فحجَزت لنا الشركة بالنَّزل التابع لها بُيوتا فأَقمنا يَومَنا إلى حوالي 8 ليلا، فذهبنا مع الشَّركة السعوديَّة، إذ جاءت هي الأخرى متأخِّرة عن مَوعِدها بِنحو ساعات، فوَصلنا **بومباي** بعد ساعة ونصف، وبعد الإجراءات بالمطار وجدتُ **ابن السلطان** ومعه بعض تلامذتهم فرافقوني إلى النزل الذي حجزوا فيه مساكن المدعوِّين، وهو (**نزل تاج محل**)، وهو مِن أفخَمِ أوتيلات العواصم العالميَّة، واسمه مُرتبِطٌ بتاريخ بلاد **الهند** الإسلامي، فَفي القَرن السَّابع عشَر، وبالضَّبط في سنة 1629م، توفِّيت السيِّدة **ممتاز محل** زوج **الشَّاه جيهان** مِن سلاطين المغول

---

(1) اعتمدنا في نشرها على نسخة خطية بقلم الشَّيخ **المهدي** (رحمه الله تعالى)، تقع في (12) صفحة، تنقصها هذه الصفحات: (5، 6، 7، 10)، وبهامش الصَّفحة الأولى كتب ما يلي: « هذه الرِّحلة كانت بِمناسبة الاحتفال بِتشيِيد معهد طائفة البهرة، سُلالة العُبيديِّين الفاطميِّين، بِمدينة بومباي، استَعرضوا في هذا الاحتفال بعدَّة نوادر مخطوطات، يرجعُ تاريخ بعضِها إلى أيام الدَّولة الفاطميَّة قبلَ جلائِها مِن مصر إلى اليمَن، ثمَّ إلى الهِند، كان الاحتفال في شَهر أفريل 1975، حضَره مُمثِّلون مِن بلادِ العالم الإسلامي، وكثيرٌ مِن أعيانِوعلماء أجانب ».

المسلمين الذين حكَموا **الهند** عِدَّة قرون، وتركوا بها آثارا عِمرانية، فلَم يصبِر عنها زَوجُها رغمَ وجودِ أربعين جارية في قَصره، إذ قيل إِنَّها كانت في مقدِّمة الجيش في مَيادين القتال لإثارة نَخوتِه، وقد أَصابها المخاضُ في ساحة الوغَى عِندَما توفِّيت، ففكَّر في بناءِ ضَريحٍ يخلِّدُ به اسمَها، فكان: **(تاج محل)** الذي وضعَ تصميمَه مُهندسٌ **تركي**، واستغرقَ بِناء هذا القَصر (14) سنة، تكلَّف مصاريفَ قلَّ أن يصِل إليها أو إلى القُرب منها مبنًى آخَر طيلةَ قرون، **والهند** بلادُ القصور مِن قديم، ولا زالَ هذا الضَّريح، فالمسلمون يحتَرمونَه احترامَ المساجِد، حيثُ لا يدخلُه مُنتعِلٌ حتى في عَهد الحماية، والسُّوَّاحُ الأوربيُّون يقصدونَ زيارتَه القافلة بعدَ الأُخرى مِن جميع الأقطار، ويعدُّونَه رمزَ وفاءِ الزَّوج، وقد بلغَت تكاليف هذا البناءِ في ذلك العهدِ ما قدِّر بِثلاثة ملايِين جنيه إنجليزي بحسبِ تقيِيم ذلك العهد، مات **الشَّاه جيهان** بعدَ نكباتٍ أصابته مِن ولدٍ عاقٍّ حوالي سنة 1666م، وقبلَ وفاتِه طلبَ مِن ولدِه الإِذنَ بزيارةِ الضَّريح فَرفضَ، فاكتفَى وهو في سكَراتِ مَوته أَن يطلبَ مِن ابنتِه **جيهان أَرى** أَن تشدَّ رأسَه إلى وِجهةِ الضَّريح.

يوجدُ هذا الضَّريحُ في المدينةِ الأَثرية التي كانت عاصمةً في عَهد **المغول**، وهي تقرُب مِن **دلهي** العاصمة الحالية ...[1].

إِلَّا أنَّ له نِظاما خاصًّا فَريدا مِن نوعه، لا يسعُ المقام للدُّخول في التَّفاصيل، وإنَّما حيَّر قادةَ الجيش الفرنسي وخصَّصوه بتآليف، كان مِن جملة انطباعات بعضهم أنَّه قال مخاطباً لمواطنيه ومحذِّراً إياهم باليقَظة وعدَمِ التَّهاوُن في طرقِ حكمهِم لبلاد توجدُ فيها مِثل هذه المنظَّمات، وإنَّ قائدة هذِه المعركة خرِّيجة معهد ديني أَسَّسه عالم جزائري أزهري ـ تلميذ الشَّيخ **الحفني المصري** الخلوتي ـ وكان قبلَ رجُوعه إلى مَوطنِه مِن الدُّعاة الذين أُرسلوا إلى **السُّودان**.

(1) يوجد فراغ بقدر ثلاث صفحات، حسب ترقيم الشَّيخ **المهدي** (رحمه الله تعالى). (ع)

ثمَّ تقدَّم أحدُ علماءِ الطَّائفة فارتجَلَ خطبةً رحَّب فيها بالضُّيوف الذين استَجابوا للدَّعوة، وأنَّ هذا الحفل تدعيمٌ للدِّين الإسلامي ولنَشره في هذه الرُّبوع والمحافظة عليه، وقد حضَرت وفود **لبنان** و**سوريا** و**تونس** و**الكويت** و**اليمن** و**أبو ظبي**، وفي هذا المساء ستُقام مأدبة عَشاء اليوم بالنزل تحضُرها شخصيات محليَّة رسميَّة.

أقيمت مأدبة عشاء في إحدى حدائق النَّزل، وكانت الموائد منصوبة على العادة، إلَّا أنَّ الأطعمة كانت على الطريقة الحديثة ـ أي: يأخذ كلّ وجبته من الموائد التي وضعت عليها المأكولات ـ وفي أثناء تناول العشاء التحقَ بي الأخ السَّفير **عمر أوصدِّيق** فتناول عشاءَه وسَهرنا ... [1].

... الخلائق، منصَّة لرئيس الجمهوريَّة ومعيَّته، فبعدَ بُرهة قصيرة وصلَ رئيس جمهورية **الهند** السيد **فخر الدِّين علي أحمد**، ومعه **د.برهان الدين** (حاكم مهاراشتر)، والسيد **علي ياورجنك** ـ كان زارنا للجزائر بمناسبة احتِفال **جامع ابن مروان** بعنابة، ومن الصُّدف أنَّه رافقَني إلى **القالة** وخطبَ بالإنجليزية، وكان استقبال السكَّان رائعا أثَّر فيه كثيرا، وقال لي عِند الملاقاة: « إنَّه لن ينسَى الجزائر » ـ وحاشيتُه مِن بينِ أَفرادِها الشَّيخ **عبد الله** (رئيس وزراء **كشمير**) ـ زَعيمٌ مسلمٌ قضَى (20) سنة في السِّجن ـ.

وكانَ مِن جملة الضُّيوف الذين جلَسوا على المنصَّة: الكاتِب العام لرئاسة جمهوريَّة.

فائدة[2]:

انتهت رحلتي في الهند بِزيارة **بومباي** المشهورة، والتي كانت تُعرفُ قديما منذ أربعة قرون باسم: ابتزيا، أسِّست هذه المدينة في القرن الثَّالث قبل الميلاد على سبع جُزر كانت

---

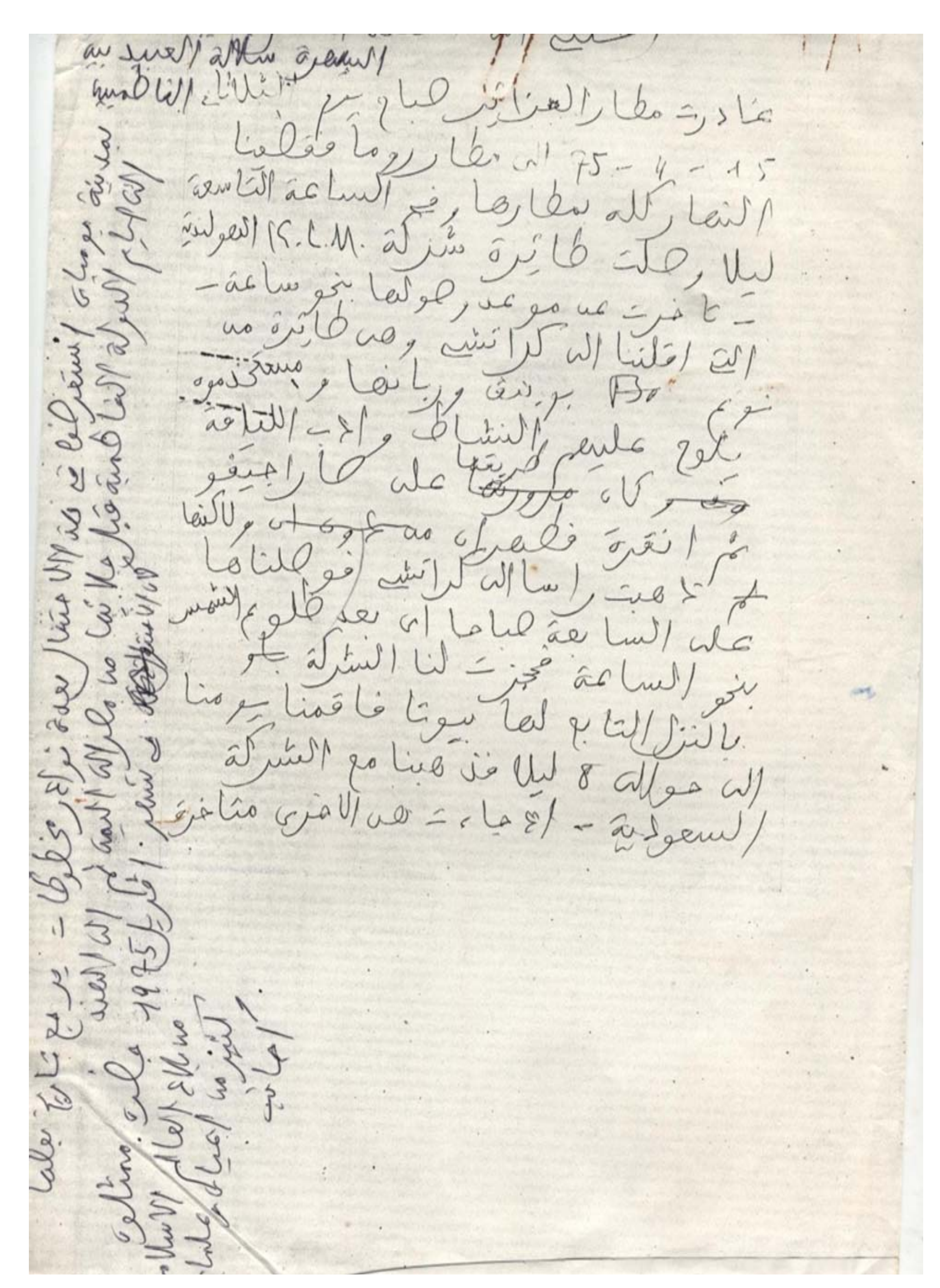
(1) فراغ بقدر صفحة.

(2) مِن كناش للشَّيخ **المهدي** (رحمه الله تعالى). (ع)

بركانية في الأَصل، ثمَّ توالت عليها العوامل الطَّبيعية فبردت وكوَّنت مساحةً شاسِعة مِن الأرض المنبسِطة، وتُعدُّ هذه المدينة الآن أحدث وأرقى مدينة في الهند بأسرها، وإنها لكذلك، حتى إنه يخيَّل إلى الزَّائر عندما يُشاهِد العمارات الشَّاهِقة بأنه في بلاد غربية، وفيها سبعون ألف عِمارة عظيمة، تجمعُ الواحدة منها عشرات من الشُّقَق، وكلُّها متقاربة مِن بعضها، وتشكِّلُ سِلسلةً مِن الأبنية المتراصَّة، ولقد اتخذت بلديَّتها كشعارٍ لها العبارة: « تكون أعظم بلاد الهند ».

وبومباي مدينة صِناعية فيها عِدَّة معامِل عامة، وتصنع فيها القطارات وغيرها، كانت هذه المدينة عاصِمة بلاد الهند كلِّها، وقبل عشرين سنة ولسببٍ ما حوَّل الإنجليز الحكومة إلى دلهي الجديدة.

عرِّف بـ: **(بومباي)**، وأشهر اسمها في العالم المسلِمون بعدما دخلوها سنة 1450م، واستمرُّوا يعمرونها فشيَّدوا فيها المساجِد العظيمة وغيرها، إلى أن جاءت سنة 1509م عِندئذ بدأ القتال من جديد بينهم وبين الهندوس وبقيت مسرحا للحروبِ إلى أن احتلَّها البرتغاليون (portugais) سنة 1590م، وأخرجوا منها الأمير حسن، آخر حاكم مسلم فيها، وعلى العكسِ من المسلمين لم يخلف البرتغاليون أي أثر يُذكر في المدينة سِوى تخريب بعض الآثار القديمة، وكذلك فعل الإنجليز من بعدهم، فقد أسكنوا جنودهم المعابد في جزيرة اليفانتا، وعند زيارة الملكة فكتوريا والأمير ألبرت إلى بومباي شيِّد لهما قوسُ نصرٍ عظيم تَسعُ المساحة تحته لستمائة شخص، ولم ترق للإنجليز إقامته إلا في مكان قيل حجري كبير كان لأهل البلد يحرس المدينة مِن هيجان البحر وزوابده، وله تاريخٌ طويل، فنقلوه مِن مكانه إلى جهة أخرى لكي يفسحوا المجال لإقامة القوس المذكور، وباسمِ الملكة فكتوريا تعرف أيضا حديقة كبيرة فيها جنينة للحيوانات.



الثلاثاء

غادرت مطار الجزائر صباح يوم
15-4-75 الى مطار روما فقضينا
النهار كله بمطارها وفي الساعة التاسعة
ليلا ركبت طائرة شركة T.W.A. السعودية
تأخرت عن موعد وصولها بنحو ساعة
التي اقلتنا الى كراتشي وهي طائرة من
نوع B 707 بوينغ وربانها ومستخدموه
يكون عليهم النشاط وآداب اللياقة
وكان مرورنا على مطار اجينيفو
ثم انقرة فطهران ... ولكنها
لم تذهب راسا الى كراتشي فوصلناها
على الساعة صباحا اي بعد طلوع الشمس
بنحو الساعة فحجزت لنا الشركة بالنزل
بالنزل التابع لها بيوتا فاقمنا يومنا
الى حوالي 8 ليلا فذهبنا مع الشركة
السعودية - ... هي الاخرى متأخرة

صورة عن الصَّفحة الأولى مِن النُّسخة المعتمدة

انطباعات عن ملتقى الدِّراسات العربية والإِسلامية
بمعهد تكوين الدُّعاة بِجامعة بُومباي
(ربيع الثَّاني 1975/1395)[1]

انعقد هذا الملتقى بمدينة (**بومباي**) إثر المهرجان الذي أقامته طائفة (**البهرة**) الفاطميَّة، بمناسبة إحياء ذكرى قائدِها الرَّاحِل الدَّاعي الواحد والخمسين، الدكتور طاهر سَيف الدِّين، الذي كان أبرز وأمثل دعاةِ الطائِفة، وساعدَته الظروفُ حيثُ دامَت رياسته خَمسين سنة، أي: مِن سنة 1915 إلى سنة 1965م، وفي هذه الفترة وضعَ كثيرا مِن التآليف باللغتَين العربية والأُوردية، ونشَر نَفائسَ المخطوطات الفاطمية التي كانت تَزخَر بها خَزائِنه، وفي عهدِه ازدهَرت الجامِعة السَّيفية بمدينة (**سورت**)، المختصِّصة في تكوين الدُّعاة، والتي تبعدُ عن مدينة (**بومباي**) بِنَحو (160) كم، وهي مِن مؤَسَّساتِ أحدِ أجدادِه، وهو الداعي سَيف الدين الذي سُمِّيت الجامعةُ باسمِه، تطوَّرت الجامِعةُ السَّيفية في عهدِ (د. طاهر سيف الدين) تطوُّرا مَلموسًا، حيثُ أدخلَ في بَرامج التعليم بها زيادةً على العلوم الدِّينية، اللغاتِ والعلوم الاقتصادية والفنية والسِّياسية واللغة العربية، وأكثَر تلامذتها مِن أبناءِ الطائفة المنتشِرة في مختلفِ البلادِ الإِسلامية، وبالخصوصِ في بلادِ اليمَن وإفريقية الشَّرقية والخليج العَربي، كما أَسندَت

---

(1) نُشِرت هذه المقالة في مجلة **الأصالة**، العدد: 33، جمادى الأولى 1396هـ/ ماي 1976م، ص: 95 ـ 110، وأصلها محاضرة ألقيت بالمركز الثَّقافي بالجزائر، بتاريخ: 19/ 04/ 1976م، كما اعتمدنا أيضا في نَشرها على نسخة بخطِّ الشَّيخ **المهدي** تقع في: (45) صفحة، وقفنا على صورة منها بمكتبة المركزالثقافي المذكور. (ع)

إلى (د. طاهر سيف الدين) إدارةَ (جامِعة علي كرة)، بـ : (**حيدر آباد**)، الشَّهيرة في بلاد الهند بأنَّها مِن أهمِّ مراكز انبثاق الثَّقافة الإسلامية، و(د.طاهر سيف الدين) هو والد الرئيس الحالي لطائفة البهَرة، وهو عظمة السُّلطان (د.محمد برهان الدين) الداعي الثاني والخمسون، وقد دشِّن في هذا المهرجان مسجِدٌ ورَوضةٌ بمدينة (**بومباي**) في الحي الإسلامي المعروف بـ : (بندر بازار) (Bender Bazar)، ترأَّس احتفالات التَّدشين رئيسُ الجمهورية الهندية، فَخامة السيد فخر الدين علي أحمد، وحضَرها علاوة على عدَّة وزراء وشَخصيات هِندية، ممثِّلون لمعظمِ الدول الإسلامية والعربية، كان المشرفُ على مهرجان التَّدشين وملتقَى الدِّراسات العربية والإسلامية الذي أعقَبه مُباشرة عظمة الداعي الفاطمي (د. محمد برهان الدين)، وهو الذي وجَّه وفودا مِن أفرادِ أُسرتِه وتلاميذه إلى دعوة الشَّخصياتِ الإسلامية، وغير الإسلامية، مِن مختلفِ بلادِ العالم للحضور في هذه الاحتفالات، كان مِن ضمنِ هؤلاء المدعوِّين، الأخ الوزير السيد **مولود قاسم** (وزير التعليم الأصلي والشؤون الدينية)، الذي استجابَ للدَّعوة، إلَّا أنه عرضَت له مَوانع، فشرَّفني بالنِّيابة عنه، فمثَّلتُ الجزائر في هذا الحفل، صُحبةَ الأخ السيد عمر أو صديق، سفير الجزائر بالهِند.

حضَر هذا الحفل عشَرات الآلاف مِن متخلف سكَّانِ الهند، مُسلمين وغير مسلمين، وفي طَليعتهِم ممثِّلو الدُّول الإسلامية وجامِعاتها.

وقبلَ أن أتعرَّضَ بمزيدٍ مِن البيانِ والتَّفصيل لمهرجان التدشين هذا، ولأَعمال ملتقَى الدِّراساتِ العربية والإسلامية الذي أعقَبه، وللحديثِ عن الخطبتَين المنهجيتَين الَّلتَين أَلقاهما في هاتَين الحفلتَين رئيسُ الطَّائفة (د. محمد برهان الدين)، أحدِّثكُم باختِصارٍ عَن أطوار الدَّولة الفاطمية في الميدان الدِّيني والعقائدي.

بعدَما تولَّى الأَيوبيُّون على مملكة مصر، وهاجَر الكثيرُ منهم إلى اليمَن، ثمَّ إلى بلاد

الهند، حيثُ تواصَلت الدَّعوة، وتقمَّص دُعاتُها ثيابَ التَّستُّر مِن جَديدٍ إلى يَومنا هذا.

وقد حافظَ هؤلاء المهاجرون، على الوثائق التي نقلُوها مِن الجزائر، عِندما اختارَ الملكُ المعزُّ لدين الله الفاطمي حَوالي سنة 361هـ الإِقامةَ بـ : القاهرة المعزِّية، وبفضلِ هذه الوثائق ظهرَ جليًّا الرِّباط الوثيق الذي يربطُ الدولةَ الفاطمية بالجزائر، وممَّا يؤيِّد هذا، أي: نقلُ هذه الوثائق والاحتِفاظ بها، ما نشَرته مجلَّة كلية الآداب بالجامعة المصرية في المجلَّد الرابع، الجزء الثاني، المؤرَّخ في ديسمبر 1936م، كتقديمٍ لمذكِّراتٍ تتعلَّق بالمهدي الفاطمي: (**استِتارُ الإمام**) و(**سيرةُ جعفر الحاجب**)، التي تولَّى تحقيقَها المستشرق (Ivanov) (إيفانوف)، وتولَّى تَرجمَتَها إلى العربية الأستاذ محمد كامل حسين، الذي قال في تقديمه: «هذان المؤلَّفان ـ اللَّذان ينشران هنا ـ مِن الكتبِ التي يحتفظُ بها **الإِسماعيلية**[1] المستَعلية بـ : الهند ـ أي البهَرة ـ كمادَّتَين مِن مَوادِّ أدبهِم الدِّيني الذي لا يَسمحون لأَحدٍ أن يطلعَ عليه، وبالرغم مِن ذلك فقَد تَرجمَ غلامُ علي بن إسماعيل،

(1) **الإسماعلية**: طائفة منحرفة ضالَّة عن الحقِّ، تركوا السياسة وعملوا بالتجارة، واختلط بهم الهندوس الذين أسلموا وعرفوا بالبهرة، والبهري بلغة أهل الهند: التاجر، وهم يعتقدون بوجود إمام معصوم لهم في كل زمان، منصوص عليه، إما ظاهر أو مستور، ومن لم يعرف إمام زمانه، مات ميتة جاهلية **!!**

وهم يُضفون على الإمام صفات الألهية، ويسجدون له أحيانا تعظيما **!!** ويخصُّونه بعلمِ الباطن، ويدفعون له خمس ما يكسبون ولو كانوا فقراء، ولذا فأئمَّتهم مِن أغنى أغنياء العالم.

كما يؤمنون بالتقية والسِّرية، ويعملون بها إذا اشتدَّت عليهم الأحداث، وينكرون صفات الله تعالى فهم من أعظم المعطلة للصفات، لأنهم يرون أن صفات الله فوق متناول العقل، فلا يوصف عندهم بالوجود أو عدمه، ولا بالعلم ولا الجهل، ولا القدرة أو العجز ... الخ عقائدهم الباطلة، انظر: **طائفة الإسماعلية، تاريخها، نظمها، عقائدها**، للأستاذ محمد كامل حسين، و**دائرة المعارف الإسلامية** (مادة: الإسماعلية)، و**الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة**. (ع)

أول هذَين المؤلَّفين إلى اللغة الكجراتية، وطبعَه بالمطبعة الحجرية في بومباي عام 1344هـ/ 1916م.

لا يعدُّ هذانِ الكِتابان مِن كتُب التاريخ، لكنَّهما مذكِّرات جمعَت عدَّة حَوادث، يغلبُ عليها روح الأَساطير، ومعَ ذلك فهُما يجمَعانِ تَفاصيل عَديدة، أكثرُها ممتعٌ قيِّم ومتمٌّ لما رواه **الطبري** (ج 2، ص: 2217 ـ 2246) الذي كان يُعاصِر مَن وردَ ذِكرهم في هذَين النصَّين.

أمَّا الكتاب الأول: **(استتار الإمام)**، فينسبُ عادةً إلى رجُلٍ إسماعيلي، كانت له مكانته الرَّفيعة، هو أحمد بن إبراهيم ـ أو ابن محمد ـ النيسابوري، ولا نعرفُ شيئا عَن حَياتِه، وكلُّ ما يمكِن استِخلاصُه مِن كتابِه، أنَّه كان يعيشُ في أواخر القرنِ الرابع في أيام المعزِّ لدين الله الفاطمي» اهـ.

والذي يهمُّنا في مَوضوع بحثِنا مما أوردتُه مِن هذا التَّقديم، أنَّنا نجِد في هذه الكتُب ذكر كثيرٍ مِن أعلام البلدانِ والقبائل والمدُن الجزائرية، منها المندَثِرة، ومنها الباقية إلى يومنا هذا، كـ : **(إيكجان)**، و**(كُتامة)**، و**(صنهاجة)**، و**(أشير)**، و**(طبنة)**، و**(بسكرة)**، و**(تيفاش)**، و**(فرجيوة)**... الخ.

كما نجدُ في هذه التآليف مكانةً مَرموقةً لقبيلة كتامة، حيث أن الخلفاء الفاطميِّين كانوا يشيدون بشَجاعتهِم واستماتَتِهم في حروبِ الدَّولة، بل صرَّح الخليفة القائم بأمر الله في خطبةٍ وجَّهها إلى جيشه عندَ اشتدادِ حروبِهِم معَ الثُّوار الذين كان يقودهُم **مخلد بن كيداد الزناتي** الخارجي، المشهور بـ (صاحب الحمار)، شبَّههم بالمهاجرين والأنصار الذين نصروا دين الإسلام في ابتداء أمرِه، فقال: « وقد علمتم يا معشر كتامة ما مضى عليه آباؤكم، وقدماءُ أسلافِكم، مِن لزوم الطاعة، والاعتصامِ بحبلها، والتفيؤ بظلِّها، والمجاهدةِ في الله حقَّ الجهاد، وأنكم خَبيئة الله لهذا الحقِّ المحمدي الفاطمي المهدي،

حتى أظهرَه الله وأَعلاه، وجعلَ لكُم فخره وسناه، فإنكم كحواريي عيسى، وأنصار محمَّد ﷺ، يا أبناء المهاجرين والأنصار الأوَّلين السَّابِقين المقرَّبين، أليس بكم أَزال الله دولَ الظالمين، التي مضَت لها أحقاب السِّنين، حتى جعلَهم الله حصيدا خامدين، وأورثكم أرضَهم وديارهُم فَصِرتُم تَغزون بعدَ أن كنتم تُغزَون، نزلَ بإزائكم الدجَّال اللَّعين في شرذمة ضالَّة مضلَّة، لم يَستضيئوا بنور هِداية، فهم كالأَنعام المهملة، والصُّور الممثلة، والخشُب المسنَدة، والحمُر المستنفرة، إن أقاموا هلكوا، وإن طُولبوا أُدركوا، فلا تنكصوا بعد الإقدام وأنتم حزبُ الله وهم حزبُ الشيطان، وقتيلكُم في الجنة وقتيلُهم في النار، فأي حقٍّ بعد هذا الحقِّ تَطلبون، ومع أيِّ إمامٍ بعدَ إمامِكُم تُقاتِلون ... الخ » من كتاب: (**سيرة الأستاذ جوذر**)، نشر سلسلة مخطوطات الفاطميِّين، دار الفكر العربي 1374هـ/ 1954م.

وعلاوة على ما ذكَرناه فإنَّ جميع المؤرخين الذين كتبوا تاريخ الدولة الفاطمية، متَّفِقون على أن الفاطميِّين مُرتبطون بالجزائر، وكيفَ لا وهم مَدينون بتكوينهم إليها، إذ في قِطعة مِن تُرابها تأسَّست دولتهم، وقبيلة كتامة الجزائرية العتيدة التي كان مَوقِعها يمتدُّ مِن سَواحل عاصمة الجزائر إلى سواحل الحدود التُّونسية التي تبنَّت الدَّعوة الفاطمية الشِّيعية، وقادَت مسيرةَ انتِفاضاتها، التي اكتسحَت الدولة الأغلبية الممثِّلة للخلافة العباسية، وقضَت عليها، ثمَّ أزاحَت مِن طَريقها بَقيةَ الدول التي كانت تَتقاسم بلاد الجزائر والمغرب الأقصى، كالأدارسة، والرستميِّين، ومغراوة، وبني يفرن، ومع هذا كلِّه، نَجد بعضَ المؤرِّخين، خصُوصًا المعاصرين يظنُّون أنَّ منطلقَ الدعوة الفاطمية كان من مدينة (**المهدية**) المشهورة بـ: **تونس،** وعندما يتكلَّمون على (**إيكجان**)، معقل الفاطميِّين ومنطلق انتفاضاتهم، وعلى مدينة (**المسيلة**) التي ولد فيها الملك المعزُّ لدين الله الفاطمي وتربَّى في رُبوعها، يجعلونها تابعتَين لـ : تونس.

وإنَّني قبلَ أن أتعرَّض للحديثِ عن هذا المهرجان الذي دشِّن فيه المسجد والضَّريح بمدينة بومباي، وملتقى الدِّراسات العربية والإسلامية الذي أعقَبه، أحدِّثكُم باختصار عَن أطوار الدولة الفاطمية.

بعد نهايتها مِن مصر وانتقالِ أفرادها إلى اليمن، ثمَّ إلى الهند، وهي الفترة التي تقمَّص فيها الفاطميُّون مِن جديدٍ الدعوةَ الدينية المتستِّرة، وواصلوا دعوتَهم إلى يَومنا هذا، فإنَّني أتناول بالبحث مَراحل هذه الفترة التي تثبتُ لنا حيَويةَ هذه الطائفة التي لقيت في طَريقها منذُ ما يزيدُ على الألفِ سنة عقَبات ومحنا، في الميادين السياسية والحربية والعقائدية، فقَدت فيها كثيرا مِن مُقوِّماتها، إلَّا أنها بفضل إيمان رجالها، ووفائهِم للمبدأ الذي كانوا يؤمنون بحقيَّته، واصلُوا مَسيرتَهم، وذلَّلوا جميعَ الصُّعوبات التي تعرَّضت لهم، وهذا شأن كل دعوةٍ آمنَ بها أهلُها، والتاريخ مليءٌ بعاقبة هذا النوع مِن الإيمان بالمبادئ التي لم يتسرَّب اليأسُ إلى نفوسِ أصحابها.

الفاطميون:

ينحدر الفاطميُّون مؤسِّسو الدولة مِن صُلبِ **جعفر الصَّادق،** حفيد **علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب** (رضي الله عنهم) أجمعين.

وقد توفيَّ الإمامُ **جعفر الصادق** سنة 148هـ، وهو مشهورٌ بالعلم ورواية الحديث، وقَد أخذَ عنه كثيرٌ مِن مُعاصريه الذين نجدُ مِن جُملتهِم الإمام **مالك بن أنس** إمام المدينة المنوَّرة، ولما توفيَّ الإمام **جعفر الصادق** هذا، افترقَ أولادُه وأنصارُه فِرقًا وشيَعا، كان مِن بين هذه الفرق: الإمامية الاثني عشرية، التي كانت تنتَصر إلى **موسى الكاظم،** ابن الإمام **جعفر الصادق،** وفرقة الإسماعيلية ـ موضوع بحثِنا ـ التي تَنتسِبُ إلى الإمام **إسماعيل،** الولَد الأكبر للإمام **جعفر الصَّادق،** وقد توفيَّ الإمامُ **إسماعيل** هذا في حياة والدِه وخلفَه ولدُه الإمامُ **محمد،** وقد كتبَ لهذه الفرقة الخلود، إذ هي التي تكوَّنت منها

الدولة الفاطمية، ثمَّ تفرَّقت الإسماعيلية هذه إلى فرقتَين مشهورتَين عندَ مؤرِّخي المذاهب، وهما: الفرقة الإسماعيلية الغربية، والفرقة الإسماعيلية الشَّرقية، وذلك أن الخليفة الفاطمي **المستَنصر بالله**، الخليفة الثامن للدولة الفاطمية، كان أوصى ـ حسب المبادئ الفاطميَّة ـ بالخلافة لابنه البِكر، ثمَّ عزلَه منها وأَوصى بها لابنه الأَصغَر، ولما توفي الخليفة المستنصر بالله سنة 487هـ/ الموافق 1094م، تفرَّقت شيعته إلى فرقتَين، إحداهما انتصَرت للولد الأكبر، وهذه هي الفرقة الإسماعيلية الشرقية، وكان مقرُّها ببلاد **إيران**، ومِن أشهَر دُعاتها ورؤسائها المعاصرين آغا خان الذي توفي منذ سنوات وخلفَه ولده السيد الكريم الذي لا زال يتمتَّع بالتَّجِلَّة والتقدير عند أنصاره، وهو الآن بـ : كراتشي، ويتردَّد كثيرا على أوروبا.

والفرقة الثانية التابعة للولد الأصغر هي المعروفة بالإسماعيلية **(الغربية)**، وهي التي يتزعَّمُها اليوم عظمة السلطان البهَرة (د. محمد برهان الدين) الداعي الثاني والخمسون الذي أقام المهرجان المتحدَّث عنه.

والحديث عن هذَين الطائفتَين وعن بقية الطوائف الشِّيعية، خصِّص بمئات التآليف، ولا زالَ مَعينه لم ينضَب، وكان مِن بين الباحثين الذين تتبَّعوا مَراحل هذَين الطائفتَين المستشرقين، أمثال: (Von Hammer purgstall) **فون هامر بورقستال النَّمساوي**، و**دوساسي** (de sacy) الفرنسي، والمستشرق الرُّوسي **إيفانوف** (Ivanov)، وأخيرا فقَط ظهرَ كتابٌ قيِّم للمستشرق الفرنسي **هنري كوربان** (Henry Corbin) عنوانه: **(تاريخ الفلسفة الإسلامية)**، و**هنري كوربان** هذا، متخصِّصٌ في الدِّراسات الفارسية بجامعتي الصُّوربون وطَهران، وقد استعانَ بِعالمين مسلمَين متخصِّصَين في تاريخ الإسماعيلية، وهما: الأستاذ **عثمان بن يحيى السُّوري**، العضو بالمركز الوطني للبحوث العلمية (C.N.R.S) بباريس، والأستاذ **حسين نصر**، الأستاذ بجامعة طهران،

هذا كلُّه يدلُّنا على اهتمامِ الباحثين مِن مختلف المِلل والنِّحل بمثلِ هذه المواضيع الجوهرية في تاريخ الشُّعوب وتطوُّر الأديان.

وقد نعلمُ أن المذهبَ الشِّيعي له مكانته في كثير من البلاد الشَّرقية، وإن مِن أصول العقائد الإسماعيلية وجوبُ وجود إمامٍ يتولَّى الزَّعامةَ الروحية في العالم، وأن الوصيَّ الذي يَرجعون عهده إلى النبي ﷺ يكونُ بالنصِّ، ويستَدِلُّون على رأيهم هذا بأن أول وصيٍّ للنبي ﷺ وهو الخليفة الرابع علي ابن أبي طالب ويخلفه في هذه الولاية الأئمة من ذريته، ويستمرُّ ذلك بالتَّسلسل إلى يوم القيامة.

وفي عَهدِ ملوكِ بني أمية والصَّدر الأول من الدولة العباسية، ضيَّقوا الخِناقَ على أهلِ البيتِ فاختارَ أئمَّتهم الاستِتار، وفي هذا قال الإمام **الشَّهرستاني** في كتابه: (**المِلَل والنِّحَل**): « وبعدَ إسماعيل محمَّد بن إسماعيل السَّابع التَّامّ، وإنما تمَّ دَورُ السبعة بِه، ثمَّ ابتدئَ منه بالأئمة المستُورين الذين كانوا يسيرون في البلاد سِرًّا، ويظهرون الدَّعوة جَهرا ... الخ» اهـ .

علِمنا أنه بعدَ انتهاءِ حكم الدولة الفاطمية على مِصر، حاولَ الملوك الأيوبيُّون القضاءَ على البقية الباقية منهم، فكانت الهِجرةُ إلى اليمَن، تلك الهجرة التي دامت حوالي أربعة قرون، وفي مدَّة الإقامة باليمن، كان جلُّ الفاطميِّين يحتَرفون التِّجارة، وكانت قَوافلهم تجوبُ بلادَ الهند، حيث انتشَرت الدعوة السِّريَّة، وأخيرا ـ أي: في أوائل القرن العاشر الهجري ـ انتقلَ مركز الدعوة من اليمن إلى الهند، وذلك في عهد الداعي المطلَق الثالث والعشرون محمد عز الدين (مِنَّة ربِّه) حوالي سنة 946هـ .

امتازَ أفرادُ هذه الطائفة الذين لا يجاوِزُ عددُهم المليونَين بالاشتِغال بالتِّجارة، ولهذا أطلق عليهم اسم: (**البهَرة**)، التي هي مُرادِفة لِإسم: التِّجارة، بلغة الغربِ الهندي، وإِنَّني جنَّبتُ المستمعين الدخولَ في التفاصيل التي تَحتاجُ إلى مجلَّدات، وإنَّما ذكرتُ ما

لابدَّ مِن ذِكره بغاية الإيجاز، تمهيدا لصميمِ موضوع بحثِنا الذي هو تَدشين المركز بـ : بومباي، وأعمال ملتقَى الدِّراسات العربية والإسلامية بالجامعة السَّيفية.

كان يومُ التَّدشين يومًا مَشهودا في مدينة بومباي، فإنه زيادة على الوفود التي وردَت على المدينة مِن جلِّ الأقطار الإسلامية وغير الإسلامية الذين خصِّص لهم نزل (تاج محل) الشَّهير، إذ يعدُّ مِن أفخمِ أوتيلات العالم، ولفتَ إليه الأنظار بصفة خاصَّة، الاسم الذي يحمِله، إذ (**تاج محل**)، هو اسم الضَّريح الشَّهير في تاريخ الأدب الهندي والأدب العالمي الذي يعدُّه كثيرٌ مِن الكتَّابِ المعاصرين، الذين لا يخلو بحثٌ مِن بحُوثِهم عَن الهِند مِن ذكرِه، وتَخصيصه بِصَفحات، كما نجدُ وكالات السياحة العالمية تخصِّص له رَحلات، إذ يعتَبر رَمزا لوفاءِ الزَّوج لزَوجته، وذلك أنه في القرن السابع عشر الميلادي، وبالضبط في سنة 1629م، توفِّيت السيِّدة ممتاز محل زوج الشَّاه جهان الذي هو مِن سَلاطين المغول المسلمين الذي حكَموا بلادَ الهند عدَّة قرون، ولم يصبِر زَوجُها عنها، إذ كانت زيادةً على جمالها الممتاز تُرافِقُه إلى مَيادين القتال لإثارة نَخوة الجيش، وقَد أصابها المخاضُ في ساحة الوغَى عِندَما توفِّيت، فأرادَ زوجُها أن يخلِّدَ ذِكرَها، فبنَى هذا الضريحُ الذي استغرق (14) سنة، وتكلَّف مصاريف قلَّ أن يَصِلَ إليها مَبنى آخر طيلة قرون، والهند كما نعرفُ كلُّنا بلاد القصور، ولا زال هذا القصر محطَّ رحال سُواح العالم، خصوصًا الأوروبيِّين، ويوجَد هذا الضريح بمدينة (**أغرا**) التي كانت عاصِمة البلاد في عهد ملوك المغول قبلَ أن ينتقلَ مقرُّ العاصمة إلى مدينة (لاهور)، ومدينة (**أغرا**) تبعدُ عن مدينة (**دلهي**) عاصمة بلاد الهند الحالية بنحو (180) كم، كما اشتهر نزل (**تاج محل**) هذا بمكانته رغم أحداث أوتيلات تابعة لشبكات أوتيلات شيراطن (Cheraton) وهيلتون (Hilton) العالمية.

يحتوي نزل (**تاج محل**) على عدة قاعات خاصة للمؤتمرات العالمية التي كثيرا ما تختاره الدولُ لعقد مؤتمراتها، وكذلك يحتوي على حدائق صَيفية وشِتائية.

ولنرجع إلى الحديث عَن حفل التَّدشين، وقعَ هذا الحفل يوم السبت 20 أفريل 1975 على العاشرة صباحا، وقبل انطلاقِ وفودِ المدعوِّين مِن النزل، كانت شوارع **بومباي**، وسقوف المنازل وشُرفاتها، مكتظَّة بالكتل البشرية التي لا يمكن مشاهدة مثلها إلا في البلاد الآهلة بكثرة السكان، مثل بلاد الهند الذي يجاوزُ عدد سكَّانها ستِّين وثلاث مائة مليون نسَمة، ويطلقُ على جميع السَّكَّان هنود، مع اختلافِهِم في الأصل والدين واللغة، إذ يوجد مِن تَباين الأجناس والديانات واللغات واللهجات في الهند، ما لا يوجد مثله في جميع أقطار العالم، ويمتاز الهنود بصفة عامة أنهم يعتزُّون بقَوميتهم، فهم متمسِّكون بالزِّيِّ الوطني في ملابسهم، القميص المقفول (Radingotte) والسروال الأبيض، ولهذا لم نَستغرب عِندما جلسَ كبار الشَّخصيات، وفي طليعتهم رئيس جمهورية الهند، السيد فخر الدين علي أحمد على المنصَّة التي وضعت بالسَّرادق ، وهو عبارة عن خيمة تَسعُ عَشرات الآلاف وكان لباس جميعهم بسيطا جدا لا يمتاز عن لباس طبقات الشَّعب.

وكذلك نجدُ السُّلطات لا تتشدَّد فيما يستَوجبه نظام التَّشريفات في مثل هذه المهرجانات، فأَفرادُ الشَّعبِ يحتَرمون الأوامر والنِّظام، ويقفون عند حدودها، اللهم إلَّا في التَّجمعات ذات الصِّبغة الدينية، وهذا لا يستغرب مِن أمة وصفَها مؤرِّخٌ قديمٌ يوناني حسبما نقلَ ذلك الباحثُ الإنكليزي المتخصِّص في تاريخ حضارة الهند Will Durant في تأليفه: (**قصَّة الحضارة**) الذي نقلَه إلى العربية (د. زكي نجيب محمود) المصري، قال: « إن سكَّان الهند يستوقِفون النَّظر باستِقامتهِم، وإنهم بلغوا مِن سَداد الرأي حدًّا يجعل التجاؤُهم إلى القضاءِ نادرا، كما بلغوا مِن الأمانة حدًّا يغنيهم عن الإقفال لأَبوابهم، وعن العهود المكتوبة تسجيلا لما اتَّفقوا عليه، فهم صادقون إلى أبعدِ الحدود» اهـ.

وقد اندهشتُ عندما لمحتُ على المنصَّة الشَّرفية السيد علي ياروجنك، الحاكم الأعلى لمقاطعة (**مهراشتر**)، الذي يشتمل نفوذُ حكمِه منطقة مدينة بومباي، وقد ألقى خطابَه قبل خطابِ رئيس الجمهورية مباشرة، وقد أخبَرني الأخ السفير عمر أوصدِّيق بأنه من الشَّخصيات العظيمة في الهند، والسيد علي ياورجنك سبقَ له أن زارنا إلى الجزائر بمناسبة الاحتفال الألفي لمسجد أبي مروان بعنابة، ورافَقنا أيامًا لم نرَ منه إلا التَّواضع التامّ والبساطة، بينما شاهَدنا في مثل هذه الملتقيات، وبالخصوص في ملتقى عنابة، مَن يتأثَّر لأَدنى سبب، ويريد أن يعرفَ الناسُ ابتداءً مِن سائقِ سيارته أَنه العالم الفذُّ، أو الوزير الخطير السابق، ووَيل للمُشرفين على الملتقى إن بدلت سيارته لأسبابٍ قاهرة، أو تأخَّر عَن الموعد ولم يفسح له مكان الصَّدارة، وهذا الرَّجلُ الفاضل لولا مُلاقاة بومباي، لما كنتُ أعرفُ مكانته، وقد اجتَمعنا في معرض المصاحف، وفرحَ كثيرا، وأخبرني أنه لن ينسَى أبدا ما قُوبل به مِن الحفاوة والتكريم بالجزائر.

افتُتح حفلُ التدشين بتلاوة آيات من القرآن، تلاها المقرئ المصري ساطع الحصري، ثمَّ ألقى المضيف (د.محمد برهان الدين) خِطابا مَنهجيا، هذِه بعضُ فقَراتِه، إذ الخطاب له وزنه، سواء عند أفراد الطائفة الذين وردوا على بومباي مِن جميع بلدان العالم، أو المدعوِّين الذين لم تَسبق لهم معرفة تامة بطائفة البهَرة هذه، وتاريخ تطوُّر بقايا الدولة الفاطمية منذ فقَدت دولتَها، ومحورُ الخطابِ يدورُ حَول هذا الموضوع، ونَظرا لعدمِ الاهتمامِ في بِلادنا بِقَضايا الهند الفِكرية، اللهمَّ إلَّا للدَّارسين المتخصِّصين، وفيهم مَن يَعتمِدُ علَى بعضِ المصادر الأَجنبية التي لا تخلُو مِن تَزيِيف، مِثل الباحث الإنكليزي **ويل برانت** (Will Brant) الذي نقل د. **نجيب محمود** تأليفه: **(قصة الحضارة)** إلى العربية وبيَّن أنَّ القسمَ الخاصّ مِن التأليف بالفتوحات الإسلامية مزيَّف، فإنَّني نقلتُ جلَّ ما في خِطابِ الدَّاعي الفاطمي في حفلِ التَّدشين هذا، ولم أَقتَصِر علَى الخطوط العريضة، إذ هو مِن أهمِّ الوثائق للباحثين في مثلِ هذه الموضُوعات.

وهذا نصُّ الخطابِ بعدَ الدِّيباجة والتَّقديم:

«أيها السادة، إنَّ المسلمين منذُ ابتداءِ عهدِهم إلى اليوم شيَّدوا كثيرا مِن المساجد والمشاهد، وأقاموا عَديدا مِن صُروح المعرفة والإيمان، ولا تَزال الآثار الباقية تشهدُ بِرَوعَتِها وعظَمتِها، وجَلالها وجَمالها، وبَهائها وبَهجتها، إلَّا أنه لم يُوجَد عَبر القرونِ الأربعة عشر أية عمارة ـ مثل عِمارتنا هذه ـ فهي بَسيطة مِن مَظاهرها في مَبناها، غَنية مِن داخِلها في مَعناها، حيثُ قَد نُقِش القرآنُ الكريمُ بِكاملِه في جُدرانها أحسنَ النَّقش، فأَصبَحت هذه العمارة في قلبِ هذه المدينة التاريخية، ومينائها التِّجاري مَلجأ لقلوبِ آلافِ مِن الزَّائرين الوافدين علَيها، وغدَت آلاف مُتعدِّدة مِثلها مِن سائر أنحاءِ العالم تَشهدُ بِعظمتِها وطهارتها، وتُراقبُها وتنوي قَصدها وتَنزع إليها، قد ضمَّ مشهدها جثمان داع جليلٍ مِن دُعاةِ الدِّين، وساهمَ في بِنائها بالأَموال والأنفُس مِئات آلافٍ مِن التَّابعين المحبِّين».

ثمَّ استَرسلَ في خِطابه، فقال: «صاحب الفَخامة، حضَرات الضُّيوف الكِرام.

هذِه روضةٌ طاهرة ـ بما فيها مِن مسجد ومَشهد ـ فَريدة لا في أوضاعها الحاضرة فقَط، بل عَديمة النَّظير في ما يزدان بِه جِيدها وجَبينها مِن تراثِ الماضي، فقَد اقتبسنا مِن الآثارِ الفاطمية القَديمة جَواهر مجدِها ومآثر عَهدِها، حتى انضمَّ في مَبناها خُلاصة محاسن تلك الآثار الفاطمية، ومَزايا تلك المآثر السَّنية، فاحتوَت على محاسن بِناياتهم، كما انطوَت في شَخصية من نسب إليه خَصائص كلِّ داعٍ مِن سلفِه الأبرار، وعالي صفاتِهم، هكذا كانت شخصية مَن نُسِبت إليه هذه العمارة، فكانَ نسيج وحده في جميع صِفات سائر الدُّعاةِ السالفين الأجلَّة على تَواليهم، فنَرى كلَّ جزءٍ مِن هذا المبنَى في عظمتِه وفَخامتِه يجمعُ حبَّ كلّ مِن أهلِ الإيمان، ويمثِّل تَفانيهم، يذكِّرنا ذلك كلّه بما نَراه اليومَ في جمع شَملٍ كبير مِن شَخصياتٍ عالمية بارزة قَد أظلَّ عليه ـ يا صاحب الفخامة ـ ظِلُّ رِعايتكُم وحسن عِنايتكُم.

ولا بدَّ مِن كلمة تَقدير واعتراف، فإنَّ مُساعدة الحكومة الهندية، وقد يسَّرت لنا الطريق فنَشكرها، ونسأل الله سبحانه بِحقِّ كتابه العزيز أن يباركَ لنا جميعا في هذا اليوم المشهود ... ».

ثمَّ واصل خِطابَه بهذه الجمل: « أيها السادة، والدي فخامة الداعي المطلَق، سيدنا طاهر سيف الدين قد أتى حاديا وخمسين في سلسلة مجيدة عريقة مِن الدُّعاة الفاطميِّين، وظلَّ في منصبِه الجليل زهاءَ ثلاث وخمسين سنة كان هذا مِنَّةً مِن الله سبحانه، ونعمةً لم تتوفَّر لأيِّ داعٍ قبلَه، فاستفادَ بهذه النِّعمة الموهوبة مِن الله سبحانه في الدَّعوة إلى الصَّلاح والفلاح، وتَعميمِ خَير الدُّنيا والآخرة، ونَشر رسالة الوئام والاتحاد بين الجماعات والمِلَل، وبين المذاهب والفِرَق، وقد اقتدَى به التابِعون، وسلكَ طريقَه السَّالِكون، فَشاركوا المسلمين في ضرَّائهِم وسرَّائهِم، حتى أصبحوا محلَّ ثقتهِم، ومَناطَ رجائهِم، وبِفضل ذلك كلِّه أصبحَت هذه الجماعةُ القليلة العدَد، ذاتَ مكانةٍ مَرموقة، لا في الهند فحسب، بل في سائر أرجاء العالم الإسلامي، فازدادَ عددُها، وعظمَ في الناسِ قَدرُها».

إن اجتماعنا اليوم، وتشريفكم لهذا الحفل بعد مُعاناة السَّفر، ومُقاساة الحرِّ، أحسبه تقديرا منكم لهذه الشَّخصية الجليلة، ولذِكراها معا، ثم إنه تَعبير عن حقيقة أخرى، هي أجلُّ وأعظم، وهو أن المسلمين لا يزال فيهم الحماس والعزائم للاحتفاظ بآثارهم، وبناء الجديد منها، ولا يزالون يحتفلون بِعُظمائهم ويشيدون بذكراهم في هذه الأرض الطيبة التي اتَّخذوها لهم وَطنا، وعمروها وعاشوا بها، وحظَوا منها، ونحن متيقِّنون بأن مُستقبلنا في الهند مرتبطٌ بمستقبلها، هنا نُختَبر في الأموال والأنفس، وهنا نسعد بالراحة والرفاهية.

صاحب الفخامة، أودُّ ـ اليوم ـ أن أصرِّحَ بِحقيقة، وأعبِّر عَن أُخرى، أريدُ أن

أصرِّح أن اجتماعَنا اليوم وحضُور فخامة الرئيس، وسائر أصحاب السَّعادة، وأصحاب المعالي، وأصحاب السماحة، ومشاركتهم في عواطِفنا تعبيرٌ واقعي لروح الحرية الكامِلة لجميع الأديان في الهند، يَمنحُها دستورُها ويَعترِفُ بها جمهورها، فالاجتماع تحية سَنية حيَّيتموني بها، فوجبَ عليَّ أن أحيِّيكم بِعَمل تذكاري في هذا اليوم، وأفضِّلُ أن يعبِّر عنه ويعلنَ به صاحب الفخامة رئيس جمهورية الهند الموقَّر.

وأخيرا أرحِّبُ بكم في هذا المسجدِ وهذا المشهَد، وأشكركُم أيها السَّادة العلماء، والقادة الفُضلاء، والممثِّلون لمختلفِ الأقطار والشُّعوب، شَرقها وغَربها، وأَدعو الله سبحانه وتعالى أن يَشملنا برحمتِه، ويغمرَنا بِبَركتِه، ويعليَ دَرجاتِنا في الدنيا والآخرة، كلٌّ وفقَ ما رَعَى ووعَى، وأن ليسَ للإِنسان إلَّا ما سعَى، وآخِر دَعوانا أن الحمدُ لله ربِّ العالمين» اهـ.

واسمحوا لي إن أطلتُ ولم أَقتصِر على الخطوطِ العريضة مِن هذا الخطاب التَّوجيهي للداعي الفاطمي، إذ أنَّ ما يدور في القارة الآسيوية، وخصوصا في المجالات العقائدية، لا تهتمُّ به كثيرا وسائلُ الإِعلام في المغرب العربي، ولربَّما نتصوَّر أشياءً كثيرةً بِخلاف واقعِها، كما أن هذا الخطاب تعرَّض فيه صاحبُه بِوُضوح لوضعية طائفة البهَرة ومكانتها ومنشآتها وعلائقها بِبقية الطَّوائف الإسلامية وغير الإسلامية في الهند، كما يثبتُ لنا أن مُسيِّري هذه الطائفة أمكَنهم ربطُ صِلتِهم بماضي الدولة الفاطمية، حيث كانت دَرجات الداعي (د.طاهر سيف الدين) الحادي والخمسون ولده المضيف (د.برهان الدين) الداعي الثاني والخمسون، امتِدادا للدُّعاةِ الأوَّلين، الذين كانت بداية سلسلتِهم بالتُّراب الجزائري.

وقد أشرتُ في خِطابي الذي ألقيتُه في ملتقى الدِّراسات العربية والإسلامية الذي أعقبت حَفلات التَّدشين، ذكرتُ فيه بأنَّنا إن (كذا) وَجدنا طائفة البهرة لا زالت تذكُر

صِلتها بالجزائر، وقد زار الداعي الفاطمي (د. محمد برهان الدين) منذُ سَنواتٍ قليلة الجزائر، وتجوَّل في ربوع معاقل ومآثر الدولة الفاطمية، ذكرتُ أنَّ الجزائر لم تَنس مِن جِهتها هذه العلائق، وكيف تَنساها وعاصمتُها الجزائر مِن مؤسسات قائد الدولة الفاطمية بلقين بن زيرى بن مناد الذي بناها بأمر الملوك الفاطميِّين قَبل انتقالهم إلى مصر بنَحو العشرين سنة، وقَد احتفَلنا منذ سنتَين بالعيد الألفي لتأسيسها، كما خصَّصت وزارةُ التعليم الأصلي والشؤون الدينية في الملتقى الثامن للفكر الإسلامي، المنعقد ببجاية، يومًا لزيارة مدينة **المسيلة** التي أنشئت في عهد الداعي الأول عبيد الله المهدي وبأَمره، وقد اتَّخذها قاعدة الزاب بدلا مِن مدينة (**طبنة**) التي كانت قاعدة الخلافة الإسلامية بعد الفتوحات.

وفي مدينة (**المسيلة**) التي خلَّد مآثرها ومَعالمها ابن هانئ الأَندلسي شاعر البلاط الفاطمي، ولدَ الملكُ المعزّ لدين الله الفاطمي ونشأَ فيها صُحبةَ بلقين بن زيري، وارث قيادة المملكة الفاطمية بالمغرب العربي، كما زُرنا في ذلك اليوم قَلعةَ بني حماد التي بنيت في سفح جبل (**كاينة**) الذي له مكانة في تاريخ الفاطميِّين، إذ في الجبل المذكور هزم وقتل الثائر أبو يزيد مخلد ابن كيداد الزناتي الخارجي، كما أن المركز الوطني للبحوث التاريخية التابع لرياسة الدولة منحَ جائزتَه الأولى السَّنوية لإِحياء التراثِ التاريخي، مَنحها لمؤلِّفٍ كان موضوعُ تأليفه: (**تاريخ دولة بني حماد**)، وحماد هذا ـ كما تعلمون ـ هو ولدُ بلقين بن زيري الذي عيَّنه الملك المعزّ لدين الله الفاطمي خلفًا له بالمملكة الفاطمية ببلاد المغرب العربي الحالي.

ثمَّ تلا الداعي الفاطمي **ممثِّلو** رؤساء حكومات **مصر** وشرق **الأردن** **وتونس** **والإمارات العربية**، ثمَّ والي مقاطعة (**مهراشتر**) السيد **علي ياورجنك**، ثمَّ رئيس الجمهورية الذي امتاز خطابه بالتركيز على مكانة الإسلام في الهند، وأن العلائق التي

تربط في الظروفِ الحالية **الهند** بالبلاد العربية والإسلامية راجِعة إلى الطَّبيعة، وتحتِّمها المصلحة العامة المشتركة، لا الطَّمع ولا الأغراض.

وبعدَ دَور الخطب وتَقديمِ الهدايا الرَّمزية مِن رؤساء الوفُود دَخلنا لـ **(الروضة الطاهرة)** كما يسمُّونَها، وهي عبارة عن بناية ضخمة بنيت كلُّها بالرُّخامِ الأَبيَض النَّاصع، ونقشَ على جُدرانِ قبَّتها القرآن الكَريم بتَمامه، بالذَّهبِ المصفَّى الخالِص، والمحلَّى بالجواهِر والأَحجار الثَّمينة، كاللؤلؤ والزَّبرجد.

ثمَّ دخلنا المسجدَ الملاصِق للرَّوضة، وهو كذلك لا يقلُّ بِناؤه رَوعةً وجمالا على الروضة التي دفنَ فيها المحتفَل بِذكراه الداعي الواحد والخمسون (د. طاهر سيف الدين)، وقد رُوعي فيه الفنّ التقليدي، وبلادُ الهند اشتهرَت مِن فجر التاريخ بأنَّها بلاد القصور النادرة المِثال، والمساجد العديمة النَّظير، وقد أضفى عليها ملوكُ المغول الذين حكَموها ما يزيد على الثلاثة قرون، ما بهَر العالم المتمدِّن في الفنِّ المعماري المنتشِر في ربُوعها.

وقد خصِّص جانبٌ مِن المسجد لاستِعراضِ المصاحفِ القرآنية، فكان عددُها خمسينَ مُصحفًا، يرجعُ نسخ أقدمِها إلى مُنتَصفِ القرنِ الثاني الهجري، وأكثر نسَّاخ هذه المصاحف مِن أشهر الخطَّاطين، وقد وضعَ فهرسٌ يحتَوي على تَراجم حياتِهم، وما اشتَهر مِن آثارهِم في مَيدانِ المخطوطات، وقَد أُحصيَ أنَّ بعضهم نسخَ ثلاثين مُصحفًا، ومن هذه المصاحف المكتوب بالذَّهبِ الخالِص، أمَّا التَّفاسير والتَّجليد فإِنَّ تَقييمَها يُعادل الأرقامَ الخيالية التي لا يَعرفُها إلَّا تجار الآثار وألواح الفنَّانين، وعلى ذِكر هذِه المصاحِف التي عُرضَت بِمَسجد **بومباي** وقيمتها، نَذكُر أنَّ في أوائل الشَّهر الجاري افتتحَ ببِلاد **انجلترا** معرض **(الفنون الإسلامية)** بقاعة **هايوارد** بمدينة **لندن**، افتَتحته المِلكةُ **إيليزابيت**، وقد شاركت **مصر** بِعدَّة قِطع فنية ومخطوطاتٍ نادِرة، مِن بَينها ثمانية

مصاحف قدِّرت أثمانُها بـ: مليونين ومائتي ألف جنيه إسترليني ـ أي: (220) عشرين ومائتي مليون دينار جزائري.

وفي مساءِ ذلك اليوم كانت الدعوةُ بِقَصر المضيف الداعي الفاطمي الموجود في حيٍّ مِن أحياءِ السكَن الجميلة بِمدينة بومباي، وكان الاستقبالُ بِبَهوٍ خاصٍّ، وهو الإِستقبالُ الثاني، إذ سبقَ للداعي الفاطمي زيارة الضُّيوف بنزل **(تاج محل)** قبلَ حَفلاتِ التَّدشين، وأقامَ بهذه المناسبة حَفلةَ شاي، وفي حديقة القصر أُقيمَت مأدبة عَشاء حضَرها زيادةً على الضُّيوفِ كبار الشَّخصيات الهِندية مِن مختلف الطَّبقاتِ والدِّيانات، وكان القائِمون بخدمة الضُّيوف هم أفرادُ أسرةِ المضيف، ويُساعِدُهم المقرَّبون مِن أفراد الطائفة الذين أتَوا لهذا الغرَض مِن مختلفِ البلدان، فيهم الطلبة والعلماء والتُّجار والموظَّفون السَّامون، وميزتُهم التَّفاني في خِدمة الضُّيوف، حتى يُظنّ أنَّها حِرفتهم الوَحيدة، وقَد كانت جميعُ أنواع المأكولات محلية هِندية، وتَمتازُ باستِعمال التَّوابل والبَهارات، ولم يقتَصِر استعمال التوابل على الموائد المحلية، بل هو عامٌّ حتى في أفخمِ الفنادق التي يَنزلها سوَّاح العالم الأَمريكي والأُوروبي، بل الكثير منهم يتَّخِذها مَسكنا مُعظم فصُول السَّنة، حيثُ يتدفَّق سَيلُ السُّواح ويَصعبُ التَّحصيل على بَيتٍ بالنَّزل، ولو كان مِن الدَّرجةِ البَسيطة، وما يُقالُ عَن بيوتِ الأُوتيلات يُقال عَن التَّحصيلِ على بُقعةٍ بالطائرة في الخطوط الجوية الدَّاخلية، والذي يلفتُ النَّظرَ في هذه المأدبات أنواعٌ مِن أشربة عَصير الفَواكه وأَنواع مِن أطباقِ الحلوياتِ تَعطر بأَجودِ روحِ العِطر الخاصِّ بها، أمَّا البخورُ والعطورات فذلك لا يُستَغرب مِن بلادٍ عَريقة في التمدُّن، وقَد ذكَر صاحب كِتاب: **(قصة الحضارة)** (will dorant) **فيل دورانت** الإنكليزي، الذي نقلَه إلى العَربية (د. زكي نجيب محمود) نقلا عن تَصريح الأثري الإنكليزي المشهور **سريجون مارشال** الذي اكتشفَ حَوالي سنة 1924 مدينة أثريةً

بالهند يرجع عَهدُها إلى خمسين قَرنا، ذلك الاكتِشاف الذي أبطلَ كلَّ تكهُّنات وافتراضات التاريخ الحضَاري للهند، ومَبدئيا قال الأثري **مارشال** معلِّقا على هذا الاكتشاف: « تؤَيِّد هذه الكشوف قيام حياةٍ مدَنية بالغة الرُّقي في السّند والبنجاب خِلال الألف الرابعة، والألف الثالثة مِن السِّنين قبلَ الميلاد، يدلُّ على حالةٍ اجتماعية في حياة أهلِ تلك المدُن تُساوي علَى الأقل ما وَجدناه في (**سومر**)، وتفوقُ ما كان سائِدا في العَصر نفسه في (**بابل**) و(**مصر**)، وحتى (**أور**) لا تُضارع بِمَنازلها مِن حيثُ البِناء مَنازل (**موهنجو ـ دارو**) اسم المدينة التي اكتشِفت.

ملتقى الدراسات العربية والإسلامية بالجامعة السيفية التابعة لطائفة البهرة:

افتتحَ صباحَ يومِ الأَحد ـ أي: ثاني يوم التَّدشين بإِحدَى قاعاتِ نزل (**تاج محل**) ـ هذا الملتقى بمناسبة إِدخال تعليم اللغة العربية ضمن بقية مواد التعليم بمعهد تكوين الدُّعاة الفاطميِّين، وتعرَّض معظمُ الباحثين لآثار تكوينِ الدُّعاةِ الموجودة في أنحاءِ العالم لمختلف المذاهبِ العقائدية بصِفَة عامَّة، ومقارنتها مع ما تبقَّى مِن مَعاهد المذاهب الإسلامية، وأُسنِدَت رياسة جلسة الافتتاح للدكتور **عبد الحليم محمود** (شيخ **الأزهر**).

دامت أعمالُ الملتقى ثلاثة أيام، ألقيت فيها دراسات قيِّمة، خصوصا دراسة (د.عبد الحليم محمود) شيخ **الأزهر**، التي ركَّزها على مَعاهد الدَّعوة المسيحية التي زارها بأوروبا، وكذلك دراسة الدكتورة **سعاد ماهر** (مديرة كلية الآثار)، التي عرضَت شَريطا للآثار الفاطمية والأندلسية، وختمَ الملتقى بِحفلٍ للقرآن بمَيدانٍ يَسعُ لما يزيد على الخمسينَ ألف نسَمة، جُمع فيه زيادةً على المقرئين المصريِّين، أمثال الشيخ ساطع الحصري، وعبد الباسط عبد الصَّمد، كما أقيمَت حفلات أخرى لجمعياتٍ خَيرية وثقافية، ثمَّ أقيم مَعرضٌ تابعٌ للجامعة السَّيفية، عرضَ فيه نَماذج مِن الأعمال الصِّناعية لتلاميذ الجامعة، وكرة أرضية قَديمة صوِّرت عليها مَسيرة الدَّعوة الفاطمية، ثمَّ دخَلنا

لعيادات الأطباءِ الأخصائيِّين في مختلف الأمراض، التابعين **لمنظمة البهَرة والجامِعة السيفية**، وتآليف الداعي الواحد والخمسين المحتفَل بذكراه، وبعدَ الانتهاءِ مِن زيارةِ المعرض، ذهبَت الوفودُ إلى قَصر المضيفِ للتَّوديع، حيثُ قسِّمت علَيهم هَدايا رَمزية، وختِمَت هذِه الزِّيارةُ بِمأدبة أَقامَها المضيفُ على شرَفِ المدعوِّين بـ : **أوتيل شيراطن** (Sheraton).

ولنختِم هذه الدِّراسة بأن هذه الطائفة وإن اهتمَّت بالناحية العقائدية، وحافَظت على كثير مِن تَعاليم الفاطميِّين منذ ظهورهم، وربطَت بين الماضي والحاضر بِسلسلة الدُّعاة، هي دون فاصلٍ أو إدخالِ أيّ تغيير على تعاليم المذهَب، فإنها لم تُهمِل الناحيةَ المادية، فَعلاوة على اشتِغال أفرادِها بالتِّجارة داخلَ البلاد وخارجها، فإنَّ الداعي الفاطمي الحالي يُشرِف على عِدَّة مُنشآتٍ صِناعية، شَبيهة بِمُنشآتِ الدول الصِّناعية العُظمى، وقَد زار بعضها صاحب (**جريدة الأَحداث**) الجزائرية أوائل السَّنة الجارية، وكتبَ عَنها سلسلةَ مَقالاتٍ قيِّمة في مَوضوعِها، ولنا عَودة إلى إتمام الموضوع في فُرصة أُخرَى.

انطباعات عن ملتقى الدراسات العربية
والاسلامية بمعهد تكوين الدعاة
للجامعة السيفية ببومباى

(ربيع الثاني 1395 – افريل 1975م)

انعقد هذا الملتقى بمدينة بومباى اثر
المهرجان الذي اقامته طائفة (البهرة)
الفاطمية بمناسبة احياء ذكرى قائدها
الراحل الداعي الواحد والخمسين، الدكتور طاهر
سيف الدين الذي كان ابرز وأمثل دعاة الطائفة
وساعدته الظروف حيث دامت رياسته
خمسين سنة اي من سنة 1915م الى سنة 1965م
وفي هذه الفترة وضع كثيرا من التآليف باللغتين
العربية والاوردية، ونشر نفائس المخطوطات

صورة عن الصَّفحة الأولى مِن النُّسخة المعتمَدة

الخطابُ الذي ألقيَ في الملتقَى للدِّراساتِ الإِسلامية والعَربية بِقاعة دربار فندق (تاج محل) بومباي (الهند)[1]

افتتَحها الدَّاعي الفاطمي الدكتور محمد برهان الدِّين، وترأَّسها الإِمام الدكتور عبد الحليم محمود (شيخ الجامع الأزهر)، وذلك يوم الاثنين 9 ربيع الثاني 1395 الموافق لـ 21 أفريل 1975م، ونصُّه:

صاحب الفخامة سلطان البهَرة الدُّكتور محمَّد برهان الدِّين.

فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الجامع الأزهر.

حضَراتُ أصحابِ المعالي، وحضراتُ أصحابِ الفَضيلة، سادَتي سيِّداتي:

اسمَحوا لي أن أساهِمَ بكلماتٍ موجزة في هذا الملتقَى باسمي الخاصِّ وباسمِ الأخ الأُستاذِ **مولود قاسم** (وزير التعليم الأصلي والشؤون الدينية) الذي يتأسَّف كثيرا لعدمِ تلبِيته الدَّعوة لموانعَ وأشغال تَستَوجِبُها الخطة، وقد أَنابني لتَمثيلِه في هذا الحفلِ المبارك.

إنَّني أركِّز كلماتي هذه، على محتَوى الخطاب التَّوجيهي الذي افتتحَ به سماحة الدكتور محمد برهان الدِّين خطابَه القيِّم، هذِه الحلقةُ الدِّراسية التي خُصِّص جانبٌ منها لتَحليل مَناهج الدِّراسات العربية الإسلامية بِصفة عامَّة، والدِّراسات لتكوينِ الدُّعاةِ بالمعهدِ السَّيفي التابع للرَّوضة الطَّاهِرة التي تشرَّفنا بالحضور في احتفالِ تَدشينها بِصفةٍ خاصَّة.

---

(1) اعتمدنا في إثبات هذا الخطاب على نسخَتين، الأولى بخطِّ الشَّيخ المهدي وتقع في: (11) صفحة، وقفنا عليها بمكتبة الشَّيخ المهدي بمدينة بطيوة، والثَّانية مرقونة على الآلة الكاتبة. (ع)

وقد عزَّز خِطابَه التَّوجيهي فَضيلة الدكتور عبد الحليم (**شيخ الجامع الأزهر**) الخالِد، عِندَما تعرَّض للحديثِ عن نَتائج الدَّعوة الإِسلامية والشُّروطِ التي ينبغي أن تُراعى في تكوينِ الدُّعاة، وضربَ لنا أمثلةً لذلك، مِنها منهاج بعض الدُّيور المسيحية المتخصِّصة لتكوينِ الدُّعاةِ والمبشِّرين زارَها في أوربا، وشاهدَ سلوكَ مُسيِّريها، وطرقَ اختيار التَّلاميذ الملحَقين بها.

فبِناءَ على هذا اخترتُ أن يكونَ موضوع حَديثي: آثار الدَّعوة الإِسلامية في بِلادنا، التي لا تختلِفُ كثيرا في مَراحل تاريخها عَن بقية بلادِ المغرب العربي، خصوصًا في بعضِ مَراحلِها الحاسِمة، وذلك عِندَما تجدَّدت الحروبُ الصَّليبيَّة التي جعلَت هدفَها احتِلال بِلاد المغرب العربي بعدَ سقوطِ مملكة غَرناطة.

استأنفَت هذِه الحرب، وسقَطت أمَّهاتُ مدُنِ شَواطئ المغربِ الأَقصَى، والجزائر وتونس ثمَّ ليبيا، الواحِدة تِلو الأُخرى، في أوائل القَرن العاشر الهِجري، وقَد تداخلَ الأَتراكُ في المعارك كما هو مَعلوم، وكان لتداخلِهم وَزنه، إلَّا أنَّ كثيرا مِن هذه المدُن بقيت تَرزحُ تحت نير الاستِعباد، كمدينة وهران بِالنِّسبة للجزائر، وسَبتة ومليلية بالنِّسبة للمَغرب الأَقصى.

بقيت وهران حوالي ثلاثة قرون تحتَ حكمِ الإسبان، ولم يتمكَّن الجزائريُّون مِن إنقاذِها وطردِ الإسبان منها نهائيا إلَّا بعدَ استعمالهم للنُّفوذِ الدِّيني، وذلك أنهم أحيَوا الرِّباط، وكان في طليعة المرابطين فيه، رجال العلم والدِّين، أساتذة ووعَّاظ وطلَبة، وقَد خصَّص بعضُ مؤرِّخي الجزائر هذا الرِّباطَ ونِظامَه ونَتائِجَه بعدَّة تآليف، حيثُ أن نظامَه وتطوُّره يَمتازُ عن الرُّبُطِ المشهورة في تاريخ البلاد الإِسلامية، لم يمرَّ على هذا الحادث ـ أي: طرد الإسبان مِن وهران ـ إلَّا أربعونَ سنة، حتى أُصيبت بلاد الجزائر بالِاحتلال الفرنسي سنة 1246هـ، فكانت مقاومة الأتراك ضَئيلة، ولم يمرَّ عليها يَومانِ

حتى انهارَ الجيشُ النِّظامي التُّركي وانسحَب مِن الميدان، ورغمَ استِسلام باشا الجزائر، وباي وهران، استمرَّت المقاومةُ في الجبال إلى أن انعقَد مؤتمرٌ ديني، انتُخِب فيه والدُ الأمير عبد القادر، الذي كان يُدير مَعهدا مِن مَعاهد تكوين الدَّعوة الإِسلامية، وكانَت المقايِيسُ التي رُوعيَت في انتِخابِه، شُهرتُه بِالاستِقامة والنَّزاهة والإِخلاص، ثمَّ تَنازلَ الأبُ لشَيخوختِه وهَرمِه، بعدَ أن قادَ جيشَه في عدَّة مَعارك، تَنازلَ لولدِه الذي اشتَهر بِبَسالتِه في عدَّة مَعارك كان يقُودها والدُه، دامَت مقاومةُ الأمير عبد القادر سبع عشرة سنة، وكان أعوانُه وقادةُ جيشِه جلُّهم مِن خَرِّيجي معهد والدِه، فأَمكَنهم أن يقِفوا ويصمُدوا في وَجه العدوِّ طيلةَ هذه المدَّة، انتصروا انتِصاراتٍ باهِرة، سَجَّلها لهم التاريخ، ولا زال قادةُ الجيشِ الفرنسي إلى يومنا هذا يخصِّصونَها بالتأليف.

كان قادةُ الجيشِ الفرنسي إِذ ذاك مِن خِرِّيجي الكلياتِ الحربية، واختيرت مِنهم النُّخبة، وهُم علاوة على ذلك سبقَ للكَثير مِنهم خَوض غِمارِ حُروبِ نابليون الأول شَرقًا وغَربا.

وقَد نعلمُ أنَّ مِن جُملة آثار التكوين الدِّيني الذي امتازَ بها الأميرُ عبد القادر، أنه بمجرَّد تَولِّيه القيادة اتَّخذَ مثلَه الأَعلى سيرةَ النبيِّ ﷺ وسيرةَ خُلفائِه الرَّاشدين، كان يقودُ جيشَه لمختلفِ مَيادين القِتال ويؤُمُّهم للصَّلاة، ويلقي عليهم درُوسَ التَّفسير والحديثِ يَوميًّا، وعِندَما كان مُقيما بِعاصمتِه، يخرج للجامع يقضي بين المتخاصِمين، وبقيَ امتدادُ طابع التكوين الدِّيني فيه طيلة حَياتِه، إِذ لمَّا أَنهَى حربَه مع الفرنسيِّين، رجعَ إلى حياةِ التدريس وخِدمة العلم، بإِحياءِ التُّراث، إلى أن لقيَ ربَّه، مع أنه كان يَتقاضَى مُرتَّبا لم يحلم بِه ملوكُ ذلك العهد.

كما ظهَر في بِلادنا بعدَ انتهاءِ مُقاومة الأمير بِقليل، مُقاومة بلاد زواوة، التي هي قِطعة مِن بلادِ كُتامة، وقَبيلةُ كتامة هذه، تاريخُها مُرتَبِطٌ بِتاريخ الدَّولة الفاطمية، إذ

سكَّان هذه القبيلة هم الذين آوَوا مؤسِّس الدَّولة الفاطمية عبيد الله المهدي ونَصروه، وكانت قرية (**إيقجان**) مِن قُراهُم، هي مُنطلَق الدَّعوة الفاطمية ومَسيرتها التي اكتسحَت الزَّاب الجزائري، ثمَّ القيروان التابعة إذ ذاك للدولة الأغلبية، التابعة للخلافة العباسية.

فمُقاومةُ بلادِ زواوة الأخيرة (أي: بعد أن ظنَّ القادةُ الفرنسيُّون أنَّهم قضَوا على المقاومة نهائيا) ظهرَت عنيفة، وفي إحدَى المعارك التي لفتَت أنظارَ الفرنسيِّين، وكان عددُ قَتلاهُم كثيرا، وجَدوا لأولِ مرَّة في ساحة المعارك شُبَّانا تتَراوحُ أعمارهم بين (15) وعشرين سنة، مُتماسِكين بحِبالٍ تشدُّ ثيابَهم بَعضهم لبعض، وبعدَ استِقصائهِم الخبَر اطَّلعوا على أنَّ هذا الجيش يسمَّى بـ : جيش المسبَّلين، وأنَّ له نِظامًا خاصًّا، فنشَروا عنه البحوثَ القيِّمة، وخاطَبَ بعضُ قادتهم مُواطنيه، بِقَوله: « حذارِ أن تَتهاوَنوا، فإِنَّ أمةً يوجدُ فيها مثل هذه المنظَّمات التي لا وجودَ لها في تاريخ الحروب العالمية لَجديرة بأَن يقرأَ لها ألف حِساب، وإلَّا فسيكونُ ردُّ الفِعل مُؤلما ».

كانت قائدة هذا الجيش البطَلة الشَّهيرة السَّيدة فاطمة نسومر، التي نشأَت في أُسرةٍ متخرِّجة مِن مَعاهد التكوين الإسلامي.

ثارَ الجزائريُّون مدَّة الحكمِ الفرنسي الذي دامَ ثلاثين ومائة سنة، أكثَر مِن عشرين مرَّة، وكانت جلُّ هذه الثَّوارت تحتَ قيادة رجال تكوَّنوا في المعاهد الدِّينية البسيطة، إلى أن ختمَت بالثَّورة المباركة سنة 1954، التي نتجَ عَنها الاستقلال، وإنَّنا نعلمُ أن ثَورتَنا هذِه، لها صدًى في بِلادكُم وقَد أكَّد لنا ذلك أحدُ كبارِ علمائِكم منذُ يومَين أمامَ جَمع مِن الإِخوان، بأنَّ الجزائر سجَّل لها التاريخُ أَنَّها أمكَنها أن تُعيد تاريخَ مجدِها حيثُ انتصَرت على أعظمِ جيشٍ عنيدٍ وعتيد، ولهذا فهُم يعلِّقون الآمالَ عليها وعلى قادَتها الممتازين بالجدِّ والإِقدام.

حضَرات السَّادة والسيِّدات:

لم تنسَ القيادةُ الثوريةُ ببِلادِنا ما لهذا الدِّين الحنيفِ مِن فَضلٍ ومكانة، ولهذا أَعطَته الأَولوية والأسبَقية، فقَد شيَّدت بعدَ الاستقلالِ مِئات المساجد، وأحدثَت علاوة على التَّعليم العامِّ بِجَميع مَراحله: ابتدائي، وثانوي، وعالي، أحدثَت مَعاهِدَ تَجمعُ بين الثقافةِ الأصلية والثَّقافة العصرية بِأَتمِّ معنى الكلِمة، وإنَّ معظمَ أساتذة قِسم الثقافة الأصلية هم مِن نُخبة عُلماء الأزهر.

وقد تعهَّد رئيسُ مجلسِ الثَّورة ورئيسُ مجلسِ الحكومة، الأخُ **هواري بومدين** في خِطابِه التَّاريخي الذي أَلقاه بـ **(جامع عقبة ابن نافع الفهري)** بِمَدينة **(القيروان)** منذُ سنَواتٍ قليلة، بِمُناسبة زيارته لـ : **(تونس)**، وحضُوره للاحتِفال بِالمولدِ النَّبوي، تَعهَّد بإِنشاءِ جامعة إِسلامية تجمَعُ بين الثَّقافتَين: الأَصيلة، والعَصرية، والجهودُ مَبذولةٌ لإِنجازِ هذا الوَعد.

كما اهتمَّت قيادةُ ثَورتنا بإصدار قانونٍ دولي يضمَن الحقوقَ المادية والأدبية لموظَّفي السِّلك الدِّيني، مِن أئمة، ووُعَّاظ، ومؤَذِّنين، وقيِّمين، على مستَوى بقية مُوظَّفي الدَّولة، وهذا القانون هو الآن في حيز التَّطبيق، ويشمل الآلاف مِن الموظَّفين المذكورين، ولا أُفيدكُم بجَديد، إِن قلتُ لكُم إنَّ الأَخ **هواري بومَدين** هذا، ثَقافتُه الأَولية أَصيلة زَيتونية وأَزهرية.

حضَرات السَّادة والسيِّدات:

اسمَحوا لي إِن اقتصَرتُ في حَديثي هذا عَن بِلادنا، فالمبرِّر لذلك أنَّها كانت إلى وقتٍ قَريب، مُهدَّدة بالتَّنصير والإِدماج والذَّوَبان، وقَبلَ أن أَختمَ حَديثي أذكُر لكُم، وخصُوصًا أَذكُر لمضيفنا رئيس طائفة البهَرة المنبثِقة مِن الدَّولةِ الفاطمية والملتَزمة بِمُواصلة دَعوتها، أنَّ الجزائر لا زالت وفيَّة للدَّولة الفاطمية، فآثارُ قَرية **(إيقجان)**، لا

زالَت مِن مَعالم البِلاد، كما لا زلَت مَدينة (**المسيلة**) التي أمرَ ببِنائها الدَّاعي الأول عبد الله المهدي سنة 313هـ، واتَّخذَها قاعدةَ (**الزَّاب**) بدَلا مِن مدينة (**طبنة**) قاعدة الأَغالبة، التي كانت قبلَ الفتُوحاتِ قاعدة كسيلة (قاتلُ عُقبةَ وأصحابه)، كأبي المهاجر وغَيرهما، وفي مدينة (**المسيلة**) هذه ولِدَ الملكُ المعزُّ لدين الله الفاطمي، وقد خلَّدها شاعرُ البلاطِ الفاطمي الشَّهير ابنُ هاني الأندلسي، ففي السَّنة الماضية خصَّص الملتقى الثامن للفكر الإسلامي المنعقِد في بجاية يومًا لزيارةِ مدينة (**المسيلة**)، و(**جبل كيانة**) الذي أُسِّسَ...[1].

---

(1) إلى هنا ينتهي ما وقفنا عليه مِن نصِّ هذا الخطاب، ويظهر أنه لم يفتنا منه إلا الشيء القليل، والله أعلم. (ع)

1

الخطاب الذي ألقي في الملتقى للدراسات
الاسلامية والعربية بقاعة دربار فندق
"تاج محل" بومباي (الهند)
افتتحها الداعي الفاطمي الدكتور محمد
برهان الدين وترأسها الامام الدكتور عبد الحليم
محمود شيخ الجامع الازهر وذلك يوم الاثنين
9 ربيع الثاني 1395 الموافق لـ 21 افريل 1975
قال:

"بسم الله الرحمن الرحيم
صاحب الفخامة سلطان البهرة الدكتور محمد
برهان الدين
فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الجامع
الازهر
حضرات أصحاب المعالي وحضرات أصحاب الفضيلة
سادتي سيداتي

صورة عن الصَّفحة الأولى من النُّسخة المعتمدة

انطباعات حول المؤتمر الإسلامي العالمي
للسُّنة النَّبويَّة الذي انعقد بالباكستان
في شهر ربيع الأول 1396/مارس 1976[1]

دعَت الدَّولة الباكِستانية لحضور أعمال هذا المؤتمر اثنين وسبعين ومائة عالم وباحث، من بينهم حوالي عشرين مستشرقا، كان المدعوون مسلمين وأجانب يمثِّلون اثنين وأربعين دولة، والموضوع الذي دار عليه البحث وطرح على بساط المناقشة، هو: **(السيرة النبوية)**، كما يدلُّ عليه عنوان المحاضرة: **(المؤتمر الإسلامي العالمي للسيرة النبوية)**.

كانت بداية أعمال هذا المؤتمر في فاتح شهر ربيع الأول 1396، الموافق ثالث مارس 1946، ونهايته في 12 ربيع الأول الموافق منتصف مارس حسب تاريخ الباكستان[2].

رأى المشرفون على أعمال المؤتمر وتنظيمه أن يكون مؤتمرا متنقِّلا بين أمَّهات المدن الرَّئيسية بالباكستان، ولهذا افتتحت جلساته بمدينة إسلام آباد (عاصمة الباكستان الحالية) تحت رئاسة السيد **علي بوطو** (رئيس الحكومة)، ودامت أعماله بها يَومَين، وفي ثالث يوم تنقَّلت الوفودُ إلى مدينة **لاهور** (العاصمة الإسلامية القديمة) في عهد ملوك

(1) اعتمدنا في إثبات هذه المقالة على نسخة بخطِّ الشَّيخ المهدي تقع في: (45) صفحة، وقفنا عليها بمكتبة الشَّيخ المهدي بمدينة بطيوة. (ع)

(2) أي: بالحساب القمري. (ع)

المغول المسلمين، والتي تعدُّ الآن العاصمة الثقافية للبِلاد، ومن لاهور واصلت الأعمال بمدينة **بِشاور** عاصمة مُقاطعة **(السند)**، ثم ختمت أعمال المؤتمر بمدينة **كراتشي** (العاصمة الأولى للباكستان)، والتي لا زالت تحتفِظ بِمكانتها في الميدان الثقافي والاقتصادي.

كان يتخلَّل هذه التَّنقُّلات زيارة بعض الأماكن الأثرية، كـ : **(أزاد كشمير)**، و**(خيبر)**، للاستجمام والاطِّلاع على معالم البلاد، وفي الوقت نفسه تمكين سكَّان تلك النواحي ومثقِّفيها من الاتِّصال والتعرُّف بأعضاء المؤتمر، خصوصا أنه يوجد مِن بين أعضائه إمام الحرم الشَّريف، وشيخ الأزهر، ولكلٍّ مِن الحرم المكي، وجامع الأزهر مكانة في الباكستان، وهذه من بعض الأسباب التي اختير التَّنقُّل للمؤتمر، إذ سهل على العلماء والباحثين الباكستانيِّين المنتشرين في كامل البلاد أن يشاركوا في أعمال المؤتمر، حيث إنَّ المسافة بين المدُن والمناطق شاسعة، وعلى سبيل المثال نذكر ما بين كراتشي ومدينة بتشاور: (1750 كلم).

وجِّهت دعوة المشاركة في المؤتمر مِن الحكومة الباكستانية إلى الأخ الأستاذ **مولود قاسم** (وزير التعليم الأصلي والشؤون الدينية)، فأجابها بالقبول، إلا أنه عِندما حان موعد الاجتماع عرضت له موانع، فأَنابني عنه، وكان سبب حضوري أعمال هذا المؤتمر الفريد في نَوعه، والعظيم بجلائل أعماله.

كان ذهابي إلى **كراتشي** عبر **باريس**، حيث أقلَّتنا طائرة تابعة لشركة صينية، تربط بين **باريس** و**بيكان**، واسمحوا لي إن وقفتُ قليلا للحديث عَن هذه الطائرة وربَّانيها، إذ إنه يوجد كما تعلمون تنافسٌ محسوسٌ بين شركات الطيران العالمية التِّجارية، فكلُّ شركة تبذُل الجهود في جلبِ ما أمكنَ مِن المسافرين الذين تَسهرُ على راحتِهم ورفاهيتهِم، وإجابة متطلَّباتهِم، بغاية الاهتمام واللَّباقة، وبمُجرَّد امتطائي للطَّائرة لفتَ

نظري أن الدَّرجة الأولى فارِغة لم يوجَد بها أي مسافر، ولأنَّ معظم المسافرين صينيِّين، رجالا ونساءً، شبَّانا وكهولا، وشيوخا طاعنين في السِّنِّ، فتقدَّمتْ إليَّ إحدى مضيفات الطَّائرة وسألتني بِغاية الاحترامِ والاحتِشام: هل تتكلَّم الفرنسية؟ وهل أنتَ مسلم؟ فأَجبتها: بنعم، وكان الخدَم يستَعِدُّون لتقديمِ طعامِ العَشاء، إذ كان إقلاع الطائرة على التاسِعة مساءً، وعِندما قدَّم إليَّ سماط الطعام أدركتُ سِرَّ السُّؤال عَن الإسلام، كانت أصناف الطعام مِن أجودِ الأَنواع التي قلَّ أن تُوجدَ في الأوتيلات [1] الرَّفيعة، وكانت ميزة المسافرين والربَّان، الوقار والجدّ والأخلاق النَّبيلة، وإنني إن ذكرتُ هذه النبذة فإنَّنا مع الأَسفِ نُشاهِدُ ونَسمعُ عَن كثير مِن مُسافرينا ما يَندَى له الجبين في هذا المجال، وهو يُسيءُ كثيراً إلى سُمعة البِلاد وإلى سُمعة دينها، ومن المسافرين الذين يُسيؤون سمعة بلادهم بعض حجَّاجِنا الذين يمتَطون الطائرات الأَجنبية، ويتركون أثرا سيِّئاً عِند ربَّانيها بِسُلوكهم وتصرُّفاتهم الهمجية، مع أنَّهم لم يُراعوا ما يَستَوجِبُه عليهم دينهم الحنيف الذي أعلن فيه النَّبيُّ ﷺ أنه بُعِثَ ليتمِّمَ مكارمَ الأَخلاق [2]، وإنني أعدُّ نفسي غير خارج عن الموضوع، حيث إنَّ المؤتمر الذي حضرتُه كانت معظم دِراساتِه مركَّزة على تعاليم الإِسلام المشتَمِلة على مكارم الأخلاق، تلك الأخلاق التي اتَّخذها جلّ الباحثين مثَلا عاليا امتازَ بها المسلمون قَبل عصور الانحطاط والتَّدهوُر، وهي مجسمة في سلوك النبي ﷺ.

ولنواصل الحديث عَن الرِّحلة، فقد وصلنا مطار كراتشي بعدَ طيران عشر ساعات، فتلقَّتنا البلدةُ بحرٍّ شديد، إذ يَبتدئُ فصلُ الصَّيف في كثير مِن نواحي باكستان

---

(1) كلمة: أُوتيل: فرنسية، ومعناها بالعربية: الفندق. (ع)

(2) أخرجه مالك في **الموطأ** (1742)، وأحمد (8939)، والبيهقى (20571)، وانظر تمام تخريجه في **السلسلة الصحيحة** (45) للألباني. (ع)

في شهر مارس، ثمَّ واصلتُ سفري مِن كراتشي إلى إسلام آباد في نفس اليوم، وإسلام آباد تبعدُ عَن كراتشي بنحو: (1500 كلم).

التحققتُ بالمؤتمر الذي اتَّخذ مقرَّ أعماله بـ (نزل راولـپـاندي) (Rawalpindi)، وهذا النَّزلُ تابعٌ لشبكة أوتيلات: (Inter continental) العالمية، اتَّصلتُ بالمشرِف على (لجنة التنظيم والاستقبال للمؤتمر)، وهو: (د. محمد سعيد الشيخ حكيم) الذي كان مُحاطاً بِعشرات المساعِدين، وقد كان المسجَّل عِندهم بالنِّسبة إلى تمثيل الجزائر: الأخ الوزير مولود قاسم، سجِّل اسمُه بِبَرنامج جدول أعمال المؤتمر، وأسدَت له رئاسة المؤتمر صباحية ومسائية ثاني يوم أعمال المؤتمر بـ : لاهور، صادفَ وصولي إلى إسلام آباد عِندَ انتهاء أعمال المؤتمر بها، والاستعداد للذَّهاب إلى لاهور على متنِ طائرة خاصَّة.

كان النِّظام الذي سار عليه المؤتمر في جدول أعماله طيلة أيام انعِقاده، أنَّ جلساته الصَّباحية تَبتدئ على التاسعة وتنتهي على الثانية بعد الزوال، تَتخلَّلها فترة استراحة نِصف ساعة، يتناولُ فيها المدعوُّون الشَّاي بقاعةٍ مُلاصِقة لقاعة الاجتماع، وهذا النَّوعُ من الأُوتيلات كلُّه مجهَّز بجميع مَرافق المؤتمرات العظمى، ثمَّ تَستأنف الجلسة المسائية على الرابعة وتنتهي على الثامنة، وكل هذه الاجتماعات كان مقرُّها قاعات النزل، ويعيَّن لكل جلسة مجلس يتكوَّن من رئيس ونائبه وكاتب ومترجِم، وفي الغالب يتداول على الرئاسة والنيابة الشَّخصيات المحلية، كوزراء المقاطعات، وكبار الضيوف، ولا تجاوز الدِّراسة ـ أي: إلقاؤها ـ ربع ساعة، وتقدَّم مكتوبة، إلا أن توزيعها وترجمتها تستدعي وقتا طويلا، ويستعمل الجرس لإِنذار الخطيب إن ظهر عليه الإِسترسال في الكلام، ثم يستعمل الجرس مرة ثانية يقطع فيها عنه الكلام، بلغ ما بلغ من المنزلة، وبعض الخطباء احتجُّوا على استعمال الجرس في حقِّهم، فما كان جواب المشرِف إلا الرد بابتسامة خفيفة، وإعطاء الكلمة للخطيب التالي، وهكذا كانت أعمال المؤتمر يسودها النظام والمحافظة على الوقت.

كانت معظم الدراسات تلقى بالنسبة للباكستانيين بالأوردية والعربية والإنكليزية، أمَّا العرب والأتراك والأفغان والإيرانيون فكانت معظم دراساتهم بالعربية والإنكليزية، والمستشرقون فيهم مَن تكلَّم بالعربية الفصحى، والجل الآخر بالإنكليزية والألمانية والفرنسية.

كانت أمسيات جلسات العمل تتخلَّلها دعوات الجمعيات الثقافية المحلية، ولها وللمأدبات الكثيرة التي كان يقيمها رؤساء الحكومات المحلية، ووزراؤهم، كان يعيَّن مجلسٌ يتركَّب من الضيوف، ومهمَّته الرد على خطب الداعين للمأدبة أو حفلات الشاي.

دعت دولة **الباكستان** معظم الشَّخصيات الإسلامية، وفي طليعتهم إمام الحرم المكي، وشيخ جامع الأزهر، ثم بقية الشخصيات الإسلامية وغير الإسلامية للمشاركة في هذا المؤتمر الذي خصِّص لدراسة حياة النبي ﷺ، التي اتخذها المسلمون الأولون مَثلهم الأعلى، ويرى الباحثون المنصِفون ـ مسلمين وغير مسلمين ـ أن سيرة الفاتحين هي التي أمكنها كسب الأمم ودخولها في الإسلام الذي امتاز معتنقوه بأنهم كانوا له أوفياء وحاربوا على تعاليمه أكثر من أبنائه الأصليِّين، الشيء الذي لم تحظ به الدول التي سبقت الإسلام.

ويرى الباكستانيون أن دستور بلادهم مبنيٌّ على خدمة هذا الدين، وأن أقل واجب عليهم هو المحافظة على تعاليمه ومواصلة عمل سلفهم في نشر تعاليمه، وتوعية شبابهم، المتعرِّض لمختلف التيارات العقائدية التي تجتاح العالم، هذه التيارات التي تساندها وسائل الإعلام الحديثة تحت مختلف الشِّعارات التي تستهوي الشعوب المتخلفة فتذهب ضحيَّتها، فنجدهم يقطعون صلتهم بماضيهم، ويتنكَّرون لحضارتهم الروحية التي تتميَّز بما فيها من سموٍّ أخلاقي، ذلك السمو الذي خلَّده التاريخ

للحضارة الإسلامية، إلا أنهم يرون أن تعاليم الإسلام وإن حلَّت مشاكل الأجيال القديمة وحوَّلت أمة كانت في الحضيض إلى أمة ذات حضارة مادية وأدبية، في مدة قصيرة، فإن ضرورة الحياة العصرية الآن توجب إعادة النظر في كثير من تجديد ما يلائم العصر، خصوصا وأن الباكستان زيادة على سكَّانها الذين يجاوزون السبعين مليون نسمة، ووفرة جامعاتها ومعاهدها، توجد بها منظَّمات وهيآت كثيرة، أسِّست لخدمة السنة النبوية، والتبشير بمحاسن الدين الإسلامي داخل البلاد وخارجها، ولهذه المنظَّمات مراكز لتكوين الدعاة، يرسَلون إلى مختلف بلاد العالم الأسيوية والأمريكية والأوربية، وهم يرون أن من أسباب ضعف التعاليم الإسلامية إهمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي هو من دعائم نشر الدعوة الإسلامية، وتوعية الشباب والكهول في جميع الأمكنة والأزمنة، فلذلك أسِّست هذه المنظمات تلقائيا لهذه الغاية، وإن أكثر أفراد هذه المنظمات ينتمون إلى جميع طبقات الأمة، منهم الطلبة والأساتذة والأطباء والمحامون والموظفون ورجال الأعمال، كمديري البنوك والمعامل الكبرى، وكلٌّ منهم له موارد خاصة لمعاشه، إذ لا يتَّخِذون من أعمالهم داخل هذه المنظمات وسائل معاشهم، ولا يقبلون أي استغلال، ويرون أن آفة الدعوة في تولية القائمين بها اتخاذها وسيلة معاش، كما أنهم في جولاتهم بمختلف البلاد الإسلامية وغير الإسلامية لا يقبلون أية إعانة مادية، بل منظماتهم هي التي تتولَّى النَّفقات، كما يشترط في المنخرطين بهذه المنظَّمات الاستقامة، وبعد الاختبار والمراقبة يقبلُ العضو فيها ويرسل لقضاء فترة تدريبية بمعاهد تكوين الدُّعاة، خصوصا المعنيِّين في الإِرساليات للبلاد الأجنبية، وهذه المنظَّمات كثُر عددها في **الباكستان**، وبينها تنافس وتسابق إلى اكتساب أكثر عدد ممكِن مِن الأنصار والمعتنقين للدِّين الإِسلامي بواسطة أفراد الإرساليات، وقد دعينا بمسجد إحدى المنظَّمات أسِّس قرب نزل لاهور، فكان من جملة من اجتمعنا به (**د. عبد الكريم صايطو الياباني**)، الذي شارك في الملتقى الثامن للفكر الإسلامي بـ:

بجاية[1]، وكان إسلامه على طريق أفراد هذه المنظمة، ويمتاز أفراد هذه المنظمات أنهم اكتسبوا خبرة دقيقة مفصَّلة على أحوال المسلمين الخاضعين للدول الَّلادينية، وكذلك الأقليَّات المسلمة الموجودة في مختلف البلدان.

إن علماء الدين بالباكستان تختلفُ أوضاعهم، فمِنهم المحافظون المتشدِّدون، ومنهم المتفتِّحون الذين يرَون أنه لابدَّ مِن إدخال تَغيير على الأوضاع الحالية، ويكثُر هذا الصِّنف ـ أي المتفتِّحون ـ في الطَّبقات المتخرِّجة مِن الجامعاتِ الأجنَبية، الذين يرَون أنَّ تعاليمَ الدِّين في حاجة إلى نفضِ غُبار الجمودِ حتى يمكنَ مُسايرة التقدُّم البشَري، والتَّسلُّح في الميدان العقائدي بالعلم، ولهذا كلِّه، يرَون أنه يجب تقديم الفِكر الإسلامي للعقلية الجديدة، وتعميق الإِحساس لدَى الشباب المسلم بِميراثه الرُّوحي والثقافي والعقلي.

والخلاصة أن المتفتِّحين الذين يظهر مِن خِطاب رئيس الحكومة السيد **علي بوطو** الذي ألقاه بِمُناسبة حفلة الوداع التي أقامَها على شرفِ الوفود ليلة عيد المولد النَّبوي بـ: **كراتشي**، يظهر مِن خِطابِه هذا أنه يؤَيِّد المتفتِّحين، فهو يرى مثلا « أنَّ المبادئ الإِسلامية لا تزالُ قادِرة على تقديمِ الحلول للمشاكل الإِنسانية المعاصرة، وأنَّ الإسلام يثبت وجودَ السَّعادة الدُّنيوية والأُخروية في الحياة المِثالية، وعلى هذا فالإِسلامُ في إِمكانه صياغة الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية للمسلمين، طِبقاً للمبادئ الإنسانية للإسلام، وطبقا لقِيَمِه، وذلك دون التأثير على الرَّخاء المادي، أو الكفاية الفنية »، ولهم في هذا أسوة في الزَّعيم الباكستاني السيد **محمد علي جناح**، الذي له مكانته، إذ قال في الموضوع: « إنَّ تأسيسَ **الباكستان** ـ وهو ما جاهَدنا مِن أجله طِيلةَ السَّنوات العَشر الأخيرة ـ أصبحَ اليومَ حقيقة واقعة، وقد كان يحدونا في كلِّ ذلك إقامة

(1) أقيم سنة 1974م. (ع)

دولة نَستطيع فيها أن نعيشَ وأن نكيِّف حياتَنا وِفقَ مَواهبِنا وثَقافتِنا، وحيث يُمكن لتعاليمِ الإسلامِ في العدالة الاجتماعية أن تَجِدَ لها مكانا، وأن تَسودَ بَيننا » اهـ .

وإنَّني قبلَ مُواصلةِ الحديثِ عن المؤتمر استعرضُ نُبذًا مِن ماضي بلاد الباكستان:

كانت بلادُ **الهند** متَّصِلة بجزيرة العرب قبلَ ظهور الإسلام بواسطة قوافل التُّجار في غدوِّها ورَواحها، وفي العهدِ الإسلامي ابتدأَت الحملات العسكرية تصِل إلى الناحية، ولم تأخُذ شكلَها القوي إلَّا عِندما دخلَ **محمد بن القاسم الثَّقفى** بلاد **السند** ـ أي: المنطقة التي تشمل الآن مدينة **بتشاور** المسامتة لحدود بلاد **الأفغان**، وتعرف أيضا بمنطقة **باكستان** الغربية ـ ولم يتغيَّر وضع البلاد الهندية بعد فتحِها في عهد الخلفاء الأمويِّين ثمَّ العباسيِّين إلى أن انفصلَت عن الخلافة واستقلَّ بِحكمِها بعضُ الأمراء.

وفي أوائل القرن الخامس ظهرَ في الميدان **محمد الغزنوي** (388 ـ 420هـ) فاستولَى على جانبٍ عظيم مِن بلاد **الهند**، وتَتابعت الحملاتُ في عهدِ **الدولة الغورية** التي خلفت **الدولة الغزونية**، فأصبحَت بلاد **الهند** خاضعة كلها لحكمِ ملوك المسلمين الذين اتخذوا **دلهي** عاصمة لها، وفي أوائل القرن العاشر الهجري ـ أي: سنة 932هـ/ 1526م ـ استَولت **الدولة المغولية** على بلاد **الهند**، وبقي أمراء **المغول** يحكُمون البلادَ إلى عهد الانحِطاط، و**المغول** كما هو معروفٌ قبائل رُحَّل شَديدو البأس في الحروب، حكموا **الهند** حوالي ثلاثة قرون، وتَركوا آثارا معمارية هامة، قدوةً بسلفهِم، إذ يتَّخِذون من **تيمورلنك** الذي لا زالت آثاره المعمارية بـ: **سمرقند**، آية مِن آياتِ الفنِّ المعماري، سقطت **الهندُ** في مخالب الاستعمار **الإنكليزي** سنة 1857م لخبرٍ يَطول.

ثمَّ بقيت **الهند** خاضعة للاستعمار **الإنجليزي** إلى سنة 1947م، تاريخ نَيل استقلالها، ذلك الاستقلال الذي تمخَّض عن تجزئتها إلى دولتين: **دولة الباكستان الإسلامية**، و**دولة الهند**، وكلمة **باكستان** حديثة، وقد ركِّبت مِن بداية حروف أشهر

مَناطِقِها المنضوية تحت حكمِها، (الباء) **البنجاب** و**باتان**، و(الكاف) **كشمير**، و(السين) **السند** ... الخ.

بِدايةُ الحكمِ البريطاني:

فِي فتَراتِ انحطاطِ البلادِ وتَجزئتها إلى إمارات، تَحالفَ هؤلاء الأمراءُ معَ الشَّركاتِ التِّجارية الأَجنَبية التي توغَّلت داخِلَ البِلاد، ونالَت امتيازات، كانت أهمّ هذه الشَّركات شركات بريطانية وهولندية وفرنسية، وقَد استَولت كلُّ شركة على مَنطقةِ نفُوذٍ شاسِعة، لها كلّ الإِمكانيات، حتى الجيش المسلم، وأَصبحت كلٌّ مِنها تَتحكَّم في البلادِ وأُمرائِها، ثمَّ تفطَّنت انكلترا لهذه المزاحمة، فضاقَت بها ذرعا، فأَعلنت عليهما الحرب، واستَعانت عليها بالهنادِكة فأَزاحتهما مِن طَريقها، ثمَّ ختمت انتِفاضَتها بالقضاءِ على حاكمِ **البنغال** المسلم، وذلك كما ذكَرنا حوالي سنة 1857م، وحينئذٍ شرعَ **الإنكليز** في تَنفيذ خُططِه للقضاءِ على المسلمين وتفرِقة وحدَتِهم.

كان المسلمونَ مِن سكَّانِ الهند ينحَدرون مِن عدَّة أجناس، العرب والفُرس والأَفغان والتُّرك، ثمَّ الأكثرية السَّاحِقة مِن الهنادِكة الذين اعتَنقوا الإِسلامَ طوالَ مدَّة الحكمِ الإسلامي، وقَد كانوا ـ أي: الهنادِكة ـ وَرثوا دياناتٍ وتَقاليد غَير إسلامية، فكانَت تَعاليم الإِسلامِ في كثير مِن أَوساطِهم سَطحية، ومعَ طولِ مدَّة الإِنحطاطِ وتوقُّف التَّوعية الإِسلامية، سنَحت الفُرصة للإِنكليز لتَنفيذِ خُططِهم، فشجَّعوا كثيرا مِن أصحابِ الأَهواءِ والبِدَع والإِلحاد، ومِن جُملتهم طائِفة هدَّامة نَقتصِر عليها كنَموذج مِن موبقاتِهم، وإلَّا فإنَّ موبقاتِهم بالهند الإِسلامية متعدِّدة مَسمومة، ظهَرت هذه الطائفة وانتشَرت بِسُرعة، فلَفتَت أنظارَ علماء الإِسلام الذين كان الكثيرُ مِنهم متَّصِلين بالإِمامِ **جمال الدين الأفغاني**، فكاتَبه أحدُهم، وهو الشيخ **مولوي محمد واصل** أستاذ الرياضيات بـ : **جامعة حيدر آباد**، وهذِه بعضُ فقَراتِ الكِتاب: « إنه لَيصِلُ إلينا مِن

جميع الأقطار الهِندية مِن الممالك الغَربية والشمالية و**أودة** و**بنجاب** و**السند** و**حيدرآباد** ولا يخلو بلدة ولا قصبة مِن جماعةٍ يلقَّبون بِلقبِ هذا الدِّين الجديد: (**نيشر**)، ويظهَر لنا أنَّ مَن يلقَّبون بهذا اللَّقبِ ينمو عَددُهم خصُوصا بين المسلمين»، ثمَّ يطرحُ عليه كثيرا مِن الأسئلة، ويختمُ رسالتَه بقوله: « ولهذا ألتمسُ مِن جَنابِكم العالي أن تَشرحوا حقيقةَ (**النيشرية**) بتَفصيلٍ ينقع الغلَّة، ويشفي العِلَّة، والسَّلام».

كان تاريخ هذه الرِّسالة سنة 1298هـ.

وأجابه الشَّيخُ **جمال الدين الأفغاني** بجوابٍ مُسهب، إذ كان مهتماً بقضية **الهند**، وكان على بصيرةٍ مِن مآسيها، وهذا الجوابُ هو رسالته المشهورة بِـ : (**رسالة الرَّدِّ على الدَّهريِّين**)، التي نقلَها مِن الفارسية إلى العربية الإمام **محمد عبده** بمساعدة **عارف أبي تراب الأفغاني**، وطبعت في **بيروت** سنة 1303هـ.

وقد ذكر الأفغاني في تقديمه للرِّسالة ما يلي: « إنَّ كثيرين مِن مسلمي الهند تكوَّنوا بهذه البِدعة التي بثَّها **الإنكليز** في بلادهم، مِن حيث إنهم رأَوها أقربَ وسيلة للوصول إلى أغراضهِم، وتأييد سلطانِهم في الهند، وجد **الإنكليز** أن الدِّيانة الإسلامية تطلبُ مِن أتباعها أن يكونوا أصحاب الشَّوكة والسُّلطان في أوطانهم، ولاحظوا أن ذلك هو طبيعة الإسلام التي لا يمكن انسلاخه عنها، ففكَّروا في أمرٍ يضعفُ أكثر هذه العقيدة في نفوسهم، فرأَوا أن أقربَ طريق إلى نيلِ مُرادهِم، هو نشر التَّعطيل بين المسلمين، وأن الدَّعوة إليه أنفذُ إلى قلوبهم مِن الدَّعوةِ إلى التَّثليث، والتعطيلُ الذي هو الإِلحاد يسمَّى بالإنكليز: (**نيشر**)، أو: (**نيجر**) (Nature)، ففتَحوا مدرسةً عُظمى لنشر تَعاليم **النَّشرية** وبثِّ مبادئها ».

ثمَّ حلَّل **الأفغاني** هذا المذهب، فقال: « **النيشر** اسم للطَّبيعة، وطريقة **النيشر** هي تلك الطريقة الدَّهرية التي ظهرت في بلاد **اليونان** في القرنَين الرَّابع والثالث قبل الميلاد،

وقصدُ أربابِ هذه الطريقة محوُ الأديان، ووضعُ أساس الإباحة ـ أي ما يعرفُ الآن بالإباحية ـ والاشتراكُ في الأموال والإيقاعُ بين الناس عامة، وقد كدَحوا لإجراء مَقصدِهم هذا، وبالغوا في السَّعي إليه، وتكوَّنوا لذلك في ألوان مختلفة، وتقلبوا في مَظاهر متعدِّدة، وكيفما وُجِدوا في أمةٍ أفسدُوا أخلاقَها، وعاد عليهم سَعيهم بالزَّوال، وأيُّما ذاهبٍ ذهبَ في غَور مقاصد الآخذين بهذه الطريقة تجلَّى له أنه لا نتيجةَ لمقدِّماتهم سِوَى فساد المدنية وانتفاض بناء الهيئة الاجتماعية الإنسانية، إذ لا ريبَ في أن الدين مطلقا هو سلك النظام الاجتماعي ولن يستحكم أساسٌ للتمدُّن إلَّا به، وأول تعليم لهذه الطائفة، إعدام الأديان وطرح كل عقد ديني، وأما عدم شيوع هذه الطريقة، وقلَّة سلَّاكها مع طول الزَّمن على نشأتها فسببه أن نظام الألفة الإنسانية ـ وهو من آثار الحكمة الإلهية السامية ـ كانت له الغلبة على أصولها الواهية، وشريعتها الفاسدة، ولهذا السرِّ الإلهي انبعثَت نفوسُ البشَر لمحوِ ما ظهَر منها، ومِن هذا لم يسبق لهم ثبات قدَم، ولم تقُم لهم قائمة أمر، ولا في وقت من الأوقات، ولتفصيل ما ذكرنا نتقدَّم بإِنشاء رسالة صغيرة أرجو أن تكونَ مقبولة عند العقل الغريزي، لذلك الصديق الفاضل، وأن تنال مِن ذوي العقول الصافية نظرةَ الاعتبار » اهـ.

يمثِّل المسلمون في **الهند** عند نيل الاستقلال، وتكوين دولة **الباكستان** ربع السكَّان تقريبا، حسبَ الإِحصائيات إذ ذاك، كان المسلمون يمثِّلون (22 ٪) في المائة، وكان الهندوس والبراهمة يمثلون (68 ٪) في المائة، البوذيون (3 ٪) في المائة، والمسيحيون (2٪)في المائة، والمجوس والزرادتشيون (1 ٪) في المائة.

هذه حالة **الهند** عند انقسامها إلى دولتَين، وقد أثارَ انقسامها أمواجا مِن الاستياء والغضَب، أما المسلمون ـ أي: خارج بلاد الهند وداخلها ـ فكان منهم المحبِّذ ومنهم السَّاخِط، ولا يَسعنا مجال البحثِ إلى التوسُّع بأكثر مِن هذا، وإنما ذكَرنا هذِه النُّبذ

لسِياق الحديث، ولما يَستدعيه ربط الخطوطِ العريضة مِن موضوع البحث، وإنما لا يفوتنا أن نثبتَ أنه كيفما كانت الحجَج السلبية التي أدلى بها المنتقِدون على التقسيم، فقَد رجَّحت كفَّةَ الانفصال مكانة السَّاعين إليه، الذين كانوا يتمتَّعون في جميع الأوساط الإسلامية وغير الإسلامية داخل **الهند** وخارجها بالنَّزاهة والإخلاص، والكلُّ يجعلهم في مصافِّ المجتهدين الذين درَسوا القَضية، وشاركوا في النِّضال العام، سواء في المؤتمر الهندي أو الرابطة الإسلامية، وكانت علاقتهم مع زعماء **الهند** كـ: **المهتاما غاندي**، علائق ودٍّ وإخاءٍ واحترامٍ متبادل.

وعلى كلِّ حال فالدولة الباكستانية تكوَّنت، والباحثون كلهم متَّفِقون على أن هذه الدولة مدينة لكفاح مَرير طال أمده، وكان في طليعة المناضلين المتأخِّرين السيد **أحمد خان** (1817م ـ 1899م)، كما يعدُّ في طليعة الممهِّدين للدولة الإسلامية، وهو أول مؤسِّس لجامعة (**عليكرة**) الإسلامية التي كانت مركز إشعاع ثقافي إسلامي تَوراثه الأجيال، ويعدُّ السيد **أحمد خان** أبا النهضة، وشاركَه أبطالٌ، ثمَّ خلَفه خلفٌ منهم الأخوان المشهوران **شوكت علي**، و**محمد علي**، ثمَّ الزَّعيمان الخالدان الشاعر الفيلسوف **محمد إقبال**، والمجاهد الأكبر **محمد علي جناح** الذي أمدَّ الله في حياته، إلى أن اقتطف ثَمر غَرسِه، وقد خصَّ الكتَّاب لهؤلاءِ الزُّعماء ـ وبالخصوص **محمد إقبال**، و**محمد علي جناح** ـ تآليف جمعَت تَراجمَ حياتِهم مِن المهدِ إلى اللَّحد، وكلٌّ مِنهما علاوة على ثَقافتهما الإسلامية المتينة، تخرَّج مِن الجامعات العَصرية، كجامعات إنكلترا وألمانيا، فالشَّاعر **محمد إقبال** امتازَت حَياته العِلمية بأنَّها كلّها كفاحٌ لخدمةِ الإسلام والمسلمين، فقَد درسَ تاريخَ الأممِ والإسلام، وألقَى بعد ذلك سِلسلةَ محاضراتٍ في عدَّة جامعات، وقَد جُمِعت وطُبِعت تحتَ عنوان: (**تجديد التفكير الديني في الإسلام**).

قال في تَقديمها: « ولقد حاولتُ في هذه المحاضرات التي أعدَدتُها بناءً على طلبِ

الجمعية الإِسلامية بـ: **مدْراس**، وألقيتُها في **مدْراس** و**حيدر آباد** و**عليكرة**، بأن أحاولَ بناءَ الفلسفة الدينية الإسلامية، بناءً جديدا، آخِذا بعينِ الاعتبار المأثور مِن فلسفة الإسلام، إلى جانب ما جَرى على المعرفة الإِنسانية مِن تطوُّر في نَواحيها المختلِفة، واللَّحظة الراهنة مُناسِبة كلَّ المناسبة لعملٍ كهذا » اهـ .

أمَّا نَشاطه السِّياسي فقد كان على اتِّصالٍ مع صديقه ورَفيقه في النِّضال **محمد علي جناح**، والمراسلةُ بَينهما مُتواصِلة، وكان مِن جملة رسائلِه قبلَ وفاتِه مباشرةً رسالة مؤرَّخة في 28 مايو 1937م، قال فيها: « ألَا تظنُّ أن الوقتَ حانَ لإِنشاءِ دولة بِالهند الإِسلامية لتحلَّ مُشكِلات المسلمين ».

وقَد أبَّنه أحد علماء **الأزهر** فقال: « شاعرٌ ظلَّ طولَ عُمرِه يتغنَّى بأَمجادِ الإِسلام، ويسعَى لتجديدِ قوَّتِه، والبعدِ بمُعتقديه عن الخرافاتِ وعَن المذلَّةِ والهوان » اهـ .

أما الزَّعيم الخالد **محمد علي جناح**، فكان كما وصفَه كاتبٌ مَشهور مِن مُعاصريه بِقَوله: « كان السياسي الصادق الشجاع الذي لا يمارَى، ولا يتملَّق الجماهير، وكان المجاهدَ الطموح المؤمن بِالفكرة التي يسعَى إِليها، الواثق بِنفسه، المستقلَّ بِرأيه الذي لا يخشَى شيئا في سبيل الدِّفاع عن رأيٍ ارتآه، وكان يعتقِد أنه حق، حتى وثقَت به الجماهير، وآمنَت بإِيمانه، ودانَت بآرائه ».

وقال **محمد علي جناح** في خطابٍ تَوجيهي سنة 1942 تناول فيه (**رسالة القرآن**): « واعلَموا أنه لا غِنى في كلِّ نَشأة اجتماعية أو حرية سياسية مِن الاعتماد آخرَ الأمر على سِرٍّ عميقٍ في حياة الإنسان، وأرجو أن تعلموا أنَّ هذا السِّرَّ العَميق، هو روح الإِسلام، فليسَت الخطبُ العظيمة، ولا المؤتمراتُ الكُبرى، هي التي تَصنعُ سياسةَ الأُمم، وأقولُ للشُّبانِ الكثيرين الذين تعوَّدوا أن يَسألوني: كيف يقدرون على خدمة بلادهم؟ هلمُّوا يا أصدقائي الفتيان، واعذروني إذا عرضتُ للسياسة في هذا المقام، فإِنَّما أعرض لها،

لأقولَ لكم: إننا جميعا نُطالِبُ بالحقوق، وندَّعي الدَّعاوى في **الهند** المقبِلة، فينبغي ألا نركب مركب العناد في السَّعي إليها، فإن العناد نقيضُ ما يوحيه إلينا هذا العيد، مِن الحبِّ والمسامحَة، والبركة التي يأمرنا النبي (عليه السلام) أن نبسُطَها لغَيرنا، وفي وسع كلٍّ مِنَّا أن يخدمَ هذا الوطن برياضة النَّفس، وإنها لَجوهر كلِّ قداسة نُحيِيها في هذا الموسم، فليسأل كلٌّ نفسَه: أهوَ على نظامٍ في مَعيشَتِه؟ أَينام في مَوعِده؟ أيسيرُ في الطريقِ علَى جادَّته؟ أيصونُ الطريقَ عن منبوذاته ومَطروحاتِه؟ أيخلصُ في عملِه؟ ويلتزمُ الأمانةَ في شُغلِه؟ أيُعينُ غيرَه بما في وُسعِه؟ أيُعامِلُ غيرَه بالصَّبر والسَّماحة؟ هذه أمورٌ قد تَبدو صِغارا، وهي على هذا نواة كلِّ نظامٍ كثير القيمة، فيما تتضافر فيه الطوائف جميعا، على ادخاره لخدمة وطنها» اهـ.

ولنَرجع الآن إلى مُواصلة حديثنا عن المؤتمر، كانت مَواضيع الدراسات التي تَناولها الباحثون ـ مسلمون وغير مسلمين ـ مركَّزة على سرِّ نَجاح الدَّعوةِ الإِسلامية، وانتِشارها بِسُرعة في فترة وَجيزة مِن الزَّمان، وكانت حياةُ النبيِّ ﷺ هي الحياة المِثالية للمسلمين الأولين، حيثُ لم يُخفِ علماءُ السِّيرة ولا السنة ورواتها شيئا منها، ابتداءً مِن حياة النبيِّ ﷺ الخاصَّة المعروفة الآن عِند الكتَّاب بـ: (**الحياة اليومية**).

وكلُّ باحثٍ اختارَ مَوضوعًا مِن هذِه المواضيع، أمَّا المستشرقون فقَد تَناولوا في بحُوثِهم استِنتاجاتهم مِن حياةِ بعضِ رجالِ الفِكر الإِسلامي وتآليفهم ومَذاهبهم، كلٌّ حَسب تَخصُّصاتِه، إذ معظمهُم أساتذة جامعيون متخصِّصون، وإنَّني أخترتُ نبذا مِن الدِّراسات التي أُلقيت في المؤتمر كنماذج:

الأولى: دراسة العالم المنتج مَولانا **كوثر نيازي**، وزير عموم الشؤون الدِّينية بالدولة الباكستانية ـ وإنَّني ذكرتُ (عمومَ الشُّؤون الدِّينية)، لأنه يُوجَد في كلِّ مَنطقة شِبه حكومة محلِّية لها وَزير الشؤون الدِّينية، وقد كان عنوان دراسته: (**النَّبيُّ المصلحُ** ﷺ)،

استهلَّها بفقرة مَنقولة مِن **الموسوعة العالمية للعلومِ الاجتماعية** (المجلَّد الثالث عشر): «قيل فيها ـ أي: في الموسوعة ـ : إن الانقلاب الذي أحدثَه النبيُّ محمد ﷺ في الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي، كان قويَّ الأثر، بعيدَ المدى، ويمكنُ أن يقال إنَّه الأساس لكلِّ الإصلاحات التي حدثَت بعد ذلك، فالتغييرات التي ظهرَت في مجال الأفكار والعادات الإنسانية سارَت مع الزَّمن، وكان لها أثر بالغٌ على كثير مِن التقدُّم العلمي الحديث، الذي بدأ بـ (**جليلو**)، وكذلك الحركة الدِّيمقراطية التي تجلَّت في الثَّورة الفرنسية، والحركة الاشتراكية التي قامت في روسيا والصِّين، فكلُّها جهودٌ ناقصة إذا قيسَت بالهدْيِ المحمَّديِّ في هذه المجالات جميعها، وعلينا أن نوضِّح المقصودَ مِن كلمة: (**الِانقلاب**)، فهذه الكلمةُ بِمعناها العام، تعبِّر عن تغيير نظام الحكم عَن طريق القوَّة، ويمكنُ أن تعني كلمة الانقلاب أو الثَّورة عن تغيير أساسي في الاجتماع، و السِّياسة، والاقتصاد » اهـ ما استهلَّ به الدِّراسة، وذكَر أنه نقلَ مِن (**الموسوعة العالمية للعلوم الاجتماعية**).

ثمَّ استرسل في الحديث فقال: «وإنما تحدث الانقلابات عادة إذا ضعفَ النِّظامُ القديم كليا أو جزئيا، ويرجعُ ذلك إلى عدمِ كفاءةِ الطبقة الحاكِمة، أو حدوثِ حَرب، أو أزمةٍ اقتصادية، أو شيئا مِن هذا القبيل.

ومن ألوانِ الانقلابِ الثَّورات السياسية التي تهدفُ إلى تغيير رجال الحكم، وهذه الثَّورات قصيرة العُمر، ولا يترتَّب عليها تغيير كبير في الحياة الاجتماعية، ما لم يَصحَبها تغييرٌ في أسلوبِ التَّفكير والتقاليد والعادات، وما لم تتبنَّ قيماً خلقية جديدة، وإذا أريدَ لأيِّ انقلابٍ أن يكون له أثر عميقٌ ومنتِجًا، فلا بدَّ مِن تغيير أساليب التفكير كلية، وأن يأتي بِتَشريعات جديدة في سبيلِ تحقيق هدفِه، وأما الانقلاب الذي أحدثَه الرَّسول ﷺ فإنَّه لم يكن انقِلابا سياسيا فحَسب، ولكنه انقلاب شملَ كلَّ النَّواحي الخلُقية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية».

وعلينا أن نلقي نظرةً عابرة على أحوال العالم قبل الإِسلام.

وبعد ما تعرَّض للحديثِ عن دَولتَي الروم والفرس، ذكرَ الحالةَ الدينية في العالم قبلَ الإِسلام، ذكَر محَاسِنَها ومساوئها.

ثم بيَّن أن الدين الإسلامي قضى على المساوئ القديمة، وخلقَ مجتمعا على أساس نظامٍ عادل، تحترمُ فيه حرية الفِكر والعقيدة، نقي من العنصرية والطبقية، يؤكِّد على تحصيل العلم واستخدام العقل، وجعل قيمةَ المرء بعمله واستعداده، وليس لانتسابه إلى طبقة معيَّنة، وهناك نظريات وآراء مختلفة حول ظهور هذا النبي المصلح، كلُّها بعيدة عن الحقيقة، فبعضُ هذه الآراء تذهب إلى أن دعوة التوحيد كانت مُوافقة لطبيعة الصحراء، فلو كان الأمرُ هكذا فلماذا لم يُبعث رسولٌ يَدعو إلى التَّوحيد في راجبوتانة، أو غيرها مِن الصحراء.

والرأي الثاني أن ظروفَ صحراء العرب تحتاج إلى تغيير، وكان الناس يتطلَّعون إلى النَّجاةِ مِن الحروب القبَلية ونَسوقُ هنا رأيَ **وليم ميور**، فإنَّه يقول: « إن الأوضاع في الجزيرة العربية قبلَ بعثة الرسول كانت تصلح لإِصلاح ديني، أو وحدة سياسية أو نهضة قومية ».

وقد استطردَ هذا المؤلِّف ـ أي: **وِليَم مِيور** ـ في مقدِّمة تأليفه: **(حياة محمد)**، بعد هذا فقال: « إنَّ في بعضِ الأحيانِ لا تتَّفِق الأسبابُ والعِللُ مع النتائج التي يأتي بها رجل يَبدو أنه لا يصلح لهذا، ولما بعثَ الرَّسولُ استجابَت الجزيرةُ العربية لدَعوتِه، ولهذا استنتج بعضُ الناس أن الجزيرة كانت متطَّلِعة إلى التَّغيير، وفيها الاستعداد لقبول مثل هذه الدعوة، ولكننا لو استَعرَضنا الأمرَ بهدوءٍ لرأينا أن تاريخَ ما قبلَ الإسلام يهدمُ هذا الرأي مِن أساسِه » اهـ.

ثم قال الوزير **كونر نيازى**: « والرأي الثالث لماركس الذي يقول: إن كلَّ تَغيير

ثَوري يحدثُ كنتيجةٍ لظهور طبقة جَديدة، ويرَى الماركسي أنه كلَّما تظهر قوَّة إِنتاجية جديدة فإِنها تَصطدِم مع قوَّةِ الإنتاج السَّائدة، ويتَرتَّب على ذلك ظهور طبقة جَديدة، وهذه الطبقة تحدثُ تَغييرا ثَوريا، غير أنَّ الماركسيِّين لم يَستطيعوا أن يبيِّنوا لنا شَيئا عن وجودِ قوَّةٍ إِنتاجية في مجتمع الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام، وما كان هنالك أي قوة جَديدة، وما كان هناك تغيير في الظروف، ولم تظهر طبقة جديدة قبل ظهور الإسلام في الجزيرة العربية.

والذين آمنوا برسول الله، وعزَّروه ونصَروه، كان منهم الأغنياء والفقراء، فكان **أبو بكر الصديق** غنيا إلى حدٍّ ما، وكان **عثمان** و**عبد الرحمن ابن عوف** (رضي الله عنهما) مِن كِبار الأثرياء، وكانت السِّيادةُ قبلَ الإِسلامِ وبعدَه لقريش، ولم يحدث هناك أي تَغيير في بِناءِ هيكل المجتمع.

ثمَّ تعرَّضَ السيد **كوثر تيازى** إلى ما استَنتجَه مِن هَديِ الرَّسولِ ﷺ فَقال: « ذكرتُ آنِفا أنَّ رسولَ الله ﷺ هو في الحقيقة الرَّائدُ لكلِّ الإِصلاحاتِ الحديثة التي تَستهدِفُ خَيرَ الإنسانِ والإِنسانية، وما ضلَّت الثَّوراتُ إلَّا بانحرافِها عَن الهديِ المحمَّديِّ، ونَسأل: ما هي الثَّوراتُ الحديثة؟

في المجال السياسي هي الثَّورةُ الدِّيمقراطية التي تُنادي بالمساواةِ السِّياسية بينَ البشَر، وفي المجالِ الاِجتماعي الثَّورة لأَجلِ حقُوقِ المرأةِ ومكانَتِها في المجتَمع، وفي ميدانِ الاِقتصادِ هي الثَّورةُ الماركسية التي تزعمُ أنَّها أنقذَت الجماهير مِن الجوع والفَقر والإِفلاس، وفي مَيادين العلوم هي الثَّورةُ العِلميةُ التي بدأَت بـ (**كوبر تيكس**)، و(**جبليلو**)، و(**كبلر**) ».

ونستعرض فيما يأتي كيف وضعَ رسولُ الله ﷺ أسسَ هذه الثَّورات:

المجال السياسي:

إذا كان أساس الدِّيمقراطية الحديثة، هو استِشارة مَن يمثِّلون الشَّعبَ في شؤونِ السِّياسة الخارجية والداخلية، فإنَّ أولَ مَن نادى بهذا المبدأ هو كتاب الله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ (الشورى: 38).

حقًّا إنَّ النبيَّ ﷺ لم يحدِّد شكلا واضِحا لمبدأ الشُّورى، ولكنَّ ذلك لأنَّ الشُّورى تتغيَّر صُوَرها وأشكالها بِتَغيير العَصر ومُتطلباتِه، والديمقراطية الحديثة إحدَى هذه الصُّور.

ومن مبادئ الديمقراطية الحديثة كذلك المساواة، وهذا المبدأ أيضا وضعَه رسولُ الله ﷺ، فقد أخرجَ البخاري عَن عروة عن عائشة أن أسامة كلَّم النبيَّ ﷺ في شأن امرأة سرقَت، فقال عليه الصَّلاة والسَّلام: « إنما أهلك مَن كان قبلكم، أنهم كانوا يقيمون الحدَّ على الوضيع، ويتركونه على الشَّريف، والذي نفسي بيده لو أن فاطمة فعلت ذلك لقطعتُ يدَها » أخرجه **البخاري**،(كتاب الحدود)

والتَّسامُح وحرية الفِكر مِن أُسسِ الديمقراطية الحديثة، وقد مرَّ بِنا كيف أهملت الجاهليةُ القديمةُ هذِه الأسس، فكان الناسُ فيما مضَى لا يتحمَّلون الخلافات المذهَبية، وطالما اصطدَمت الطوائفُ الدِّينية بَعضها ببَعض، لكنَّ القرآنَ الكريم أكَّد على التَّسامح الدِّيني، فقال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ (البقرة: 256).

وضربَ رسولُ الله ﷺ أروَع الأَمثلة للتَّسامح الدِّيني في عهدِه معَ نصارَى **نَجران**، وقد **نقلَ ابنُ القيم الجوزية** نصَّ هذا العهدِ على النَّحو التالي: « مِن محمَّدٍ النَّبيِّ إلى أسقُف أَبِي الحارث، وأساقفة نجران، وكهنتِهم ورُهبانِهم، وأهلِ بِيَعهم، ورَقيقهِم، وعلى كلِّ ما تحتَ أيديهم، مِن قليلٍ وكثير، جِوارُ الله ورسوله لا يغير أسقف من

أسقفته، وراهب مِن رَهبانيته، ولا كاهن مِن كهانتِه، ولا يغير حق مِن حقوقِهم، ولا سلطانه ولا ما كان عليه، (**زاد المعاد**) لابن القيم (ج 3، ص: 41)».

فهل تُوجد شروط فاتح أكثر سماحة وسخاء مِن هذه الشروط؟ ونَنقل هنا ما ذكَره كاتبٌ مسيحي على منجزات رسولِ الله في ميدان المساواة الديمقراطية، فهو يقول: « وتأسَّس تحت قيادةِ محمد ﷺ أكمل وأتمّ نظام ديمقراطي يقومُ على المساواة مما ليس له نَظير حتى الآن».

حقُّ المرأة:

يفتخر العالم الحديث ويزهو، بأنه منحَ المرأةَ حقُوقَها، وعرفَ لها مكانتها، والحقيقة التي ينبغي أن يعرفها الجميع، أنَّ أولَ مَن كرَّم المرأة وصانَ حقوقَها، هو رسول الله، فلم يكن للمرأة أي حقٍّ في مالٍ أو عقارٍ قبلَ الإسلام، ولا في أيِّ حضارة سابِقة عليه، والقرآنُ الكريمُ يصرِّحُ بِمُساواتها بالرَّجل في قوله: ﴿**وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ**﴾ (البقرة: 228)، وقوله: ﴿**هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ**﴾ (البقرة: 178)، وفي خطبة الرَّسول ﷺ في حجَّة الوداع قوله: « أما بعد، أيها الناس، فإن لكم على نسائكم حقا، ولهنَّ عليكم حقا، واستَوصوا بالنساء خيرا » سيرة ابن هشام (ج 4، ص: 875 ـ 276)، طبع/ القاهرة.

وإذا كانَت المرأةُ قد حصَّلت على حقوقٍ أكثَر ممَّا حصَّلت عليه في الماضي، فذَلك بسببِ وجودِ الفُرص التي هيَّأتها لها الحياةُ المعاصِرة التي لم تكُن مَوجودة عِند العربِ قديما، وإنه لمن فضل الإسلام وبركتِه أن نرى المرأةَ قد تحرَّرت مِن الأغلال والسَّلاسل التي كبَّلتها قُرونا» اهـ.

إلى هنا نُنهي ما جاء في دراسة السيد **كوثر نيازى** (وزير الشؤون الدينية

بالباكستان)، وقد كنا نودُّ أن يسعَ الوقتُ لتتبُّع هدي الرَّسولِ في الاقتصاد وفي العلم والتَّجربة، فإلى فُرصةٍ أخرى.

ولننتَقِل إلى **النموذج الثاني** مِن الدراسات، وهي دراسة السيد **حسن آق صاي** (وزير الدولة التركية في الشؤون الدينية)، وقد استهلَّ دراستَه القيِّمة بعدَ الحمدلة والتَّصلية، بالحديثِ عَن موضوع المؤتمر، فقال:

« موضوعُ هذا الاجتماع، هو رسالة سيِّدنا محمَّد ﷺ للإنسانية كلِّها، التي هي الطريق الوحيد لسعادة وسلامة الإنسانية، فإن التبليغات القيِّمة سوفَ تبيِّن قيمة ما جاءَ به الإسلام، والإسلام باعتبار كَونه نظام العقائد، وسيدنا محمد ﷺ باعتبار كونه قائد الأمة ».

ثمَّ تعرَّض لوصفِ حالة البشَرية في العصر الحاضر، وأنها بلَغت أوجَ المعرفة، وسخَّرت جميعَ الاكتشافاتِ لصالح الإنسانية، ولرفاهية الفرد والمجتَمع، ما في ذلك شكٌّ، إلَّا أن المدنية نَفسها تحمِل في طيَّاتِها مَعاولَ التَّدمير، وفقدَ معها الإنسانُ كيانَه وشَخصيتَه، حتى صارَ لا يتصرَّف ولا يفكِّر في مَصيره، بل كلُّ همِّه ونَشاطاتِه انصرفَت إلى المادة، ورغمَ تقدُّم العلم وتَسخيره، فإنَّ همُومَ الإنسانية، أفرادًا وجماعات، تعدَّدت واستفحلَ الدَّاء، ثمَّ أعطى إحصائيات مُفزِعة لضَحايا الإجرامِ والكحولِ والمخدِّرات والاِنحرافِ الخلُقي في العالم المتقدِّم، واسترَسلَ قائلا: « عِندَما نُلقي نظرةً قصيرةً إلى مَوقفِ الإنسانية وأزَماتها اليوم، وننظر إلى الإسلام ورسالة سيِّدنا محمدٍ ﷺ »، وعدَّد ما سادَ العالم في عصر النبيِّ وعصرِ الخلفاء الراشدين، واستدلَّ على آرائِه بأقوال العلماء والمفكِّرين المسلمين والأجانب.

ختم دراستَه بالدَّعوة إلى إعادة النظر في دراسة الإسلام، وغرسِ الأخلاقِ الفاضلة في النَّشء حتى لا يضِلُّوا، وإنَّ أعظم نِعمة للإنسانِ بعدَ الصِّراط المستقيم هي الأسوة

الحسنة، وإن سيدنا محمدا ﷺ هو الأسوةُ الحسنةُ لكلِّ فردٍ ومجتمع، كقائد، وإنسان، ومبلِّغ عظيم.

فليس هناك للإنسانية باعتبار الفرد والمجتمع حدث أهمّ مِن هذه الحقيقة والأسوة وهذا النبأ، فإنَّ الكونَ شهِدَ معناه في وجودِ سيِّدنا محمد ﷺ المثالي، وإنَّ خسارةَ الإنسان لتكونُ جسيمةً دائما إذا كان الإنسانُ بدون مُرشدٍ ومعلِّم وزعيمٍ حقيقي.

وكنتُ أردتُ أن أتبع وأنقل ولو فقراتٍ مِن دراسة السيد محمد أشرف (رئيس قسم العربية بجامعة بشاور)، عنوانها: (نبيُّ الرَّحمة)، وقد ألقاها صاحبها بالعربية، إلَّا أن الوقتَ ضايقَني، فَمعذِرة، وإنَّني سأعودُ إليها في فُرصةٍ أُخرى لأنَّ الحديثَ عن هذا النوع مِن المؤتمرات في حاجةٍ إلى سِلسلةِ أحاديث، وتِلك أُمنيتي.

المهدي البوعبدلي

انطباعات حول المؤتمر الاسلامي العالمي
للسنة النبوية الذي انعقد بالباكستان في
شهر ربيع الاول 1396 (مارس 1976)

دعت الدولة الباكستانية لحضور اعمال هذا المؤتمر
اثنين وسبعين ومائة عالم وباحث، من بينهم حوالي
عشرين مستشرقا، كان المدعوون مسلمين واجانب
يمثلون اثنتين واربعين دولة، والموضوع الذي دار
عليه البحث، وطرح على بساط المناقشة، هو
"السيرة النبوية" كما يدل عليه عنوان المؤتمر:
"المؤتمر الاسلامي العالمي للسيرة النبوية"
كانت بداية اعمال هذا المؤتمر في ثاني شهر ربيع
الاول 1396، الموافق ثالث مارس 1976، ونهايته
في 12 ربيع الاول الموافق منتصف مارس حسب تاريخ
الباكستان.
رأى المشرفون على اعمال المؤتمر وتنظيمه، ان يكون

صورة عن الصَّفحة الأولى من النُّسخة المعتمَدة

[رسالة من بشاور (باكستان)][1]

الحمدُ لله، والصَّلاةُ والسَّلامُ علَى رَسولِ الله.

(بشهاور): في: 12/ 3/ 76.

فضيلةُ الأخ سيدي الحاج **محمَّد الهاشمي**:

تحيةً وسَلاما، وبعد:

فإِنِّي لا زِلتُ أتجوَّلُ بـ **الباكستان**، حيثُ اهتدَى منظِّمو **المؤتمر** إلى مُنتهى الإِكرام، فجَمعوا لِضُيوفهِم المتعةَ الحِسِّيةَ والمعنَويَّة، فهُم وزَّعوا أَعمالَ المؤتَمر علَى المدُنِ الرَّئيسية، وتَركوا فُسحةً مِن الوَقتِ لإِمكانِ الضُّيوفِ مِن الاطِّلاع علَى مختلَفِ جِهاتِ البِلاد.

ويَمتازُ علماءُ هذِه البلادِ بالمحافَظةِ على السُّنَّةِ النَّبويَّة قَولًا وعَملا، فهُم متَخصِّصونَ كلُّهم في رِوايةِ الحديثِ وحِفظِ مَتنِه وسَندِه، كما يَمتازُ الأَعيانُ بِالكَرم، حتَّى إنَّه لا يَخلو يومٌ مِن الأَيامِ لم نُدعَ فيه عِندَ وَزيرٍ أَو رَئيسِ جَمعية.

والمسجِدُ الذي أَدَّينا فيه أوَّلَ صلاةِ جمعةٍ يَسعُ مائةَ ألفِ مُصلٍّ، وإِنَّنا زُرنا وقَضَينا أَيَّامًا بـ: **إسلام أباد** (العاصمة الحالية)، ثمَّ **لاهور** (العاصِمة الثَّقافية).

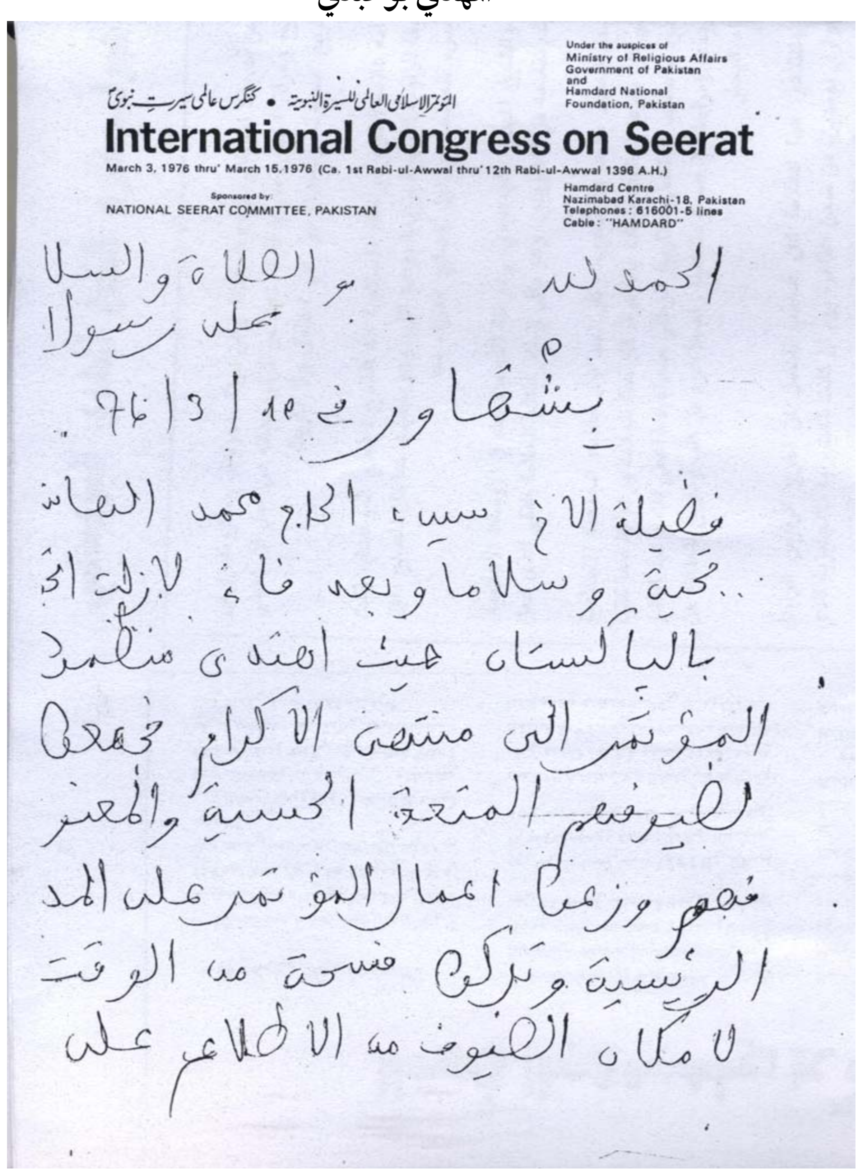
وإِنَّني اليومَ في **بشهاور**، مدينة سياحية أثرية، بعدَ أن مَررنا أَمس علَى **بُحَيرة كَشمير**

(1) اعتمدنا في إثبات هذه الرِّسالة على نسخة مصوَّرة مِن مجموع: **تعريف الخلف بمآثر السَّلف**، للأستاذ هاشمي عبد الحفيظ ياسين، وهي رسالة بعث بها الشَّيخ **المهدي** إلى الشَّيخ **محمد بن محمد الهاشمي**. (ع)

التي هي على 2000 متر على سطح البَحر، وسنَرجعُ غدًا إِلى **كراتشي**، لنقضيَ (4) أيام نَختمُ فيها أَعمالَ المؤتمر، ثمَّ نَنصَرِفُ ـ إِن شاءَ الله ـ بعد 15.

وتقبَّلوا تحيَّاتي، شافاكم الله وعافاكم.

المهدي بوعبدلي



المؤتمر الإسلامي العالمي للسيرة النبوية • كنگرس عالمی سیرت نبوی

Under the auspices of
Ministry of Religious Affairs
Government of Pakistan
and
Hamdard National
Foundation, Pakistan

International Congress on Seerat

March 3, 1976 thru' March 15,1976 (Ca. 1st Rabi-ul-Awwal thru' 12th Rabi-ul-Awwal 1396 A.H.)

Sponsored by:
NATIONAL SEERAT COMMITTEE, PAKISTAN

Hamdard Centre
Nazimabad Karachi-18, Pakistan
Telephones: 616001-5 lines
Cable: "HAMDARD"

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

بشاور في 10/3/76

فضيلة الأخ سيدي الحاج محمد النهاش
تحية وسلاما وبعد فإني لا زلت الآن
بالباكستان حيث اهتدى منظمو
المؤتمر الى منتهى الإكرام لجميع
ضيوفهم المتعددة الجنسية والمعتز
بهم وزعوا أعمال المؤتمر على المدن
الرئيسية وتركوا فسحة من الوقت
لإمكان الضيوف من الاطلاع على

صورة عن الصَّفحة الأولى مِن النُّسخة المعتمدة

[رسالة إلى الأستاذ أحمد إسماعيل
(مدير الملتقيات والبحوث الإسلامية)][1]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بطيوة في: 18 جمادى الأولى 1400هـ/ 3 أفريل 80.

إلى الأَخ الفاضل المحترم الأستاذ **أحمد إسماعيل** (مدير الملتقيات والبحوث الإسلامية).

تحياتي الودادية، وبعد:

فإنِّي رجعتُ مساءَ أمس مِن (**ملتقى برلين**)، حيثُ قضَينا أياما ممتِعة، وحيثما ذهب الإنسان هناك إلا وجدَ المناخَ العِلمي سائِدا، وقد تلقَّانا أعضاء المؤتمر الثاني والعشرين للمستشرقين الألمان بِحفاوة واستِضافة لا نظيرَ لها، فأنزلونا كلنا بِنَزل فخمٍ تتراوح أجرة البيت فيه من 80 إلى 150 مارك، وكان أوَّل استقبال ـ أي: يوم افتتاح المؤتمر ـ مِن طرف رئيس الحكومة الفدرالية بقصر الرَّيش صْطاك (Reich Stag)، وقد كانت الأعمال مزدوجة: أعمال المستشرقين الذين دعوا عددا ضَخما يُناهِز المائتَين مِن جميع الأجناس، ومن جهة أخرى أعمال المركز الثَّقافي للدِّراسات الإِسلامية، الملحق بالجامعة الجديدة في **برلين** (عدد طلاَّبها خمسون ألفا)، وهو الذي يديره الدُّكتور **بابريم هنسان** الذي زارنا إلى الجزائر ووهران، وكان عند افتتاح الأعمال به قدَّموني لرياسة الجلسة

(1) اعتمدنا في إثباتها على نسخة أصلية تقَع في أربع (4) صفحات. (ع)

الافتتاحية فاعتذرتُ لهم، واقترحتُ الأخ **عبد القادر زبابدية،** إلا أنَّهم ألحُّوا عليَّ، ثمَّ قدَّموا الأخ **بو عزيز** لرياسة الجلسة الثالثة، و**عبد الجليل التَّميمي** ثمَّ **أحمد توفيق المغربي** لجلستَين أخريَين، وقد امتاز الوَفدُ الجزائري بالموضوعيَّة والتَّعمُّق في البحث، وقد بالغوا في الإكرام والحفاوة، ومظهر المجتمع هو الجدُّ والنِّظام والتَّواضع، وعند رجوعي نزلتُ بـ : (**جنيف**) حيث وجدتُ في انتِظاري الأخوة د . **طاهرات**، و**محمود بوزوزو،** و**جمال بركات** (القنصل الحالي)، وتناول معي طعام الفطور مرَّة الأستاذ **بوازار،** وأخبرني أنَّه اجتمعَ بكم في **الرِّياض،** وتمتاز **جنيف** بِمَسجدها الفريد مِن نوعه في العالم الإسلامي، وهو يشمَل على مَرافقَ لا نظير لها، مِن قاعاتِ المحاضرات والمكتبة والميضاة، وهو محطُّ رِحالِ المفكِّرين العالميِّين.

هذا، وإنِّي عند رجوعي وجدتُ رسالةً كتبها رئيس المجلس الشَّعبي ببلدية تنس، وقد كان وفدٌ منهم جاء إلى العاصمة وسأل عنِّي في الوزارة، وفي المركز الوطني للبحوث التَّاريخيّة، حسبما أَخبرني الأخ **توفيق المدني**، وإنَّني أجبتُهم بالقبول وحدَّدتُ لهم موعدَ زيارة في 29 أفريل الجاري، وطلبتُ منهم الاتِّصال بالأَخ **عبد الرَّحمن زيان** (مدير الشُّؤون الدِّينية) بولاية **الأصنام،** وأَرجوكُم مِن جِهتكم أن تكاتبوه، وعنوان المحاضرة: (**صفحات مِن تاريخ مدينة تنس الثَّقافي والحضاري والسِّياسي**) [(1)]، وإنَّني سأُكاتبكُم في هذا الأسبوع عَن مَوضوع دِراسَتي بـ : **ملتقى الفكر الإسلامي** المقبِل.

وفي الختام تقبَّلوا تحيَّاتي.

المهدي البوعبدلي

---

(1) لم تسعفنا الأيام بالوقوف على هذه المحاضرة، ولعلَّنا في طبعة أخرى ـ إن شاء الله ـ نستدرك ما فاتَنا مِن المحاضرات والمقالات. (ع)

بسم الله الرحمن الرحيم ١

بلبوة في 18 جمادى الأولى 1400 = 80/4/3

إلى الأخ الفاضل المحترم الأستاذ أحمد
إسماعيل مدير الملتقيات والبحوث الإسلامية
تحيات الوداد، وبعد فإني رجعت مساء
أمس من ملتقى برلين حيث قضينا أياما ممتعة
وحيثما ذهب الإنسان هناك إلا ويجد المناخ
العلمي سائدا، وقد تلقانا أعضاء المؤتمر
الثاني والعشرين للمستشرقين الألمان بحفاوة
واستضافة لا نظير لهما فأنزلونا كلنا بنزل
فخم تتراوح أجرة البيت فيه من 80 إلى 150 مارك
ثم كان أول استقبال يوم افتتاح المؤتمر من طرف
رئيس الحكومة الفدرالية بقاعة الريشطاغ Reichstag
وقد كانت الأعمال مزدوجة: أعمال المستشرقين الذين
لم يعودوا [illegible] كما بيناه من الألمانيين من جميع الأجناس
ومن جهة أخرى أعمال المركز الثقافي للدراسات

صورة عَن الصَّفحة الأولى من الرِّسالة

رحلتي إلى الحجِّ

سنة (1403هـ/1983م)[1]

غادرتُ مطار **وهران** متوجِّها إلى الجزائر يوم الاثنين 27 ذو القعدة الموافق لـ سبتمبر 1983م، وفي صباح الغد ـ أي: يوم الثلاثاء ـ ذهبتُ إلى الوِزارة فاجتمعتُ بالأخ الأستاذ **المأمون القاسمي** (المستشار لدى السيد الوزير **عبد الرَّحمن شيبان**) فمكَّن لي جواز سفري، والقيام بالمهمَّة، وأخبرني أنَّ سفرنا سيكون صباح يوم الأربعاء على العاشرة مِن مطار الجزائر، وسيكون برفقتنا وزير مالي وبعض رفقائه، ثمَّ اجتمعتُ بالأخ الوزير **شيبان** وشكرته على ثِقته وحفظ عهد المودَّة الرابطة بيننا، وكان في الحسبان أن يترأَّس هو البعثة الرَّسمية للجزائر، ونظرا لتراكم الأعمال وتهيئة هيئة المؤتمر لحزب جبهة التحرير تأجَّل ذهابه هو والأخ **عبد الرزاق الصطنبولي**.

وقد اجتمعنا في القاعة الشَّرفية بالمطار حوالي: 11[2]، والتحقَ بنا الوزير المالي الذي كان يرافِقُه الأخ **شيبان** وجماعات مِن الحجَّاج السِّينيغاليِّين والنيجريِّين، وأقلعَت بنا الطَّائرة فمرَرنا على قسنطينة، ثمَّ تونس، فليبيا واليونان، وبعد طيران ثلاث ساعات ونصف وصَلنا مطار **القاهرة**، فنزل المسافرون إلى **مصر** وبقينا مع بقيَّة المسافرين الأفارقة الذين كانت وجهتهم **جدَّة** بالطائرة حوالي الساعة، حيث واصلنا سَيرنا الذي

(1) اعتمدنا في إثبات هذه الرِّحلة على صورة مِن نسخة خطية بقلم الشَّيخ **المهدي** (رحمه الله تعالى)، تقعُ في (9) صفحات.

(2) أي: على الساعة الحادية عشر.

استغرق حوالي (1،45 د) [1]، فنزلنا **جدَّة** حيث وجدنا في انتظارنا سفيرنا السيد الأخ **التِّجاني هدَّام** (سفير الجزائر بالمملكة العربية السعودية) صحبةَ الأخ **أحمد حماني** (رئيس المجلس الإسلامي الأعلى للجزائر) ـ الذي جاء على عادتِه للحضور في اجتماع الرَّابِطة الإسلامية ـ وثلَّة من أعضاء البعثة الجزائريَّة للحجِّ.

كان الوفد الرسمي الجزائري الذي كنتُ مِن جملة أعضائه يتركَّبُ مِن الأَخوَين الأساتذة **المأمون القاسمي** (المستشار لدى وزير الشؤون الدينيَّة)، والأستاذ **المختار** (المستشار أيضا لدى الوزير)، والشيخ **سيدي علي** (المكلَّف بالتَّشريفات لدى الوزير).

نزلتُ صحبةَ الأَخوَين الرَّفيقَين بمركز البِعثة الجزائريَّة في جدَّة، حيث كان المكلَّف به الأخ **أحمد إسماعيل** (مدير قسم الموظَّفين بالوزارة)، والمستشار **أحمد درار**، وقد لاحظنا تغيير بين حالته الحاضرة وما كان عليه من حوالي (6) سنوات، فقد تحسَّن جداً.

في الصَّباح الباكر زارَنا الأخ السفير الأستاذ **التِّجاني هدَّام** الذي رافقَنا إلى **مكَّة المكرَّمة** للحضور في غسل الكعبة، وقَد كنتُ أَحرمتُ بالعُمرة ناويا التَّمتُّع، ولما كان سبقَ لي تأدية فريضة الحجِّ، وبإشارة من الأخ الأستاذ **أحمد حماني** نَويتُ النيابة عَن الوالد، ففعلتُ بِرأيه واستَحسنتُه، وعِندَما وصلنا الحرم الشَّريف وجَدنا الكعبةَ الشَّريفة تحاصرها الشُّرطة ورجال الأمن، وهم يأذنون للمَدعوِّين الذين كان مُعظمهم مَصحوبين بِبِطاقاتٍ خاصَّة هي شبه استِدعاء، فاغتنمتُ مع رُفقاء أعضاء البعثة فرصةَ الفراغ الموجودِ حولَ الكعبة فطُفنا وتمكَّنَّا بغاية السُّهولة أن نقبِّلَ الحجر الأسعَد مِن دون ازدحام، وأَتممنا الأَشواطَ كذلك مِن دون ازدحام، هذا ولو كان الطَّائِفون كثيرين إلا أنه كان هناك حرسٌ يحول بينهم وبين الكعبة، وهذا الفراغ هو الذي اغتنَمناه

(1) أي: ساعة واحدة و45 دقيقة. (ع)

ورأيناه مِن مِنَنِ الله علينا، حيث كان سبقَ لي في حجٍّ سنة 1945م، في عهد الملك المرحوم عبد العزيز آل سعود الحضور في غسل الكعبة صحبة وفود المغرب العربي وإفريقيا، وأنا إذ ذاك مفتي بمسجد بجاية، وكان عدد الحجَّاج في تلك السَّنة بلغ سبعين ألف حاجٍّ، وإن أتيحَ لنا في تلك السَّنة أن نحضرَ غسل الكعبة الذي أَشرف عليه **الملك عبد العزيز**، فلم نحظَ بِتَقبيل الحجر الأَسود كما لم نتمتَّع بالرَّاحة والساعة التي أَنعم الله علينا بها في سنَتنا هذه، وكنت شَخصياً نظراً لحالتي الصِّحيَّة نويتُ أن لا أطوفَ ولا أسعى إلا محمولاً لأتجنَّبَ الازدِحام، كما كنتُ أنوي أن أنتعِلَ خَوفا على بقيَّة الجرح بالرِّجل ـ إثر العمليَّة الجِراحية التي أُجرِيَت لي منذ سنة بمستشفى باريس ـ وذلك أن الكثير من الجهال كانوا يستَتبِعون الخطا عند طوافهم، وكنا عندما تصاف الأقدام نحسُّ بالأَلم ووَخز كأنَّنا وطأت أقدامنا قِطع زجاج، ففي هذه السنة وجَدنا مِن جملة الإِصلاحات تَبليط براح الحرم بالرُّخام الأَملس، والقيِّمين المكلَّفين بالتَّنظيف مُتوافرين دوَّامين على أشغالهم.

وبعد انتهائنا مِن أشواط الطواف اتَّفقنا ورفقائي أعضاء الوفد الرَّسمي الجزائري على مُواصلة السَّعي، وكنتُ كما سبقَت لي الإشارة إلى ذلك أَنوي السَّعي ... [1] سبق لي منذ ستِّ سنوات ـ وهي الحجَّة السَّابقة ـ أن سعَيتُ محمولا، حيث كان وقعَ لي عند امتِطائنا لسيارة حافِلة بعد انتهائنا مِن رَمي الجمَرات في طريقنا إلى مكَّة لطواف الإِفاضة والسَّعي إذ عثرتُ عند الرُّكوب، ولولا الأَلطاف الإِلهية وحضور رفيقي المفتِّش بوزارتنا ببشار لكنتُ أَقَع تحت السيارة، ولداسَت على الأقل رِجلي، فَحينئذٍ سعيتُ محمولا، وفي هذه المرَّة نظرا لسهولة الطَّواف لم نَجِد ازدحاما قويًّا رغم وقت الضُّحى، فعزمتُ على السَّعي ـ رغم ضعفي ـ إذ لم أخش مغبَّةَ الازدحام فسَعيتُ وأتممتُ سعيِي

---

(1) مقدار كلمتَين لم نَهتدِ إلى قراءتها. (ع)

بغاية الرَّاحة، وبعد انتهائنا مِن الطواف والسَّعي قصَدنا مركز البِعثة الجزائرية بمكَّة حيث وجَدنا المشرِف على إدارتِها الأستاذ الطَّاهر (مدير الشؤون الدِّينيَّة) السَّابق بِوزارة الشُّؤون الدِّينية، وكان هذا الأخ ... [1] في سنة 1977 هو الذي رشَّحني كعضو للبعثة الدِّينية والإدارية، كما أخبرهم بأنِّي لم أقدِّم طلباً لذلك، فتلقَّانا بمزيد من التَّرحيب والتَّقدير، وهيَّأ لنا بيتنا التي وجدناها تحسَّنت جدا، وأحسنَ ممَّا كانت عليه رفاهية ونظافة، ومِن بعض الأوتيلات ذات الأنجم الثَّلاثة، ورغم الحرارة القويَّة... [2].

من جدَّة إلى المدينة:

قُمنا مبكرين يوم الخميس، فذهبنا للحرم حيث طُفنا طوافَ الوداع، خرجنا مِن **مكَّة** صباح يوم الخميس 17 ذي الحجة في سيارة كبيرة مِن جنس اللورس صوب **المدينة المنورة**، فبقينا بـ : **جدَّة** حيث خفَّفنا حملنا إذ تركنا جلَّ أمتعتنا بها، وبعد صلاة الظهر فارَقنا **جدَّة**، فسِرنا في طريق متَّسع رملي على شاطئ البحر، وقد رسمت السِّيارات لمسيرها طريقا خاصة، كنا نمرُّ المرة بعد المرة على قوافل الإبل والسيارات والمشاة، وقد يبهر الإنسان قوَّة تأثير الدِّين عندما تقع العين على شيخ جاوَز السَّبعين وهو يسير على قدَميه ليقطع هذه المرحلة حامِلا بعض أمتِعته فوقَ رأسه، وكثيرا ما يستوقف السِّيارة ولا يطلبُ مِن ركَّابها إلا الماء، ومناظر مثل هذِه تتكرَّر في طريق الإنسان سواء في الذَّهاب أو في الرُّجوع.

وصلنا محطَّة رابع فصلَّينا العصر بها واتَّبعنا طريقنا إلى مستورة حيث نزلنا لصلاة المغرب وتناول طعام العشاء، وبقينا بها إلى أن صلَّينا العشاء، فانطلقت سيارتنا ميمِّمة آبار بني حصان حيث كان مَبيتنا.

---

(1) مقدار كلمتَين لم نَهتدِ إلى قراءتها. (ع)

(2) مقدار ستة أسطر لم نتمكَّن من قراءتِها. (ع)

نام أكثرنا في تلك الليلة فوقَ الرِّمال الناعمة، وكان ضوء القمر هو الذي يمد عليها بساطه الوضاء، وحقيقة أن منظر تلك الرمال التي لا نهاية لها وذلك الصمت الرهيب يجد الإنسان فيهما روعة وجلالا، قمنا مبكرين صباح يوم الجمعة ميممين المدينة المنورة، وكان سائق السيارة تعهد لنا بأننا نؤدي صلاة الجمعة بالحرم المدني وكان واثقا بإنجاز وعده إلا أن كثيرا من رفقائنا كانوا يستعجلون الوصول فكان كلما يريد السائق النزول بمحطة ليشرب إبريق الشاي المعتاد والرنقيلة يطيقون به ذرعا ويريدون أن يحولوا بينه وبين عادة ألفها منذ صباه، ولكنه كان لا يلتفت إلى حديثهم.

وكان السير في هذه المرحلة الثانية متعذرا صرنا نسير على طريق رملي تارة وحجري، والمرة بعد المرة ترتطم السيارة بحجارة أو بأخدود من أخاديد الرمال فتحدث حركة لها أثرها في رؤوس الركاب وخصوصا من كانوا في آخر السيارة وكان من حسن الحظ أحد رفقائنا الجزائريين من ركاب المؤخر يتقي أثر هذه الارتطامات (أي ارتطامات الرؤوس بسقف السيارة) بقنوره الصلب فلم يحصل له أدنى أذى أما بقية رفقائه فإنهم سلموا أمرهم لله.

سرنا قليلا فأصبحت المدينة المنورة لنا مرأى العين وهذه القبة الخضراء تظهر لنا في قدسيتها وجلالها وهذه أصوات الراكبين ترتفع بالتكبير والدعاء، نسينا متاعب السفر ومشقة الطريق أي لذة تشعر بها روح الإنسان عندما يقال له هذه قبة مسجد الرسول ﷺ، وهذا جبل أحد وهذا واد العقيق، هذه المحلات المقدسة التي رنت في أذنيه منذ الصبا وطالما تحدث عنها في مجالسته وفي دروسه وتخيلها كما وصفها الكتاب والشعراء.

فمن منا من لم ير مكانة واد العقيق في كتب الأدب العربي ودواوين الشعراء، ومن منا مَن لم ير مكانة جبل أحد في كتب التاريخ الإسلامي، فإن هذه المواضع حافلة بذكريات التاريخ.

دخلنا **المدينة المنورة** مِن باب العنبرية، حيث وجَدنا في انتظارنا كثيرا مِن أَصدقائنا والمزور الشَّيخ **أحمد الرفاعي**، وبعدَ إتمامِ الإجراءات الَّلازمة مع مخفَر الشُّرطة دخلتُ إلى مكتبِ شركة السِّيارات فحيَّانا وكيلُ الشَّركة وأحسنَ استِقبالنا، ثمَّ انصرفنا مع مضيفنا السَّيد **الرِّفاعي**، فدخلنا للمنزل لتجديد التَّطهير، وقصدنا الحرم فدَخلناه مِن باب السَّلام ونحن مأخوذون أمام جلال الرَّوضة المطهَّرة ومَهابة صاحبها، أدَّينا واجب الخضوع والابتهال إلى الله تحية المسجد، ثمَّ أذَّن المؤذِّن فما أذكُر أنَّني سمعتُ أيامَ إقامتِنا في الحجازِ فَضلا عَن غيرها مِن البلدانِ مؤذِّنا أكثر عذوبة ولا أكثر إحساسا بمهمَّتِه من مؤذِّن الحرم المدني، ولما أتمَّ أذانه صعد الإمامُ المنبر ـ وكان قريبا منَّا ـ فألقى خطبةً بليغةً مؤثِّرة، وإن كانت لا تختلف كثيرا عن غيرها مِن الخطب المنبرية المتداولة...[1].

... بقينا معَ جلالة الملك **ابن السعود** نحو الربع ساعة، فظهر لنا من حديثه أن الرجل متسامح واسع الصدر يمثل البساطة والإيمان القوي بأتم معانيهما، مهتم بتوفير راحة الحجاج وأمنهم، وبعد انصرافنا من عند جلالته ودعنا هاشًّا باشًّا، وبعد خروجنا من قصره ذهبنا إلى قصر ولي عهده الأمير **سعود** فقابلنا أيضا بمثل ما قابلنا به جلالة والده، وفي مساء ذلك اليوم كان موعد حفلة العشاء السنوية التي يقيمها صاحب الجلالة لكبار الحجاج من سائر الشعوب في قصره العامر وقدر هؤلاء بنحو 500، كان موعد الاجتماع بعد صلاة المغرب حيث أقلتنا سيارات الحكومة من إدارة المحافظة المحاذية للحرم الشريف، وكان الاجتماع بالبهو الكبير المفروش بالسَّجاجيد القيمة، وعليها كراسي ثمينة.

كما أقيمت على جوانب الجدران مصاطب، وكان المدعوُّون يجلسون حيث ينتهي بهم المجلس، اللهم إلا بعض كبارهم، كبعض الوزراء وأكابر العلماء كانوا يجلسون على

(1) يوجد سقط لا نستطيع تقديره لأنَّ أوراق النُّسخة التي اعتمدناها غير مرقَّمة ولا مرتَّبة. (ع)

المصطبة التي يجلس عليها **الملك**، وبعد بُرهة وجيزة دخل أحد الضباط ونادى بأعلى صوته: جلالة الملك، فقام كلُّ مَن كان في البهو، ودخل جلالته مصحوبا ببعض أنجاله ورجال حاشيته، فأخذ مقعده على المصطبة بين كبار المدعوِّين، وجلس أبناؤه ورجالُ حاشيته حيث انتهى بهم المجلس، وبعد استراحة قليلة قام جلالته متبوعا بمدعويه إلى بهو آخر حيث مدت الموائد على الطريقة الأوروبية، ترأس جلالته مائدة كما ترأس كل من أنجاله أخرى، وكان المدعوون يجلسون حولها كجلوس في البهو أي حيث انتهى بهم المجلس، والمأدبة هذه كما قلنا على الطريقة الأوروبية اللهم إلا أنهم يضعون كل ألوان المأكولات على المائدة تتوسطها بعض الجفان كالجوابي (حقيقة) مملوءة بالأرز عليه خروف مسلوق، وكان الخدم يدورون علينا بالماء المثلج، ولما طعمنا رجعنا إلى البهو حيث أديرت علينا القهوة والشاي.

وجاء دور الخطب فافتتحه الأستاذ **إبراهيم الغزاوي** بقصيدة، ثمَّ أحد الفلسطينيِّين، ثم كان مسك الختام لجلالة الملك وكان موضوع حديثه **قضية فلسطين**.

قضينا يومنا بمكة، زرنا فيه مدرسة دار الأيتام، ومجلس إدارة عين زبيدة، وعدَّة مشاريع خيرية.

ويوم الثلاثاء 8 ذي الحجة خرج الحجيج جميعا إلى منى أو إلى عرفات، فيهم يصعد ماشيا وأكثرهم على الإبل والسيارات.

وبعد تطهرنا وتجرُّدنا من المخيط مرة ثانية، ذهبنا إلى عرفات والحديث على كيفية الوصول بالسيارة ووصف ما يلاقيه السائقون والمسافرون جميعا من اقتحام هذا البحر اللجي الذي تجتمع فيه قوافل الجِمال والسيارات والمشاة بين ذاهبين وآتين، نتركه إلى ذكاء المستمعين الذين يتصوَّرون أن هذا الطريق مرَّ عليه في هذه السَّنة مائتا ألف حاج.

وأول ما لفت نظرنا بعد خروجنا من مكة هو **جبل النور**، حيث يوجد غار حراء

الذي اتَّخذه الرسول ﷺ مقَرا، والذي نزل عليه فيه جبريل بأول الوحي ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق: 1).

وليس من السهل زيارة هذا المقام المقدس، إذ أقيم عليه حرَّاس لم يسمحوا بزيارته إلا لمن له إذن خاص، ولهذا فإننا اكتفينا بتوقيف السيارة وتمتيع النظر.

وصلنا إلى مضارب خيامنا بعرفات فوجدنا سهلا فسيحا من الرمال الناعمة التي لا نهاية لها ضربت فيه آلاف الخيام، اهتدينا بسهولة إلى خيامنا إذ سائق السيارة كان تردد عليها مرات، دخلنا القبة التي أعدت لنا فوجدناها مفروشة بالزرابي الكثيفة، وأنجاله وهم كغالب أهل الحجاز قوم في غاية الرقة والأدب يبذلون كل ما في وسعهم للقيام بخدمة الحجاج وتوفير راحتهم، وبعد قليل من وصولنا تعالت أصوات المؤذنين بآذان المغرب وإذ كل مخيم له مؤذنه الخاص وإمامه بل تتعد الأئمة والمؤذنون في المخيم الواحد وصوت المؤذنين هنا جميل رقيق.

خرجنا بكرة بعد الصبح إلى جبل عرفات ملبين مهللين مكبرين وإذا الألوف من الناس يتجهون حيث نتجه، وقد تجلى هذا الجمع الحاشد في أروع مظاهره فصار الإنسان يشعر بالرهبة تتملك نفسه والنوة تسيطر على روحه.

بعد غروب الشمس أفضنا من عرفات إلى المشعر الحرام حيث جمعنا العشاءين وذكرنا الله، ثم جمعنا الجمار وفارقنا عند ثلث الليل الأخير، فوصلنا منى قبل طلوع الفجر فأوينا إلى محل نزولنا وهو مخيم به ثلاث قبب في فناء دار بها غرفتان، وعندما أشرق الجو ذهبنا إلى جمرة العقبة الكبرى فرجمناها، وكانت السيارة في انتظارنا لنذهب إلى مكة المكرمة نطوف ونسعى، فلما وصلناها ذهبنا إلى منزلنا فتطهرنا وذهبنا صحبة مطوفنا إلى الحرم فكأننا دخلناه لأول مرة إذ وجدنا منظره له جلالا وقدسية ومناظر

مثل هذه ليس في وسع أي إنسان أن يصورها، وبعد الطواف ذهبنا للسعي فوجدنا الناس أمامنا أفواجا أفواجا يسيرون في خطى مطوفيهم يرددون هذه الأدعية في أصوات مرتفعة تشق عنان السماء « اللهم إن هذا الحرم حرمك، والبلد بلدك، والأمن أمنك».

لما أتممنا سعينا حلقنا في المسعى ثم انصرفنا إلى منزلنا فحللنا إحرامنا ورجعنا إلى لبس المخيط من ثيابنا العادية.

ثم رجعنا إلى منى حيث أدينا صلاة الظهر بمسجد الخيف، وكانت الحرارة بلغت أشدها في هذا اليوم، قضينا يومنا في مخيمنا بمنى وكان من حسن الصدف رافقنا في هذا المخيم سعادة وزير تركيا المفوض بجدة إذ كان ضيفا عند صديقنا الحاج حمدي وكيل المفوضة الفرنسية، فكان يقضي معنا جل أوقاته وهو علاوة على ثقافته الأصلية يجيد عدة لغات وخصوصا العربية والفرنسية، وكان جل حديثه معنا بالفرنسية، وكان كذلك يزورنا بمنى كثير من إخواننا المهاجرين الجزائريين وبعض أصدقاء تعرفنا بهم هناك من الحجاج ومن سكان البلد، والتعارف بالناس من جملة منافع الحج.

حضرنا يوم الجمعة بكرة في تشريفة الملك (على تعبير الشرقيِّين) التي تقع بقصره في منى حيث يقابل جلالته كبار المدعوين وكل من يريد مقابلته، وإثر هذه المقابلة يقع استعراض عسكري ثم ينصرف الناس.

رجعنا إلى مكَّة المكرمة مساء يوم السبت بعد إتمام رمي الجمرات وكان قصدنا أن نعجل الزيارة إلى المدينة إلا أنه بلغنا أن الأمطار نزلت بكثرة في المدينة ونواحيها وكانت سببا في انقطاع المواصلات ما بين مكة والمدينة يومين كاملين، بقينا في مكة إذن أربعة أيام أخرى حضرنا خلالها في استعراض عسكري رائع أقامه جلالة الملك في ساحة قصره العامر وعلاوة على مشاركة القوات العسكرية شارك في هذا الاستعراض

الإخوان النجديون بلباسهم الأبيض الفضفاض يرددون أناشيد بدوية جميلة وكان أغلبهم يرقص والسيف في يده وفي مقدمتهم الأمير سعود ولي العهد، كان لهذا الاستعراض أحسن وقع في نفوسنا إذ لم نشاهد مثله أبدا، حظينا أيضا خلال هذه الأيام بدخول البيت العتيق والدخول إليه في موسم الحج ليس بالأمر السهل، فإن للكعبة سادنا من آل الشيبي ولا يمكنه بحال إجابة رغبة عشرات الألوف من الحجاج وعندما يجيب رغبة بعض المحظوظين يختار لهم أوقاتا معينة حتى يمكنهم النجاة من مزاحمة كثرة الطائفين، ذهبنا في الوقت المحدود وكان بعد منتصف الليل فدخلنا بمشقة ولولا إعانة بعض الجنود لما كنا نبلغ رغبتنا، دخلنا إلى الغرفة المقدسة فوجدنا رائحة زكية فاح أريجها وكان السادن مع بعض أنجاله يرشدنا إلى الأمكنة التي نصلي فيها ويلقننا بعض الأدعية، الله أكبر هذا هو البيت الذي جعله الله مثابة للناس وأمنا به مقام إبراهيم يتخذه الناس مصلى وعهد سبحانه إلى إبراهيم وإسماعيل أن يطهراه للطائفين والعاكفين والركع السجود.

وفي مساء يوم الأربعاء، وهي ليلة الوداع، دعينا إلى مأدبة أقامَها الأمير **منصور** (وزير الدفاع)، وكان عدد المدعوِّين لا يتجاوز الخمسين، تجلَّت لنا في هذه المأدبة البساطة والكرم الحاتمي، وكان الخدم يدورون علينا بالشاي والبخور والعطر على العادة المغربية، طال بنا ذلك السَّمر إلى بعد منتصف الليل.

[خواطر]:

إن منظر الصحراء يبعث الذكرى، وصحراء العرب حافلة بذكريات التاريخ، ففي ركن من أركان هذه الصحراء ظهر النبي العربي وانبثق نور الإسلام الأول.

أهل المدينة قوم في غاية الرقة والأدب، حلو استقبالهم وحلو حديثهم، وعذب كلامهم.

ليس في مكة إضاءة في شوارعها والناس يسيرون على هدى مصابيح الدكاكين الخاصة أو ما يحملونه.

ما كانت نفوسنا لتستريح إلى حسن أداء الواجب ثم ما كنا لنشعر بروعة العبادة ورهبة المكان ونحن مأخوذون أمام جلال البيت ومهابة صاحب البيت وقد رأينا الآلاف يعبدون الله كأنما الليل لم يخلق لمكة وحجاجها.

لا يستطيع المرء أن يصوِّر منظر الحرم في جلاله، ولا منظر الكعبة في قدسيتها، والناس من حولها يطوفون، وليس في وسع التصوير أن يؤدِّي شكلا واضحا لهذا المنظر، إذ سينقصه بلا ريب مظاهر المهابة، والسحر الروحي، والرهبة التي يؤخذ الناس بها، وليس في قدرتي أن أوضِّح السبب في هذه الروعة، إذ ليس السبب هو بناية الكعبة وما حولها من الشعائر، إنما السبب هو رابطة القلوب واجتماعها حول الدين الحنيف.

الملك **ابن السعود** متسامح واسع الصدر طيب القلب سليم الصدر، ونحن لا ننكر ما لجلالة الملك ابن السعود من النية الحسنة والإرادة الصادقة في خدمة البلاد الحجازية والغيرة على مصالحها ومستقبلها.

امتاز الحج في عامنا الحالي بكثرة العدد واختلاف الأجناس، وحضور عدد كبير من مفكري الشعوب المختلفة، حتى ليعد في مقدِّمة المواسم الفذَّة التي صادفتها البلاد الحجازية، ويرجع التزاحم على أداء فريضة الحجِّ إلى الاطمئنان المستولي على المسلمين مِن جرَّاء انتشار الأمن الذي يحقُّ أن يعدَّ فريدا في تاريخ البلاد، ولتسهيل حركة النقل بين جدَّة ومكة والمدينة المنورة، وهما مسألتان يذكران بالشُّكر.

لا يفوتنا ذكر الوليمة الفاخرة التي أقامها صاحب الجلالة الملك **ابن السعود** لكبار الحجَّاج مِن سائر الشعوب، فقد كنتَ ترى فيها المسلمين ممثَّلين أكبر تمثيل، فتعارف

المدعوُّون بعضهم بِبعض، وتبادلوا الحديث والأفكار.

يصعد الحجاج إلى جبل عرفات ملبِّين مهلِّلين مكبِّرين، وقد تجلَّى هذا الجمع الحاشد في أروع مظاهره.

بين جدة والمدينة: إذا كان منظر الصحراء في وعورته الهائلة وقفره المروع لا يبعث ذرة من الريب في أن هذه الفيافي المترامية كانت على كر العصور مجازا ومسلكا لجيوش المسلمين المتعاقبة، فإنه على الأقل يقرِّب إلينا تقدير الصِّعاب الفادحة التي كانت تلاقيها تلك الجيوش الجرَّارة في اقتحام هذه الرمال الغادرة بما تنطوي عليه من خطر الهلاك العاجل.

تصوَّر أن الآلاف المؤلَّفة مِن الجند تسير تحت ضوء الشمس المحرقة أسابيع، تحمل الماء والذخيرة والمؤَن، وتصوَّر أنها تقطع هذه الآلاف من الأميال على الأقدام.

ولقد يبهرك تأثير الدين عندما تقع العين على شيخ جاوز السبعين وهو يسير على قدميه ليقطع هذه الأميال حاملا بعض أمتعته فوق رأسه وكثيرا من يستوقفك ولم يطلب إلا الماء.

إن من يخترق الصحراء يسرح البصر في تلك القفار الشَّاسعة التي شهدت طائفة من أعظم الحوادث، وليس ثمة أدعى للخشوع والروعة وأكثر بعثا للذكريات من منظر تلك الرمال التي لا نهاية لها، وذلك الصمت الرهيب الذي يشبه صمتَ الأبدية.

يمر الإنسان على هضاب خفيفة وسهول مجدبة قامت في بعض أنحائها هنا وهناك، قرى مبعثرة تنم عن الفاقة والجهاد الشاق لتحصيل أبسط ضروب القوت.

في مكة سبع مدارس ابتدائية، وفي المدينة المنورة ثلاث، وفي جدة اثنتان، وفي الطائف أربع، وفي نجد ثمان، وفي الأحساء خمس، وفي كل قرية ومدينة خاضعة

للسلطان السعودي شمالا أو جنوبا مدارس تفقّه في الدِّين أو الأدب، كما أن هناك مدرسة أيتام في كلٍّ مِن مكة والمدينة تقارب في تعليمها التعليم الابتدائي، وتزيد عليه بتعليم فنون من الصناعة الوطنية التي تسدُّ فراغا عظيما في حاجيات الأمة .

ثم إن هناك مدرسة الدفاع في الطائف، ومدرسة الشرطة بمكة، وبجانبهما تقوم مدرسة الصحة بتعليم الإسعافات الابتدائية تعليما فنيا، ثم إن هناك مدارس أهلية كمدارس الفلاح بمكة وجدة والصولتية والفخرية، ودار العوم الدينية، ودار الفائزين ومدرسة النجاح الليلية، ومهما حاول الإنسان درس البلاد من الوجهة الجغرافية أو الاجتماعية فلا يستطيع سبيلا خصوصا في مدة وجيزة.

[رسالة مِن الرِّباط (المغرب)][1]

الحمدُ لله، والصَّلاة والسَّلام على رسولِ الله.

(**الرباط**): في ربيع الثاني الموافق لـ: 2 يوليو 1986.

حضرة الأخ المحتَرم، فَضيلة الشَّيخ سيِّدي الحاج **محمَّد بالهاشمي** (حفِظكُم الله ورَعاكم)، وبعد:

فإنِّي أَكتبُ إِليكُم مِن **الرِّباط**، وقَد زُرتُه في طَريقِ ذَهابي إِلى **فاس**، وبعدَ قضاءِ ثَلاثة أَيامٍ بـ: **فاس**، رَجعتُ في طريقِ رجُوعي إِلى **الدَّار البَيضاء**، حيثُ تُقِلُّنا الطَّائرةُ صَباحَ يومِ الجمعة ـ إِن شاء الله ـ

كانت سَفرتُنا ممتِعة لولا مَوجة مِن الحرارةِ أَنسَتنا حَرارةَ **شلف**، إِذ بلغَ الطَّقسُ في شَواطئ **المغرب** (41) درجة طيلةَ أُسبوع، وكانَ حظُّنا مِنها في **فاس** لا يُستَهانُ به، إلَّا أَنَّ المسافِرَ يجِدُ ما يلطِّف هذِه الحرارة، خُصوصًا إِن كان في أَحياءِ المدينةِ القَديمة، حيثُ الأَسواقُ العَتيقة والعطَّارينَ (كذا) وبائِعي (كذا) التُّحَف، فَهناك آداب، وهناك لَطافة امتازَت بها الحضارة الإِسلامية، أمَّا المساجِد الأَثرية ومِياهُها الدَّافِقة الغَزيرة، وحُسنُ أَصواتِ المؤَذِّنين وآداءهم (كذا)، كلُّ ذلك يُنعِشُ ويحبِّب للزَّائر إِطالة الإِقامة، لَولا أَنَّ الإِنسانَ في هذِه العُصور والظُّروف يُردِّد معَ الشَّاعر الشَّهير:

(1) اعتمدنا في إثبات هذه المراسلة على نسخة مصوَّرة مِن مجموع: **تعريف الخلف بمآثر السَّلف**، للأستاذ هاشمي عبد الحفيظ ياسين، وهي رسالة بعث بها الشَّيخ **المهدي** إلى الشَّيخ **محمد بن محمد الهاشمي**. (ع)

فكيـفَ لنـا بالشُّـربِ إن لم تكُـن لنـا   دَراهــمُ عِنــدَ الحــانويِّ ولا نَقــدُ

فإنَّ المُغرياتِ كَثيرة، والذي يَستَرسِلُ مَع هَواه يجِد المثَلَ الأَمريكي يَنطبِق علَيه تَماما، وذلك أنَّ الأَمريكي سئِلَ عن المتوسِّع في المال مِن طَبَقة الموظَّفين، فقال: هو الذي يجِدُ في آخِر الشَّهر ما يَدفعُه للحلَّاق، فإنَّ التُّراثَ هنا وقعَ الاِهتمامُ به، وقَد طُبِعت كتبٌ قيِّمة بعدَ العثُور علَيها وتَصحيحِها، منها (**ترتيب المدارك**)، و(**التمهيد**)، و(**الترجمانة الكبرى**) للزِّياني، وتأليف للفشتالي[1]، والثالث مِن **ابنِ عذارى المراكشي**[2]، وغَيرها، وحتى الكتُب المطبوعة بالمشرق رخيصة، فـ (**تاج العروس**) مثلا **شرح القاموس**، اشتَراه الأَخُ **النُّعيمي** مِن **ليبيا** بما يقرُب مِن (45) ألف فرنك، وهنا يُباعُ بِخَمسةٍ وعِشرينَ أَلف فقَط، وإنَّني كنتُ اشتَريتُ مِن العاصِمة أَخيرا (**الدُّر**[3] **اللَّامع في بيان علماء القرن التاسع**) للسَّخاوي، بـ : (47) فرنك، ووَجدتُه هُنا بِعشرين ... الخ.

الحاصِل بلِّغوا تحيَّاتي المقرونة بأَجمل الذِّكرياتِ للإِخوةِ السَّادة **عبد القادر بن أحمد، وأحمد هني**، و**عبد القادر** المؤذِّن، وجميع الأصدِقاء، خصُوصًا الأَخ الأستاذ **الجيلاني الفارسي**، وبقية الأَصدِقاء، ودُمتُم محَفوظين.

أَخُوكُم المهدي

---

(1) لعلَّه يقصد كتاب: **مناهل الصَّفا في مآثر مَوالينا الشُّرفا**، لأبي فارس عبد العزيز الفشتالي، دراسة وتحقيق الدكتور عبد الكريم كريم، من مطبوعات وزارة الأوقاف والشُّؤون الإسلامية والثقافة بالمغرب. (ع)

(2) لعلَّه يقصد الجزء الثالث مِن كتاب: **البيان المغرب في أَخبار الأندلس و المغرب**. (ع)

(3) كذا، والصَّواب: « الضَّوء اللَّامع ... ». (ع)

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

الرباط في ربيع الثاني الموافق لـ٢ يوليو ١٩٦٨

حضرة الأخ المحترم فضيلة الشيخ سيدي
الحاج محمد بن الهاشمي حفظكم الله ورعاكم
وبعد فإني أكتب إليكم من الرباط وقد زرته في
طريق ذهابي إلى فاس وبعد قضاء ثلاثة أيام بفاس
رجعت إليه في طريق رجوعي إلى الدار البيضاء
حيث تقلنا الطائرة صباح يوم الجمعة إن شاء
الله كانت سفرتنا ممتعة لولا موجة من الحرارة
انتابتنا حرارة شديدة إذ بلغ الطقس في
شواطئ المغرب ٤٠ درجة طيلة أسبوعين وكان
حظنا منها في فاس لا يستهان به إلا أن المسافر
يجد ما يلطف هذه الحرارة خصوصا إن كان من أحياء
المدينة القديمة حيث الأسواق العتيقة والعطارين
وبائعي التحف وهناك آداب وهناك لطافة
امتازت بها الحضارة الإسلامية أما المساجد

صورة عن الصَّفحة الأولى مِن النُّسخة المعتمدة

فهرس الموضوعات